

٢٥ مظهرًا

من مظاهر الغلو في الصالحين

تأليف راجي رحمة ربه الغفور

ماجد بن سليمان الرسي

شوال، ١٤٤٧هـ

طبعة جديدة، منقحة ومزودة

الجزء الثاني

المظهر الثامن عشر: النذر لأصحاب القبور

❁ تأصيل: النذر عبادة، وصرفه لغير الله شرك

❁ أقسام النذر

❁ النذر لغير الله من المسائل التي أجمع علماء المسلمين على

تحريمها



تأصيل: النذر عبادة، وصرفه لغير الله شرك

النذر عبادة من العبادات، لأن الله تعالى مدح المؤمنين به، والله لا يمدح إلا على فعل عبادة، ولا يمدح على فعل المباح المجرد.

قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله تعالى في التعليق على قول الله تعالى ﴿يُؤْفُونَ بِالَّذِينَ لِيَاثِمُوا قَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٧] «إن الله تعالى أثنى عليهم^(١) بذلك^(٢)، وجعله من الأسباب التي بها يدخلون الجنة، ولا يكون سببًا يدخلون به الجنة إلا وهو عبادة، فيقتضي أن صرفه لغير الله شرك»^(٣).

قال مُقَيِّدُهُ عفا الله عنه: ومن مظاهر تعظيم الموتى النذر لهم، كمن يأتي إلى قبر رجل صالح ويُقدم له شيئًا من النذور من مال أو طعام، ويطلب منه حاجته من شفاء مريض أو كشف كربة ونحو ذلك.

ولا شك أن هذا شرك أكبر مُخرج من ملة الإسلام، لأن النذر عبادة، والعبادات لا يجوز صرفُ شيء منها لغير الله مطلقًا.



(١) أي: المؤمنين.

(٢) أي: بوفائهم لنذورهم.

(٣) «القول المفيد» (١/ ٣١٧).

أقسام النذر

ينقسم النذر إلى نوعين شرعي وشركي، فأما الشرعي فينقسم إلى نوعين: نذر جائز، ونذر مكروه، فأما النذر الشرعي فهو النذر لفعل طاعة بدون تعليق على حصول منفعة دنيوية، كقول: نذرت لله أن أتصدق بمائة ريال، فهذا نذر شرعي جائز، والوفاء به واجب، ويؤجر الناذر على الوفاء به كما تقدم.

والنوع الثاني هو النذر المكروه، وصفته أن ينذر الناذر أن يفعل طاعة من الطاعات إذا تحققت له مصلحة دنيوية معينة، كأن يقول: إذا شفى الله مريضاً تصدّقت بمائة ريال.

وعلة الكراهة في هذا النذر هو تعليق الطاعة بمصلحة دنيوية، إن تحققت فعَل الطاعة، وإن لم تتحقق لم يفعلها، فهذا النذر - وإن كان جائزاً - فإنه مكروه، لحديث ابن عمر رضي الله عنهما: نهى النبي ﷺ عن النذر، قال: «إِنَّهُ لَا يَرُدُّ شَيْئًا، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ» (١).

أَي لَا يَرُدُّ شَيْئًا مِنْ قِضَاءِ اللَّهِ.

وأما النذر الشركي فهو النذر لغير الله، وقد تقدم الكلام عليه.

(١) رواه البخاري (٦٦٠٨) ومسلم (١٦٣٩).

ومن أدلة تحريم النذر لغير الله تعالى قوله ﷺ: «لا نذرَ إلا فيما يُبتغى به وجه الله» (١).

قال الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي رحمه الله في كتابه «شفاء الصدور في زيارة المشاهد والقبور»:

«هذا وقد صار الناذرون يقول أحدهم: مرّضت فنذرت، ويقول الآخر: ركبت البحر فنذرت، ويقول الآخر: حُبست فنذرت، ويقول الآخر: أصابتنني فاقة فنذرت، وقد قام بنفوسهم أن هذه النذور هي السبب في حصول مَطْلوبهم ودفع مَرْهُوبهم، وقد أخبر الصادق المصدوق أن نذر الطاعة لله -فضلاً عن معصيته- ليس سبباً لخير، وإنما الخير الذي يحصل للناذر موافقة قدرٍ كموافقة سائر الأسباب، ثم تجد كثيراً من الناس يقولون: القبر الفلاني أو المكان الفلاني أو المشهد الفلاني يقبل النذر، بمعنى أنهم نذروا له نذرًا إن قُضيت حاجتهم، فقُضيت، فيغتروا بذلك» (٢).



(١) رواه أبو داود (٣٢٧٣) وأحمد (١٨٥ / ٢) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وحسنه الشيخ الألباني كما في «صحيح أبي داود»، وكذا محققو «المسند».

(٢) ص (٦٩ - ٧٠)، باختصار، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة.

النذر لغير الله

من المسائل التي أجمع علماء المسلمين على تحريمها

❦ كلام الأصناف

النذر لغير الله من المسائل التي أجمع علماء المسلمين على تحريمها، قال الشيخ قاسم^(١) في «شرح الدرر»^(٢): «النذر الذي ينذره أكثر العوام، فيأتي بعض قبور الصلحاء فيقول: يا سيدي؛ إن رُدَّ غائبي، أو عُوفي مريضِي، أو قُضيت حاجتي؛ فَلَكَ من الذهب كذا، ومن الطعام كذا، ومن الشمع كذا؛ فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه:

منها أنه نذر لمخلوق، والنذر لمخلوق لا يجوز.

ومنها، أنه ظنُّ أن الميت يتصرف في الأمور دون الله تعالى، واعتقاد ذلك كفر». انتهى.

وزاد الحصفكي^(٣): «وقد ابتلي الناس بذلك ولا سيَّما في هذه الأعصار».

(١) هو الإمام قاسم بن قطلوبغا، صاحب كتاب «تاج التراجم»، توفي عام ٨٧٩.

(٢) أي: «درر البحار» لشمس الدين القونوي، المتوفى عام ٧٨٨.

(٣) هو الشيخ محمد بن علي بن محمد الحصني، الدمشقي، المعروف بالحصفكي، فقيه محدث

مفسر نحوي أصولي، له عدة مؤلفات منها: «الدر المختار» في فروع الفقه الحنفي، توفي رحمته الله

سنة ١٠٨٨. انظر ترجمته في «هداية العارفين» و«معجم المؤلفين».

وزاد ابن عابدين: «ولا سيمًا في مولد السيد أحمد البدوي»^(١).

فصرح بأن هذا النذر كفرٌ يكفر به المسلم.

❖ كلام المالكية

وقال الإمام أبو بكر الطرطوشي^(٢) المالكي رَحِمَهُ اللهُ في «كتاب الحوادث والبدع»:

«فانظروا -رحمكم الله- أينما وجدتم سِدرة أو شجرة يقصدها الناس، وَيُعَظِّمُونَ من شأنها، وَيَرْجُونَ الْبُرءَ وَالشَّفاءَ من قِبَلِها، وَيَنُوطُونَ بها المسامير والخِرَقَ، فهي «ذات أنواط»، فاقطعوها»^(٣).

قال جلال الدين السيوطي بعدما نقل كلام الطرطوشي:

«وهذا أمر منكر قبيح، فإن هذا يُشبه عبادة الأوثان، وهو ذريعة إليها، أو نوع من

(١) تنبيه: يسر الله نقل كلام الحصفكي وابن عابدين رَحِمَهُ اللهُ من الكتاب النفيس «جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية» للدكتور شمس الدين الأفغاني رَحِمَهُ اللهُ (ص ١٥٥٠ - ١٥٥١)، وقد نقل كلامهم من كتب الأحناف الفقهية التالية:

١- «البحر الرائق» لابن نجيم (٢/ ٢٩٨)، الناشر: دار الكتب العربية بمصر.

٢- «الدر المختار» للحصفكي مع «رد المحتار» لابن عابدين (٢/ ٤٣٩ - ٤٤٠).

٣- «الفتاوى الديوبندية» (١٢/ ٩٩).

(٢) هو محمد بن الوليد الأندلسي الطرطوشي، شيخ المالكية، له كتاب مشهور في التحذير من البدع وهو «كتاب الحوادث والبدع»، توفي رَحِمَهُ اللهُ سنة ٥٢٠. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٤٩٠).

(٣) ص (٣٩)، تحقيق: علي بن حسن بن عبد الحميد، الناشر: دار ابن الجوزي - الدمام.

عبادة الأوثان، إذ عبّاد الأوثان كانوا يقصدون البقعة بعينها لتمثال هناك أو غير تمثال، يرجون الخير بقصدها، ولم تستحب الشريعة ذلك، فهو من المنكرات، وبعضه أشد من بعض، وسواء قصدها ليصلي عندها أو ليدعو أو ليقراً أو ليذكر الله أو ليذبح عندها ذبيحة أو يخصصها بنوع من العبادة.

وأقبح من ذلك أن ينذر لتلك البقعة دهناً لتنويرها أو شمعاً، ويقول: إنها تقبل النذور، كما يقول بعض الضالّين.

أو ينذر ذلك لقبر، أي قبر كان، فإن هذا نذرٌ معصية باتفاق العلماء، لا يجوز الوفاء به، بل عليه كفارة يمين عند كثير من العلماء، منهم أحمد وغيره.

وكذلك إذا نذر خبزاً أو غيره للحيتان التي في عين أو بئر، وكذلك إذا نذر مالاً، دراهم أو ذهباً أو غنماً أو بقراً أو جملاً أو معزاً للمجاورين عند القبور، أو عند هذه الأماكن المندور لها، ويسمّون «السدنة»، فهذا أيضاً نذر معصية، وفيه شبهة من النذر لسدنة الأصنام»^(١).

وقال أيضاً: «وقد يُحكى عندها»^(٢) من الحكايات التي فيها تأثير، مثل أن رجلاً دعا عندها فاستجيب له، أو نذر لها فقضيت حاجته، أو نحو ذلك، وبمثل هذه الأمور كانت تُعبد الأصنام، وبمثل هذه الشبهات حدث الشرك في الأرض»^(٣).

(١) «الأمر بالاتباع والنهي عن الاتباع» (ص ١١٧-١١٨).

(٢) أي: عند القبور.

(٣) ص (١٢٤).



كلام الشافعية

قال الأذرعي^(١) الشافعي رحمته الله في كتابه «قوت المحتاج شرح المنهاج»:

«وأما النذر للمشاهد التي على قبر ولي أو شيخ، أو على اسم من حلّها من الأولياء، أو تردّد في تلك البقعة من الأولياء والصالحين؛ فإن قصّد الناذر بذلك تعظيم البقعة أو المشهد أو الزاوية، أو تعظيم من دُفن بها أو نُسبت إليه أو بُنيت على اسمه؛ فهذا النذر باطل غير منعقد، فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات، ويرون أنها مما يُدفع بها البلاء، ويُستجلب بها النعماء، ويُستشفى بالنذر لها من الأدواء، حتّى إنهم لينذرون لبعض الأحجار لما قيل إنه استند إليها عبد صالح، وينذرون لبعض القبور السُّرُج والشمع والزيت، ويقولون: القبر الفلاني أو المكان الفلاني يقبل النذر، يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض، أو قدوم غائب، أو سلامة مال، وغير ذلك من أنواع نُذر المجازاة، فهذا النذر على هذا الوجه باطل لا شك فيه، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقًا، ومن ذلك نذر الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل عليه السلام ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء، فإن الناذر لا يقصد بذلك إلا الإيقاد على القبر تبرّكًا وتعظيمًا ظانًّا أن ذلك قربة، فهذا مما لا ريب في بطلانه، والإيقاد المذكور محرم، سواء انتفع به منتفع أم لا»^(٢).

(١) هو أحمد بن حمدان الأذرعي، أبو العباس، فقيه شافعي، توفي سنة ٧٨٣، انظر ترجمته في «طبقات الشافعية» لابن قاضي شُهبة، و«الدرر الكامنة» لابن حجر رحمته الله.

(٢) استفتت هذا النقل عن الأذرعي من كتاب «قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء

وقال جلال الدين السيوطي الشافعي رحمه الله في كتاب «الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع»:

ومن البدع أيضًا ما قد عمَّ الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعُمد^(١) بالزعران، وإسراج مواضع مخصوصة في كل بلد بمنام لُبس عليهم^(٢)، فيفعلون ذلك ويظنون أنهم يتقربون بذلك، ثم يتجاوزون في ذلك إلى تعظيم تلك الأماكن في قلوبهم، فيُعظمونها ويرجون الشفاء وقضاء الحوائج بالنذر لها، وتلك الأماكن من بين عيون وشجر وحائط وطاقة وعمود، وما أشبه ذلك بـ«ذات أنواط»^{(٣)(٤)}.

❦ كلام الصنابلة

قال ابن تيمية رحمه الله: «ولهذا لا يُشرع باتفاق المسلمين أن ينذر للمشاهد التي على القبور، لا زيت ولا شمع ولا دراهم ولا غير ذلك»^(٥).

=

والمرسلين» للشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، بتحقيق: الشيخ د. الوليد بن عبد الرحمن آل فريان حفظه الله، الناشر: دار عالم الفوائد - مكة.

(١) أي: الأعمدة.

(٢) أي: لُبس عليهم عن طريق رؤيا منامية أن فيه بركة.

(٣) أي: ما أشبه تلك الأماكن بـ«ذات أنواط»، وهي الشجرة التي كان المشركون يتبركون بها، والأنواط هي الأغصان.

(٤) ص (١١٥)، باختصار.

(٥) «مجموع الفتاوى» (٣١٩/٢٤).

مسألة: فإن سأل سائل فقال: ما حكم الوفاء بالنذر الذي نذر لغير الله؟

الجواب أنه يحرم عليه الوفاء به، لقوله ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يَطِيعَ اللَّهَ فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» (١).

أقول: والنذر لغير الله واقع الآن في بلاد المسلمين، قال الشاعر حافظ إبراهيم (٢) رحمه الله مخاطبًا شيخ الأزهر في زمانه، واصفًا حال الذين يندرون الأموال العظيمة لأصحاب القبور في زمانه:

أحيأؤنا لا يُرزقون بدرهم	وبألف ألف تُرزق الأموات
مَن لي بحظّ النائمين بحفرة	قامت على أحجارها الصَّلوات
يسعى الأنام لها ويجري حولها	بحرُ النُّذور وتُقرأ الآيات

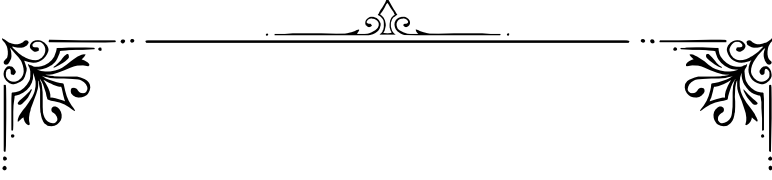
ويقال:

هذا القطب باب المصطفى ووسيلة تقضى بها الحاجات

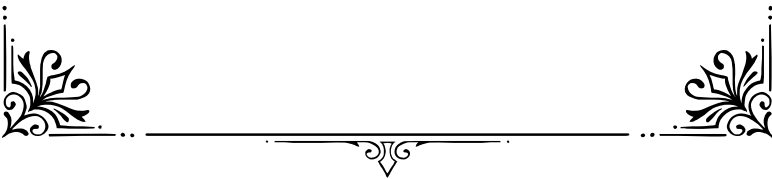


(١) رواه البخاري (٦٧٠٠) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) هو محمد حافظ إبراهيم، شاعر مصر القومي، ومُدوّن أحداثها نيّفاً وربع قرن، له ديوان شعر، توفي عام ١٣٥١، انظر ترجمته في «الأعلام» للزركلي.



المظهر التاسع عشر:
اتخاذ الله واسطة بين المخلوق والمخلوق



ومن مظاهر تعظيم البشر جعل الله واسطة بين الخلق والخلق، كقول القائل لشخص آخر: (إني استشفع بالله إليك)، فهذا أقبح من اتخاذ المخلوق واسطة بين المخلوق وبين الله، لأن الصورة الأولى تقتضي جعل الله في مرتبة بين المخلوق والمخلوق، وأما الصورة الثانية فتقتضي مساواته به، وكلاهما قبيح، ولكن الصورة الأولى أقبح.

وقد ورد في هذا الباب حديثٌ ضعّفه بعض أهل العلم وصحّحه بعضهم، وعلى كل حال فمعناه صحيح قطعاً، وهو حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «أتى رسول الله ﷺ أعرابيٌّ فقال يا رسول الله: جَهِدْتُ الأنفُسَ ^(١) وضاعت العيالُ، ونَهَكَتْ الأموالُ، وهلكت الأنعامُ، فاستسقِ الله لنا، فَإِنَّا نَسْتَشْفَعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ، ونَسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ.

قال رسول الله ﷺ: «ويحك، أتدري ما تقول؟».

وسَبَّحَ رسولُ الله ﷺ، فما زال يُسَبِّحُ حتّى عُرِفَ ذلك في وجوه أصحابه ^(٢)، ثم قال: «ويحك، إنه لا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، ويحك، أتدري ما الله؟...» إلخ ^(٣).

(١) جَهِدْتُ الأنفُسَ، أي: بلغها الجَهد، وهو المشقة. انظر «النهاية».

(٢) النبي ﷺ سَبَّحَ تنزيهاً لله عما وصفه به الأعرابي من صفة النقص، وهي اتخاذ الله شافعاً بينه وبين النبي ﷺ.

(٣) رواه أبو داود (٤٧٢٦).

قال ابن تيمية رحمته الله في «بيان تلبس الجهمية»:

وقوله في الحديث: «إنَّ الله لا يُستشفع به على أحد من خلقه»، أي الله هو الذي يفعل، لا يشفع إلى غيره في أن يفعل، وهذا كما يقوله الشعراء مخاطبًا للنبي ﷺ:

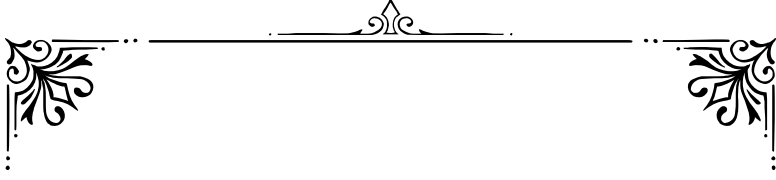
شفيعي إليك الله لا شيء غيره ^(١)

وهذا الحديث قد يطعن فيه بعض المشتغلين بالحديث انتصارًا للجهمية وإن كان لا يفقه حقيقة قولهم وما فيه من التعطيل، مع أن هذا الحديث وأمثاله وفيما يشبهه في اللفظ والمعنى لم يزل متداولًا بين أهل العلم خالفًا عن سالف، ولم يزل سلف الأمة وأئمتها يروون ذلك رواية مصدِّق به، رادِّ به على مَنْ خالفه من الجهمية، متلقين لذلك بالقبول، حتى قد رواه الإمام أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة في كتابه في «التوحيد» الذي اشترط فيه أنه لا يحتاج فيه إلا بأحاديث الثقات المتصلة الإسناد، رواه عن بُندار، كما رواه الدارمي وأبو داود سواء ^(٢). انتهى الغرض منه.

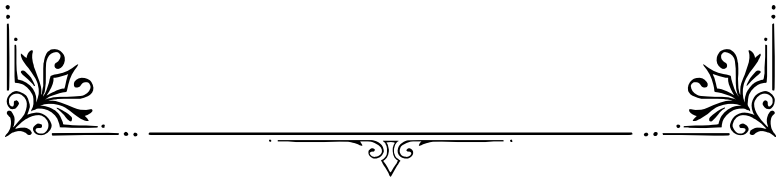


(١) تمام البيت: (وليس إلى ردِّ الشفيع سبيل)، كما في «قاعدة جليلة» (ص ٢٤٨).

(٢) (١/٥٦٩ - ٥٧٠).



المظهر العشرون:
خوف السر من أصحاب القبور



ومن مظاهر الغلو في أصحاب القبور تعظيمهم إلى حدّ الخوف من بطشهم وعقابهم، فقد بلغ الأمر ببعض المنتسبين للإسلام أن يخافوا من أصحاب الأضرحة كخوفهم من الله تعالى، ومن ذلك قول بعضهم إذا مرّ بجانب قبر (ولي): (استر)، فهو يطلب الستر من غير الله، وهذا الخوف يعتبر شرًّا أكبر، لأن الخوف خوفان:

خوف طبيعي، وهو الخوف من الأشياء الحسية الطبيعية، كالخوف من الأسد، ومن عدو كاسر كلصّ ونحوه، وهذا الخوف ليس بمذموم، لأنه من طبيعة البشر التي جَبَلَهُم الله عليها.

النوع الثاني هو خوف السر، وهو اعتقاد مخلوق أن لمخلوق مشيئةً وعِلْمًا وتدييرًا خفيًّا يُضاهي مشيئة الله وعلمه وتدييره، فيخشاه كما يخشى الله، فيخشى أن يصيبه بمرض أو فقر ونحو ذلك، فهذا النوع من الخوف يسمى خوف السر، ومن وقع فيه فقد أشرك، لأن خوف السر عبادة لا يجوز صرفه إلا إلى الله وحده، فمن صرفه لغير الله فقد أشرك، قال تعالى (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين).

والحق أن تدبير هذا الكون وتقدير ما فيه بيد الله وحده لا شريك له، ليس للعباد فيه تدبير أو تقدير أو مشيئة إلا ما مكّنهم الله منه، فمن خاف من غير الله أن يُصيبه أو أولاده بمرض أو بموت ونحوه فقد صرف له حقًّا من حقوق الله، وجعل هذه العبادة القلبية الجليلة شركة بين الله وبين خلقه.

ومع الأسف الشديد، فقد جُعِلَتْ بعض الأضرحة الوثنية حرماً آمناً يُهرع إليها المجرمون والفارون، ويلجأ إليها الخائفون، ليأمنوا في رحابها، ويستريحوا في ظلالها، ولم يكن ليجرؤ أحد من الحكام في ذلك الزمن أن ينتهك حرمة ضريح لاذ به مجرم،

أو عاذ به فأرَّ فيُلقي عليه القبض، **مهما كان جرمه، ومهما بلغت جنايته**، وكثيرًا ما عُفي عن اللاتذنين بالأضرحة من المجرمين إكرامًا للمدفونين، أو خشية ورهبة من انتقامهم وبأسهم ^(١).

وقبل دهرٍ مضى في بلاد الحجاز، عسى ألا يعود، لم يكن الأمر بأقل سوءًا من هذا، ففي مكة كانت الاستغاثات والأدعية تعلو عند قبر (أبي طالب) وقبر (المحجوب)، وكان تعظيم هذين القبرين يفوق تعظيم الكعبة عند كثير من الجهَّال، حتى إن السارق أو المعتدي أو الغاصب إذا لجأ إلى أحد هذين القبرين لم يتعرض له أحد بما يكره، أما إن تعلق بالكعبة فإنه يُسحب منها بالأذيال ^(٢).

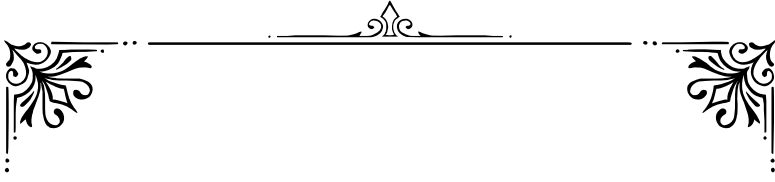
وقد ذكر ابنُ تيمية أن طائفة من أصحاب الكبائر كانوا إذا رأوا قبة الميت أو الهلال الذي على رأس القبة خشي من فعل الفواحش، ويقول أحدهم لصاحبه: (ويحك هذا هلال القبة)، فيخشون المدفون تحت الهلال، ولا يخشون الذي خلق السماوات والأرض، وجعل أهلة السماء مواقيت للناس والحج ^(٣).



(١) انظر «الانحرافات العقيدية والعلمية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر» لبخيت الزهراني ص (٣٣٩).

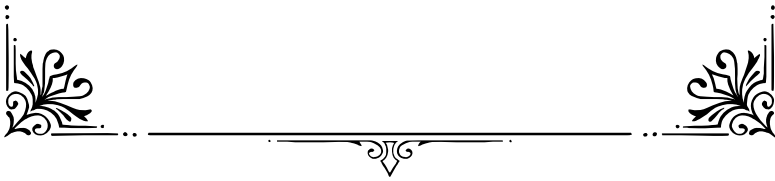
(٢) بتصرف يسير من مقال «سيف السياسة بين نصره الحق ومظاهرة الباطل»، لعبد العزيز مصطفى، نقلًا من «دمعة على التوحيد» (ص ١٩٨ - ١٩٩).

(٣) انظر «الاستغاثة في الرد على البكري» (٢/ ٤٦٩).



المظهر الحادي والعشرين:
تصوير الصالحين على هيئة تماثيل

❁ أدلة النهي عن تصوير ذوات الأرواح على هيئة تماثيل



من مظاهر تعظيم الموتى تصويرهم على هيئة تماثيل، وهذا منهي عنه لعلتين:

الأولى: أن التصوير مضاهاة ومشابهة لخلق الله.

الثاني: أنه وسيلة إلى عبادة من جعلت الصورة على هيئته، فقد كان المشركون يعبدون صورهم، بقصد تذکر أصحابها وسيرهم، كما حصل من قوم نوح ﷺ لما صنعوا التماثيل، ثم عبدها من جاء بعدهم.

ففي «صحيح البخاري» عن ابن عباس ؓ في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] قال: «أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا^(١) أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً^(٢)، وسمّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبَد، حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخَ العلمُ^(٣) عُبدتْ»^(٤).

وروى ابن جرير بإسناده إلى الثوري عن موسى عن محمد بن قيس أنه قال عن يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرَ: «كانوا قومًا صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صَوَّرْنَاهم كان أشوق لنا إلى

(١) أي: ماتوا.

(٢) أي: اصنعوا أنصابًا، وهي تماثيل تُصنع على هيئتهم، ثم تنصب في المجالس، ليراها الناس، فيقتدوا بهم في أفعالهم! وهكذا دخل عليهم الشيطان.

(٣) أي: تحوّل من حال إلى حال. انظر «النهاية».

قال مقبيده: وسبب التحول والتحريف هو عدم الحفظ.

(٤) تقدم تخريجه.

العبادة إذا ذكرناهم، فصَوَّروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسَقون المطر، فعَبَدوهم»^(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «قال غيرُ واحد من السلف: كان هؤلاء قومًا صالحين في قوم نوح ﷺ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صَوَّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمدُ فعَبَدوهم»^(٢).

وبعد نشوء الشرك وعبادة الأصنام في قوم نوح تتابع الناس على ذلك وانتشر بينهم كما قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ، أَمَّا وَدٌّ فكانت لكلب بدومة الجندل»^(٣)، وأما سُواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمُراد ثم لبني عُطيف بالجُرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نَسْر فكانت لحِمْير، لآل ذي الكَلَع»^(٤).

وقال قتادة: «كانت هذه الآلهة يعبدها قوم نوح، ثم اتخذها العرب بعد ذلك»^(٥).

وبناء على ما تقدم من الحقائق التاريخية، فقد قرر ابن القيم في «زاد المعاد» أنَّ غالب شرك الأمم كان من جهة الصور والقبور»^(٦).

(١) «تفسير ابن جرير»، سورة نوح: (٢٤).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٣٣٢).

(٣) موضع في شمال جزيرة العرب.

(٤) هذه تنمة حديث ابن عباس السابق الذي رواه البخاري.

(٥) «تفسير ابن جرير»، تفسير سورة نوح: (٢٤)، (١٢/ ٢٥٤).

(٦) «زاد المعاد» (٣/ ٤٥٨).

قال رسول الله ﷺ: «ومن ههنا اتخذ أصحاب الروحانيات والكواكب أصنامًا زعموا أنها على صورها، فَوَضَعُ الصنم إنما كان في الأصل على شكل معبود غائب، فجعلوا الصنم على شكله وهيئته وصورته ليكون نائبًا منابه وقائمًا مقامه، وإلا فمن المعلوم أن عاقلًا لا ينحت خشبة أو حجرًا بيده ثم يعتقد أنه إلهه ومعبوده» (١).

وقال ابن تيمية رحمه الله: «فلما ظهر دينُ المسيح ﷺ بعد أرسطو بنحو ثلاثمائة سنة في بلاد الروم واليونان؛ كانوا على التوحيد، إلى أن ظهرت فيهم البدع، فَصَوَّرُوا الصور المرقومة (٢) في الحيطان، وجعلوا هذه الصور عوضًا عن تلك الصور. وكان من أعظم أسباب عبادة الأصنام تصوير الصور وتعظيم القبور» (٣).

قال مُقْبِدُهُ: إِنَّ طبيعة الإنسان الوثني ميَّالة إلى تجسيد الآلهة وتصوير المُعْظَمِينَ الميتين في صور محسوسة، ولهذا جاء في النهي عن اتخاذ الصور عدة أحاديث منها:

حديث عائشة رضي الله عنها: أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَكُمْ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ، أَوَّلُكُمْ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٤).

(١) «إغاثة اللفهان» (٩٧٥).

(٢) مرقومة أي: منقوشة. انظر «النهاية».

(٣) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (١/٣٤٦)، باختصار.

(٤) تقدم تخريجه.

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «هذا الحديث يدل على تحريم بناء المساجد على قبور الصالحين وتصوير صورهم فيها كما يفعل النصارى، ولا ريب أن كل واحد منهما محرّم على انفراده، فتصوير صور الآدميين محرم، وبناء المساجد على القبور بانفراده محرم كما دلت عليه نصوص أخر»^(١).

وليتأمل القارئ الكريم وصف النبي ﷺ للمتخذين التماثيل والقبور بأنهم شرار الخلق عند الله يوم القيامة.

وعن أبي الهيثاج الأسدي قال: «قال لي علي بن أبي طالب ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع تماثلاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»^(٢).

ولفظ النسائي: «ولا صورة في بيت إلا طمستها».

والطمس: هو المحو بقطع الرأس، أو تحطيم الصورة بالكلية.

وعن سعيد بن أبي الحسن قال: «جاء رجل إلى ابن عباس فقال: إني رجل أصوّر هذه الصور فأفتني فيها، فقال له: اذن مني، فدنا منه ثم قال: اذن مني، فدنا حتى وضع يده على رأسه قال: أنبئك بما سمعت من رسول الله ﷺ؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مصوّر في النار، يُجعل له بكل صورة صوّرَها نفساً فتُعذّبه في جهنم».

(١) «فتح الباري» لابن رجب، شرح حديث رقم (٤٢٧).

(٢) تقدم تخريجه.

وقال: إن كنت لابد فاعلاً فاصنع الشجر وما لا نفس له» (١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه **قال:** قال رسول الله ﷺ: «تخرج عنق من النار يوم القيامة، لها عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق، يقول: إني وُكِلْتُ بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين» (٢).

قال مُقَيَّدُه عفا الله عنه: ومما يدل على قبح اتخاذ التماثيل أن الرسول ﷺ لما دخل مكة فاتحاً أمر بتطهير البيت الحرام من الأصنام المصورة، وشارك بيده الشريفة في تكسيرها، وكان عددها ستين وثلاثمائة، فعُلم من هذا أن ما كان وسيلة لهدم التوحيد في النفوس فحقه الهدم ابتداءً، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح، وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصَب (٣)، فجعل يطعن بها بعود في يده ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]» (٤).

قال القرطبي رحمته الله في تفسير هذه الآية ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْبَاطِلُ﴾ «في هذه الآية دليل على كسر نُصَبِ المشركين وجميع الأوثان إذا غلب عليهم» (٥)، ويدخل

(١) رواه البخاري (٢٢٢٥)، ومسلم (٢١١٠) واللفظ له.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) قال القرطبي رحمته الله: «قال علماؤنا: إنما كانت هذا العدد، لأنهم كانوا يُعظمون في كل يوم صنماً، ويخصون أعظمها بيومين». انظر «الجامع لأحكام القرآن»، تفسير سورة الإسراء: (٨١).

(٤) رواه البخاري (٤٢٨٠)، ومسلم (١٧٨١).

(٥) أي: إذا تغلب عليهم الإمام.

بالمعنى كسر آلة الباطل كله وما لا يصلح إلا لمعصية الله، كالطناير والعِيدان والمزامير التي لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله تعالى». انتهى.

وكان بداخل الكعبة صور لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وهم يستقسمون بالأزلام^(١)، فطُخت بالزعفران، ولم يدخل الكعبة إلا بعد إخراجها منها، وقال: «قاتلهم الله، ما كان إبراهيم يستقسم بالأزلام»^(٢).

وفي رواية للبخاري: «هذا إبراهيم مُصَوَّر، فما له يستقسم؟»^(٣).

وروى الإمام أحمد^(٤) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كان في الكعبة صور، فأمر النبي ﷺ عمر بن الخطاب أن يمحوها، فبلَّ عمر ثوبًا ومحاها به، فدخلها رسول الله ﷺ وما فيها منها شيء».

ولم يكتف النبي ﷺ بتطهير الكعبة من الأصنام، فأرسل في نفس الشهر بعد

(١) قال ابن جرير رحمته الله موضحاً معنى قوله تعالى ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ في مطلع سورة المائدة: «وأن تطلبوا علم ما قُسم لكم أو لم يُقسم بالأزلام، وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا أراد سفرًا أو غزوًا أو نحو ذلك أجال القِدَاحَ (أي: أدارها)، وهي الأزلام، وكانت قداحًا مكتوبًا على بعضها: «نهاني ربِّي»، وعلى بعضها: «أمرني ربِّي»، فإن خرج القدح الذي هو مكتوب عليه: «أمرني ربِّي» - مضى لما أراد من سفر أو غزو أو تزويج وغير ذلك، وإن خرج الذي عليه مكتوب: «نهاني ربِّي» - كفَّ عن المضي لذلك وأمسك، فقيل: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾، لأنهم بفعلهم ذلك كانوا كأنهم يسألون أزلامهم أن يقرروا لهم». انتهى باختصار.

(٢) رواه البخاري (٤٢٨٨) عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٣٣٥١).

(٤) (٣/٣٩٦)، وقال محققوه: «حديث صحيح، وهذا إسناد حسن».

فتح مكة مباشرة ببعوثًا إلى مناطق مختلفة لهدم ما بها من أصنام، فأرسل خالد بن الوليد في ثلاثين رجلًا إلى «بطن نخلة» من ديار ثقيف لهدم «العزى»^(١)، وأرسل بعثًا لهدم صنم «مناة»، وأرسل بعثًا لهدم صنم «اللات»، وهذه الأصنام الثلاثة هي الأصنام المعظمة عند العرب، والتي أشار الله إليها بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَمَنْوَةَ الثَّلَاثَةِ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٩-٢٠].

ولما قَدِمَ عمر الشام صنع له رجلٌ من عظماء النصارى طعامًا ودعاه، فقال عمر: إِنَّا لَا نَدْخُلُ كَنَائِسَكُمْ مِنَ الصُّورِ الَّتِي فِيهَا، يَعْنِي التَّمَاثِيلَ^(٢). وكان ابن عباس رضي الله عنه يُصَلِّي فِي الْبَيْعَةِ، إِلَّا بَيْعَةً فِيهَا تَمَاثِيلُ^(٣). والبيعة: هي معبد النصارى.

فالحاصل أن اتخاذ التماثيل على شكل الأدميين محرم في دين الإسلام، لما تَقَرَّرَ أن غالب شرك الأمم كان من جهة الصور والقبور، والله أعلم.



(١) رواه النسائي في «الكبرى» (١١٤٨٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب (الصلاة)، باب (الصلاة في البيعة)، تعليقًا، ووصله عبد الرزاق في «المصنف» (١٦١٠، ١٦١١).

(٣) رواه البخاري في كتاب (الصلاة)، باب (الصلاة في البيعة)، تعليقًا، ووصله عبد الرزاق في «المصنف» (١٦٠٨).

المظهر الثاني والعشرين: التبرك بقبور الصالحين

❁ مقدمة تأصيلية

❁ فصلٌ في بيان أقسام التبرك المشروع والتبرك الممنوع

❁ ذكرُ شيءٍ من مظاهر التبرك الممنوع

❁ فصلٌ في بيان أدلة النهي عن التبرك بالقبور بالتمسح بها

وتقبيلها

❁ تنبيهات في مسألة التبرك بالجمادات

❁ شبهاتٌ والجواب عليها

❁ خلاصة القول في مسألة التبرك

مقدمة تأصيلية

البركة هي كثرة الخير وثبوته في الشيء، يقال: رجل مبارك أي كثير الخير والنفع للآخرين، والقرآن وصفه الله بأنه مبارك لكثرة خيره ومنافعه واستقرار ذلك الخير فيه، فكان الخير قد برّك فيه.

والتبرك هو طلب البركة والتماسها، ومصدر البركة هو الله وحده لا شريك له، فهو خالقها وواهبها سبحانه، فكما أن الرزق والنصر والعافية من الله وحده وهو خالقها وواهبها؛ فكذلك البركة، واهبها هو الله وحده، وقد قرر النبي ﷺ ذلك في أحد أسفاره حتى لا يظن الناس أن النبي ﷺ هو الذي يأتي بالبركة، فعن سالم بن أبي الجعد عن جابر رضي الله عنه، «أن الماء قلّ ذات يوم عند المسلمين، فقال النبي ﷺ: «اطلبوا فضلة»^(١) من ماء»، فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء ثم قال: «حيّ على الطهور المبارك، والبركة من الله»، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ»^(٢).

وفي لفظ: «فتوضأ الناس وشربوا، فجعلت لا آلو ما جعلت في بطني منه، فعلمت أنه بركة، قلت لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: ألفاً وأربعمائة»^(٣).

(١) أي: بقية من ماء قليلة.

(٢) رواه البخاري (٣٥٧٩) عن جابر رضي الله عنه، ورواه الترمذي (٣٦٣٣)، والنسائي (٧٧)، وأحمد (٤٦٠/١)، والدارمي في (المقدمة)، باب (ما أكرم الله النبي ﷺ من تفجير الماء من بين أصابعه)، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري (٥٦٣٩).

فقوله: «والبركة من الله» هو الشاهد من الحديث.

فإذا تقرر عندنا أن البركة من الله وحده؛ فبناء عليه فإن طلب البركة والتماسها من غير الله يعتبر شركًا في الدعاء، سواء كان ذلك المطلوب منه حيًّا أو ميتًّا، نبيًّا أو رجلًا صالحًا أو دون ذلك، كائنًا حيًّا أو جمادًا، بل المشروع هو طلب البركة من الله وحده.





فصل في بيان أقسام التبرك المشروع والتبرك الممنوع

التبرك منه ما هو مشروع في الشريعة الإسلامية ومنه ما هو ممنوع.

والتبرك المشروع يكون في خمسة أشياء: في الأقوال والأفعال والأمكنة والأزمنة والذوات.

فالتبرك الشرعي بالأقوال كذكر الله وقراءة القرآن والدعاء، وبركة ذلك تكون بما جعل الله في ذكره ودعائه من الأجر والشفاء من الأمراض الحسية والمعنوية والحصن من الشيطان وحصول المنافع الدينية والدنيوية، وغير ذلك من منافع الذكر^(١).

والتبرك بالأفعال كصلاة الجماعة والحج والجهاد وطلب العلم ونحو ذلك، وبركته تحصل بما يترتب على القيام بذلك الفعل من الأجر والمثوبة وغفران الذنوب وعبادة الله على بصيرة.

التبرك بالأمكنة: من سعة رحمة الله وفضله أن خص بعض الأماكن بمزيد بركة، كالمساجد عمومًا، والمساجد الثلاثة خصوصًا، وبركتها تكون بما جعل الله في الصلاة فيها من الأجر وإجابة الدعاء.

(١) وقد ذكر العلامة ابن القيم في كتابه: «الوابل الصيب من الكلم الطيب» أن للذكر أكثر من مائة فائدة، وذكر منها ثمانيا وسبعين، فليراجعها من أراد الفائدة.

ومن الأمكنة المباركة أيضًا مكة التي قال الرسول ﷺ فيها: «والله إنَّك لخير أرض الله وأحبُّ أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت» (١). وبركتها تحصل بما يكون للعابد فيها من مضاعفة الأجر والثواب، فإنَّ الصلاة فيها خير من مائة ألف صلاة فيما سواها من المساجد.

ومن الأمكنة المباركة أيضًا المدينة النبوية، فإنَّ الله قد خَصَّها بمزيد بركة، فعن سفيان بن أبي زهير رضي الله عنه أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُفتح اليمن، فيأتي قوم يُسُّون» (٢)، فيتحملون (٣) بأهلهم ومن أطاعهم، والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون. وتُفتح الشام، فيأتي قوم يُسُّون، فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون.

وتُفتح العراق فيأتي قوم يُسُّون، فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون» (٤).

ومن الأمكنة المباركة أيضًا الشام، فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ نؤلِّف القرآن من الرِّقاع^٥ إذ قال: «طوبى للشام». قيل: ولم ذلك يا رسول الله؟ قال: «لأن ملائكة الرحمن باسطةً أجنحتها عليه» (٦).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أي: يزبنون للناس الخروج من المدينة.

(٣) أي: يحملون أهلهم ومتاعهم ويرحلون.

(٤) رواه البخاري (١٨٧٥)، ومسلم (١٣٨٨).

(٥) الرقاع جمع رقعة، وهي القطعة من الورق أو الجلد يُكتب عليها.

(٦) رواه أحمد (١٨٥/٥)، وصححه الألباني رحمته الله في «صحيح الجامع» (٣٩٢٠)، من حديث =

ويدل لبركة الشام أيضًا قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]، والشام هو ما حول الأقصى.

فمن سكن المدينة أو مكة أو الشام ملتصقًا ما جعل الله في تلك البقاع من كثرة الأرزاق أو دفع الفتن فإنه يُرجى له حصول مطلوبه، وهذه هي صفة التبرك الشرعي بتلك الأماكن.

ومن التبرك بالأمكنة ما هو بدعيٌّ بل شرعي، كالتبرك بالقبور وجدران البناء المبني عليها ونوافذه ونحو ذلك، وهذا منكر عظيم، إذ إن العكوف عند القبور والتمسح بها وتقبيلها والدعاء عندها وفيها ونحو ذلك هو أصل الشرك وعبادة الأوثان ولهذا قال النبي ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثناً، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» (١).

ولو كان التبرك بها من الخير لأرشد إلى ذلك النبي ﷺ، الذي هو أنصح الخلق للخلق، ولفعله الصحابة في قبره ﷺ، ولكن الذي نجده هو إجماع الصحابة على بدعية ذلك كما سيأتي بيانه قريباً إن شاء الله.

والتبرك يكون بالأزملة التي دلَّ الشارع الحكيم على حصول البركة فيها، كرمضان والعشر من ذي الحجة ويوم عاشوراء، والتبرك بها يكون بعمل القربات التي حثَّ الله على التقرب إليه فيها، من صيام وقراءة قرآن وصلاة وصدقة ونحو ذلك، لما يترتب على ذلك من أجر عظيم.

=

زيد بن ثابت ؓ.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٧ / ٧٩).

والتبرك يكون بالذوات، أي الأشخاص، وهذا خاصٌ بالنبي ﷺ، ومنه ما هو مشروع ومنه ما هو ممنوع، فأما المشروع فهو التبرك بخصوص ما اتصل بجسد النبي ﷺ في حياته، وهو ريقه ونُخامته وفضل وُضوئه وعرقه وشعره وفضل طعامه، فكل ذلك قد جعل الله فيه البركة، فيجوز التبرك به على النحو الذي سيأتي بيانه، وكذلك يجوز الاستشفاء به.

وأما التبرك بما سوى ذلك من متاع النبي ﷺ كجدران غرفته ونحو ذلك فهذا بدعة، وكذلك التبرك بغيره من الأشخاص فهو تبرك بدعي، لأنه لم يرد التبرك إلا في حق النبي ﷺ، وفي خصوص ما اتصل بجسده الشريف، وأما ما سواه من الناس فلم يرد فيهم خصوصية بركة في ذواتهم، سواء كانوا من الصحابة أو ممن هو دونهم، فيكون التبرك بهم من البدع التي يجب تجنبها.

• **وعودًا على بدء، فمن أنواع التبرك بذات النبي ﷺ** التبرك بريقه الشريف، ودليل ذلك «أن عليًّا رضي الله عنه اشتكى عينه، فدعاه النبي ﷺ فبصق في عينه فبرئت بإذن الله» (١).

• **ومن أنواع التبرك بذات النبي ﷺ** التبرك بعرقه، ودليله ما جاء في «صحيح البخاري» عن أنس أن أم سليم كانت تبسط للنبي ﷺ نِطْعًا (٢) فيقيل عندها (٣) على ذلك النّطع، قال: فإذا نام النبي ﷺ أخذت من عرقه وشعره فجمعتة في قارورة ثم

(١) انظر «صحيح البخاري» (٤٢١٠) ومسلم (٢٤٠٦) عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) النّطع هو جلد في الأصل.

(٣) أي: ينام عندها القيلولة، وهي الاستراحة نصف النهار. انظر «النهاية».

جمعتَه في سَكٍّ (١) وهو نائم، قال: فلما حضر بأنس بن مالك الوفاة أوصى إلى أن يُجعل في حَنُوطه (٢) من ذلك السَكِّ، قال: فجُعِلَ في حَنُوطه (٣).

• ومن أنواع التبرك بذات النبي ﷺ التبرك بنُخامته وفضل وضوئه، ودليله ما جاء في قصة صلح الحديبية عن المسور بن مخرمة ومروان قالا: «فوالله ما تَنَحَّم رسولُ الله ﷺ نُخامةً إلا وقعت في كفِّ رجلٍ منهم، فَدَلَّكَ بها وجهه وجِلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه» (٤).

• ومن أنواع التبرك بذات النبي ﷺ التبرك بيده الشريفة، ودليل ذلك أن النبي ﷺ كان يَنفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات، فلما ثَقُلَ كانت عائشة تَنفث عنه في يده ثم تمسح بها على نفسه لِبِركتها (٥).

ولما كانت يدُ النبي ﷺ مباركة؛ فقد كان الصحابة يَتبركون بفضله طعامه لكونه اتَّصل بيده الشريفة، فمن ذلك أن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه كان يَتَّبِع أثرَ أصابع النبي ﷺ في الإناء ويأكل منها، فعنه رضي الله عنه قال: «يا رسول الله، كنت تُرسل إليَّ بالطعام فَأَنْظُرُ، فإذا رأيتُ أثرَ أصابعك وضعتُ يدي فيه» (٦).

(١) السَكُّ: طيبٌ مُرَكَّبٌ يُضَافُ إلى غيره. انظر «النهاية».

(٢) الحَنُوط: شيء من الطَّيِّب، تُطَيَّبُ به أكفان الموتى وأجسادهم. انظر «النهاية».

(٣) رواه البخاري (٦٢٨١).

(٤) رواه البخاري (٢٧٣٤).

(٥) وقد جاء ذلك في «صحيح البخاري» (٥٧٣٥)، ومسلم (٢١٩٢).

(٦) رواه مسلم (٢٠٥٣)، وأحمد (٤٢٠ / ٥) واللفظ له.

فهذه مظاهر خمسة من مظاهر التبرك الشرعي بما اتصل بجسم النبي ﷺ الشريف، ولكن هذه المظاهر قد توقف العمل بها بموته ﷺ، لكون تلك الآثار قد اضمحلت.

غير أنه بعد موته ﷺ قد بقيت آثارٌ من جسمه الشريف لم تَضمحل فترة من الزمن، وكان الصحابة يتبركون بها، ومن ذلك شعره وآنيته وثيابه، ودليل ذلك ما أخرجه البخاري^(١) عن عثمان بن عبد الله أنه أرسله أهله إلى أم سلمة زوج النبي ﷺ بقدر من ماء، وكان عندها شَعَرَات من شعر النبي ﷺ، فكان إذا أصاب الإنسان عينٌ أو شيءٌ بعث إليها آنيته، فتَجعل فيها أم سلمة تلك الشَّعرات وتغسلها فيه، ثم تعيده إلى صاحبه فيشربه أو يغتسل به بقصد الاستشفاء وطلب الدواء، فيحصل له الشفاء بإذن الله ببركة تلك الشعرات.

ومن التبرك بآثار الرسول ﷺ أيضًا التبرك بالآنية التي شرب منها، فعن كبشة الأنصارية «أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها قربة مُعلَّقة فشرب منها وهو قائم، فقطعت فم القربة تبغي بركة موضع في رسول الله ﷺ لكون ريقه قد اتصل بها»^(٢).

وقد كان الصحابة يتبركون أيضًا بلباسه ﷺ لكون العرق قد لامسها، فعن أسماء بنت أبي بكر قالت: «هذه جبة رسول الله ﷺ، فأخرجت جبة طيالة»^(٣).

(١) انظر «صحيح البخاري» (٥٨٩٦).

(٢) رواه الترمذي (١٨٩٢)، وابن ماجه (٣٤٢٣)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي».

(٣) طيالة: ضربٌ من الأكسية سُودٌ.

كسروانية^(١) لها لبنة ديباج^(٢) وفرجاها مكفوفان بالديباج^(٣) فقالت: هذه كانت عند عائشة حتى قبضت، فلما قبضت قبضتها، وكان النبي ﷺ يلبسها، فنحن نغسلها للمريض يستشفى بها^(٤).

وعن سهل رضي الله عنه «أن امرأة جاءت النبي ﷺ ببردة منسوجة فيها حاشيتها، فأهدتها للنبي ﷺ، فأخذها النبي ﷺ وهو محتاج إليها، فرآها رجل فطلبها من النبي ﷺ فقال: اكسنيها ما أحسنها. قال القوم: ما أحسنت، لبسها النبي ﷺ محتاجًا إليها ثم سأله وعلمت أنه لا يرُدُّ؟

قال: إني والله ما سأله لألبسه إنما سأله لتكون كفني.

قال سهل: فكانت كفنه^(٥).

❦ ثلاث تنبيهات تتعلق بمسألة التبرك بآثار النبي ﷺ

التنبيه الأول:

إن ما اتصل بذات الرسول ﷺ من الآثار ليس منجيًا من عذاب الله ولا رادًا

(١) كسروانية: نسبة إلى كسرى صاحب العراق ملك الفرس، أي: مصنوعة هناك.

(٢) اللبنة هي الرقعة في جيب القميص كما في «النهاية». والديباج: نوع من الثياب مصنوعة من الإبريسم، وهو أحسن الحرير كما في «المعجم الوسيط»، والمعنى: أن للعبة رقعة في جيبيها من الإبريسم. انظر «لسان العرب».

(٣) لعل معنى فرجي الجبة هما فتحتا اليدين أو فتحتا الرقبة وما يلي القدمين، وقولها: «مكفوفان بالديباج»، أي أن الديباج مُحِيط بهما.

(٤) رواه مسلم (٢٠٦٩).

(٥) رواه البخاري (١٢٧٧) واللفظ له، وابن ماجه (٣٥٥٥)، وأحمد (٣٣٣/٥ - ٣٣٤).

لقضاء الله، بل هو سبب من أسباب حصول البركة، قد ينفع وقد لا ينفع، فإن النبي ﷺ أتى قبر رأس المنافقين عبد الله بن أبي بعدما دُفن، فأخرجه فنث فيه من ريقه، وكفنه في قميصه، ومع هذا فلم ينفعه من ذلك شيء، لأنه إنما ينفع الرجل عمله.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: «لَمَّا تُوِّفِيَ عبد الله بن أبي بن سلُول جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه أن يُكفَّن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه؟

فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا خَيْرَني الله فقال: ﴿أَسْتَغْفِرُكُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُكُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠] وسأزيد على سبعين».

قال: إنه منافق.

فصلى عليه رسول الله ﷺ، وأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّا تَأْتِيكُم مِّنْهُنَّ مَوَاطِئَ وَلَا تُقِمُّ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤] «(١)».

وقد رواه أبو زيد عمر بن شبة النمري فقال: حَدَّثَنَا ابن أبي الوزير، قال سفيان عن عمرو بن دينار، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «أتى النبي ﷺ عبد الله بن أبي بعدما أدخل في حفرته، فأمر به فأخرج ووَضَعه على رُكْبتيه، وألبسه قميصه، ونث عليه من ريقه» (٢).

(١) رواه البخاري (١٢٦٩)، ومسلم (٢٤٠٠)، واللفظ له.

(٢) «تاريخ المدينة» (١/ ٣٤٩)، تحقيق: فهم محمد شلتوت.

فإن قيل: فلماذا صَلَّى عليه النبي ﷺ ونَفَثَ عليه مِنْ ريقه وَكَفَّنَه بِقميصه؟

فالجواب أن ابنه عبد الله وهو صحابي جليل، طلب من النبي ﷺ ذلك، فلم يَرُدَّهُ تطييبًا لقلبه، ولم يكن ﷺ يَرُدُّ سائلًا.

وقيل: إنما أعطاه قميصه مكافأة له لأنه كان ألبس العباس قميصًا حين أُسِرَ يوم بدر.

قال النووي رحمه الله: «إن النبي ﷺ أعطاه قميصه لِيُكَفَّنَ فيه، وفي هذا الحديث بيان عظيم مكارم أخلاق النبي ﷺ، فقد علم ما كان من هذا المنافع من الإيذاء، وقَابَلَهُ بالحسنى، فألبسه قميصه كفناً، وصَلَّى عليه، واستغفر له. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]». انتهى (١).

التنبيه الثاني:

يُشترط للراغب في التبرك أن يكون حاصلاً على أثر من آثاره ﷺ ويستعمله، ونحن نعلم بأن آثاره ﷺ من ثياب أو شعر أو فضلات قد فُقدت، وليس بإمكان أحد إثبات وجود شيء منها على وجه القطع واليقين، وإذا كان الأمر كذلك فإن التبرك بهذه الآثار أمرٌ غير ذي موضوع في زماننا هذا، ويكون أمراً نظرياً محضاً، فلا ينبغي إطالة القول فيه (٢).

وقال الشيخ أحمد النجمي رحمه الله: «التبرك المشروع في حق النبي ﷺ اختُص به

(١) «شرح صحيح مسلم».

(٢) قاله العلامة الألباني رحمه الله في كتاب «التوسل».

أهل عصره ومن بعدهم بقليل، الذين حصل لهم شيء من ثيابه أو شعره أو عرقه، وآخر من صحَّ أنه كان عنده شيء من شعر النبي ﷺ هو الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله، أما أهل الأزمنة المتأخرة فقد فاتهم ذلك، وإذا كان قد فاتهم هذا فإن البركة كل البركة والخير كل الخير في الاستقامة على هديه، واقتفاء سنته، وأتباع طريقه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والتقرب إلى الله بتلاوة الكتاب الذي أنزل عليه ودراسة السُّنة التي نطق بها، والعمل بما دلَّت عليه فعلاً وتركاً ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] (١).

التنبية الثالث:

قال الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني رحمته الله في كتاب «التوسل»:

ولكن ثَمَّة أمر يجب تبيانهُ، وهو أن النبي ﷺ وإن أقرَّ الصحابة في غزوة الحديبية وغيرها على التبرك بآثاره والتمسح بها، وذلك لغرض مهم وخاصة في تلك المناسبة، وذلك الغرض هو إرهاب كفار قريش وإظهار مدى تعلق المسلمين بنبِيِّهم، وحبهم له، وتفانيهم في خدمته وتعظيم شأنه؛ إلا أن الذي لا يجوز التغافل عنه ولا كتمانهُ أن النبي ﷺ بعد تلك الغزوة **رَغِبَ المسلمون بأسلوب حكيم وطريقة لطيفة عن هذا التبرك، وصَرَفَهُمْ عَنْهُ**، وأرشدَهُمْ إلى أعمالٍ صالحة خير لهم منه عند الله ﷻ وأجدى، كما يدل عليه الحديث الآتي:

عن عبد الرحمن بن أبي قُرَادٍ رضي الله عنه «أن النبي ﷺ تَوَضَّأَ يوماً، فجعل أصحابه يَتَمَسَّحُونَ بوضوئه، فقال لهم النبي ﷺ: «مَا يَحْمِلُكُمْ عَلَى هَذَا؟».

(١) «أوضح الإشارة في الرد على من أجاز الممنوع من الزيارة» (ص ٥٠٦).

قالوا: حُبُّ الله ورسوله.

فقال النبي ﷺ: «مَنْ سَرَّه أَنْ يَحِبَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أَوْ يُحِبَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَلْيَصْدَقْ حَدِيثَهُ إِذَا حَدَّثَ، وَلْيُؤَدِّ أَمَانَتَهُ إِذَا أُؤْتِمِنَ، وَلْيُحَسِّنْ جَوَارَ مَنْ جَاوَرَهُ»^(١).

وقال الشاطبي^(٢) رحمه الله في «الاعتصام»:

«وقد خرَّج ابنُ وهب في «جامعه» من حديث يونس بن يزيد عن ابن شهاب قال: حدَّثني رجل من الأنصار، أن رسول الله ﷺ كان إذا تَوَضَّأَ أَوْ تَنَخَّمَ ابْتَدَرَ مَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَضُوءَهُ وَنُخَامَتَهُ فَشَرَبُوهُ وَمَسَحُوا بِهِ جُلُودَهُمْ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ سَأَلَهُمْ: «لِمَ تَفْعَلُونَ هَذَا؟».

قالوا: نلتمس الطهور والبركة بذلك.

فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَحِبُّ أَنْ يَحِبَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَلْيَصْدَقِ الْحَدِيثَ، وَلْيُؤَدِّ الْأَمَانَةَ، وَلَا يُؤَدِّ جَارَهُ».

فإن صحَّ هذا النقل فهو مُشْعَرٌ بِأَنَّ الْأَوَّلَى تَرْكُهُ، وَأَنْ يَتَحَرَّى مَا هُوَ الْآكِدُ وَالْأَحَرَّى مِنْ وَظَائِفِ التَّكْلِيفِ، وَلَا يَلْزَمُ الْإِنْسَانُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ وَلَمْ يَثْبِتْ مِنْ ذَلِكَ

(١) قال الألباني رحمه الله: «وهو حديث ثابت، له طرق وشواهد في مُعْجَمِي الطبراني وغيرهما، وقد أشار المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢٦/٣) إلى تحسينه، وقد خرَّجَتْهُ في «الصحيحة» برقم (٢٩٩٨)».

(٢) هو الشيخ إبراهيم بن موسى اللخمي، الغرناطي المالكي، من علماء الأندلس، برَّز في الأصول، له الكتابان الشهيران «الموافقات في أصول الأحكام» و«الاعتصام»، توفي عام ٧٩٠. انظر ترجمته في «معجم المؤلفين» لعمر كحَّالة.

كله إلا ما كان من قبيل الرقية وما يتبعها، أو دعاء الرجل لغيره...» (١).

فوائد تتعلق بالتبرك بالمنوع بالذنوات

التبرك بالمنوع هو التماس البركة مما لم تدل الشريعة الإسلامية أن فيه بركة، كالتمسح بشيأ أو بأيدي من يُظن فيهم الصلاح والاستقامة ابتغاء انتقال البركة، فهذا ممنوع لثلاثة أسباب:

الأول: أنه لا دليل على وجود البركة في تلك اليد أو ذلك الثوب الذي تُمسح به أصلاً، فيكون من القول على الله بغير علم.

الثاني: أن التماس البركة من غير الله ﷻ يعتبر ضرباً من التأله لغير الإله الحق، ولذلك سمّاه النبي ﷺ تألّها في حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه، فعنه ﷺ أن رسول الله ﷺ خرج وأصحابه إلى حنين، فمروا بشجرة خضراء عظيمة يقال لها ذات أنواط (٢)، كان المشركون يعكفون عندها ويتبركون بها ويلقون عليها سيوفهم، معتقدين أن ذلك يزيد مضاء فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: «سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم» (٣).

(١) (٢/ ١٠ - ١١).

(٢) الأنواط هي الأغصان.

(٣) رواه الترمذي (٢١٨٠) واللفظ له، وأحمد (٢١٨/٥)، والطيالسي (١٣٤٦)، والحميدي (٨٤٨)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي».

ففي هذا الحديث نجد أن بعض الصحابة - ممن كانوا حديثي عهد بإسلام ولم تزل بعض آثار الجاهلية باقية في نفوسهم - نجد أنهم قد اغتروا بما كان يفعله المشركون من طلب البركة من شجرة كانوا يعكفون عندها - أي يقيمون طويلاً - ويتبركون بها ويعلقون أسلحتهم على أغصانها ظناً منهم أن هذا يزيد قوة ومضاء، فطلبوا من الرسول ﷺ أن يتخذ لهم شجرة يتبركون بها، فقال النبي ﷺ: «سبحان الله»، تنزيهاً لله سبحانه عن أن يكون غيره يأتي بالبركة، أو أنه قالها تعجباً من قولهم.

ثم قال ﷺ: «هذا كما قال قوم موسى لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]»، فسمى النبي ﷺ طلبهم التبرك تألهًا أي تعبدًا، والتعبد لغير الله محرم (١).

ثم قال: «لتركبن سنة من كان قبلكم»، أي لتتبعن طريقة من كان قبلكم من الأمم من التبرك بالجمادات، وليس ذلك مخصوصاً بقرن النبي ﷺ بل هو كلُّ عامٍّ، ويتأكد ذلك في القرون المتأخرة لقول النبي ﷺ: «لا يأتي زمانٌ إلا والذي بعده شرٌّ منه حتى تلقوا ربكم» (٢).

وفي هذا الحديث من الفوائد؛ التغليظ على من طلب البركة من الجمادات.

وفيه أن المتقل من الباطل إلى الحق لا يؤمن أن يبقى في قلبه من ذلك الباطل.

وفيه أن النبي ﷺ أوقف الجيش حتى يُصَفِّيهم من شوائب الشرك، ولم يمنعه

(١) انظر «أوضح الإشارة في الرد على من أجاز الممنوع من الزيارة» (ص ٥٠٣).

(٢) رواه البخاري (٧٠٦٨) عن أنس رضي الله عنه.

المسير إلى الجهاد من الكلام فيه، لأن الموضوع يتعلق بعقيدة ربما لو مات أحدهم عليها لم ينفعه قتاله مع رسول الله ﷺ.

وفيه أن التبرك بالقبور من جنس التبرك بالأشجار لكونهما يشتركان في كونهما من التبرك بالجُمادات الذي هو من التقرب للجُمادات.

السبب الثالث: أن بركة الذات خاصة بالنبي ﷺ، لأن الله قد جعل ذاته مباركة، وشرع للناس التبرك بها، ولا يجوز قياس غيره عليه ولو كان من الصحابة رضوان الله عليهم، لعدم ورود الدليل على حلول البركة في غير ذات النبي ﷺ وآثاره، فيكون التبرك بهم من البدع ومن الغلو بالذوات، وهو الأمر المؤدي إلى عبادتهم.

ويكفي دليلاً على بطلان التبرك بذوات المخلوقين من غير النبي ﷺ أن الصحابة لم يتبركوا بأحد بعد وفاة النبي ﷺ، ولو كان التبرك بغير الرسول ﷺ جائزاً لتبرك الناس بهم لأنهم أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، وهم الذين أثنى الله عليهم في التوراة والإنجيل والقرآن، كما أثنى عليهم الرسول ﷺ في سنته، بل هم الذين اصطفاهم الله لصحبة نبيه ﷺ.

قال الشيخ أحمد بن يحيى النجمي رحمه الله:

«لم يؤثر عن أحد منهم^(١) أنه تبرك بأحد بعد رسول الله ﷺ، فمن يأتي أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ؟

(١) أي الصحابة رضوان الله عليهم.

بل مَنْ يأتي بعد هؤلاء أفضل من باقي العشرة المشهود لهم بالجنة، وهم
السَّتَّةُ؟

بل مَنْ يأتي بعد العشرة أفضل من أهل بدر؟

بل مَنْ يأتي بعد أهل بدر أفضل من أهل الشجرة؟

بل مَنْ يأتي بعد أصحاب الشجرة أفضل من بقية أصحابه؟

ومع هذا فلم يؤثر عن مفضول منهم أنه تبرَّك بفاضل، ولا عن تابعي أنه تبرَّك بصحابي، وذلك إجماع منهم على اختصاص الرسول ﷺ بذلك في حياته، ولم يصح عن أحد منهم أنه تبرَّك به أو بقبره بعد موته، وكل ما ورد في ذلك فهو موضوع مفترى على أصحاب الرسول ﷺ، على واضعيها ما يستحقون، ومن زعم أن التبرَّك بالموتى وأضرحة الموتى ومشاهد الموتى من الدين وسير السلف الصالح فقد أعظم على الله الفرية، وأوغل في الكذب والبُهت، وسيلقى جزاء ما اقترفه من جرم، وعقوبة ما اختلقه من كذب لهدم الدين»^(١).

قال مُقَيَّدُه عفا الله عنه: ولما كان التمسح بمن هو دون النبي ﷺ منكرًا عظيمًا، فقد أنكره الأئمة، فمن ذلك ما قاله علي بن عبدان الطيالسي: «مسحت يدي على أحمد بن حنبل، ثم مسحت يدي على بدني وهو ينظر، فغضب غضبًا شديدًا، وجعل ينفض نفسه ويقول: عمَّن أخذتم هذا؟

وأنكره إنكارًا شديدًا»^(٢).

(١) «أوضح الإشارة في الرد على من أجاز الممنوع من الزيارة» (ص ٢٠٨).

(٢) «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٢٨)، (ذكر من اسمه علي)، لابن أبي يعلى، تحقيق د. عبد الرحمن

قال ابن تيمية رحمه الله: وأما وضع الرأس عند الكبراء من الشيوخ وغيرهم ^(١)، أو تقبيل الأرض ونحو ذلك؛ فإنه مما لا نزاع فيه بين الأئمة في النهي عنه، **بل مجرد الانحناء بالظهر لغير الله ﷻ منهى عنه**، فقد ثبت في الصحيح من حديث جابر، أنه صلى الله عليه وآله وسلم صلى بأصحابه قاعدًا من مرض كان به فصلوا قيامًا فأمرهم بالجلوس، وقال: «لا تُعْظَمُونِي كَمَا تُعْظَمُ الْأَعْجَمُ بَعْضُهَا بَعْضًا». وقال: «مَنْ سَرَّهَ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ النَّاسُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

فإذا كان قد نهاهم مع قعوده - وإن كانوا قاموا في الصلاة - حتى لا يتشبهوا بمن يقوموا بعظمتهم، وبين أن من سرَّه القيام له كان من أهل النار، فكيف بما فيه من السجود له، ومن وضع الرأس، وتقبيل الأيدي؟ ^(٢).

وقال النووي رحمه الله: «قال الفضيل بن عياض رحمه الله ما معناه: «اتَّبَعَ طَرِيقَ الْهَدْيِ وَلَا يَضُرُّكَ قَلَّةُ السَّالِكِينَ، وَإِيَّاكَ وَطَرِيقَ الضَّلَالَةِ وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْهَالِكِينَ»، ومن خطر بباله أن المسح باليد ونحوه أبلغ في البركة فهو من جهالته وغفلته، لأن البركة إنما هي فيما وافق الشرع، وكيف يُبْتَغَى الْفَضْلُ فِي مَخَالَفَةِ الصَّوَابِ؟» ^(٣).

قلت: وقد صدرت فتوى من لجنة الافتاء بالمملكة العربية السعودية في حكم التبرك بالصالحين هذا نصُّها:

=

العثيمين، الناشر: مكتبة العبيكان - الرياض.

(١) أي من الأحياء.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٩٢ - ٩٣)، باختصار وتصرف يسير.

(٣) «المجموع» للنووي (٨/ ٢٥٧ - ٢٥٨)، باختصار يسير.

«وأما التبرك بالصالحين الأحياء فبدعة، لأن الصحابة رضي الله عنهم لم يفعلوه فيما بينهم لا مع الخلفاء الراشدين ولا مع غيرهم، ولأنه وسيلة إلى الشرك بهم فوجب تركه، وقد يكون شركًا أكبر إذا اعتقد في الصالح أنه ينفع ويضر بتصرفه، وأنه يتصرف في الكون ونحو ذلك، وأما ما فعله الصحابة رضي الله عنهم مع النبي صلى الله عليه وسلم من التبرك بوضوئه وشعره فهذا من خصائصه، لما جعل الله في جسده وشعره وعرقه من البركة، ولا يلحق به غيره. وبالله التوفيق وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم».

(فتوى رقم ٥٣١٦)

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو: عبد الله بن قعود

عضو: عبد الله بن عُديان

نائب رئيس اللجنة: عبد الرزاق عفيفي

الرئيس: عبد العزيز بن عبد الله بن باز



ذِكْرُ شَيْءٍ مِنْ مَظَاهِرِ التَّبَرُّكِ الْمَمْنُوعِ

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ»^(١) عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَلِيٍّ الشَّيرَازِيِّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٧٦ :

«كَانَ أَبُو إِسْحَاقَ كُلَّمَا مَرَّ عَلَى بَلَدَةٍ خَرَجَ إِلَيْهِ أَهْلُهَا يَتَلَقَّوْنَهُ بِأَوْلَادِهِمْ وَنِسَائِهِمْ يَتَبَرَّكُونَ بِهِ وَيَتَمَسَّحُونَ بِرِكَابِهِ، وَرَبِمَا أَخَذُوا مِنْ تَرَابِ حَافِرِ بَغْلَتِهِ». انْتَهَى.

فَانْظُرْ إِلَى الانْحِرَافِ كَيْفَ أَنَّهُ مَتَى مَا تَعَلَّقَ بِهِ الْإِنْسَانُ فَإِنَّهُ يَزْدَادُ شَيْئًا فَشَيْئًا، كَمَا حَصَلَ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَجَاوَزُوا التَّبَرُّكَ بِالشَّخْصِ إِلَى التَّبَرُّكِ بِالْبَغْلَةِ، بَلْ بِالتَّرَابِ الَّذِي مَسَّهُ حَافِرُ الْبَغْلَةِ، فَكَانُوا كَعِبَادِ الْعَجَلِ، بَلْ أَرْدَأُ وَأَخْسُ حَالًا مِنْهُمْ. وَلَوْ كَانَ عِنْدَ أَوْلَئِكَ مَسْكَةٌ مِنْ عَقْلِ، لَاقْتَدَوْا بِالصَّحَابَةِ رِضْوَانِ اللهِ عَلَيْهِمُ، الَّذِينَ لَمْ يُثْقَلْ عَنْهُمْ أَنْ أَحَدًا مِنْهُمْ تَبَرَّكَ بِنَاقَةِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ بِبَغْلَتِهِ، فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ جَائِزًا لَكَانَتْ نَاقَةُ النَّبِيِّ ﷺ أَوْلَى بِهَذَا^(٢).

قَالَ مُقَيَّدُهُ عَفَا اللهُ عَنْهُ: وَقَدْ وَقَعَ فِتْنًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا -مَعَ الْأَسَفِ الشَّدِيدِ- فِي طَلَبِ الْبَرَكَةِ مِمَّا لَمْ يَجْعَلِ اللهُ فِيهِ بَرَكَةً، فَتَجَدَّهُمْ يَتَبَرَّكُونَ بِقُبُورِ الصَّالِحِينَ بِتَقْبِيلِهَا وَالتَّمَسُّحِ بِنَوَافِذِهَا وَتَرَابِهَا وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَوَقَعُوا فِي حَظِيرَةِ الْبِدْعِ وَالْخَرَافَاتِ وَالشَّرِكِيَّاتِ، فَشَابَهُوا أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى -عِبَادَ الْأَوْثَانِ- الَّذِينَ كَانُوا

(١) أحداث سنة (٤٧٥).

(٢) نقلًا من «أوضح الإشارة في الرد على مَنْ أجاز الممنوع من الزيارة» للشيخ أحمد بن يحيى النجمي، (ص ٢٠١)، بتصرف يسير.

يعتقدون حصول البركة منها بتعظيمها ودعائها والاستعانة بها والاعتماد عليها في حصول ما يرجونه منها ويأملونه ببركتها وشفاعتها وغير ذلك، فالتبرك بقبور الصالحين كالتبرك باللات، والتبرك بالأشجار كالتبرك بالعزى ومناة، فهو موافق لفعل أولئك المشركين في تلك الأوثان، فمن فعل مثل ذلك واعتقد في قبر أو حجر أو شجر فقد ضاهى عبّاد هذه الأوثان فيما كانوا يفعلونه معها في هذا الشرك^(١).

ومبتدعة الوقت الحاضر ساروا على نهج أسلافهم، فشيخ البريلوية^(٢) في الهند لا يرى بأسًا من وضع تمثالٍ لقبر الحسين في المنزل من أجل التبرك به، والرافضة يحملون معهم من تراب النَجَف للسجود عليه في الصلاة، وأصحاب الموالد يشربون من الماء الموضوع عند قارئ المولد تبركًا بهذا الماء، إذ يعتقد بعضهم أن رُوح الرسول حضرت قراءة المولد وشربت من الماء الموضوع أمام القارئ فهم يتبركون بهذا الماء، إلى غير ذلك من الخرافات والخزعبلات التي لم ترد في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ ولم يفعلها أحدٌ من الصحابة الذين هم أعلم الناس بدين الله بعد نبيها ﷺ^(٣).

«ومن العادات التي تقوم بها النساء خاصة: مسح ضريح الولي بالمناديل والملابس، وربط الخِرْق والخیوط حول جدرانه، ثم يمسحن على رءوسهن ورءوس أبنائهن، وقد يُحتفظ بهذه المناديل دون غيرها لُتمسح بها بقية أفراد الأسرة ممن لم

(١) انظر «فتح المجيد»، باب (مَن تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما).

(٢) البريلوية: فرقة ضالة تعتقد أنَّ النبي ﷺ لديه القدرة على التحكم بالكون، وأنه يعلم الغيب.

انظر «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة».

(٣) انظر مقدمة «التبرك المشروع والتبرك الممنوع»، د. علي بن نفيع العلياني.

يتمكنوا من الزيارة، لأن الاعتقاد السائد عند هؤلاء أن البركة تسري من الولي إلى ضريحه إلى المناديل والملابس التي مُسحت بها، والأغرب من ذلك ما يحدث عند تغيير كسوة الضريح، حيث يسعى الجميع للحصول على قطع من هذه الكسوة المباركة -بزعمهم-، ومن هؤلاء من يمرغون وجوههم بالأعتاب والتراب، وهذا كله ناشئ عن اعتقادهم في صاحب ذلك القبر أنه ينفع ويضر، حتى عدوا ذلك الاعتقاد فيه إلى تربته، فزعموا أن فيها شفاء وبركة لدفنه فيها، حتى أن منهم من يعتقد في تراب بقعة لم يدفن فيها ذلك الولي بزعمه، بل قيل: إن جنازته قد وضعت في ذلك المكان.

وبعضهم شرّعوا تقبيلها كما يُقبّل الحجر الأسود حتى قالوا: إن رُحِمَتْ فاستلم بمحجن أو أشر إليه، والبعض الآخر منهم ينكب على القبر وينحني له ويعتكف له تبركاً وتعظيماً لصاحب القبر»^(١).

وقال د. ناصر الجديع في كتابه «التبرك أنواعه وأحكامه»:

وفي السودان «وصل الأمر في العصر الحاضر عند بعض الرجال المُخَرِّفين إلى مجامعة زوجاتهم عند أضرحة الأولياء بدعوى نيل البركة»^(٢).



(١) نقل الباحث سالم بن قطوان العبدان هذه المظاهر عن بعض العلماء والكتّاب في كتابه «زيارة القبور عند المسلمين» (ص ١٤٢، ١٤٣)، بتصرف يسير.

(٢) (ص ٤٧٣ - ٤٧٤).



فصل

في بيان أدلة النهي عن التبرك بالقبور بالتمسح بها وتقبيلها

الأدلة على تحريم التبرك بالجمادات كالقبور وغيرها كثيرة، منها ما يلي:

الأول: حديث أبي واقد الليثي وقد تقدم الكلام عليه.

الثاني: إجماع الصحابة والتابعين على بدعية التمسح بقبر النبي ﷺ:

لقد أجمع السلف رضي الله عنهم من الصحابة ومن بعدهم على بدعية التمسح بالقبور ولو كان المُتَمَسِّحُ به هو قبر النبي ﷺ، ومن أدلة ذلك:

• ما روي عن أنس رضي الله عنه أنه رأى رجلاً وضع يده على قبر النبي ﷺ فنهاه، وقال: «ما كنا نعرف هذا على عهد رسول الله ﷺ» (١).

• وروى البيهقي في «شعب الإيمان» عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا قدم من سفر بدأ بقبر النبي ﷺ، فصَلَّى عليه وسَلَّمَ ودعا له **ولا يَمَسُّ القبر**، ثم يُسَلِّم على أبي بكر، ثم قال: السَّلَام عليك يا أبت (٢).

ورواه أيضًا من طريق سعيد بن منصور قال: حدثنا مالك بن أنس عن نافع به (٣).

(١) قاله نور الدين السمهودي في «وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى» (٤/ ١٤٠٢).

(٢) (٨/ ٨٨-٨٩) برقم (٣٨٥٤).

(٣) (٨/ ٩٧-٩٨) برقم (٣٨٦٤).

• وقال أبو الحسن علي بن عمر القزويني في «أماليه»: «قرأت على عبيد الله الزهري، حدثك أبوك قال: حدثنا عبد الله بن جعفر عن أبي داود الطيالسي، عن يحيى بن معين قال: حدثنا أبو أسامة عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر أنه كان يكره مسح قبر النبي ﷺ» (١).

• وقال أيضًا في «أماليه»: «قرأت على عبيد الله الزهري قلت له: حدثك أبوك؛ قال: حدثني عبد الله بن الإمام أحمد قال: حدثني أبي قال: سمعت أبا زيد حماد بن دليل، قال لسفيان -يعني ابن عيينة- قال: كان أحدٌ يتمسح بالقبر؟ قال: لا، ولا يلتزم القبر، ولكن يدنو.

قال أبي (٢): يعني الإعظام لرسول الله ﷺ» (٣).

قال ابن تيمية رحمه الله: «وحماد بن دليل هذا -الذي سمعه أحمد يسأل ابن عيينة - هو معروف من أهل العلم، وروى عنه أبو داود، وكان قاضي المدائن» (٤).

• وروى أبو الحسن القزويني عن الزهري عن أبيه عن عبد الله بن أحمد عن أبيه عن نوح بن يزيد قال: أخبرنا أبو إسحاق -يعني إبراهيم بن سعد- قال: ما رأيت أبي قطُّ يأتي قبر النبي ﷺ، وكان يكره إتيانه (٥).

(١) نقلًا من «الرد على الإخنائي» (ص ٤١٣ - ٤١٤).

تنبيه: الكراهة عند السلف تعني التحريم، كما تقدم.

(٢) يعني الإمام أحمد.

(٣) نقلًا من «الرد على الإخنائي» (ص ٤١٥ - ٤١٦).

(٤) المرجع السابق.

(٥) نقلًا من «الرد على الإخنائي» (ص ٤١٦).

وإبراهيم بن سعد هو الإمام الحافظ الحُجَّة الكبير، من أكثر أهل المدينة حديثًا في زمانه (١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ونوح بن يزيد بن سيار المؤدب هذا- الراوي عن إبراهيم بن سعد- هو ثقة معروف بصحبة إبراهيم، وله اختصاص به، روى عنه أحمد بن حنبل وأبو داود وغيرهما.

قال أبو بكر الأثرم: ذكر لي أبو عبد الله نوح بن يزيد المؤدب فقال: هذا شيخٌ كبيرٌ أخرج إليّ كتاب إبراهيم بن سعد فرأيت فيه ألفاظًا.

وقال محمد بن المشي: سألت أحمد بن حنبل عنه فقال: اكتب عنه، فإنه ثقة، حجَّ مع إبراهيم بن سعد، وكان يُؤدِّب ولده، وذكره ابن حبان في «الثقات».

وأما إبراهيم بن سعد فهو من أكابر علماء المدينة وأكثرهم علمًا وأوثقهم، وكان قد خرج إلى بغداد، روى عنه الناس؛ أحمد ابن حنبل وطبقته، ومن سعة علمه روى عنه الليث بن سعد، وهو أقدم وأجلُّ منه.

وأما أبوه سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزُّهري -الذي ذكر عنه ابنه إبراهيم أنه قال: (ما رأيت أبي قطُّ أتى قبر النبي ﷺ **وكان يكره إتيانه**)؛ وهو (٢) من أفضل أهل المدينة في زمن التابعين، ومن أصلحهم وأعبدهم، وكان قاضي المدينة في زمن التابعين في زمن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وأمثاله، وهو أدرك بناء الوليد بن عبد الملك المسجد وإدخال الحجرة فيه، وأدرك ما كان عليه السلف قبل ذلك من الصحابة والتابعين.

(١) انظر «التهذيب».

(٢) هكذا في المطبوع، ولعل الأولى: فهو.

قال أبو حاتم الرّازي: وهو من جِلَّة أهل المدينة وقدماء شيوخهم، كان على القضاء، وقد ذكروا أنه رأى عبد الله بن عمر، وروى عن عبد الله بن جعفر، وفي سماعه منه نظر، ومات قديماً بعد القاسم بن محمد بقليل، فإن القاسم توفي سنة إحدى وعشرين ومائة، وهذا توفي سنة ست وعشرين ومائة، وقد خرج من المدينة غير مرة، تارة إلى الحج، وتارة كان قد استعمل على الصدقات، ومرة خرج إلى العراق إلى واسط فروى عنه سفيان الثوري وشعبة والعراقيون، وهو الذي روى حديث: «مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو ردٌّ» عن القاسم عن عائشة عن النبي ﷺ.

وقد أدرك بالمدينة جابر بن عبد الله وسهل بن سعد السَّاعِدِي وغيرهما من الصحابة، ورأى أكابر التابعين مثل سعيد بن المسيب وسائر الفقهاء السبعة، ومعلوم أن لم يكن ليخالفهم فيما اتفقوا عليه، بل قد يخالف ابن عمر، فإن ما نقله عنه ابنه يقتضي أنه كان لا يأتيه لا عند السفر ولا غيره، بل يكره إتيانه مطلقاً كما كان جمهور الصحابة على ذلك لما فهموا من نهيه ﷺ عن ذلك، وأنه أمر بالصلاة والسلام عليه في كل زمان ومكان، وقال ﷺ: «لا تتخذوا قبري عيداً»، وقال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد»، كما قد بيّن هذا في مواضع.

مع أن سعد بن إبراهيم هذا في دينه وعبادته وصيامه وتلاوته للقرآن بحيث كان يختم باليوم والليلة كثيراً.

وأبو الحسن علي بن عمر القزويني وغيره من أهل العلم والدين ذكروا هذه الآثار عن الصحابة والتابعين وتابعيهم ليسينوا للناس كيف كان السلف يفعلون في مثل ذلك، وبسطُ هذا له موضع آخر^(١).

(١) نقلاً من «الرد على الإخنائي» ص (٤١٦ - ٤١٨).



فصلٌ في ذكر كلام علماء المذاهب في ذم التمسح بالقبور

وأما أقوال أهل العلم فكثيرة في هذا الباب، نذكرها بحسب ترتيب المذاهب

الأربعة.

قول الحنفية

قال الطحطاوي^(١) الحنفي رحمته الله في حاشيته على 'مراقي الفلاح'^(٢) في (فصل في زيارة القبور): «ولا يَمَسُّ القبر^(٣) ولا يُقبله، فإنه من عادة أهل الكتاب، ولم يُعهد الاستلام إلا للحجر الأسود والركن اليماني خاصة».

قول المالكية

قال مالك -في رواية ابن وهب-: «إذا سَلَّمَ على النبي ﷺ ودعا، يقف ووجهه إلى القبر الشريف لا إلى القبلة، ويدنو ويُسَلِّم، ولا يَمَسُّ القبر بيده»^(٤).
وقال السَّهْوَدي^(٥) رحمته الله في حكم وضع اليد على القبر ما نصَّه: «قد أنكره - أي وضع اليد على القبر - مالك والشافعي وأحمد أشدَّ الإنكار»^(٦).

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) (١/ ٤١٢)، الناشر: المطبعة الأميرية الكبرى بولاق - مصر.

(٣) أي: الزائر لا يَمَسُّ القبر النبوي.

(٤) ذكره القاضي عياض في «الشفا» (٢/ ٧٢)، ط ٣، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت.

(٥) هو علي بن عبد الله السَّهْوَدي، القاهري الشافعي، توفي عام ٩١١، له الكتاب المشهور: «وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى». انظر ترجمته موسعة في «الضوء اللامع» (٥/ ٢١٨) للسخاوي.

(٦) «وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى» (٤/ ١٤٠٢).

وذكر أصحاب الإمام مالك -رحمة الله تعالى- أن الزائر لا يتمسح بقبر النبي ﷺ ولا يمسه (١).

وقال الشاطبي المالكي رحمته الله حاكياً إجماع الصحابة على تحريم التمسح بالقبور أنهم «بعد موته ﷺ لم يقع من أحد منهم شيء من ذلك بالنسبة إلى من خلفه، إذ لم يترك النبي ﷺ بعده في الأمة أفضل من أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فهو كان خليفته، ولم يفعل به شيء من ذلك، ولا عمر رضي الله عنه، وهو كان أفضل الأمة بعده، ثم كذلك عثمان، ثم علي ثم سائر الصحابة الذين لا أحد أفضل منهم في الأمة، ثم لم يثبت لواحد منهم من طريق صحيح معروف أن متبركاً تبرك به على أحد تلك الوجوه أو نحوها، بل اقتصرُوا فيهم على الاقتداء بالأفعال والأقوال والسير التي اتبعوا فيها النبي ﷺ، فهو إذاً إجماعٌ منهم على ترك تلك الأشياء» (٢).

وقال ابنُ الحاج المالكي رحمته الله في «المدخل»: «لا يجوز الطواف حول الأضرحة فإنه لا يُطاف إلا بالبيت العتيق، وكذا لم يُشرع التقبيل والاستلام إلا للحجر الأسود». انتهى مختصراً.

قول الشافعية

قال النووي رحمته الله: «لا يجوز أن يُطاف بقبره رضي الله عنه، ويكره إصاق الظهر والبطن بجدران القبر، قالوا: ويكره مسحه باليد وتقبيله، بل الأدب أن يبعد منه

(١) «كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، فصل (في حكم زيارة قبره رضي الله عنه وفضيلة من زاره وسلم عليه، وكيف يُسلم ويدعو له؟) (٢/ ٧٢، ٧٦)، ط. مؤسسة الثقافة العربية - بيروت.

(٢) «كتاب الاعتصام» للشاطبي (٢/ ٨ - ٩)، ط. دار الفكر - بيروت.

كما يبعد منه لو حضره في حياته ﷺ، هذا هو الصواب الذي قاله العلماء وأطبقوا عليه، ولا يُغتر بمخالفة كثيرين من العوام وفعلهم ذلك، فإن الاقتداء والعمل إنما يكون بالأحاديث الصحيحة وأقوال العلماء، ولا يُلتفت إلى محدثات العوام وغيرهم وجهالاتهم». انتهى.

وقال أيضًا رحمه الله: «قال أبو موسى: وقال الإمام أبو الحسن محمد بن مرزوق الزعفراني - وكان من الفقهاء المحققين - في كتابه في «الجنائز»: ولا يستلم القبر بيده ولا يُقبله، وعلى هذا مضت السنة».

قال أبو الحسن: واستلام القبور وتقبيلها الذي يفعله العوام الآن من المبتدعات المنكرة شرعًا، ينبغي تجنب فعله ويُنهى فاعله» (١).

قول الحنابلة

قال ابن قدامة: «ولا يُستحب التمسح بحائط قبر النبي ﷺ ولا تقبيله».

قال أحمد: «ما أعرف هذا».

قال الأثرم: «رأيت أهل العلم من أهل المدينة لا يَمَسُّون قبر النبي ﷺ، يقومون من ناحية فيُسلَّمون».

قال أبو عبد الله: «وهكذا كان ابن عمر يفعل» (٢).

وقال ابن تيمية رحمه الله: «وأما التمسح بالقبر أو الصلاة عنده أو قصده لأجل

(١) «المجموع» (٥/ ٢٨٦).

(٢) «المغني»، آخر كتاب (الحج) (٥/ ٤٦٨)، ط هجر - مصر.

الدعاء عنده، معتقداً أن الدعاء هناك أفضل من الدعاء في غيره، أو النذر له ونحو ذلك فليس هذا من دين المسلمين، بل هو مما أحدث من البدع القبيحة التي هي من شعب الشرك، والله أعلم وأحكم»^(١).

بل قد حكى ابن تيمية رحمه الله إجماع العلماء على تحريم التمسح بالجمادات عموماً والقبور خصوصاً أو تقبيلها - وإن كان قبر النبي ﷺ، فقال ما نصّه:
«واتفق الأئمة على أنه لا يمس قبر النبي ﷺ، ولا يقبله، وهذا كله محافظة على التوحيد، فإن من أصول الشرك بالله اتخاذ القبور مساجد»^(٢).

وقال أيضاً: «وكذلك حجرة نبينا ﷺ وحجرة الخليل وغيرهما من المدافن التي فيها نبي أو رجل صالح، لا يُستحب تقبيلها ولا التمسح بها باتفاق الأئمة، بل منهى عن ذلك، وأما السجود لذلك فكفر، وكذلك خطابه بمثل ما يخاطب به الرب مثل قول القائل: اغفر لي ذنوبي، أو انصرني على عدوي، ونحو ذلك»^(٣).

وقال أيضاً: «ولهذا اتفق العلماء على أن من زار قبر النبي ﷺ أو قبر غيره من الأنبياء والصالحين من الصحابة وأهل البيت وغيرهم فإنه لا يَتمسح به ولا يقبله، بل ليس في الدنيا من الجمادات ما يُشرع تقبيله إلا الحجر الأسود، وقد ثبت في «الصَّحَّاحِينَ» أن عمر بن الخطاب قال: والله إني لأعلم أنك حَجَر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يُقبِّلُك ما قبَّلْتُك»^(٤).

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٣٢١).

(٢) «الرد على الإخنائي» (ص ١٤٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ١٣٦).

(٤) تقدم تخريجه.

ولهذا لا يُسن باتفاق الأئمة أن يُقبل الرجل ويستلم ركني البيت اللذين يليان الحجر، ولا جدران البيت، ولا مقام إبراهيم، ولا صخرة بيت المقدس، ولا قبر أحد من الأنبياء والصالحين، وأما التمسح بقبر النبي ﷺ وتقبيله - فكلهم كره ذلك ونهى عنه، وذلك أنهم علموا ما قصده النبي ﷺ من حسم مادة الشرك وتحقيق التوحيد وإخلاص الدين لله رب العالمين» (١).

وقال أيضًا رحمه الله: «وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ لَا يُسْتَحَبُّ لِمَنْ سَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ قَبْرِهِ أَنْ يَقْبَلَ الْحَجَرَةَ وَلَا يَتَمَسَّحَ بِهَا لِئَلَّا يُضَاهِيَ بَيْتَ الْمَخْلُوقِ بَيْتَ الْخَالِقِ، وَلَأنَّهُ قَالَ ﷺ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ»، وَقَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا»، وَقَالَ: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنَهَاكُمُ عَنْ ذَلِكَ»، فَإِذَا كَانَ هَذَا دِينَ الْمُسْلِمِينَ فِي قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي هُوَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ فَقَبْرُ غَيْرِهِ أَوْلَى أَنْ لَا يُقْبَلَ وَلَا يُسْتَلَمَ، وَقَدْ حَكَى بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي هَذَا خِلَافًا مَرْجُوحًا، وَأَمَّا الْأَئِمَّةُ الْمُتَّبِعُونَ وَالسَّلَفُ الْمَاضُونَ فَمَا أَعْلَمَ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ خِلَافًا، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ أَعْلَمُ» (٢).

الدليل الثالث من أدلة النهي عن التبرك بالقبور، بالتمسح بها وتقبيلها:

إن التمسح بالجمادات من طريقة أهل الجاهلية وعُباد الأوثان وأهل الكتاب الذين كانوا يتمسحون بها ويسألونها ويتبركون بها ويستغيثون بها كالكالات والعزى ومناة، فالواجب مخالفتهم لا التشبه بهم.

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٧/٧٩)، باختصار.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٦/٩٧)، وانظر (٢٦/٩١-٩٢).

الرابع: إن التمسح بالقبور باطل من جهة العقل أيضًا، فإن الذين يتمسحون بقبور الصالحين ويقبلونها ليس عندهم شاهد بيّن على صلاح ذاك الرجل المقبور واستقامته، لأن صلاح القلب أمر غيبي لا يطلع عليه إلا الله وحده، أما البشر فليس لهم إلا الحكم على الظواهر، فالولاية «وإن ظهر لها في الظاهر آثارٌ فقد يخفى أمرها، لأنّها في الحقيقة راجعة إلى أمر باطن لا يعلمه إلا الله، فربما ادّعت الولاية لمن ليس بولي، أو ادّعاها هو لنفسه، أو أظهر خارقة من خوارق العادات هي من باب الشعوذة لا من باب الكرامة، أو من باب السّحر والخواص أو غير ذلك، والجمهور^(١) لا يعرف الفرق بين الكرامة والسّحر، فيُعظمون من ليس بعظيم، ويقتدون بمن لا قدوة فيه، وهو الضلال البعيد»^(٢).

الخامس: أن تقبيل الجمادات يقتضي تشبيهها ببيت الله -أي الكعبة-، وهذا باطل، قال ابن تيمية رحمه الله: «التقبيل والاستلام إنما يكون لأركان بيت الله الحرام، فلا يُشبه بيت المخلوق ببيت الخالق»^(٣).



(١) أي: عامة الناس.

(٢) «شفاء الصدور في الرد على الجواب المشكور» (ص ٤٩) للشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله.

(٣) «مجموع الرسائل الكبرى» (١/ ٢٩٨).



تنبيهات في مسألة التبرك بالجمادات

﴿التنبيه الأول في حكم التبرك بالجمادات.﴾

قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمته الله:

«كان بعض العامة يتمسحون بالشُّبَّاك الذي على الحُجْرة^(١)، ويمسحون بأيديهم وجوههم ورءوسهم وصدورهم اعتقادًا منهم أن في هذا بركة، وكل هذه الأمور وأمثالها مما لا شرعة فيه، بل هو بدعة ولا ينفع صاحبه بشيء، لكن إن كان صاحبه جاهلاً ولم يطرأ على باله أنه من البدع فيُرجى أن يُعفى عنه، وإن كان عالمًا أو متهاونًا لم يسأل عن دينه فإنه يكون آثمًا، فالناس في هذه الأمور التي يفعلونها إما جاهلاً جهلاً مطبقاً لا يطرأ بباله أن هذا محرم فهذا يرجي ألا يكون عليه شيء، وإما عالم متعمد ليُضِل ويُضِل الناس فهذا آثم بلا شك، وعليه إنم من اتبعه واقتدى به، وإما رجل جاهل ومتهاون في سؤال أهل العلم فيُخشى أن يكون آثمًا بتفريطه وعدم سؤاله»^(٢).

﴿التنبيه الثاني في حكم التمسح بالكعبة﴾

أما الذين يتمسحون بالكعبة رجاء البركة فيقال لهم: قد أخرج الطبراني في

(١) أي: الحجرة النبوية.

(٢) «فقه العبادات» (ص ٣٤٩)، الناشر: مدار الوطن - الرياض.

«معجمه»^(١) وعبد الرزاق في «مصنفه»^(٢) عن نسير بن ذعلوق أن ابن الزبير رأى الناس يمسحون المقام فنهاهم وقال: «إنكم لم تؤمروا بالمسح، إنما أمرتم بالصلاة».

وقال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]: «إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه، ولقد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم قبلها، ولقد ذكر لنا بعض من رأى أثر عقبيه وأصابعه»^(٣)، فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلوق^(٤) وانمحي^(٥).

وعن عبيد بن جريج أنه سأل عبد الله بن عمر فقال له: يا أبا عبد الرحمن رأيتك تصنع أربعاً لم أر أحداً من أصحابك يصنعها، قال: وما هي يا ابن جريج؟ قال: رأيتك لا تمس من الأركان إلا اليمانيين، فقال عبد الله بن عمر: أما الأركان فإني لم أر رسول الله ﷺ يمس إلا اليمانيين^(٦).

(١) «المعجم الكبير»، قطعة من مسانيد من اسمه عبد الله، (ص ٥٣)، تحقيق: طارق بن عوض الله، ط. دار الراية - الرياض.

(٢) (٤٩/٥).

(٣) أي: أثر إبراهيم وأصابعه ﷺ، وكان هذا قبل تمسح الناس به، الأمر الذي آل إلى محو تلك الآثار.

(٤) معنى اخلوق أي: بلي وصار أملساً من كثرة ما يُتمسح به.

(٥) رواه ابن جرير في تفسير الآية المذكورة، ورواه الأزرق في «تاريخ مكة»، باب (ما جاء في الأثر الذي في المقام وقيام إبراهيم ﷺ عليه) (١/٥٣٢)، الناشر: مكتبة الأسد - مكة.

(٦) رواه البخاري (١٦٦)، ومسلم (١١٨٧)، وأبو داود (١٧٧٢)، والنسائي (٢٦٦١)، وأحمد (١٧/٢)، ومالك في كتاب (الحج) (١/٣٣٣).

ولما طاف معاوية رضي الله عنه بالبيت واستلم رُكني الحجر اللذين يليان باب الكعبة أنكر عليه ابن عباس ذلك، لأنه فعل أمرًا زائدًا على فعل النبي ﷺ، فعن أبي الطفيل قال: «رأيت معاوية يطوف بالبيت عن يساره عبد الله بن عباس، وأنا أتلوهما في ظهورهما، أسمع كلامهما، فطفق معاوية يستلم ركن الحجر، فقال له عبد الله بن عباس: إنَّ رسول الله ﷺ لم يستلم هذين الركنين.

فيقول معاوية: دعني منك يا ابن عباس، فإنه ليس منها شيء مهجور.

فطفق ابنُ عباس لا يزيده، كلما وضع يده على شيء من الركنين قال له ذلك»^(١).

وعن يعلى بن أمية قال: «طُفْتُ مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما كنت عند الركن الذي يلي الباب مما يلي الحجر^(٢) أخذتُ بيده ليستلم فقال: أَمَا طُفْتُ مع رسول الله ﷺ؟

قلت: بلى.

قال: فهل رأيته يستلمه؟

قلت: لا.

(١) رواه أحمد (٢٤٦/١)، والطبراني (١٠٦٣١)، (١٠٦٣٢)، (١٠٦٣٤)، (١٠٦٣٤)، وقال

الشيخ شعيب في تحقيقه على «المسند»: «إسناده قويٌّ على شرط مسلم».

(٢) يعني الركن الشامي الذي يلي باب الكعبة مباشرة.

قال: فانفذ عنك^(١)، فإنَّ لك في رسول الله أسوة حسنة^(٢).

قال ابنُ تيمية رحمه الله تعالى: «وهذا كما أنه قد ثبت باتفاق أهل العلم أن النبي ﷺ لما حج البيت لم يستلم من الأركان إلا الركنين اليمانيين، فلم يستلم الركنين الشاميين ولا غيرهما من جوانب البيت، ولا مقام إبراهيم ولا غيره من المشاعر، وأما التقبيل فلم يُقبَّل إلا الحجر الأسود، وقد اتفق العلماء على ما مضت به السنة من أنه لا يشرع الاستلام والتقبيل لمقام إبراهيم الذي ذكره الله تعالى في القرآن وقال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، فإذا كان هذا بالسنة المتواترة وباتفاق الأئمة لا يُشرع تقبيلها بالفم ولا مسحها باليد؛ فغيره من مقامات الأنبياء أولى أن لا يُشرع تقبيلها بالفم ولا مسحها باليد. وأيضاً فإن المكان الذي كان النبي ﷺ يصلي فيه بالمدينة النبوية دائماً^(٣)، لم يكن أحد من السلف يستلمه ولا يُقبله، ولا المواضع التي صلى فيها بمكة وغيرها^(٤).

وقال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله: «فإن العلماء اتفقوا على أنه لا يُشرع التبرك بشيء من الأشجار والأحجار والبقع والمشاهد وغيرها، فإن هذا التبرك غُلُو فيها وذلك يتدرج به إلى دعائها وعبادتها، وهذا هو الشرك الأكبر كما تقدم، وهذا

(١) أي: دعه وتجاوزة.

(٢) رواه أحمد (٣٧/١)، وأبو يعلى (١٨٢)، وقال الشيخ شعيب في «تحقيقه للمسند»

(١/٣٦٥): «إسناده صحيح على شرط مسلم».

(٣) أي عند الأسطوانة، وهي ليست موجودة الآن.

(٤) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٨٠٨-٨٠٩)، باختصار.

عام في كل شيء، حتى مقام إبراهيم وحجرة النبي ﷺ وصخرة بيت المقدس وغيرها من البقع الفاضلة، وأما استلام الحجر الأسود وتقبيله واستلام الركن اليماني من الكعبة المشرفة فهذا عبودية لله وتعظيم لله وخضوع لعظمته، فهو روح التعبد، فهذا تعظيم للخالق وتعبد له، وذلك تعظيم للمخلوق وتأله له، والفرق بين الأمرين كالفرق بين الدعاء لله الذي هو إخلاص وتوحيد والدعاء للمخلوق الذي هو شرك وتنديد»^(١).

التنبيه الثالث: عظم النبي ﷺ بعض الأماكن المحرمة تعظيمًا خاصًا، غير أن هذا التعظيم الخاص لا يُفيد جواز التبرك بها، فليُتنبه إلى هذا.

ومن ذلك تعظيمه للروضة الشريفة في المسجد النبوي، حيث قال ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضةٌ من رياض الجنة»^(٢).

وقال كما في حديث سهل بن سعد ﷺ: «منبري على تُرعةٍ»^(٣) من تُرع الجنة»^(٤).

وقال: «قوائم منبري رواتب في الجنة»^(٥).

وأما معنى قوله «ما بين بيت النبي ﷺ ومنبره روضة من رياض الجنة»، فهو أن

(١) «القول السديد في مقاصد التوحيد»، باب (من تبرك بشجر وحجر ونحوهما)، باختصار.

(٢) رواه البخاري (٧٣٣٥) ومسلم (١٣٩١) عن أبي هريرة ؓ.

(٣) الترعة هي الروضة على المكان المرتفع خاصة. انظر «النهاية».

(٤) رواه أحمد (٣٣٥/٥)، وقال محققو «المسند»: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٥) رواه أحمد (٢٨٩/٦)، والنسائي عن أم سلمة ؓ.

ذلك الموضع بعينه يُنقل إلى الجنة، أو أن العبادة في ذلك الموضع تؤدي إلى الجنة^(١).

وأما التي رُوي أن النبي ﷺ كان يصلي عندها فقد جاءت في هذا آثار غير ثابتة عنه.

وأما ما ثبت عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم كانوا يتبادرون للصلاة عند الأساطين -أي الأعمدة- التي كانت بالمسجد النبوي فليس هذا لمزية في العبادة عندها أو لبركة خاصة، وإنما لأن النبي ﷺ أمر باتخاذ المصلي سُرّة في صلاته، فقد قال ﷺ: «لا تُصَلِّ إِلَّا إِلَى سُرّة»^(٢)، ولهذا كان الصحابة يَتَدَرُونَ السواري في المسجد^(٣).

التنبيه الرابع لولاية الأمر ورجال الحسبة:

قال ابن القيم في «الهدي» في فوائد غزوة الطائف لما غزا ثقيفاً وهدم صنم

(١) قاله الشيخ صالح بن غانم السدلان رحمه الله في «تنبيه زائر المدينة على الممنوع والمشروع في الزيارة» (ص ٦٥)، ويراجع كلام القاضي عياض في كتابه «الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ»، فصل (فيما يلزم من دخل مسجد النبي ﷺ من الأدب سوى ما قدّمناه، وفضله وفضل الصلاة فيه وفي مسجد مكة، وذكر قبره ومنبره، وفضل سُكنى المدينة ومكة) (٧٦/٢)، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت.

(٢) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (٨٠٠)، وابن حبان (٢٣٦٢)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، وجوّد إسناده الألباني رحمه الله في «صفة الصلاة» ص ٨٢، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط في حاشيته على «صحيح ابن حبان»: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

(٣) روى البخاري (٥٠٣) عن أنس رضي الله عنه قال: «أدركت كبار أصحاب النبي ﷺ يَتَدَرُونَ السواري عند المغرب».

اللات، وكانوا قد طلبوا منه أن يتركها لهم ثلاث سنين فأبى، فما برحوا يسألونه سنة سنة وهو يأبى عليهم، فسألوه شهرًا فأبى، فقال ابن القيم رحمه الله مبيّنًا واجب ولي الأمر تجاه مواضع الشرك:

«ومنها^(١): أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يومًا واحدًا، فإنها شعائر الكفر والشرك، وهي أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة، وهكذا حكم المشاهد التي بُنيت على القبور التي اتُّخذت أوثانًا وطواغيت تُعبد من دون الله، والأحجار التي تُقصد للتعظيم والتبرك والنذر والتقيل، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالته، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، وأعظم شركًا عندها وبها، والله المستعان»^(٢).



(١) أي من الفوائد.

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٥٠٦).

شبهات والجواب عليها

الشبهة الأولى: قاس بعضهم التمسح بالقبور على مسح الحجر الأسود وتقبيله!

والجواب على هذه الشبهة هو أن هذا القياس فاسد لأنه قياس مع الفارق، فإن النبي ﷺ قبل الحجر الأسود بقصد التعبد لله لا التبرك بالحجر كما يقصد هؤلاء، ولهذا قال عمر رضي الله عنه لما أتى الحجر الأسود: «والله إني لأعلم أنك حَجَر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يُقبلك ما قبّلتك» (١).



الشبهة الثانية: احتج بعضهم بما رواه إسماعيل القاضي في كتابه «فضل الصلاة على النبي ﷺ»: «حدثني إسحاق بن محمد قال، حدثنا عبد الله بن عمر، عن نافع، أن ابن عمر كان إذا قدم من سفر صَلَّى سجدتين في المسجد، ثم يأتي النبي ﷺ، فيضع يده اليمين على قبر النبي ﷺ، ويستدبر القبلة، ثم يُسلم على النبي ﷺ، ثم على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما».

فالجواب على هذا الأثر من وجهين:

الأول: ضعفُ إسناده، فإن عبد الله بن عمر -الراوي عن نافع- ضعيف، قال فيه ابن حبان البستي: «روى عنه العراقيون وأهل المدينة، كان ممن غلب عليه

(١) تقدم تخريجه.

الصلاح والعبادة حتى غفل عن حفظ الأخبار وجودة الحفظ للآثار، فوقع المناكير في روايته، فلما فحش خطؤه استحق الترك»^(١).

وقال أبو عيسى الترمذي في «جامعه»: «وعبد الله بن عمر ضَعَفَه يحيى بن سعيد من قِبَل حفظه في الحديث»^(٢). وكذا قال البخاري^(٣).

وقال الترمذي في «العلل الكبير» عن البخاري: «ذاهبٌ لا أروي عنه شيئاً»^(٤).

وقال ابنُ المديني: «عبد الله ضعيف»^(٥).

وقال النسائي: «ليس بالقوي»^(٦).

وقال العقيلي: «حدثنا عبد الله بن أحمد قال: سألت يحيى عن عبد الله بن عمر العمري فقال: ضعيف»^(٧).

وقال الألباني رحمته الله في إسناده هذا الأثر: «إسناده موقوف ضعيف. وقوله: «ويضع يده اليمين على قبر النبي ﷺ» مُنكر، تفرد به عبد الله بن عمر هذا عن نافع، وهو العمري المكبر وهو ضعيف.

(١) «كتاب المجروحين من المحدثين» (١/٤٩٨).

(٢) (١/١٩٠)، كتاب (الطهارة)، باب (ما جاء فيمن يستيقظ فيرى بللاً ولا يذكر احتلاماً).

(٣) «الضعفاء الصغير»، ترجمة رقم (١٨٨).

(٤) انظر «التهذيب» (٣/٢٠١).

(٥) انظر «ميزان الاعتدال» (٤/١٥٢)، و«التهذيب» (٣/٢٠٠).

(٦) «الضعفاء والمتروكين» (ص ١٩٩).

(٧) كتاب «الضعفاء» (٢/٦٧٩).

والراوي عنه إسحاق بن محمد هو الفروي، وهو وان كان روى له البخاري ففيه ضعف.

قال أبو حاتم: كان صدوقاً، ولكن ذهب بصره وربما لُقِّن، وكُتِبَ صحيحه.

وقال مرة: يضطرب.

ووهَّاه أبو داود جداً.

فهذه الزيادة المُنكرة منه أو من شيخه»^(١).

الثاني: أن هذا الأثر مخالف لما هو أرفع منه إسناداً، فقد روى أبو الحسن علي بن عمر القزويني في «أماليه» قال: «قرأت على عبيد الله الزهري، حدثك أبوك قال: حدثنا عبد الله بن جعفر عن أبي داود الطيالسي، عن يحيى بن معين قال: حدثنا أبو أسامة عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر أنه كان يكره مَسَّ قبر النبي ﷺ»^(٢).

وروى -أيضاً- في «أماليه» قال: «قرأت على عبيد الله الزهري قلت له: حَدَّثَكَ أبوك قال: حدثني عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال سمعت أبا زيد، حماد بن دليل قال لسفيان -يعني ابن عيينة- قال: كان أحدٌ يتمسح بالقبر؟

قال: لا، ولا يلتزم القبر، ولكن يدنو»^(٣).

كذلك، فإن هذا الأثر يخالف أثراً آخر صحيح الإسناد، وهو أن ابن عمر كان إذا أتى من سفر أو أراد سفراً أتى قبر النبي ﷺ فقال: «السَّلام عليك يا رسول الله،

(١) ص (٨٢ - ٨٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه»^(١). ثم ينصرف ولا يزيد على ذلك شيئًا، لا مسَّ قبرٍ ولا غيره.



الشبهة الثالثة: احتج بعض الناس بما رواه ابن سعد فقال:

أخبرنا محمد بن إسماعيل بن أبي فُديك، قال أخبرني ابن أبي ذئب عن حمزة بن أبي جعفر عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد القاري أنه نظر إلى ابن عمر وضع يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر، ثم وضعها على وجهه^(٢).

ورواه ابن حبان بنحوه في ترجمة إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد القاري^(٣).

والجواب: هذا أثر لا يثبت عن ابن عمر ؓ، ففيه حمزة بن أبي جعفر، ترجم له البخاري في «التاريخ الكبير»^(٤)، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل»^(٥)، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا.

وإبراهيم بن عبد الرحمن ذكره البخاري في «التاريخ الكبير»^(٦) ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، فهما في عداد المجاهيل.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر «الطبقات» (١/٢٥٤) ط. دار صادر - بيروت.

(٣) انظر «الثقات» (٩/٤) ط. حيدر آباد - باكستان.

(٤) (٥١/٣).

(٥) (٢٠٩/٣).

(٦) (٢٩٧/١).

بل الوارد عن السلف كراهيةُ هذا الفعل -أي وضع اليد على المنبر-، فقد روى ابن أبي شيبة في «مصنفه» بسنده عن سعيد بن المسيب «أنه كره أن يضع يده على المنبر»^(١).

ثم إن المنبر الذي كان ابن عمر يضع يده عليه -إذا صح عنه- إنما هو المنبر الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ ويجلس عليه، أما الآن فقد تغير المنبر، فلا معنى لهذا الاستحباب^(٢).

قال ابن تيمية رحمه الله: «وقد رخص أحمد وغيره في التمسح بالمنبر والرُّمَّانة التي هي موضع مقعد النبي ﷺ ويده، وكره مالك رحمه الله التمسح بالمنبر كما كرهوا التمسح بالقبر، وأما اليوم فقد احترق المنبر وما بقيت الرُّمَّانة، وإنما بقي من المنبر خشبة صغيرة، فقد زال ما رُخص فيه، لأن الأثر المنقول عن ابن عمر وغيرها إنما هو التمسح بمقعده»^(٣).



(١) «الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار» (٣/ ٤٣٥)، كتاب (الحج)، باب (في مس منبر النبي ﷺ).

(٢) استفدت هذه الفائدة من «تنبيه زائر المدينة على الممنوع والمشروع في الزيارة» (ص ٦٣، للشيخ صالح بن غانم السدلان حفظه الله).

(٣) قاله في «الافتضاء» (٢/ ٧٢٦ - ٧٢٧).

الشبهة الرابعة: تعلق بعض الناس بما رُوي عن الإمام أحمد رحمته الله أنه قال: «لا بأس به»، أي تقبيل القبر النبوي!

وهذه الشبهة مردودة من جهة أن هذا النقل غير ثابت عن الإمام أحمد، فقد قال ابن قدامة في «المغني»: «لا يُستحب التمسح بحائط قبر النبي ﷺ ولا تقبيله.

قال أحمد: ما أعرف هذا.

قال الأثرم: رأيت أهل العلم من أهل المدينة لا يمسون قبر النبي ﷺ، يقومون من ناحية فيُسلّمون. قال أبو عبد الله - (يعني الإمام أحمد) ^(١) -: وهكذا كان ابن عمر يفعل ^(٢).



الشبهة الخامسة: احتج بعض الناس بما ورد عن النبي ﷺ أنه جاء إلى سقاية ^(٣) العباس بن عبد المطلب ليشرب من الساقية، فأمر العباس ابنه عبد الله أن يأتي النبي ﷺ بماء آخر من الدار غير الماء الذي يشرب منه الناس لأن العباس استقذره وقال: يا رسول الله، هذا تمسه الأيدي، نأتيك بماءٍ غيره ^(٤)، فقال النبي ﷺ: «لا، إنما أريد بركة المسلمين وما مسّته أيديهم».

(١) ما بين القوسين من كلام ابن قدامة رحمته الله.

(٢) «المغني»، آخر كتاب (الحج) (٥/٤٦٨)، ط. هجر - مصر.

(٣) السقاية: إناء يُشرب فيه.

(٤) رواه البخاري (١٦٣٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال بعض الناس: ما دام أن النبي ﷺ طلب أن يتبرك بما مسته أيدي الناس، فيصح - أيضًا - أن يُتبرك بعموم آثار الصالحين كذواتهم ولباسهم وأيديهم وغير ذلك من آثارهم، بل جعلوا ذلك دليلاً على جواز التبرك بقبورهم بمسحها وتقبيلا ونحو ذلك!

والجواب عن هذه الشبهة أن الشطر الأول من الحديث ثابت بل قد رواه البخاري.

وأما لفظة: (إنما أريد بركة المسلمين وما مسته أيديهم) في قصة العباس فليست في «صحيح البخاري» ولا في غيرها من الأمهات الست، وإنما رواها أبو حفص الملاء في «سيرته» بلفظ: «فقال اسقني لأتبرك بأكف المسلمين»، وقد ضعف إسناده الحافظ العراقي في كتابه «المعني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار»^(١).

وبهذا يُعلم أن هذه الزيادة غير ثابتة في أصل الحديث، فلا يصح الاستدلال بها على جواز التبرك بآثار الصالحين، والله أعلم.



الشبهة السادسة: تعلق بعض الناس بما ورد عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ أنها كانت تأتي قبر عمّها حمزة رضي الله عنه فترمّيه (أي ترمّمه) وتصلّحه.

قالوا: وفي هذا دليل على وجوب العناية بالقبور لئلا تندرس آثارها، ومن ثمّ فيمكن التبرك بها!

(١) قاله الشيخ محمد بن إبراهيم في «شفاء الصدور» (ص ٥٠ - ٥١)، باختصار.

وقد روى هذا الأثر ابن سعد في «الطبقات» فقال: «أخبرنا عبد الله بن نمير، قال: أخبرنا زياد بن المنذر عن أبي جعفر قال: كانت فاطمة تأتي قبر حمزة فترمُّهُ وتُصلِّحهُ» (١).

والجواب عن هذه الشبهة من وجهين:

الأول: أنه أثر مكذوب على فاطمة عليها السلام، إذ في إسناده زياد بن المنذر.

قال الإمام أحمد: «متروك الحديث» (٢).

وقال يحيى بن معين: «كذاب، ليس بثقة» (٣).

وقال ابن حبان: «كان رافضيًا، يضع الحديث في مثالب أصحاب النبي ﷺ، ويروي في فضائل أهل البيت أشياء ما لها أصول، لا يحل كتابته حديثه» (٤).

الثاني: نكارة المتن، فإن النساء عموماً منهيات عن زيارة القبور كما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لعن الله زَوَارَاتِ القبور (٥)، فهل يُعقل أن بنت رسول الله ﷺ تفعل ذلك؟

(١) «الطبقات» لابن سعد (٣/ ٩٩)، الناشر: دار بيروت للطباعة والنشر.

(٢) «كتاب الجرح والتعديل» (٣/ ٥٤٦).

(٣) المصدر السابق.

(٤) «كتاب المجروحين من المحدثين» (١/ ٣٨٤).

(٥) رواه الترمذي (١٠٥٦)، وأحمد (٢/ ٣٣٧)، وحسنه الألباني ومحققو «المسند» (١٤/ ١٦٤)،

وفي الباب عن ابن عباس رضي الله عنه: «لعن الله زائرات القبور، والمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ»، وقد تقدم ذكره في (المظهر الثاني).

ولو أنها كانت تفعل ذلك، فهل يُعقل أنها كانت تفعل ذلك ورسول الله ﷺ لا ينهاها؟!

فإن قيل إنها فعلت ذلك بعد وفاة الرسول ﷺ فإن هذا لا يستقيم أيضًا، لأن فاطمة ماتت بعد الرسول ﷺ بستة أشهر، والأثر يقول إنها تأتي كل عام فتصلح قبر عمها وترمه، فالأثر ظاهر البطلان.

⚠ تنبيه

• قد روى هذا الأثر - أيضًا - أبو عبد الله الحاكم عن سليمان بن داود، عن جعفر بن محمد، عن أبيه عن علي بن الحسين عن أبيه: «أن فاطمة بنت النبي ﷺ كانت تزور قبر عمّها حمزة كل جمعة، فتُصلي وتبكي عنده» (١).
ورواه البيهقي في «السنن الكبرى» من طريق الحاكم به (٢).

قال الذهبي في «تلخيص المستدرک»: «منكر جدًّا، وفيه سليمان بن داود وقد ضَعُف».

وأما نكارة متن هذا الأثر فظاهرة، لأن فيه أن فاطمة ارتكبت أربعة كبائر! أنها اتخذت قبر عمّها مسجدًا، وأنها تعود كل أسبوع - وقد نهى النبي ﷺ عن اتخاذ القبور أعيادًا -، وأنها تنوح على الميت - والنياحة من كبائر الذنوب -، وأنها كانت تزور القبور وقد نهى النبي ﷺ عن زيارة النساء للقبور، ولا يخفى قبح الواحد

(١) «مستدرک الحاكم» (١/ ٥٣٣)، كتاب (الجنائز).

(٢) كتاب (الجنائز)، حديث رقم (٧٢٠٨).

من هذه الأربعة في واحد من الناس، فكيف بها مُجتمعة في بنت النبي ﷺ؟ فهذا مما يدل على بطلان نسبة هذا القول أصلاً.

• وقد روى هذا الأثر أيضاً عبد الرزاق في «مصنفه» عن ابن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: «كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تزور قبر حمزة كل جمعة» (١).

وهذا الطريق ضعيف لإرساله، لأن أبا جعفر لم يُدرك فاطمة رضي الله عنها، فقد وُلِد سنة ستين (٢)، وفاطمة ماتت في السنة الثالثة للهجرة.

وقد أشار البيهقي إلى ضعف هذا الأثر، فذكره في «السنن الصغرى» بصيغة التمريض، فقال: «رُوي» (٣).

• وقد روى هذا الأثر أيضاً عبد الرزاق في «مصنفه» أيضاً عن البجلي عن الكلبي عن الأصبع بن نباته، «أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ كانت تأتي قبر حمزة، وكانت قد وضعت عليه علماً تعرفه» (٤).

وهذا الخبر مكذوب أيضاً، فيه الكلبي وهو محمد بن السائب.

قال فيه الدارقطني: «متروك» (٥).

(١) (٥٧٢/٣).

(٢) انظر «التهذيب» ترجمة رقم (٧٢٧٤).

(٣) (٣٧٧/١) بتحقيق: خليل مأمون شيحا، ط. دار المعرفة.

(٤) (٥٧٤/٣)، برقم (٦٧١٧).

(٥) «موسوعة أقوال أبي الحسن الدارقطني في رجال الحديث وعلمه»، ترجمة رقم (٣٠٨٧).

وقال الجوزجاني: «كذاب ساقط»^(١).

وقال ابن حبان: «وكان الكلبي سبئاً من أصحاب عبد الله بن سبأ، من أولئك الذين يقولون: إن علياً لم يمت، وأنه راجع إلى الدنيا، يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً، وإن رأوا صحابة قالوا: أمير المؤمنين فيها»^(٢).

وقال الساجي: «متروك الحديث، وكان ضعيفاً جداً لفرطه في التشيع، وقد اتفق ثقات أهل النقل على ذمّه وترك الرواية عنه في الأحكام والفروع»^(٣). وفي الإسناد كذاب آخر وهو الأصبغ بن نباتة.

قال يحيى بن معين: «ليس بشيء»^(٤).

وقال أبو بكر بن عياش: «الأصبغ بن نباتة، وهيثم، هؤلاء كلهم الكذابون»^(٥).

قال ابن حبان: «أتى بالطامات في الروايات، فاستحق من أجلها الترك»^(٦).

• وقد روي هذا الأثر من طريق آخر فقال ابن عبد البر رحمته الله: «قال أبو بكر^(٧): وحدثنا مُسَدَّد، قال حدثنا نوح بن دراج عن أبان بن تغلب عن جعفر بن

(١) «تهذيب التهذيب»، ترجمة رقم (٦٩٦٠).

(٢) «كتاب المجروحين من المحدثين» (٢/٢٦٢).

(٣) «تهذيب التهذيب»، ترجمة رقم (٦٩٦٠).

(٤) «كتاب الجرح والتعديل» (٢/٣١٩)، وكتاب «المجروحين من المحدثين» (١/١٩٦).

(٥) «كتاب الضعفاء» للعقيلي (١/١٤٨).

(٦) «كتاب المجروحين من المحدثين» (١/١٩٦).

(٧) يعني: الأثرم.

محمد قال: كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تزور قبر حمزة بن عبد المطلب كل جمعة، وعَلَّمته بصخرة» (١).

وهذا السند ساقط أيضًا، إذ فيه نوح بن دراج وهو متروك الحديث، وقد كذَّبه ابنُ معين (٢).

ثم إن في السند انقطاعًا بين جعفر بن محمد وفاطمة ؓ، فقد تقدم أن أبا جعفر لم يلق فاطمة، فقد وُلد سنة سِتِّين، وتوفيت فاطمة في السنة الثالثة للهجرة، فكيف بابنه جعفر؟

وخلاصة القول أنَّ هذا الأثر مكذوب على فاطمة ؓ بنت النبي ﷺ، قد افتراه بعض الرافضة - عباد القبور - عليها، وإلا فإن ترميم القبور واستصلاحها والمحافظة عليها من الاندثار ليس من شريعة الإسلام البتة، بل الشريعة بخلافه، كأمره ﷺ عليًا بتسوية القبور، والله الهادي.



(١) «التمهيد» لابن عبد البر، كتاب (الضحايا)، باب (ادخار لحوم الأضاحي) (٣٠١ / ١٠)، ط.

دار الفاروق الحديثة - مصر.

(٢) انظر «التقريب»، ترجمة رقم (٧٢٠٥).

الشبهة السابعة:

قال بعض الناس: لقد أثبت القرآن صراحة لا تلميحاً ولا مجازاً أن بقايا الصالحين وآثارهم يمكن التوسل بها في استجلاب الخير ودفع الضرر مهما تقادم بها العهد، واستدلوا بقول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وقد أجاب عن هذه الشبهة فضيلة الشيخ حمود بن عبد الله التويجري رحمه الله **بما نصه:**

الجواب أن يقال: إن الشريعة المحمدية الكاملة قد نسخت الشرائع التي كانت قبلها، فليس لأحد أن يعمل بشيء يخالفها، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الغلو، وأعظم الغلو ما كان وسيلة إلى الشرك بالله تعالى، ومنه التبرك ببقايا الصالحين وآثارهم والتوسل بها في استجلاب الخير واستدفاع الضرر، وقد قال رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمسين: «أَلَا وَإِنَّ مَن كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنهَاكُمُ عَنْ ذَلِكَ». رواه مسلم من حديث جندب بن عبد الله البجلي رحمه الله.

قال النووي في «شرح مسلم»: «قال العلماء: إنما نهى النبي ﷺ عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجداً خوفاً من المبالغة في تعظيمه والافتتان به، فربما أدى ذلك إلى الكفر كما جرى لكثير من الأمم الخالية». انتهى.

وفي «الصحيحين» وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال في مرضه الذي لم يَقم منه: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

وفي «الصحيحين» وغيرهما أيضًا عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما قالوا: «لما نُزِل برسول الله ﷺ طُفِقَ يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يُحَذِّرُ مثل ما صنعوا».

وفي هذه الأحاديث دليل على أنه لا يجوز التبرك بآثار الصالحين ولا الدعاء عند قبورهم ومقاماتهم، لأن ذلك وسيلة إلى الغلو فيهم والإشراك بهم، وسدُّ الذرائع المفضية إلى الشرك هو الحكمة في نهيه ﷺ عن اتخاذ قبره عيدًا وعن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد ولعنه الذين اتخذوا قبورهم مساجد.

وبالجملة فليس في الآية من سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢٤٧] ما يدل على جواز التوسل ببقايا الصالحين وآثارهم في استجلاب الخير واستدفاع الضرر، ومن زعم أن الآية تدل على جواز التوسل ببقاياهم وآثارهم فقد جمع بين ثلاثة أمور محرمة:

أحدها: الغلو في الصالحين، والغلو فيهم من أعظم الوسائل إلى الشرك بهم، وقد نهى النبي ﷺ عن الغلو وتقدم ذكر الحديث في ذلك.

الثاني: القول في القرآن بمجرد الرأي ^(١).

الثالث: اتباع ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وتضليل الجهال الذين لا

(١) وهذا حرام، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقوله تعالى لَمَّا ذَكَرَ المحرمات: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

يعرفون الفرق بين الحق والباطل، وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧].

وقد قال ابنُ وضاح في كتاب «البدع والنهي عنها»:

«كان مالك بن أنس وغيره من علماء المدينة يكرهون إتيان تلك المساجد وتلك الآثار للنبي ﷺ ما عدا قُبَاءً وأُحُدًا».

قال ابنُ وضاح: «وسمعتهم يذكرون أن سفيان الثوري دخل مسجد بيت المقدس فصَلَّى فيه ولم يَتَّبِعْ تلك الآثار ولا الصلاة فيها، وكذلك فعل غيره - أيضًا - ممن يُقتدئ به، وقَدِمَ وكيعٌ - أيضًا - مسجدَ بيت المقدس فلم يَعُدْ فَعَلَ سفيان» (١).

قال ابنُ وضاح: «فعليكم بالاتباع لأئمة الهدى المعروفين» (٢).

انتهى كلام الشيخ حمود رحمته الله (٣).



الشبهة الثامنة: فإن قيل إن سلمة بن الأكوع كان يتحرى الصلاة عند أسطوانة بالمسجد النبوي!

فالجواب أنه كان يتأسى في هذا بالنبي ﷺ، وقد كان من هديه ﷺ أنه لا يُصَلِّي

(١) أي: لم يَتَّعِدْ فِعْلَهُ.

(٢) انظر باب (ما جاء في اتِّباع الآثار).

(٣) «الأجوبة الجليلة على الأسئلة الكويتية» (ص ١٦ - ٢٢)، باختصار.



إلا إلى ستره، ولهذا أخرج البخاري في كتاب (الصلاة)، باب (الصلاة إلى الأسطوانة) قول عمر: المصلون أحق بالسَّواري من المتحدثين إليها.

ورأى عمر رجلاً يصلي بين أسطوانتين فأدناه إلى سارية فقال: «صَلِّ إِلَيْهَا».

وله عن يزيد بن أبي عبيد قال: «كنت آتي مع سلمة بن الأكوع فيصلني عند الأسطوانة التي عند المصحف، فقلت: يا أبا مسلم، أراك تتحرى الصلاة عند هذه الأسطوانة!»

قال: فإني رأيتُ النبي ﷺ يتحرى الصلاة عندها^(١).

وله عن أنس قال: «لقد رأيت كبار أصحاب النبي ﷺ يبتدرون السواري عند المغرب».



(١) ورواه مسلم (٥٠٩) أيضًا.

خلاصة القول في مسألة التبرك

خلاصة القول في مسألة التبرك ثلاثة أمور:

١. أن البركة من الله وحده لا شريك له، فهو خالقها وواهبها، يجعلها فيما شاء من مخلوقاته وينزعها ممن شاء سبحانه، حسب ما تقتضيه حكمته ﷻ.
٢. أن ما شرع الله التبرك به من الأفعال والأقوال والأزمنة والأمكنة والأزمنة إنما هو أسباب للبركة وليست هي التي تأتي بالبركة من عند نفسها، فهي كالأدوية التي جعلها الله سبباً للشفاء والشافى هو الله، فكما أنه لا يصح أن يطلب الشفاء من الدواء نفسه فكذلك لا يصح أن تُطلب البركة من السبب نفسه، ومن فعل ذلك فقد أشرك بالله، لأنه جعل لله شريكاً في ملكه، نسأل الله العافية.
٣. لا يُستحب تقبيل أو مسح شيء من الذوات ولا الجمادات، إلا الحجر الأسود، فإنه يشرع تقبيله في الطواف أو مسحه لمن لم يستطع تقبيله بقصد التعبد لا بقصد التبرك، وما سوى ذلك فمسحه أو تقبيله بدعة ومن خصال الجاهلية، لا سيما قبور الصالحين، بل هو مُفَضِّل إلى عبادة ذلك المتبرك به - عياداً بالله -.



المظهر الثالث والعشرين: تعظيم الأماكن التي مر بها الأنبياء أو صلوا عندها

❁ أدلة النهي عن تعظيم الأماكن التي مر بها الأنبياء أو صلوا

عندها

❁ تقارير لبعض أهل العلم في باب تحريم تعظيم الأماكن

التي مر بها الأنبياء

❁ تنبيهان

❁ ضوابط وكلمات جامعة في باب تعظيم بعض الأماكن

❁ شبهات والجواب عليها

❁ خلاصة

من مظاهر الغلو: تعظيم الأماكن التي مر بها بعض الأنبياء أو صَلَّوْا عندها لمجرد أنهم مَرُّوا بها أو صَلَّوْا عندها، وبعض الناس يتعبد عندها، فيصلِّي عندها ويدعو وربما تمسح بتلك الأمكنة، ومن تلك الأمكنة طور سيناء الذي ذهب إليه موسى ﷺ، وغار حراء بمكة الذي كان يتعبد فيه النبي ﷺ قبل بعثته، ونحوها من الأماكن، وهذا التعظيم في غير محله، فإن تلك الأماكن لو كان تعظيمها والعبادة عندها من الدين لَبَيَّنَّه النبي ﷺ، لأنه أعلم الأمة بأمر دينها، ولأنه أحرص الناس على الخير، ولأنه مسئول عن تبليغ الدين للناس، ولما تركه لاجتهادات الناس. فلما لم يكن شيء من ذلك؛ عُلِمَ أن تعظيم تلك الأماكن من البدع والمحدثات في دين الله.



أدلة النهي عن تعظيم الأماكن التي مر بها الأنبياء أو صَلَّوْا عندها

• وقد جاء في السنة المطهرة ما يدل على ذم قصد تلك الأماكن بسفر أو غير سفر بقصد التعبد أو التعظيم، لأن ذلك من وسائل الشرك، منها حديث ليث عن شهر قال: لقينا أبا سعيد ونحن نريد الطور^(١) فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا تُشَدُّ الْمَطْيُ^(٢) إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، وبيت المقدس»^(٣).

يُستفاد من الحديث أن غير الأماكن التي حددها النبي ﷺ بقصد العبادة فإنه لا يُشرع الذهاب إليها لعبادة ولا دعاء ولا غيره.

• وروى ابن أبي شيبة أن أبا بصرة الغفاري لقي أبا هريرة رضي الله عنه وقد أتى من الطور فقال أبو بصرة: من أين أقبلت؟
فقال: من الطور.

فقال أبو بصرة: أما لو أدركتكم قبل أن تخرج إليه ما خرجت إليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا تَعْمَلُ الْمَطْيُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: إلى المسجد الحرام،

(١) وهو المكان الذي كَلَّمَ فيه الله ﷻ موسى عليه السلام.

(٢) الْمَطْيُ: جمع مَطِيَّة، وهي الناقة التي يُركب مَطَاهَا، أي: ظهرها. انظر «النهاية».

(٣) تقدم تخريجه.



وإلى مسجدي، وإلى مسجد إيلياء - أو بيت المقدس - يشكُّ» (١).

• وعن قزعة قال: «سألت ابن عمر: آتي الطور؟

فقال: دع الطور، لا تأته، وقال: لا تُشدُّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد» (٢).

قال ابنُ تيمية رحمته الله: «فإن الصحابة والتابعين والأئمة لم يُعرف عنهم نزاع في أن السفر إلى القبور وآثار الأنبياء داخل في النهي، كالسفر إلى الطور الذي كلَّم الله عليه موسى وغيره - وإن كان سَمَّاه الله الوادي المقدس وسَمَّاه البقعة المباركة ونحو ذلك -، فلم يُعرف عن الصَّحابة نزاع أن هذا وأمثاله داخل في نهْي النبي ﷺ عن السفر إلى غير المساجد الثلاثة، كما لم يُعرف عنهم نزاع أن ذلك منهي عنه، وأن قوله «لا تُشدُّ الرِّحال» نهْيٌ بصيغة الخبر، كما قد جاء في الصَّحيح بصيغة النهي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «لا تشدُّوا الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى».

فالصحابة ومن تبعهم لم يُعرف عنهم نزاع أن هذا منهي عنه، فإن لفظه ﷺ صريح في النهي، ولم يُعرف عنهم نزاعٌ أن النهي متناول للسفر إلى البقاع المعظمة غير المساجد، سواء كان النهي عنها بطريق فحوى الخطاب، وأنه إذا نهى عن السفر إلى مسجد غير الثلاثة فالنهي عن السفر إلى ما ليس بمسجدٍ أولى، أو كان بطريق شمول اللفظ، فالصحابة الذين رووا هذا الحديث بيَّنوا عمومته لغير المساجد، كما في

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه ابن أبي شيبة (١٥٥٣٩)، وصحَّح إسناده الألباني في «تحذير الساجد» (ص ٩٥).

«الموطأ» و«المسند» و«السنن» عن أبي بصرة الغفاري أنه قال لأبي هريرة: من أين أقبلت؟ قال: من الطور، فقال: لو أدركتك قبل أن تخرج لما خرجت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا تَعْمَلُ الْمَطْيُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَإِلَى مَسْجِدِي هَذَا، وَإِلَى مَسْجِدِ إِيلِيَا - أَوْ قَالَ - بَيْتِ الْمَقْدَسِ».

وقال أبو زيد عمر بن شبة النميري في كتاب «أخبار المدينة»: حدثنا هشام بن عبد الملك، حدثنا عبد الحميد بن بهرام، حدثنا شهر بن حوشب، سمعت أبا سعيد الخدري - وذكر عنده الصلاة في الطور - فقال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَنْبَغِي لِلْمَطْيِ أَنْ تُشَدَّ رِحَالُهَا إِلَى مَسْجِدٍ تُبْتَغَى فِيهِ الصَّلَاةُ غَيْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَمَسْجِدِي هَذَا».

فهذا فيه أنه رواه بلفظ «مسجد»، وبين أن النهي متناول للطور وإن لم يكن مسجداً بطريق الأولى، فإن الذين يقصدون الطور ومثله لا يقصدونه لأنه مسجد، بل ولم يكن هناك قرية يتخذ المسلمون فيها مسجداً، وبناء المسجد حيث لا يصلح فيه بدعة، وإنما يقصدونه لشرف البقعة، فعلم أن النهي عن المساجد نهى عن غيرها بطريق الأولى.

وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «أَحَبُّ الْبَقَاعِ إِلَى اللَّهِ الْمَسَاجِدُ». فإذا كان قد حُرِّمَ السفر إلى أحب البقاع إلى الله غير الثلاثة، فما دونها في الفضيلة أولى أن يُنْهَى عنه، كما قال الصحابة^(١).

(١) «الرد على الإخنائي» (ص ١١٤ - ١١٧).

• **وعن المَعْرُور بن سُويْد قال:** «خرجنا مع عمر في حَجَّة حَجَّهَا، فقرأ بنا في الفجر ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، و﴿لَيْلِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١]، فلما قضى حَجَّه ورجع والناس يبتدرون^(١)، فقال: ما هذا؟ فقالوا: مسجدٌ صلى فيه رسول الله ﷺ.

فقال: هكذا هلك أهل الكتاب، اتخذوا آثار أنبيائهم بيعًا^(٢)، مَنْ عَرَضَتْ لَهُ منكم الصلاة فليُصَلِّ، وَمَنْ لم تَعْرِضْ لَهُ منكم فيه الصلاة فلا يُصَلِّ^(٣).

وفي رواية: «أنه رأى أناسٌ يَنْزِلُونَ فيُصَلُّونَ في مسجدٍ، فسأل عنهم فقالوا: مسجدٌ صلى فيه النبي ﷺ.

فقال: إنما هلك مَنْ كان قبلكم اتخذوا آثار أنبيائهم بيعًا، من مرَّ بشيء من المساجد فحضرت الصلاة فليُصَلِّ، وإلا فليَمْضِ^(٤).

(١) أي: يبتدرون مكانًا يقصدونه للصلاة والعبادة.

(٢) البَيْع: جمع بَيْعة بكسر الباء، وهي كنيسةٌ للنصارى. انظر «مختار الصحاح»، مادة: (بيع).

(٣) هذه رواية ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٥٣/٢).

(٤) هذه رواية عبد الرزاق في «المصنف» (١١٨/٢) رقم (٢٧٣٤).

ورواه ابن وضاح في «البدع والنهي عنها»، باب (ما جاء في اتِّباع الآثار)، وعزاه ابن تيمية في «الاقتضاء» (٧٥١/٢) إلى «سنن سعيد بن منصور»، وليس في القسم المطبوع منه، فلعله في المفقود.

والأثر صححه ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوى» (٣٣/٢٧) و«الرد على البكري» (٤٣٣/٢)، وكذا ابن حجر في «الفتح» (٦٧٨/١) شرح أثر رقم (٤٨٣)، والألباني في «فضائل الشام ودمشق» (ص ٥٠)، ط ١، الناشر: مكتبة المعارف - الرياض.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ مَبِيناً للحكمة من قول عمر: «وهذا لأن الله لم يشرع للمسلمين مكاناً يتناوبونه للعبادة إلا المساجد خاصة، فما ليس بمسجد لم يُشرع قصده للعبادة وإن كان مكان نبي أو قبر نبي»^(١).

• ولما بلغه أن الناس يتناوبون الشجرة التي بايع تحتها رسول الله ﷺ أصحابه أرسل فقطعها، كما رواه ابن وضّاح في كتابه «البدع والنهي عنها» فقال: «سمعت عيسى بن يونس يقول: أمر عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقطع الشجرة التي بُويع تحتها النبي ﷺ فقطعها، لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها، فخاف عليهم الفتنة»^(٢).

ففي هذين الأثرين عن عمر يتبين لنا أربعة أمور:

الأول: كراهية عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لتعظيم المكان الذي صلى فيه النبي ﷺ اتفاقاً ولم يقصد الصلاة فيه، وما ذاك إلا لأن النبي ﷺ لم يُعظمه، ولم يشرع عنده صلاة ولا غيرها، وإنما صلى عندها اتفاقاً بدون قصد الصلاة عنده.

وقول عمر حُجة، لأن الرسول ﷺ أمرنا أن نتبع سنته كما في قوله ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ»^(٣).

الثاني: أن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نصّ على أن أهل الكتاب إنما هلكوا بسبب تتبعهم لآثار أنبيائهم التي لم يُرشدوا أقوامهم إلى تتبعها، فيكون تتبعهم لها من التكلف والغلو

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٧/٣٣ - ٣٤).

(٢) رواه ابن وضّاح في «البدع والنهي عنها» برقم (١٠٦).

(٣) تقدم تخريجه.

في الدين، ولهذا أمر ﷺ بقطع الشجرة التي بُوع تحتها النبي ﷺ بيعة الرضوان، لأن الناس كانوا يتحرون الصلاة عندها مع كونهم لم يؤمروا بذلك، فقطعها عمر لما خاف على الناس من الافتتان بها بتعظيمها ومن ثمَّ عبادتها.

الثالث: أن مشاركة النبي ﷺ في صورة الفعل دون موافقته في قصد الفعل لا يعتبر اتباعًا له ﷺ، والصواب أنه ينبغي أن يكون الاتباع الصحيح باتباع مقاصد الأفعال لا صورها فحسب.

الرابع: أن الأماكن التي يُشرع الصلاة والتعبد فيها هي التي بيَّنها الرسول ﷺ كالمساجد الثلاثة ومسجد قباء، وأما ما سواها فلا.

• ومن أدلة تحريم تعظيم الآثار التي لم يرد في الشرع تعظيمها أن ذلك من طريقة أهل الكتاب الذين يجب مخالفتهم، فإنه لما فتح عمر بن الخطاب ﷺ بيت المقدس قال لكعب الأحبار (١): «أين ترى أن أُصلي؟ فقال: إن أخذت عني صليت خلف الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك.

فقال عمر ﷺ: ضاهيت اليهودية! لا، ولكن أُصلي حيث صلى رسول الله ﷺ فتقدّم إلى القبلة فصلي، ثم جاء فبسط رداءه، فكنس الكناسة في رداءه، وكنس الناس» (٢).

(١) كعب الأحبار هو لقب كعب بن ماته الجُميري، من التابعين، كان من علماء اليهود، وكان مسكنه باليمن، أسلم في عهد عمر وقَدِم المدينة، وكان يروي عن أهل الكتاب، ثم خرج إلى الشام وتوفي بها سنة ٣٢ في خلافة عثمان ﷺ. انظر ترجمته في «تهذيب التهذيب».

(٢) رواه أحمد (٣٨/١) عن عبيد بن آدم، وحسنه ابن كثير كما في (مسند عمر) (١/١٦٠).

قلت: الصخرة التي ببيت المقدس كانت قبلة لليهود، وصلى إليها المسلمون في أول الإسلام قبل أن يأتي الأمر بتحويل القبلة إلى الكعبة في قوله تعالى: ﴿قَوْلَ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤]، ولما فتح عمر بيت المقدس بنى المصلى وجعله بين الصخرة والحرم المكي، ولم يجعل الصخرة في قبلة المسجد، وهذا من فقهه عليه السلام، فإنه لو جعل الصخرة بين المسجدين لدخل على المصلي في صلاته تعظيم الصخرة التي يُعظمها اليهود، فجعل الصخرة خلفه وبنى المسجد الذي تسميه الناس الأقصى، ولم يُعظم الصخرة بشيء.

ومصلى المسلمين هو الذي يُعرف بالمسجد الأقصى، وهو يتناول جميع المسجد الذي بناه سليمان بن داود عليه السلام، وقد سُمِّي (أقصى) لأنه بعيد عن المسجدين المكي والنبوي، فهو قاصٍ عنهما.

وقد ثبت أن ابنه عبد الله بن عمر عليه السلام كان إذا أتى بيت المقدس دخل إليه وصلى فيه ولا يقرب الصخرة ولا يأتيها، ولا يقرب شيئاً من تلك البقاع، وكذلك نُقل عن غير واحد من السلف المُتعبرين، كعمر بن عبد العزيز والأوزاعي وسفيان الثوري وغيرهم، وذلك أن سائر بقاع المسجد لا مزية لبعضها على بعض، إلا ما بناه عمر عليه السلام لمصلى المسلمين ^(١).

فقال عمر عليه السلام: ضاهيت اليهودية! لا، ولكن أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ، فتقدّم إلى القبلة فصلى، ثم جاء فبسط رداءه، فكنس الكناسة في رداءه، وكنس الناس.

وانظر «مجمع الزوائد» (٩/٤).

(١) انظر «اقتضاء الصراط المستقيم» (٨١٨/٢).

قال ابن وضّاح: «وسمعتهم يذكرون أن سفيان الثوري دخل مسجد بيت المقدس فصلّى فيه، ولم يتبّع تلك الآثار ولا الصلاة فيها، وكذلك فعل غيره - أيضًا - ممن يُقتدى به، وقدم وكيع - أيضًا - مسجد بيت المقدس فلم يعد^(١) فعل سفيان.

فعليكم باتباع أئمة الهدى المعروفين، فقد قال بعض من مضى: كم من أمرٍ هو اليوم معروفٌ عند كثير من الناس كان منكرًا عند من مضى، ومتحجبٌ إليه بما يُبغضه عليه، ومتقربٌ إليه بما يُبغّده منه، وكل بدعةٍ عليها بهجة وزينة^(٢).

وروى مالك عن يحيى بن سعيد «أن أبا الدرداء كتب إلى سلمان الفارسي أن هَلُمَّ إلى الأرض المقدسة، فكتب إليه سلمان: إِنَّ الأرض لا تُقدّس أحدًا، وإنما يُقدس الإنسان عمله^(٣).

(١) أي: لم يتبعه، بل فعل فعله ولم يتجاوزه.

(٢) «البدع والنهي عنها»، باب (ما جاء في اتباع الآثار).

(٣) رواه مالك في «الموطأ»، كتاب (الوصية)، باب (جامع القضاء وكراهيته)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٦٧٠).

وقد علق شيخ الإسلام رحمه الله على هذا الأثر تعليقًا لطيفًا، فقال كما في «مجموع الفتاوى» (٤٥/٢٧-٤٦):

«وهو كما قال سلمان الفارسي، فإن مكة - حرسها الله تعالى - أشرف البقاع، وقد كانت في غربة الإسلام دار كفرٍ وحربٍ يحرم المقيم بها، وحُرِّم بعد الهجرة أن يرجع إليها المهاجرون فيقيموا بها، وقد كانت الشام في زمن موسى عليه السلام قبل خروجه ببني إسرائيل دار الصابئة المشركين الجابرة الفاسقين، وفيها قال تعالى لبني إسرائيل: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، فإن كون الأرض دار كفرٍ أو دار إسلامٍ أو إيمانٍ، أو دار سلمٍ أو حربٍ، أو دار طاعةٍ أو معصيةٍ، أو دار المؤمنين

تقريرات لبعض أهل العلم

في باب تحريم تعظيم الأماكن التي مر بها الأنبياء

• قال الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي رحمته الله في كتابه «شفاء الصدور في زيارة المشاهد والقبور»: «اعلم أن كل مكان لا فضل له في الشريعة أصلاً، ولا فيه ما يوجب تفضيله، بل هو كسائر الأماكن أو دونها، وقصد ذلك المكان أو قصد الاجتماع فيه لصلاة أو دعاء أو ذكر أو غير ذلك من معتقد قاصده من الضلال الواضح، والخطأ الفاضح، إذ هو تشريع في الدين، وتفضيل بقعة لم تفضلها الشريعة، بل مجرد الهوى الذي جعله الله تعالى بمنزلة إله يُعبد، فقال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وفي ذلك **مشابهة للمشركين في تفضيلهم أماكن بمجرد هوى**

أو الفاسقين؛ أو صافٍ عارضة لا لازمة، فقد تنتقل من وصف إلى وصف، كما ينتقل الرجل بنفسه من الكفر إلى الإيمان والعلم، وكذلك بالعكس.

وأما الفضيلة الدائمة في كل وقت ومكان ففي الإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ مِنْ أَمَنِ اللَّهِ وَالْيَتَامَى وَالْأَخْيَارَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الآية [البقرة: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ الآية [البقرة: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، فلا ينبغي للرجل أن يلتفت إلى فضل البقعة في فضل أهلها مطلقاً، بل يعطي كل ذي حق حقه، ولكن العبرة بفضل الإنسان في إيمانه وعمله الصالح والكلم الطيب». انتهى باختصار.

أنفسهم، فإنهم كانوا يقصدون بقعة بعينها لتمثال هناك، أو غير تمثال، يعتقدون أن ذلك يُقرّبهم إلى الله تعالى»^(١).

• وقال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز^(٢) رحمه الله: «إن تعظيم الآثار لا يكون بالأبنية والكتابات والتأسي بالكفرة، وإنما تعظيم الآثار يكون باتباع أهلها في أعمالهم

(١) ص (٥٨ - ٥٩)، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة.

(٢) هو الشيخ الإمام: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، شيخ الإسلام في وقته، ملأ الدنيا علماً وفقهاً ومساجد ومشاريع علمية، تخرّج على يده جمٌّ غفير من طلبة العلم، غالب من خلفه من علماء المملكة العربية السعودية وطلّابها وقضاةها عيالٌ عليه، شغل منصب نائب رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية عند افتتاحها، ثم ترأّسها بعد سنة، فكانت منذ افتتاحها - ولا زالت - دوحة علمية، يستفيد منها طلاب العلم الذين يأتونها من أنحاء الدنيا، وبعضهم قد صار في مصافّ العلماء في بلادهم، له «مجموع فتاوى» يقع في ثلاثين مجلدًا، وله كتب ورسائل كثيرة، وهو معروف بكثرة الشفاعات للناس، ومساعدتهم لقضاء حوائجهم، وهو معروف - أيضًا - بالنصح لكل مسلم مهما كان مقامه، بل حتى رؤساء الحكومات الكافرة قد بلغهم نصحه، والكلام في آثاره العلمية والدعوية والتربوية يطول جدًا.

ألّف في سيرته تراجمٌ عدة، منها: «عبد العزيز بن باز عالم فقدته الأمة» لمستشاره د. محمد بن سعد الشويعر، وكذلك «جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز رحمه الله» لمدير مكتبه الشيخ: محمد بن موسى الموسى.

توفي رحمه الله في مستهل عام ١٤٢٠ عن تسعين عامًا، فاهتزت الدنيا لموته، ودخل الحزن بيوت المسلمين عامة، واجتمع للصلاة عليه الأمراء والوزراء والعلماء والقضاة وطلبة العلم والمتقون والعامة، وصُلّي عليه في المسجد الحرام، وسار في جنازته ما يربو على المليون مسلم، وشُغِلَت الصحف بخبر وفاته زمنًا ليس بالقليل، أما المراثي الشعرية والنثرية التي ألّفَت فيه فحدّث ولا حرج.

المجيدة وأخلاقهم الحميدة وجهادهم الصالح قولاً وعملاً ودعوةً وصبراً، هكذا كان السلف الصالح يعظمون آثار سلفهم الصالحين، وأما تعظيم الآثار بالأبنية والزخارف ونحو ذلك فهو خلاف هدي السلف الصالح، وإنما ذلك سنة اليهود والنصارى ومن تشبه بهم، وهو من أعظم وسائل الشرك وعبادة الأنبياء والأولياء كما يشهد به الواقع وتدل عليه الأحاديث والآثار المعلومة في كتب السنة»^(١).



(١) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (١ / ٣٩١)، لسماحة الشيخ: عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمته الله.

وما نقلته هو جزء من مقال بعنوان: الرد على مصطفى أمين.



تنبيهان

تنبيه يتعلق بزيارة مساجد معينة في المدينة النبوية غير المسجد النبوي

ومسجد قباء

بعض زوّار المدينة النبوية يتحرون الصلاة فيما يسمى بالمساجد السبعة، ويعتقدون أن فيها مزية وفضل على غيرها من المساجد، لكون النبي ﷺ مرَّ بها وصلى فيها، ومنها مسجد القبلتين ومسجد عائشة وغيرها من المساجد، وهذا بدعة، لأن النبي ﷺ لم يرشد له، والصحابة والقرون المُفضَّلة لم يفعلوه، وهو من باب تتبع آثار الأنبياء في غير دليل شرعي ولا هَدْيٍ مَرْعِيٍّ، فالواجب الحذر، والاكتفاء بما اكتفت به خير القرون، فإن الزيادة في دين الله تنقيص له.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وليس بالمدينة مسجد يُشرع إتيانه إلا مسجد قُباء، أما سائر المساجد فلها حكم المساجد، ولم يَخْصِها النبي ﷺ بإتيان، ولهذا كان الفقهاء من أهل المدينة لا يقصدون شيئاً من تلك الأماكن إلا قُباء خاصة»^(١).

وقال أيضًا رحمه الله: «منبهاً على عدم أفضلية التردد على مساجد عائشة رضي الله عنها الموجودة في التَّعْزِيمِ بمكة من ناحية المدينة:

«ولم تكن هذه^(٢) على عهد النبي ﷺ، وإنما بُنيت بعد ذلك علامة على المكان

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٨١٥).

(٢) أي: مساجد عائشة، ولم يبق منها اليوم - فيما أعلم - إلا المسجد الذي يُحرم الناس منه.

الذي أحرمت منه عائشة، وليس دخول هذه المساجد ولا الصلاة فيها- لمن اجتازها مُحَرَّمًا- لا فرضًا ولا سنة، بل قصد ذلك واعتقاده يُستحب بدعةً مكروهة»^(١).

تنبيه يتعلق بتعظيم غار حراء الذي كان يتعبد فيه النبي ﷺ قبل بعثته

• قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «فَتَحَنُّهُ»^(٢) وتعبُّده بغار حراء كان قبل المبعث، ثم إنه لما أكرمه الله بنبوته ورسالته، وفرض على الخلق الإيمان به وطاعته واتباعه؛ أقام بمكة بضع عشرة سنة، هو ومن آمن به من المهاجرين الأولين الذين هم أفضل الخلق، ولم يذهب هو ولا أحد من أصحابه إلى حراء، ثم هاجر إلى المدينة واعتمر أربع عُمر: عمرة الحديبية التي صدَّه فيها المشركون عن البيت، ثم إنه اعتمر من العام القابل عُمره القُصِيَّة^(٣)، ودخل مكة هو وكثير من أصحابه، وأقاموا بها ثلاثًا، ثم لما فتح مكة أتى بعمره من الجعرانة^(٤) إلى مكة، ثم إنه اعتمر عمرته الرابعة مع حجة الوداع، وحج معه جماهير المسلمين لم يتخلف عن الحج معه إلا مَنْ شاء الله، وهو في ذلك كله لا هو ولا أحد من أصحابه يأتي غار حراء ولا يزوره، ولا شيئًا من البقاع التي حول مكة، ولم يكن هناك عبادة إلا بالمسجد الحرام، وبين الصفا والمروة، وبمنى والمزدلفة وعرفات، وصلى الظهر والعصر ببطن عُرنة، وضربت له القُبَّة يوم عرفة بنمرة المجاورة لعرفة.

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٦/١٠٢).

(٢) التَحَنُّن هو التعبد. انظر «النهاية».

(٣) سُمِّيَت عمرة القُصِيَّة بهذا الاسم، وتسمى- أيضًا- عمرة القضاء، لأن النبي ﷺ أداها قضاءً عن عمرته التي صدَّه المشركون عن أدائها في العام الذي قبله.

(٤) الجعرانة: موضع في طرف مكة، وهي في الحِل.

ثم بعده خلفاؤه الراشدين وغيرهم من السابقين الأولين، لم يكونوا يسيرون إلى غار حراء ونحوه للصلاة فيه والدعاء، وكذلك الغار المذكور في القرآن في قوله تعالى: ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]، وهو غار بجبل ثور يمانى مكة^(١)؛ لم يشرع لأئمة السَّفر إليه وزيارته والصلاة فيه والدعاء، ولا بنى رسول الله ﷺ بمكة مسجداً غير المسجد الحرام، بل تلك المساجد كلها مُحدثة: مسجد المولد وغيره، ولا شرع لأئمة زيارة موضع المولد ولا زيارة موضع بيعة العقبة الذي خلف منى، وقد بُني هناك له مسجد، ومعلوم أنه لو كان هذا مشروعاً مستحباً يُثيب الله عليه - لكان النبي ﷺ أعلم الناس بذلك ولكان يُعلم أصحابه ذلك، وكان أصحابه أعلم بذلك وأرغب فيه ممن بعدهم، فلما لم يكونوا يلتفتون إلى شيء من ذلك علم أنه من البدع المحدثّة التي لم يكونوا يُعدُّونها عبادة وقربة وطاعة، فمن جعلها عبادة وقربة وطاعة فقد اتَّبع غير سبيلهم، وشرع من الدين ما لم يأذن به الله.

وإذا كان حكمُ مقام نبينا ﷺ في مثل غار حراء الذي ابتدئ فيه بالإنباء والإرسال، وأنزل عليه فيه القرآن، مع أنه كان قبل الإسلام يتعبد فيه، وفي مثل الغار المذكور في القرآن الذي أنزل الله فيه سكنته عليه؛ فمن المعلوم أن مقامات غيره من الأنبياء أبعد عن أن يُشرع قصدها والسفر إليها لصلاة أو دعاء أو نحو ذلك إذا كانت صحيحة ثابتة، فكيف إذا علم أنها كذب، أو لم يُعلم صحتها؟»^(٢).

• وقال أيضاً: «ومعلوم أن أصحاب رسول الله ﷺ من السابقين الأولين

(١) أي: في جهة اليمن من مكة.

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٨٠٦ - ٨٠٨).

والتابعين لهم بإحسان قد فتحوا البلاد بعد موت النبي ﷺ، وسكنوا بالشام والعراق ومصر وغير هذه الأمصار، وهم كانوا أعلم بالدين وأتبع له ممن بعدهم، فليس لأحد أن يخالفهم فيما كانوا عليه، فما كان من هذه البقاع لم يُعَظِّمُوهُ أو لم يقصدوا تخصيصه بصلاة أو دعاء أو نحو ذلك - لم يكن لنا أن نخالفهم في ذلك، وإن كان بعض مَنْ جاء بعدهم من أهل الفضل والدين فعل ذلك، لأن أتباع سبيلهم أولى من اتباع سبيل مَنْ خالف سبيلهم، وما من أحد نُقِلَ عنه ما يخالف سبيلهم إلا وقد نقل عن غيره ممن هو أعلم وأفضل منه أنه خالف سبيل هذا المخالف، وهذه جملة جامعة لا يتسع هذا الموضوع لتفصيلها.

وقد ثبت في «الصحيح» أن النبي ﷺ لما أتى بيت المقدس ليلة الإسراء صلى فيه ركعتين ولم يُصَلِّ بمكانٍ غيره ولا زارَه» (١).

• وقال ابن القيم رحمته الله: «بل غار حراء الذي ابتدئ فيه بنزول الوحي، وكان يتحرّاه قبل النبوة، لم يقصده هو ولا أحد من أصحابه بعد النبوة مدة مقامه بمكة، ولا خَصَّ اليوم الذي أنزل فيه الوحي بعبادة ولا غيرها، ولا خَصَّ المكان الذي ابتدئ فيه بالوحي ولا الزمان بشيء، ومن خَصَّ الأمكنة والأزمنة من عنده بعبادات لأجل هذا وأمثاله كان من جنس أهل الكتاب الذين جعلوا زمان أحوال المسيح مواسم وعبادات، كيوم الميلاد، ويوم التَّعميد، وغير ذلك من أحواله» (٢).

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٨٢٢-٨٢٣).

(٢) «زاد المعاد» (١/ ٥٨-٥٩).

• وقال الشيخ محمد حامد الفقي^(١) رَحِمَهُ اللهُ في مسألة تعظيم الصَّخَرَاتِ التي

بجانب جبل عرفة:

«وليس للصَّخَرَاتِ مِيزَةٌ عَلَى بَقِيَّةِ سَفْحِ عَرْفَةٍ، وَإِنَّمَا وَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَهَا لَتَكُونَ عَلَامَةً لِمَنْ يَرِيدُ أَنْ يَلْقَى النَّبِيَّ ﷺ فِي هَذَا الْيَوْمِ لِأَمْرٍ يَعْرُضُ لَهُ، كَمَا عَرَضَ لَهُمْ أَنْ يَسْأَلُوهُ عَمَّنْ وَقَعَ عَنْ نَاقَتِهِ فَمَاتَ فِي هَذَا الْيَوْمِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ»^(٢).

(١) الشيخ محمد حامد الفقي من علماء مصر الأجلَاء، وُلِدَ سنة ١٣١٠، تَعَرَّفَ عَلَى مِنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي قِصَّةِ طَرِيفَةٍ مَعَ فَلَاحٍ، ثُمَّ أَمْعَنَ الشَّيْخَ فِي دِرَاسَةِ الْحَدِيثِ عَلَى الْوَجْهِ الصَّحِيحِ وَمُطَالَعَةِ كُتُبِ السَّلَفِ وَالْأَثْمَةِ الْكُبَارِ، أَمْثَالُ: ابْنِ تَيْمِيَّةٍ، وَابْنِ الْقَيْمِ، وَابْنِ حَجَرٍ، وَالشَّاطِبِيِّ، وَغَيْرِهِمْ.

وبعد الطلب بدأ الشيخ دعوته للتمسك بسنة الرسول ﷺ الصَّحِيحَةِ، والبعد عن البدع والخرافات والمخالفات، وكان عمره آنذاك ثمانية عشرة سنة.

أنشأ جماعة أنصار السنة المحمدية في عام ١٣٤٥، ثم أنشأ مجلة الهدي النبوي، وصدر العدد الأول منها في عام ١٣٥٦، فكان من كُتَّابِ المِجْلَةِ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ لَا الْحَصْرِ: الشَّيْخُ أَحْمَدُ مُحَمَّدُ شَاكِرٌ، الْأَسْتَاذُ مُحِبُّ الدِّينِ الْخَطِيبُ، وَالشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ عَبْدِ الْحَمِيدِ، وَالشَّيْخُ عَبْدِ الظَّاهِرِ أَبُو السَّمْحِ، وَالشَّيْخُ أَبُو الْوَفَاءِ، مُحَمَّدُ دُرُوشٌ، وَالشَّيْخُ صَادِقُ عَرْنُوسٌ، وَالشَّيْخُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْوَكِيلُ، وَالشَّيْخُ خَلِيلُ هِرَاسٍ، كَمَا كَانَ مِنْ كُتَّابِهَا الشَّيْخُ مُحَمَّدُ شَلْتُوتٌ.

بالإضافة إلى قيامه بأعباء الدعوة - فقد كان الشيخ حامد خادماً للتراث الإسلامي، فقد حقق ما يزيد على ثلاثين كتاباً لعلماء بارزين، من أبرزهم: ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ.

توفي رَحِمَهُ اللهُ فجر الجمعة ٧ رجب ١٣٧٨.

تنبيه: نقلت ترجمته من الموقع الإلكتروني لجماعة (أنصار السنة المحمدية)، وقد ترجم له الزُّرْكَلِيُّ فِي «الْأَعْلَامِ» (١٢٦/٦).

(٢) حاشية «الافتضاء» بتحقيقه (ص ٤٢٨ - ٤٢٩).

- وقال الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمته الله مفتي الديار السعودية في «فتاويه» في حكم اتخاذ دار الأرقم بن أبي الأرقم مزارًا للوافدين إلى بيت الله الحرام:

«أمّا اتخاذ دار الأرقم بن أبي الأرقم مزارًا للوافدين إلى بيت الله الحرام يتبركون به بأي وسيلة كان ذلك، سواء كانت إعلان كتابة دار الأرقم عليها وفتحها للزيارة، أو اتخاذها مكتبة أو متحفًا أو مدرسة؛ فهذا أمر لم يسبق إليه الصحابة الذين هم أعلم بما حصل في هذه الدار من الدعوة إلى الإسلام والاستجابة لها، بل كانوا يعتبرونها دارًا للأرقم، له التصرف فيها شأن غيرها من الدور، وكان الأرقم نفسه يرى هذا الرأي حتى إنه تصدق بها على أولاده، فكانوا يسكنون فيها ويؤجّرون ويأخذون عليها، حتى انتقلت إلى أبي جعفر المنصور...» إلخ كلامه رحمته الله (١).

- وقال الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه الله في مقال له بعنوان:

الاحتفاظ بما يُظن أنه موضع مولد النبي ﷺ

«الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد:

فقد تكررت الكتابات في الصحف والتحدث في المنتديات من الشيخ الدكتور: عبد الوهاب أبي سليمان عن المكان الذي يزعم أنه موضع مولد الرسول ﷺ بمكة المكرمة، وأنه يجب الاحتفاظ به وإبقاؤه محافظة على المناسبة الأثرية، ونقول:

١ - لم يثبت بنص من القرآن والسنة مكان مولد النبي ﷺ ولو كان في معرفته خير لنا لبينّه الله ورسوله.

٢ - لو ثبت موضع ولادة الرسول ﷺ تاريخيًا كما يدّعي الشيخ أبو سليمان لم

تُشرع لنا المحافظة عليه، لأن الرسول ﷺ وأصحابه لم يحافظوا عليه ولم يعتنوا به، إنما تجب العناية بسنته ﷺ وسنة خلفائه، كما أوصى بذلك النبي ﷺ.

٣- وتجب المحافظة على المشاعر التي تُؤدّي فيها المناسك والعبادات، كالمسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفات.

وأما البيوت والممتلكات التي في مكة فهي ملك لأصحابها، يتبايعونها ويتوارثونها كسائر أموالهم، ولذلك لما سُئل النبي ﷺ حينما قدم إلى مكة: أتُنزل في دارك غدًا؟ قال ﷺ: «وهل ترك لنا عقيلٌ من رِباعٍ^(١) أو دُور؟»^(٢)، أي أن عقيل بن أبي طالب باعها لما هاجر النبي ﷺ وتركها فيمن تركوا من ديارهم وأموالهم وهاجروا إلى المدينة، وإنما كان النبي ﷺ ينزل في مكة إذا قدمها في أي مكان تيسّر له النزول فيه، كما نزل في الأبطح وفي المعلاة.

٤- الاحتفاظ بهذه الأماكن يُغري الجهاد والمنحرفين بالتبرك بها وزيارتها، وقد يُظن أنها من جملة المشاعر.

والله موفق والهادي إلى سواء السبيل.

وصلّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه^(٣).

عضو اللجنة الدائمة للإفتاء، وعضو هيئة كبار العلماء

(١) الرباع هو المنزل. انظر «النهاية».

(٢) رواه البخاري (١٥٨٨)، ومسلم (١٣٥١).

(٣) رد الفوزان على أبي سليمان كان في جريدة (الوطن) السعودية، بتاريخ ٢٢ جمادى الأولى

١٤٣٤ هجري، الموافق: ٣٠-٤-٢٠١٣.

ضوابط وكلمات جامعة في باب تعظيم بعض الأماكن

• قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وكل حديث في مدح بغداد أو دَمَّهَا والبصرة والكوفة ومَرو وعسقلان والإسكندرية ونصيبين وأنطاكية؛ فهو كذب. وكذا كل حديث فيه أن مدينة كذا وكذا من مدن الجنة، أو من مدن النار، فهو كذب»^(١).

• وقال الشيخ بكر أبو زيد رحمته الله: «كل حديث في فضل كربلاء والتربة الحسينية فيها فهو موضوع، مما عملته أيدي الرافضة، ولم يصح إلا إخبار النبي ﷺ بقتل الحسين فيها، وهذا لا يقتضي فضيلة لها واستحباب اتخاذ قُرس منها للسجود عليه كما تفعله الروافض».

وتجد هذا مبسوطاً في «السلسلة الصحيحة» (٣/ ١٥٩ - ١٦٧) رقم (١١٧٢)^(٢).

• قال مُقَيِّدُه عفا الله عنه: وقد وردت أحاديث كثيرة ضعيفة أو موضوعة في فضيلة بعض الأماكن أو الصلاة عندها أو الرِّباط فيها مثل جدة وصخرة بيت المقدس وحمص ومرو واليمن ولبنان وبلاد أفريقيا ومصر وغيرها من الأماكن، وكل هذه الأحاديث لا تثبت عن النبي ﷺ^(٣).

(١) «نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول» (ص ١٠٨ - ١٠٩)، باختصار.

(٢) «التحديث بما قيل: لا يصح فيه حديث» للشيخ بكر أبو زيد رحمته الله (ص ١٥٤ - ١٥٥).

(٣) انظر هذه الأحاديث في «موسوعة الأحاديث والآثار الضعيفة والموضوعة»، كتاب (البلدان

• وقال جلال الدين السيوطي رحمته الله في كتابه «الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع» ما نصُّه:

«ومن ذلك^(١) مواضع يقال إنَّ فيها أثر النبي ﷺ أو غيره، كما يقوله الجهلة في الصخرة التي بيت المقدس إنَّ فيها أثرًا من وطء النبي ﷺ.

وفي مسجد قبلي دمشق يسمى (مسجد القدم) يقال إن فيه أثر قدم موسى ﷺ، وهذا باطل لا أصل له، ولم يقدِّم موسى ﷺ دمشق ولا ما حولها.

وكذلك مساجد تُضاف إلى بعض الأنبياء والصالحين بناءً على رُؤى في المنام هناك^(٢).

• وقد ذكر ابنُ الجَوَزي في كتاب «الموضوعات» جملة من الأحاديث الضعيفة والموضوعة في فضائل ومثالب بعض الأماكن^(٣)، فليراجعها مَنْ أراد الاستزادة.



والبقاء) (٨٥ / ١٥) وما بعدها، الناشر: مكتبة المعارف - الرياض.

(١) أي: ومن تلك المواضع التي يتعلق الناس بها.

(٢) (ص ١٢١ - ١٢٢)، تحقيق: مشهور حسن سلمان، الناشر: دار ابن القيم - الدمام.

(٣) انظر أبواب (ذكر الأماكن في الفضائل والمثالب).

شبهات والجواب عليها

الشبهة الأولى: احتج بعضهم بما كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يفعله من تحرّي الأماكن التي مرّ بها النبي ﷺ وصلى فيها، فيُصلّي هو فيها.

والجواب عن ذلك من وجهين:

الأول: إن ابن عمر رضي الله عنهما فعل ذلك اجتهادًا منه ولم يُوافقه على فعله أحد من الصحابة، ولم يُنقل عن الخلفاء الراشدين ولا عن غيرهم من المهاجرين والأنصار أن أحدهم كان يتحرى الأماكن التي مرّ بها النبي ﷺ وصلى فيها اتفاقًا - أي بدون قصد تحرّي الصلاة فيها - فيُصلّي فيها، إلا ما أرشد إليه النبي ﷺ كالمساجد الثلاثة ومسجد قباء، ومن المعلوم أن الصواب في متابعة جمهور الصحابة، لا ما انفرد به الواحد، فإن البشر يصيبون ويخطئون، ليسوا معصومين، ولو كانوا من كبار الصحابة رضوان الله عليهم، مع قناعتنا أن خطأهم قليل مقارنة بمن سواهم.

قال ابن تيمية رحمته الله: فأما قصد الصلاة في تلك البقاع التي صلى فيها اتفاقًا فهذا لم ينقل عن غير ابن عمر من الصحابة، بل كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار يذهبون من المدينة إلى مكة حُجَّاجًا وعُمَرًا ومسافرين، ولم يُنقل عن أحد منهم أنه تحرى الصلاة في مصليات النبي ﷺ، ومعلوم أن هذا لو كان عندهم مستحبًا لكانوا إليه أسبق، فإنهم أعلم بستته وأتبع لها من غيرهم، وقد قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من

بعدي، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنْ كُلُّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» (١).

وقال أيضًا رحمه الله: «والصواب مع جمهور الصحابة، لأن متابعة النبي ﷺ تكون بطاعة أمره، وتكون في فعله، بأن يُفعل مثل ما فعل على الوجه الذي فعله، فإذا قصد العبادة في مكان؛ كان قصد العبادة فيه متابعة له كقصد المشاعر والمساجد، وأما إذا نزل في مكانٍ بحكم الاتفاق لكونه صادف وقت النزول أو غير ذلك مما يُعلم أنه لم يتحرَّرَ ذلك المكان؛ فإذا تحررنا ذلك المكان لم نكن متبعين له، فإن الأعمال بالنيات» (٢).

ثانيًا: إن تحري الصلاة في الأماكن التي لم يدل الشارع على تحري الصلاة فيها **مما نهى عنه عمر الفاروق رضي الله عنه** الناس عن فعله، كما في الأثر المتقدم ذكره، لمَّا رأى الناس يتحرون الصلاة عند شجرة الرضوان، فأنكر هذا جدًّا، وقال «إنه من التشبه بأهل الكتاب ومن أسباب هلاكهم»، فقطع الشجرة حسمًا لمادة الشرك، ومن المعلوم أن عمر ذو سُنَّةٍ مُتَّبَعَةٍ (٣).

ولهذا نظائر في الشريعة، فقد حسم الشارع مادة الشرك بالنهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، فإذا كان قد نهى عن الصلاة المشروعة في هذا الزمان

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/٧٥٦-٧٥٧).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/٧٥٣).

(٣) تأمل حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه وفيه: «فعلیکم بسُنَّتِي وسنة الخلفاء الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ من بعدي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ».

سداً للذريعة، فكيف يُستحب قصد الصلاة والدعاء في مكان اتَّفَق قيامهم فيه أو صلاتهم فيه من غير أن يكونوا قد قصدوه للصلاة فيه والدعاء فيه؟^(١).



الشبهة الثانية: قال بعضهم: كيف تقولون بعدم جواز الصلاة في الأماكن التي صلى فيها النبي ﷺ مع أنه قد ثبت عن الصحابة أنهم كانوا يطلبون منه ﷺ أن يصلي لهم في بعض الأماكن فيصلي لهم فيها فيتخذونها مسجداً، كما حصل لعبدان بن مالك رضي الله عنه حين قال: «كنت أصلي لقومي بني سالم، فأتيت النبي ﷺ فقلت: إني أنكرتُ بصري^(٢)، وإنَّ السيول تحول بيني وبين مسجد قومي، فلَوَدِدْتُ أنك جئت فصلَّيت في بيتي مكاناً حتى أتخذ مسجداً.

فقال: «أفعل إن شاء الله»، فغدا عليّ^(٣) رسول الله ﷺ وأبو بكر معه بعد ما اشتدَّ النهار، فاستأذن النبي ﷺ فأذنتُ له فلم يجلس حتى قال: «أين تحبُّ أن أصلي من بيتك؟». فأشرتُ له إلى المكان الذي أحبُّ أن يصلي فيه، فقام رسول الله ﷺ فكبرَ، وصففنا وراءه، فصلَّي ركعتين ثم سلَّم وسلَّمنا حين سلَّم^(٤).

والجواب أن هذا الحديث لا يُفيد أن عتبان رضي الله عنه كان يتبع الأماكن التي صلى فيها النبي ﷺ بدون قصد الصلاة فيها، بل اختار هو للنبي ﷺ مكاناً يصلي فيه،

(١) بتصرف من «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/٧٥٦-٧٥٧).

(٢) أي: ضَعُفَ بصري.

(٣) أي: أتاني في الغداة، وهي الصبح.

(٤) رواه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣).

وأعلمَ النبي ﷺ أنه سيحافظ على الصلاة فيه، فأتى من أجل ذلك، وأقره النبي ﷺ على ما سيفعله، فصار هذا سنة في حقه ﷺ، والمنازعة ليست على ذلك، بل على تتبع الأمكنة التي لم يقصدها النبي ﷺ لذاتها، ولم يُقر ﷺ أحدًا على الصلاة فيها.

وهناك جواب آخر رآه ابن تيمية رحمه الله، وهو أن قصدَ عتبان هو بناء مسجد، فأراد أن يصلي فيه النبي ﷺ أولاً ثم يبنيه مسجداً، قال رحمه الله:

«وهذا لا ينافي قول عتبان بن مالك للنبي ﷺ: (إن السيول تحول بيني وبين قومي، فلو صَلَّيت في بيتي في مكانٍ أَتَّخِذُهُ مُصَلًّى)، فجاء النبي ﷺ فصلًى ركعتين، لأنَّ عتبان كان مقصوده بناء مسجد لحاجته إليه، وتبرك بكون النبي ﷺ يُصلي فيه أولاً، بخلاف مَنْ لم يكن مقصوده إلا بناء مسجد لأجل ذلك الأثر» (١).



الشبهة الثالثة: قاس بعض الناس الأماكن التي لم يخصصها الله بعبادة على مقام إبراهيم الذي كان النبي ﷺ يُصلي خلفه ركعتي الطواف!

والجواب أن هذا قياس فاسد لأنه قياس مع الفارق، فالصلاة عند مقام إبراهيم مشروعة، بخلاف غيرها من الأماكن الغير مشروع الصلاة عندها، وقد تقرر مراراً أن تخصيص أماكن بصلاة بدون دليل بدعة، والعبادة المبتدعة مردودة على فاعلها كما قال الرسول ﷺ: «مَنْ عَمَلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» (٢).

(١) «الاستغاثة في الرد على البكري» (٢/ ٤٣٤ - ٤٣٥)، باختصار.

(٢) تقدم تخريجه.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فإن قيل: فقد أمر الله أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلًى فيُقاس عليه غيره؛ قيل له: هذا الحكم خاصٌ بمقام إبراهيم الذي بمكة، سواء أُريد به المقام الذي عند الكعبة موضع قيام إبراهيم، أو أُريد به المشاعر عرفة ومزدلفة ومنى، فلا نزاع بين المسلمين أن المشاعر خُصَّت من العبادات بما لم يشركها فيه سائر البقاع، كما خُصَّ البيت بالطواف، فما خُصَّت به تلك البقاع لا يقاس به غيرها، وما لم يُشرع فيها فأولًى أن لا يُشرع في غيرها»^(١).

فالحاصل أن ما ورد من النصوص الشرعية في الأمر باتباع بعض آثار الأنبياء فمَشْرُوعٌ اتِّباعه **وفق الهدي النبوي**، كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقال: ﴿إِنَّ الْأَصْفَاءَ وَالْمُرُوءَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، وكذا رمي الجمرات، وقد ورد في هذه المواطن أدلة خاصة تُرغَّب في فعل العبادة عندها، بخلاف الآثار التي لم يرد فيها أدلة تُرغَّب في تتبعها، فإن تتبعها بدعة.



الشبهة الرابعة: غلا بعض الناس ببعض قبور الصالحين، فاعتقد أن وجودها في تلك البقعة أمان لأهل تلك البقعة من البلاء، وربما اعتمدوا على قصة الرجل الذي يقال له: أحمد بن العباس قال: «خرجت من بغداد هروبا منها، فاستقبلني رجل عليه أثر العبادة، فقال لي: من أين خرجت؟ فقلت: من بغداد، هربت منها، لما رأيت فيها من الفساد، خفت أن يُخسف بأهلها، فقال: ارجع ولا تخف، فإن فيها قبور أربعة من أولياء الله هم حصن لها من جميع البلايا. قلت: من هم؟ قال: الإمام أحمد بن حنبل،

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٨٠٩ - ٨١٠).

ومعروف الكرخي، وبشر بن الحارث الحافي، ومنصور بن عمار الواعظ. قال: فرجعت ولم أخرج!«.

والجواب على هذه الشبهة من ثلاثة وجوه:

الأول: أن أحمد بن العباس غير معروف، وكذا الذي نهاه عن الخروج غير معروف، فقد يكون جنياً وقد يكون إنسياً.

الثاني: ما قاله ابن تيمية رحمه الله:

«وكان أهل المدينة النبوية على عهد رسول الله ﷺ وعهد خلفائه الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان أحسن أهل المدائن حالاً، ونعمة الله عليهم أعظم النعم، لكونهم كانوا مطيعين لله ورسوله، وكانت الخلفاء تسوسهم سياسة نبوية، فلما تغيروا وقُتِلَ بينهم عثمان رضي الله عنه تغير الأمر، وحصل لهم من الخوف والذل، ثم أصابهم من السيف ما أصابهم، ورسول الله ﷺ مدفون بالحجرة، وهو قد بلغهم الرسالة وأدى الأمانة، ولم يُضمن لهم أنه لوجود قبره أو قبر غيره من الأنبياء والصالحين يندفع البلاء، وإنما يندفع البلاء بطاعة الرسل لا بقبورهم، فمن أطاعهم كان سعيداً في الدنيا والآخرة، ومن عصاهم استحق ما يستحقه أمثاله، وإن كان عنده ما شاء الله من قبورهم... وأهل بغداد أصابهم ما أصابهم من السيف العام^(١)، وعندهم قبور ألوف من أولياء الله زيادة على قبور الأربعة^(٢)، فلم تُغن عنهم من الله شيئاً^(١)».

(١) يشير إلى ما حصل من التتر لما غزوا بغداد، وقتلوا فيها مئات الألوف.

(٢) أي: الأئمة الأربعة؛ أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد رضي الله عنهم.

الثالث: إن هؤلاء الذين يعتقدون أن القبور تنفعهم وتدفع البلاء عنهم قد اتخذوها أوثاناً من دون الله، وصاروا يظنون فيها ما يظنه أهل الأوثان في أوثانهم، فإنهم كانوا يرجونها ويخافونها ويظنون أنها تنفع وتضر، ولهذا قال قوم هود -عُباد الأوثان- لهود عليه السلام: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرِكَ بَعْضُ إِلَهَتِنَا لِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤] فقال هود: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٥﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤-٥٦] (٢).



الشبهة الخامسة: فإن قيل: إن وجود القبر النبوي أمان لأهل المدينة النبوية بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]!

والجواب أن أهل التفسير اختلفت أقوالهم في تفسير الآية على ثمانية أقوال، نقلها ابن جرير رحمته الله في «تفسيره»، وليس منها أن وجود القبر النبوي أمان لأهل المدينة النبوية، بل اختار رحمته الله أن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَاءُ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ [الأنفال: ٣٤].

الشبهة السادسة: ظنَّ بعض الناس أن رؤية النبي ﷺ أو أحد الصالحين في المنام في بقعة ما تدل على فضيلة تلك البقعة!

=

(١) «الرد على الإخنائي» (ص ١٩٤-١٩٥).

(٢) انظر «الرد على الإخنائي» (ص ١٩٥).



وقد أجاب جلال الدين السيوطي الشافعي رحمه الله عن هذه الشبهة فقال في كتابه
«الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع» ما نصّه:

«ورؤية النبي ﷺ أو الرجل الصالح بمنامٍ ببقعةٍ لا يُوجب لها فضيلة تقصد
البقعة لأجلها وتُتخذ مصلىً مكروه، وإنما يفعل ذلك وأمثاله أهل الكتاب، وهذه
الأمكنة كثيرة موجودة في أكثر البلاد، فهذه البقاع لا يُعتقد لها خصيصة كائنة ما
كانت، فإن تعظيم مكانٍ لم يُعظمه الشرع شرُّ مكان، وهذه الأماكن الباطلة إنما
وُضعت مضاهاةً لبيوت الله، وتعظيمًا لما لم يُعظمه الله، وعكوفًا على أشياء لم تنفع
ولا تضر، وصدًا للخلق عن سبيل الله، وهي عبادته وحده لا شريك له، كما شرعه
على لسان رسوله ﷺ»^(١).



خلاصة

دلت النصوص الشرعية والآثار السلفية على بدعية اتخاذ الأماكن التي مرَّ بها الأنبياء أو سكنوها أو أُوحي إليهم فيها- أماكن عبادة وصلاة، لأن النبي ﷺ لم يشرع ذلك، ولو كان ذلك مستحباً لأرشد النبي ﷺ أمته لذلك صراحة، فإنه ما من خير إلا ودل أمته عليه ولا شر إلا وحذَّره منهُ، كما قال أبو ذر رضي الله عنه: «لقد تركنا محمد ﷺ وما يُحرك طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علماً» (١).

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه قال له أحد اليهود له: «قد علّمكم نبيكم ﷺ كلَّ شيء حتى الخِراء» (٢)!

فقال سلمان: أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع (٣) أو بعظم (٤).

فالحاصل أنه لا تُشرع زيارة المواضع التي لم يشرع النبي ﷺ زيارتها، سواء التي في المدينة أو التي في مكة كغار حراء أو ما يطلق عليه بيت النبي ﷺ، أو بعض

(١) رواه أحمد (١٥٣/٥، ١٦٢)، وحسنه محققو «المسند» (٢٩٠/٣٨)، ورواه الطبراني

(١٦٤٧) من طريق آخر عن أبي ذر رضي الله عنه، وانظر «الصحيح» (١٨٠٣).

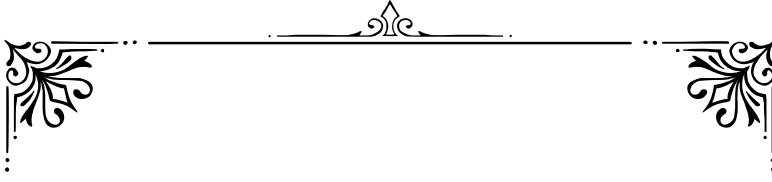
(٢) أي: آداب قضاء الحاجة.

(٣) الرجيع هو عذرة الآدمي وروث الحيوان. انظر «النهاية».

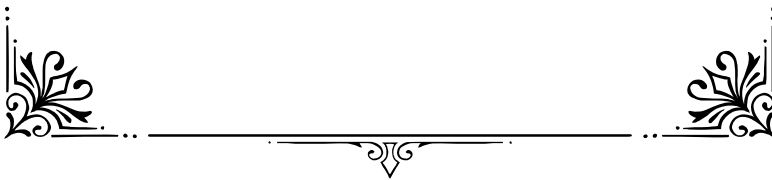
(٤) رواه مسلم (٢٦٢).

المواضع المنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي في الشام أو غيرها، فكلها محدثة في الدين، وتتبعها من البدع الدينية التي لا يُؤجر عليها الإنسان بل يُؤزر، والأفضل لمن سافر إلى مكة هو البقاء في الحرم المكي أو النبوي، والإكثار من النوافل والذكر وقراءة القرآن والطواف، فهذا هو الذي كان يفعله السلف ودل عليه الكتاب والسنة، والله أعلم.





المظهر الرابع والعشرين:
دعوى الربوبية في الصالحين



وَمِنْ أَعْظَم وَأَقْبَح مَظَاهِرِ تَعْظِيمِ الصَّالِحِينَ اعتقاد أنهم يتصفون بشيء من صفات الربِّ، كتدبير أمور الكون من رزق وإحياء وإماتة وإعطاء ولد وغير ذلك، والحق أن هذه الأفعال خاصة بالله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿لَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، والأمر يدخل فيه جميع أفعال الله التي تتعلق بتدبير الكون والتصرف فيه من خلق ورزق وإحياء وإماتة، والتي يُعبر عنها بالربوبية.

يدل لذلك أن من أسمائه تعالى «القيوم»، وهو القائم بنفسه المقيم لخلقه، فهذا يدل على كمال تدبيره لهذه المخلوقات، فهو المقيم لها، وهي الفقيرة المحتاجة إليه، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

ولما كان الله قائم على كل نفس كمال القيومية؛ كان النبي ﷺ إذا كَرِهَ أمرًا قال: «يا حيُّ يا قيوم برحمتك أستغيث» (١).

فمن جعل شيئًا من أفعال الله شِركَةً بين الله وبين خلقه - فقد كفر بربوبية الله على خلقه، وهو أقبح أنواع الشرك.

وقد خاطب الله بهذا نبيه ﷺ، قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ومع هذا فإنك تجد أناسًا يقولون إن للأولياء الذين هم دون النبي ﷺ في المنزلة قدرة على التصرف بالكون، خصوصًا بعد مماتهم!

كذلك فإن الله يقول له: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، وكذلك النبي ﷺ يقول: «استأذنت ربِّي في أن أستغفر لأمي

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٤)، وصححه الألباني.

فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي»^(١)، ومع هذا فإنك تجد أناسًا يطلبون المغفرة من النبي ﷺ.

فالذين يُخرجون الرسول ﷺ -أو من دونه من البشر ممن يوصفون بالأولياء- عن حيز البشرية إلى حيز الربوبية ويمنحونهم بعض خصائصها بدعوى تعظيمهم ما هم إلا ضالّون مشركون خارجون عن الإسلام، ساعون في هدمه بدعوى تعظيم من جاء به، وما ذلك إلا تشويه للإسلام، ومحاربة له وهدم لأعظم أسسه، وإعادة للوثنية التي بُعث النبي ﷺ بمحاربتها وهدمها والقضاء على جذورها في أعماق القلوب، فإنّا لله وإنا إليه راجعون^(٢).

ومن أمثلة من انحرف في هذا الباب زاهد الكوثري -زعيم قبورية العصر الحديث- الذي نادى بأعلى صوته بأن الولي في الدنيا كالسيف في الغمد، فإذا مات تجرّد، فيكون أقوى في التصرف^(٣)، وتلاميذه يسиров على خطى شيخهم^(٤).

قال الشيخ صنع الله بن صنع الله الحنفي رحمه الله في ردّه على من قال بأن الأولياء بعد مماتهم لهم تصرف في الكون، لكونهم صاروا أقوى حالًا مما كانوا في حياتهم، لصفاء أرواحهم، وتخلّصها من كثافة أجسامهم! قال:

(١) رواه مسلم (٩٧٦).

(٢) انظر «أوضح الإشارة في الرد على من أجاز الممنوع من الزيارة» (ص ٣٠٥-٣٠٦).

(٣) قاله في «إرغام المريد» (ص ٢٨)، كما في المرجع اللاحق.

(٤) قاله المحقق الفاضل الشيخ: علي رضا بن علي رضا في حاشيته على كتاب «سيف الله على من كذّب على أولياء الله» (ص ١٥) للشيخ صنع الله بن صنع الله الحنفي. الناشر: مدار الوطن - الرياض.

«الرَّبُّ ﷻ يُخْبِرُ أَنَّهُ يُمْسِكُ الْأَرْوَاحَ عِنْدَهُ، وَهَؤُلَاءِ الْمَلْحَدُونَ يَقُولُونَ: إِنَّ الْأَرْوَاحَ مُطْلَقَةً مُتَصَرِّفَةً! ﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وأما ما ذكروه عن فلان وفُلانة أنه رأوه بعد الموت يتصرف، فهو من التصرفات الدجالية، والزخرفات الخيالية الشيطانية، لأن أقوال الله معها العلم اليقين، وغيره معه الشك، فلا يُقابل الشك باليقين، وخبر الله لا يُقارنه ريبٌ، ولا إمكان الغلط ولا الوهم^(١).

قلت: وقد قال فقهاء الحنفية: «مَنْ قَالَ: أَرْوَاحُ الْمَشَايخ حَاضِرَةٌ تَعْلَمُ، يَكْفِرُ»^(٢).

وقالوا: «إِنْ ظَنَّ أَنَّ الْمَيِّتَ يَتَصَرَّفُ فِي الْأُمُورِ دُونَ اللَّهِ تَعَالَى، وَاعْتَقَادَهُ ذَلِكَ كَفَرًا»^(٣).

وقال أيضًا ما نصّه: «هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدعون أن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد مماتهم، ويُستغاث بهم في الشدائد

(١) «سيف الله على مَنْ كَذَبَ عَلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ» (ص ٣٣-٣٤)، باختصار وتصرف يسير.

(٢) قاله الشيخ حافظ الدين، محمد بن محمد شهاب، المعروف بابن البزاز الكردي الحنفي في «الفتاوى البزازية»، كما في «البحر الرائق شرح كنز الدقائق» (٣٩٦/١٢)، تحقيق: أحمد عزوز، الناشر: إحياء التراث العربي - بيروت.

(٣) قاله الشيخ قاسم بن قطلوبغا في كتابه «شرح الدرر»، كما في «البحر الرائق شرح كنز الدقائق» (٣٧٣/٥).

والبلديات، وبهم تُكشف المهمات، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات، مستدلين على أن ذلك منهم كرامات!

وقالوا: منهم **أبدال ونُقباء وأوتاد ونُجباء** وسبعون وسبعة، وأربعون وأربعة، والقُطب هو الغوث للناس ^(١)، وعليه المدار بلا التباس، وجوّزوا لهم الذبائح والندور، وأثبتوا لهم فيها الأجور.

وهذا الكلام فيه تفريط وإفراط، بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي، لما فيه من روائح الشرك المحقق، ومصادرة الكتاب العزيز المصدق، ومخالف لعقائد الأئمة، وما أجمعت الأمة، وفي التنزيل: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

فأما قولهم: إن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد مماتهم فيردّه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [النمل: ٦٠]، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧]، ونحوه من الآيات الدالات على أنه المنفرد بالخلق والتدبير والتصرف والتقدير، ولا شيء لغيره في شيء بوجه من الوجوه، فالكُلُّ تحت ملكه وقهره تصرّفًا وملكًا وإحياء وإماتة وخلقًا.

وقد تمدح الرب بانفراده بملكه في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

(١) هذه كلها ألقابٌ مُخترعة ما أنزل الله بها من سلطان، وستجد الكلام عليها في ملحق (الكلام على ما يُسمّى بالأبدال والنقباء والأوتاد والنجباء والأقطاب).

فقوله في الآيات كلها ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي من غيره، فإنه عام يدخل فيه من اعتقده من وليّ وشيطان يستمده، فإن من لم يقدر على نصر نفسه كيف يُمدّ غيره؟ إن هذا القول وخيم، وشرك عظيم.

وأما القول بالتصرف بعد الممات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة، قال جلّ ذكره: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]، وقال في الحديث: «إذا مات ابنُ آدم انقطع عمله إلا من ثلاث...» الحديث.

وجميع ذلك وما هو نحوه دالٌّ على انقطاع الحسّ والحركة من الميت، وأن أرواحهم مُمسّكة، وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان، فدل على أنه ليس للميت تصرف في ذاته فضلاً عن غيره بحركة، فإذا عجز عن حركة نفسه فكيف يتصرف في غيره؟ فإنه سبحانه يُخبر أن الأرواح عنده، وهؤلاء الملحدون يقولون إن الأرواح مطلقة متصرفة! ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات من الكرامات فهو أعظم من المغالطة، لأن الكرامات شيء من الله تعالى يُكرم به أوليائه وأهل طاعته، لا قصد لهم فيه ولا تحدي ولا قدرة ولا علم، كما في قصة مريم ابنة عمران وأسيد بن حُصير وأبي مُسلم الخولاني.

وأما قولهم: «فِيَسْتَغَاثُ بِهِمْ فِي الشَّدَائِدِ»، فهذا أقبح مما قبله وأبدع، لمصادرتة قوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُم مَخْرَجًا مِنَ الْأَرْضِ إِلَيْهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٦٣]، فإنه جلّ ذكره قرر

أنه الكاشف للضرر لا غيره، وأنه المنفرد بإجابة المضطر، وأنه المستغاث به لذلك كله، وأنه القادر على دفع الضرر، القادر على إيصال الخير، فهو المُتفرد بذلك، فإذا تعين هو جل ذكره؛ خرج غيرُه من ملك ونبي وولي.

والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية، في قتالٍ أو إدراكٍ عدو أو سَبُع ونحوه، كقولهم: يا آل زيد، يا للمسلمين، بحسب الأفعال الظاهرة بالفعل.

وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير، أو في الأمور المعنوية من الشدائد كالمرض وخوف الغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه؛ فمن خصائص الله لا يُطلب فيها غيره.

وأما ما ذكره من تصرف الأرواح فهو من الأقوال القباح، لأن الروح لا تستقل بدون جسدها^(١).

(١) تقدم في مظهر (طلب الدعاء من صالحي الموتى) تقرير أن الأرواح لا تعلم بما يكون في الدنيا، وذكرنا حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن نبي الله ﷺ قال: «إذا حُضر المؤمن (أي: جاءته الوفاة) أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي راضية مرضياً عنك إلى رَوْحِ الله وريحان، ورب غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح مسك، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون: ما أطيب هذه الريح التي جاءتك من الأرض! فيأتون به أرواح المؤمنين، فلهم أشدُّ فرحاً به من أحدكم بغائبه يقدم عليه، فيسألونه: ماذا فعل فلان؟ ماذا فعل فلان؟...».

والشاهد من الحديث: سؤال أرواح المؤمنين للروح الجديدة التي جاءتهم عن حال فلان وفلان، فدل هذا على عدم علم تلك الأرواح بأحوال الأحياء، وإلا لما كانوا سألوها، فإذا تقرر هذا تبين بطلان قول من قال: إن الأرواح تتجرد وتتصرف وتغيث من طلب منها الغوث.

وأما كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب والصوفية الجاهل، وينادونهم ويستجدون بهم - فهذا من المنكرات، فمن اعتقد أن لغير الله من نبيٍّ ووليٍّ أو روح أو غير ذلك في كشف كربةٍ أو قضاء حاجةٍ تأثيرًا فقد وقع في وادي جهل خطر، فهو على شفا جُرْف من السعير.

وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات، فحاشا لله أن تكون أولياء الله تعالى بهذه المثابة، فهذا ظنُّ أهل الأوثان كما أخبر الرحمن: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، ﴿إِنَّا نَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ [يس: ٢٣]، فإنَّ ذكر ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر من نبيٍّ أو وليٍّ وغيره على وجه الإمداد منهم شرك مع الله تعالى، إذ لا قادر على الدفع غيره، ولا خير إلا خيره»^(١).

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن رحمه الله:

«عُبَاد القبور في هذه الأزمان اعتقدوا التدبير والتصريف لمن يعتقدونه، فطائفة قالت: يتصرف في الكون سبعة، وطائفة قالت: يتصرف أربعة، وطائفة قالت: يتصرف سبعون، واختلفوا في قُطْبهم الذي إليه يَرْجِعُونَ، تعالى الله عما يقول الظالمون، فأهل مصر يرون أنه البدوي، وأهل العراق يُرَجِّحُونَ عبد القادر، والرافضة يرون ذلك للأئمة من أهل البيت، وهذا مُشتهر عنهم لا ينكره إلا مكابر»^(٢).

(١) «سيف الله على مَنْ كَذَبَ على أولياء الله»، باختصار من الصفحات (٤٨ - ١٥)، تحقيق: علي رضا بن عبد الله بن علي رضا، تقديم: الشيخ صالح بن فوزان الفوزان، الناشر: مدار الوطن - الرياض.

(٢) «منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود بن جرجيس» (ص ٣٣٧).

وقال الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رحمته الله:

«ثم أكثرهم قد تجاوز القنطرة وغرق في بحار الشرك في الربوبية، مع ما هو فيه من الشرك في الألوهية، فادّعى للأولياء والصالحين شركة في التدبير والتأثير، وشركة في تدبير ما جاءت به المقادير، وأوحى إليهم إبليس اللعين أن هذا من أحسن الاعتقاد في الصالحين، وأن هذا من كرامة أولياء الله المقربين، تعالى الله عما يقول الظالمون، وتقدس عما افتراه أعداؤه المشركون، وسبحان الله ربّ العرش عما يصفون»^(١).

وقال الباحث خالد أبو الفتوح:

«فمن شرك الربوبية ظهر واضحاً اعتقاد القبوريين في الأضرحة وأصحابها أنهم يسمعون ويبصرون ويُجيبون من يتوجه إليهم، وأنهم يعلمون الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وأن لهم قدرة في التصرف والتأثير في الكون بما ليس في طاقة البشر، كالخلق والإفناء، والإحياء والإماتة، وشفاء الأمراض، والنفع والضرر، والعطاء والمنع، والإغناء والإفقار، وتحويل الأشياء عن حقيقتها.

كما زعم القبوريون أن في الأضرحة وأصحابها القدرة على الرفع والوضع في الدنيا والآخرة، وتفريج الكربات، وقضاء الحاجات، ومحو الذنوب وغفرانه»^(٢).

وقال أيضاً: من النماذج الصارخة التي تحوي أنواع الشرك كله (ربوبية وألوهية

(١) «السيف المسلول على عابد الرسول» (ص ٢٠٠).

(٢) من مقال: «أفيون الشعوب الإسلامية، النتائج والآثار»، خالد أبو الفتوح، نقلاً من (ص ٦١) من «دمعة على التوحيد».

وأسماء وصفات) ما أورده أبو بكر العراقي عن أحد القبوريين وهو إمام وخطيب في أحد مساجد ديالي^(١) المهمة، يقول: «دعوتُ الله ست سنوات أن يرزقني الولد فلم أرزق، وذهبت إلى شيخي مصطفى النقشبندي في أربيل^(٢)، فما أن استغثت به وطلبت منه الولد حتى رُزقت بطفلين توأمين، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا، وذلك بعينه هو ما يذكره الألويسي^(٣) عن بعضهم: «الولي أسرع إجابة من الله ﷻ»، وهذا من الكفر بمكان، نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الزيغ والطحيان»^(٤).

فهذا (الإمام) أشرك في الربوبية لاعتقاده أن لشيخه النقشبندي القدرة على التصرف والتأثير في الكون بالنفع والعطاء من دون الله، ومن ثمَّ فإنه أشرك في أسماء الله الحسنى: (النافع، الضَّار، الوهاب، الرزاق)، وأشرك في الألوهية لصرفه عبادةً لغير الله، وذلك بدعائه لشيخه النقشبندي أن يرزقه الذرية^(٥).

(١) ديالي: مدينة من مدن العراق.

(٢) أربيل: مدينة من مدن العراق أيضًا.

(٣) هو محمود شكري بن عبد الله بن شهاب الدين الألويسي الحسيني، أبو المعالي، مؤرخ عالم بالأدب والدين، من الدعاة إلى الإصلاح في العراق، حمل على أهل البدع برسائل، فعاداه كثيرون، له اثنان وخمسون مصنفًا، توفي ﷻ سنة ١٣٤٢ في بغداد.

وكلامه في ذمِّ دعاء غير الله مذكور في تفسيره الموسوم «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»، انظر كلامه على الآية (٧٣) من سورة الحج.

(٤) «روح المعاني» (١١/٢٤)، في تفسير سورة الزمر عند قوله تعالى: ﴿الَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزُّمَر: ٣٦]، وذكر ﷻ عندها بعض مظاهر تعظيم القبور مما رآه بنفسه قبل كلامه الذي نقلته.

(٥) من مقال: «أفيون الشعوب الإسلامية، النتائج والآثار»، خالد أبو الفتوح، نقلًا من (ص ٦٣) =

قال مُقَيَّدُه عفا الله عنه: وهؤلاء القوم قد تشبَّهوا بقوم هود الذين كانوا يعتقدون في معبوداتهم التأثير في الكون، وأنهم يُصيبون الآخرين بسوء إن أرادوا، فقالوا لهود **﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّ﴾** [هود: ٥٤]، نسأل الله العافية والسلامة.



المظهر الخامس والعشرون:

ادعاء علم الغيب، من الكهان وغلاة الصوفية وأشباههم

- ❁ تمهيد: اختصاص الله بعلم الغيب
- ❁ الحكمة من إطلاع الله نبيه ﷺ على بعض المُغَيَّبَات
- ❁ ممن يدَّعي علم الغيب: الكُهَّانُ والعَرَّافُونَ
- ❁ مصادر الكُهَّان في ادِّعاء علم الغيب
- ❁ أدلة اتصال الكهان بالشياطين والجن
- ❁ ادِّعاء غلاة المتصوفة لعلم الغيب
- ❁ ممن يدَّعي علم الغيب: المُنَجِّمُونَ
- ❁ باب في النهي عن إتيان الكهنة والعَرَّافِينَ والمُنَجِّمِينَ
- ❁ التفصيل في حكم سؤال الكاهن
- ❁ استثناء- حكم اختبار الكاهن من قبل ولي الأمر أو نائبه
- ❁ حكم الإخبار عن بعض الأمور المستقبلية بطريق الحساب
- ❁ تكذيب الكهنة والعَرَّافِينَ بالدليل العقلي
- ❁ مما يلتحق بالكهانة: الطُّرُق وقراءة الفُتُجَان والعِيافَة
- ❁ والطَّيِّرة
- ❁ أمثلة من الواقع على نسبة علم الغيب لغير الله

❁ خلاصة البحث



وَمِنْ مَظَاهِرِ الْغُلُوِّ بِالأَشْخَاصِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي بَعْضِ مَجْتَمَعَاتِ الْمُسْلِمِينَ؛ ادْعَاءُ عِلْمِ الْغَيْبِ لِلْكُهَّانِ وَبَعْضِ مَنْ يُسَمَّونَ بِالصُّوفِيَّةِ، فَتَجِدُ بَعْضَ الْمُنْتَسِبِينَ لِلْإِسْلَامِ يَذْهَبُونَ إِلَى الْكُهَّانِ وَيَسْأَلُونَهُمْ عَنْ مَكَانِ الضَّالَّةِ مِثْلًا، أَوْ عَنْ حَظِّهِ وَمَا سَيَحْصِلُ لَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَأَمَّا غُلَاةُ الصُّوفِيَّةِ فَيَدَّعُونَ مَعْرِفَةَ مَا كُتِبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَيُسَمُّونَ ذَلِكَ بِـ«الْكَشْفِ»، أَيَّ أَنَّهُمْ كُشِفَ لَهُمْ مَا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَلَا يُسَمُّونَ ذَلِكَ مَعْرِفَةً لِعِلْمِ الْغَيْبِ، لئَلَا يَنْكُشِفَ دَجْلُهُمْ وَكَذِبُهُمْ.

وَفِي هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الْكِتَابِ سَتَتَكَلَّمُ - بِمَا يَسَّرَ اللَّهُ - عَلَى هَذَا اللَّوْنِ مِنَ الْغُلُوِّ بِالأَشْخَاصِ، وَنُبَيِّنُ بَطْلَانَهُ وَدَجْلَ مَنْ يَدَّعُونَ ذَلِكَ، كَمَا سَنُبَيِّنُ تَشْبِيهِهُمْ بِاللَّهِ فِي هَذِهِ الصِّفَةِ الْعَظِيمَةِ، صِفَةِ عِلْمِ الْغَيْبِ.



تمهيد: اختصاص الله بعلم الغيب

اعلم -رحمك الله تعالى- أن اختصاص الله ﷻ بعلم الغيب أمرٌ ثابتٌ بالكتاب والسنة والإجماع، أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [فاطر: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٢٠]، وقال: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

وأما السُّنة؛ فعن خالد بن ذكوان قال: قالت الرُّبِيع بنت مُعوذ: جاء النبي ﷺ يدخل حين بُني عليّ، فجلس على فراشي كمجلسك ^(١) مني، فجعلتُ جوِّيراتٍ ^(٢) لنا يضربن بالدفِّ ويندبن ^(٣) من قُتل من آبائي يوم بدرٍ، إذ قالت إحداهنَّ: وفينا نبيٌّ يعلم ما في غد.

فقال: «دعي هذه، وقولي بالذي كنتِ تقولين» ^(٤).

وفي لفظ قال: «أما هذا فلا تقولوه، ما يعلم ما في غدٍ إلا الله» ^(٥).

(١) لم يأت في الحديث بيان من هو المخاطب، والظاهر أنه خالد بن ذكوان.

(٢) الجويرية: تصغير جارية، والمقصود: بُنَيَات صغيرات.

(٣) النَّدب هو عدُّ خصال الميت ومحاسنه.

(٤) قال ابن حجر رحمته الله: «فيه إشارة إلى جواز سماع المدح والمرثية مما ليس فيه مبالغة تُفْضي إلى الغلو».

(٥) رواه ابن ماجه (١٨٩٧)، وصححه الألباني رحمته الله، وأصله في البخاري (٥١٤٧).

وعن عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِنِسَاءٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي عُرْسٍ لِهِنَّ يُغَنِّينَ:

وَأَهْدَى لَهَا كَبْشًا تَنْحَنَحُ ^(١) فِي الْمَرْبِدِ ^(٢)

وَزَوْجُكُمْ فِي النَّادِي ^(٣) وَيَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ» ^(٤).

وليلاحظ القارئ الكريم أَنَّ رسول الله ﷺ غَضِبَ مِنْ وَصْفِهِ بِصِفَةِ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَزَجَرَ عَنْ ذَلِكَ فَوْرًا، بَيْنَمَا غَلَاةُ الصُّوفِيَّةِ وَالرَّافِضَةِ يَغْتَطِبُونَ بِوَصْفِ أَوْلِيَائِهِمْ وَمَعْبُودِيهِمْ بِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ!!

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ: لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ ^(٥) الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ» ^(٦).

(١) تنحنح أي: تردّد صوته في جوفه. انظر «المعجم الوسيط».

(٢) المربد هو الموضع الذي تحبس فيه الغنم والإبل. انظر «النهاية».

(٣) النادي هو مجتمع القوم وأهل المجلس. انظر «النهاية».

(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٤٠١)، وحسّن إسناده ابنُ حجر في «الفتح» تحت حديث رقم (٥١٤٧).

(٥) الغيض هو النقص، والمقصود هو أَنَّ الله متفرد بعلم ما نقص من حمل المرأة عن تسعة أشهر، وهو يعلم كذلك كم يزيد حملها عن تسعة أشهر إن حملت، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد: ٨]. انظر تفسير الآية في «تفسير القرآن العظيم» لعماد الدين ابن كثير رحمه الله، سورة الرعد.

(٦) أخرجه البخاري (٤٧٩٧).

«والغيب مصدر، وُصِفَ به الشيء الغائب مبالغةً في تحقيق غيبته، وهو ما غاب عن الحِسِّ والعقل غيبة كاملة، بحيث لا يُدْرِكُ بواحدٍ منهما ابتداءً بطريقة البدهة.

الغيب قسمان:

أ- **قسم نصب الله الدليل عليه**، وهو ما يتعلّق بالإيمان بالله وصفاته، وبيان الشرائع والأحكام واليوم الآخر وأحواله من البعث والنشور والحساب والجزاء والجنة والنار، وهو المراد من قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، ونحو هذا من الآيات (١).

ب- والقسم الثاني هو ما لا دليل عليه، وهو قسمان:

١- قسم مضى.

٢- وقسم مستقبل.

والمستقبل مُختص به تعالى، وهو المراد بقوله جل ذكره: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

فالحاصل أن المقصود بالغيب هنا ليس هو المقصود بالغيب في القسم الأول، فالمقصود بالغيب في القسم الأول هو الأمور المتعلقة بالعقيدة، كالجنة والنار وأشراط الساعة ويوم القيامة والروح المحفوظ والملائكة وغير ذلك، أما الغيب المقصود بالقسم الثاني فهو ما يحصل في الدنيا من أمور، من رزق ومرض ونكاح ومدة البقاء في الدنيا وهكذا، وقد اختص الله بعلم الغيب بقسميه، ومن ادّعى معرفة شيء منها فقد نازع الله في صفاته، وكذّب على الله وعلى خلقه بادّعاء معرفتها.

(١) انظر ما قاله ابن كثير رحمته الله في تفسير الآية الكريمة.

فهذا مما لا قائل به في الإسلام لا بطريق كشف^(١) ولا غيره، لأن الإجماع منعقد على أنه تعالى هو المتصرف بالخوارق، لأنه الخالق، وهو المخصوص بعلم الغيب المستقبل، لاختصاص المقدورات الغيبية به تعالى من حيث العلم والقدرة، فلا شريك له في ذلك.

قال جل ذكره لأفضل خلقه ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

فإذا نفى الله النفع والضرر والغيب عن نبيه؛ فأتى يكون ذلك لغيره؟! نعم، ما أذن به لرسوله بالوحي المنزل فهو خبر عن الله لا عن غيره، لأنه وكيل عن الله في قواعد دينه، وإثبات يقينه، وإخباره بذلك من معجزاته، وهي من آيات الله بوحيه، فلا دخل لغيره في مثلها^(٢).



(١) الذين يدعون الكشف يقصدون بذلك كشف حُجُب الغيب عنهم، والاطلاع على ما في اللوح المحفوظ من الغيب، والذين يدعون هذا هم الكهنة وغلاة الصوفية.

(٢) باختصار وتصرف من «سيف الله على من كذب على أولياء الله» (ص ٥٥ - ٥٧)، للشيخ صنع الله بن صنع الله الحلبي الحنفي رحمته الله.

الحكمة من إطلاع الله نبيه ﷺ على بعض المغيبات

وأما ما وقع على لسان النبي ﷺ من ذكر بعض المغيبات - فإنما هي من الله تعالى، لم يعلمها النبي ﷺ بنفسه، والشاهد على هذا قوله تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

والغاية من ذلك أن تكون معجزة له، وبرهاناً على نبوته، وتثبيتاً لقلبه ولقلوب المؤمنين أيضاً.





مِمَّنْ يَدَّعِي علم الغيب الكُهان والعَرَّافون

وممن يَدَّعِي علم الغيب الكهنة، والكاهن هو الذي يدَّعي معرفة المُغَيَّيات في المستقبل، قال الخطَّابي رحمته الله: «الكهنة قوم لهم أذهان حادَّة ونفوس شريرة وطباع نارية، فألفتهم الشياطين لما بينهم من التَّناسب في هذه الأمور، وساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه»^(١).

وممن يَدَّعِي علم الغيب العَرَّافون، وكلمة العَرَّاف صيغة مبالغة من (عَرَفَ)، وهو أعمُّ من الكاهن^(٢)، وهو اسم عام للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يدَّعي معرفة الغيب، وربما غلب إطلاق كلمة العَرَّاف على مَنْ يدَّعي معرفة مكان الضَّالة.

قال الإمام البَغَوِيُّ^(٣) رحمته الله:

«فالكاهن هو الذي يُخبر عن الكوائن في مستقبل الزمان، ويدَّعي معرفة الأسرار، ومطالعة علم الغيب، وكان في العرب كهنة يدَّعون معرفة الأمور، فمنهم من

(١) نقله ابن حجر عنه في «فتح الباري»، شرح حديث (٥٧٥٨)، بتصرف.

(٢) انظر «لسان العرب»، مادة (عرف).

(٣) هو الشيخ الإمام العلامة القدوة الحافظ شيخ الإسلام مُحيي السنة: أبو الحسين، الحسين بن مسعود بن الفراء البَغَوِيُّ، الشافعي المُفسِّر، صاحب التصانيف، كـ«شرح السنة» في الحديث، و«معالم التنزيل» في التفسير، توفي سنة ٥١٦ هـ. انظر ترجمته في «السير» (١٩ / ٤٣٩).

كان يزعم أن له رئيسًا من الجن، وتابعةً تُلقِي إليه الأخبار، ومنهم مَنْ كان يدَّعي أنه يستدرك الأمور بفهمٍ أُعطيهِ.

والعرَّاف هو الذي يدعي معرفة الأمور بمقدماتٍ أسبابٍ يستدل بها على مواقعها، كالمسروق مَنْ الذي سرقها، ومعرفة مكان الضالة، وتُتهم المرأة بالزنا فيقول مَنْ صاحبها، ونحو ذلك من الأمور، ومنهم مَنْ يُسمِّي المنجم كاهنًا^(١).

وقال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمته الله:

«الكَهانة: فعالةٌ، مأخوذة من الكَهْن، وهو التَّخَرُّص والتماس الحقيقة بأمور لا أساس لها، وكانت في الجاهلية صنعةً لأقوام تتصل بهم الشياطين وتسترق السمع من السماء وتُحدثهم به، ثم يأخذون الكلمة التي نُقلت إليهم من السماء بواسطة هؤلاء الشياطين، ويُضيفون إليها ما يُضيفون من القول الباطل، ثم يُحدثون بها الناس، فإذا وقع الشيء مطابقًا لما قالوا اغترَّ بهم الناس، واتَّخذوهم مرجعًا في الحكم بينهم، وفي استنتاج ما يكون في المستقبل.

ولهذا نقول: الكاهن هو الذي يُخبر عن المُغَيَّيات في المستقبل». انتهى كلامه رحمته الله^(٢).



(١) «شرح السنة» (١٢/١٨٢).

(٢) «فقه العبادات» (ص ٦٣)، الناشر: مدار الوطن - الرياض.



مصادر الكهان في ادعاء علم الغيب

يسلك الكاهنُ أحدَ طريقين في ادعاء علم الغيب:

الطريق الأول: الأخذ عن الشياطين التي تسترق السمع من السماء من كلام الملائكة، وقد كان مسترقو السَّمع من السماء قبل بعثة النبي ﷺ كثيرون، وأما بعد البعثة فَقَلُّوا، لأن الله تعالى حرس السماء بالشُّهْبِ، فلم يبق من استراقهم إلا ما يخطفه الأعلى، فيُلقيه إلى الأسفل قبل أن يُصيبه الشهاب، فإن أدرك النجم -المُعَبَّر عنه في القرآن بالشُّهَاب- الشيطانَ أحرقه فلم يَسْتَطِع إبلاغ ما سمعه لمن تحته من الشياطين، وإن سبق الشيطانُ الشهابَ وأبلغ ما سمعه للكهان كذب معها الكاهن مائة كذبة، ثم يُبلغ الكاهن مَنْ أتاه من الناس تلك الكذبة، فإن كان في كلامه كلمة صدق فهي من سرقاته وليس من اطلاعه على الغيب، وربما افتنن مَنْ أتى الكاهن بتلك الكلمة الصادقة، ولم يعتبر بما خلط معها من الكذبات، وإن كان كل كلامه كذبٌ فربما انطلى كل الكلام على السائل (١).

قال تعالى على لسان الجن ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِلْءَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ۝٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ ۖ فَمَنْ يَسْتَمِعِ ۖ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ﴿ [الجن: ٨، ٩]، وقال في أول سورة الصافات ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ۖ وَحَفَظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ لَا

(١) سيأتي ذكر أدلة اتصال الكهنة بالشياطين في الفصل اللاحق.

يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۖ دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١١﴾ [الصفات: ٦-١٠] (١).

قال ابن حجر رحمه الله: «وكانت إصابة الكهّان قبل الإسلام كثيرة جداً، وأما في الإسلام فقد ندر ذلك جداً، حتى كاد يَضمحل والله الحمد» (٢).

وقال القرطبي رحمه الله: «كانوا في الجاهلية يترافعون إلى الكهان في الوقائع والأحكام ويرجعون إلى أقوالهم، وقد انقطعت الكهانة بالبعثة المحمدية، لكن بقي في الوجود مَنْ يَتَشَبَّهُ بهم، وثبت النهي عن إتيانهم، فلا يَحِلُّ إتيانهم ولا تصديقهم» (٣).

الطريق الثاني من طرق تلقي الكاهن هو الاستعانة بالجنّ، سواء كان ذلك الجني قرين الإنسان أو غيره، فإن لكل إنسان قريناً من الجن يأمره بالخير وقريناً من الجن يأمره بالشر، كما ثبت هذا في «الصحيح» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وَكَّلَ الله به قرينه من الجن» (٤).

(١) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية الكريمة: «أي: إِلَّا مَنْ اخْتَطَفَ من الشياطين الخطفة، وهي الكلمة يَسْمَعُهَا مِنَ السَّمَاءِ، فَيُلْقِيهَا إِلَى الَّذِي تَحْتَهُ، وَيُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى الَّذِي تَحْتَهُ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا بِقَدَرِ اللَّهِ تَعَالَى قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُ الشَّهَابُ فَيَحْرِقُهُ، فَيَذْهَبُ بِهَا الْآخَرُ إِلَى الْكَاهِنِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ، وَلِهَذَا قَالَ ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصفات: ١٠]، أي: مستنير».

(٢) «فتح الباري»، كتاب (الطب)، باب (الكهانة)، باختصار.

(٣) نقله عنه ابن حجر في «فتح الباري»، كتاب (الطب)، باب (الكهانة).

(٤) رواه مسلم (٢٨١٤).



وفي لفظ: «وقد وُكِّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة» (١).

والكهان يستعينون بهم، لأنهم يُخبرون الشخص بما يتعلق به من الأمور الخاصة التي يَطَّلَع عليها القرين، كمكان عمله واسم زوجته وأمه واسم بلده وعنوان بيته، ونحو ذلك مما يعرفه القرين (٢).

ولذا يقول بعض الذين يعالجون بالرُّقى الشرعية ويعرفون ألاعيب السحرة والكهنة: إذا أردتَ فضحَ الكاهن فاسأله عن شيء لا تعرفه أنت، فإنك إن لم تكن تعرفه أنت فلن يعرفه قرينك من الجن من باب أولى، ومن ثم فلن يهتدي الكاهن إلى شيء، مثل أن تأخذ شيئاً من الحصى من الأرض وتقبضه بيدك، ثم تسأل الكاهن: كم في يدي من الحصى؟ فإنه سيتهرب ولن يجيب، لأن قرينك من الجن لا يعرف الإجابة، فمن أين سيأتي الساحر بالجواب؟!

والكاهن يعبد الشيطان الذي يتصل به في مقابل خدمته له، وهذا هو مبتغى الشياطين، فهي لا تبغي من وراء بني آدم إلا إغواءهم، لأن هذه هي وظيفتهم ورسالتهم، فيقع في شركهم السحرة والكهنة والعرافون، فهم شياطين الإنس، وأولئك شياطين الجن، نعوذ بالله من شرورهم.

تنبيه: يدَّعي بعض الناس علم الغيب مجرد ادعاء، وهو في حقيقة أمره ليس

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر ما قاله ابن حجر رحمته الله في «فتح الباري»، شرح حديث (٥٧٥٨)، وكذا ما قاله الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله جميعاً في «تيسير العزيز الحميد»، باب (ما جاء في الكهان ونحوهم).

له اتصال لا بالشياطين ولا بقرينه الإنسي، بل يدّعي ذلك ليصدق الناس، فيكسب شهرة وربما مالا منهم، وربما وافق كلامه القَدَر فأصاب فزاد الناس في تصديقه، والله المستعان.





أدلة اتصال الكهان بالشياطين والجن

جاء في صفة استراق الشياطين والجن للسمع واتصالهم مع الكهّان خمسة

أحاديث:

الدليل الأول - وهو من أدلة اتصال الكهان بالشياطين

جاء في «صحيح البخاري» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء؛ ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، ينفذهم ذلك، فإذا فُزَّع^(١) عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال^(٢): الحق وهو العليّ الكبير».

فيسمعها مُسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدّد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا، فيُصدّق بتلك الكلمة التي سَمِع من السماء^(٣).

(١) أي: ذهب الفزع.

(٢) أي: قالوا مخاطبين من سألهم: «ماذا قال ربكم؟».

(٣) رواه البخاري (٤٨٠٠)، وأطرافه في (٤٧٠١، ٧٤٨١).

قوله: «إذا قضى الله أمره في السماء»، أي: إذا تكلم الله بأمره الذي قضاه في السماء مما يكون.

قوله: «خَضَعَانَا لِقَوْلِهِ»، أي: خضوعاً وخشوعاً لقول الله ﷻ.

قوله: «كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ»، أي: كأن الصوت المسموع صوت ضرب سلسلة على صفوان وهو الحجر الأملس.

قوله: «يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ»، أي: يبلّغهم كلهم ويخلص إليهم.

ثم يُصْعَقُونَ بعد ذلك، ثم يُفَرِّغُ عن قلوبهم، أي: يُزال عنها الفزع والخوف والغشي.

قوله: ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [سبأ: ٢٣]، أي: الملائكة يسأل بعضها بعضاً: ماذا قال ربكم؟ فيقول بعضهم لبعض: «الحق»، أي: ما قال إلا حقاً.

قوله: «وَصَفَهُ سَفِيَانٌ بِكَفِهِ فَحَرَفَهَا»، أي: وصَفَ ركوب بعضهم فوق بعض بكفه فأقامها على هيئة طولية كأنها على حرف، وبدد -أي فرّق- بين أصابعه.

قوله: «فِيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيَلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ»؛ أي: يستمع المسترق من الشياطين للكلمة من الوحي فيلقيها إلى الشيطان الذي تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، وهكذا حتى يلقيها أسفل الشياطين إلى الكاهن.

قوله: «فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا»، الشهاب هو النجم الذي يُرمى به، أي: ربما أدرك المسترق الشهاب قبل أن يُلقى المسترق الكلمة إلى من تحته، وربما ألقاها المسترق قبل أن يدركه الشهاب.

قوله: «فيكذب معها مائة كذبة»، أي: يكذب الكاهن مع الكلمة التي ألقاها إليه وليُّه من الشياطين مائة كذبة، ثم يُخبر بها وليُّه -أي نصيره وحليفه- من الإنس، وهو السائل الذي سأل الكاهن، فيفتتنُ السائل بالكاهن، وكلاهما قد فُتِنَا بوليَّهما من الشياطين.

قوله: «أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا، فيصدق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء»، يعني: أن الذين يأتون الكاهن يستدلون على صدقه دائماً بكونه تكهن مرة فوجدوا ما قاله حقاً، فيفتنون به، ويظنون أنه يعلم الغيب، وإنما هي من سرقاته، ويستدلون بذلك على صدقه دائماً، ولا يعتبرون بالكذبات الكثيرة التي خلطها مع كذباته.

الدليل الثاني - وهو من أدلة اتصال الكهان بالشياطين

حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار أنَّهم بينما هم جلوسٌ ليلةً مع رسولِ الله ﷺ؛ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا؟».

قالوا: الله ورسوله أعلم، كُنَّا نَقُولُ وَلَدَ اللَّيْلَةِ رَجُلٌ عَظِيمٌ، وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِنَّهَا لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتٍ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ، إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ، قَالَ: فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ

أَهْلِ السَّمَاوَاتِ بَعْضًا، حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبْرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَتَخْطِفُ الْجِنُّ السَّمْعَ فَيَقْدِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ، وَيُزْمُونَ بِهِ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يَقْرَفُونَ^(١) فِيهِ وَيَزِيدُونَ^(٢).

وفي رواية: قال معمر: قلت للزهري: أكان يُرمى بها في الجاهلية؟

قال: نعم، ولكنها غَلِظَتْ حين بُعِثَ النبي ﷺ.

الدليل الثالث - وهو من أدلة اتصال الكهان بالشياطين

ما جاء في «صحيح البخاري» عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «إن الملائكة تنزل في العنان، وهو السحاب، فتذكرُ الأمرُ قُضِيَ في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه، فتُوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»^(٣).

الدليل الرابع - وهو من أدلة اتصال الكهان بالجن

وعنها قالت: سأل أناسُ رسول الله ﷺ عن الكهان، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ليسوا بشيء».

قالوا: يا رسول الله، فإنهم يُحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرأها في أذن

(١) أي: يقرِفون الكذب، لأن المقارفة في اللغة متعلقة بالقبايح، يقال: قرف الذنب واكتسبه. انظر «النهاية».

(٢) رواه مسلم (٢٢٢٩).

(٣) رواه البخاري (٣٢١٠).

وَلِيَّهِ (١) قَرَّ الدجاجة (٢)، فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذِبَةٍ (٣).

فهذا دليل على أن الكهان يتصلون بقرين الإنسان من الجن، فإذا اتصل الإنسان بالكاهن وسأله عن ذلك المفقود أخبر الجنى الشرير ذلك الكاهن بمكان تلك الضالة، ثم يخبر الكاهن الإنسان بمكانها ويخلط معها مائة كذبة، فإذا رأى الإنسان صدق ذلك الكاهن في تلك الكلمة الصادقة صدَّقه في كل ما قاله وظن أن عنده علما بالغيب.

ومما يُستفاد من الحديث شِدَّة قبول الناس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة، ولا يعتبرون بمائة كذبة!

الدليل الخامس - وهو من أدلة اتصال الكهان بالجن

حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ لابن صَيَّادٍ: «إني قد خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا».

فقال ابنُ صَيَّادٍ: هو الدُّخ.

قال: «إِخْسَاءً، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ» (٤).

يعني: لست أنت إلا من إخوان الكهان.

وقوله: «إني قد خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا» أي أضمرت لك في نفسي شيئاً، فقال ابن صياد (هو الدُّخ)، فلم يهتد إلا إلى هذين الحرفين، على عادة الكهان من اختطاف

(١) أي: وليه من الكهان، سمي وليًّا لكونه يُوالِيه.

(٢) أي: صَبَّها في أذنه، وفي رواية: «فَيُفْقِرُهَا»، أي: يُرَدِّدها.

(٣) رواه البخاري (٦٢١٣) ومسلم (٢٢٢٨)، واللفظ للبخاري.

(٤) رواه البخاري (١٣٥٤) ومسلم (٢٩٢٤).

بعض الكلمات من أوليائهم من الجن، وإلا فالذي أضمره النبي ﷺ هو (الدخان)، فقد جاء في رواية في مسند أحمد أن النبي ﷺ كان قد خبأ في صدره قول الله عز وجل في سورة الدخان (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين).

قال القرطبي رحمه الله: «كان ابن صياد على طريقة الكهنة، يخبر بالخبر فيصيح تارة ويفسد أخرى، فشاع ذلك ولم ينزل في شأنه وحي، فأراد النبي ﷺ سلوك طريقة يختبر حاله بها» (١).

فالحاصل أن الكهان يفرعون إلى الجن في أمورهم، ويستفتونهم في الحوادث، فيلقون إليهم الكلمات، وقد يتوافق ما يخبر به الكاهن مع القدر، فيظن من سمعه أن الكاهن قد كشف له شيء من الغيب، فيفتن به، ويظنه الجاهل كشفًا وكرامة، وأن ذلك الكاهن ولي من أولياء الله، وهو من أولياء الشيطان، كما قال تعالى عنهم في سورة الشعراء: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿١٦﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿١٧﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرَهُمْ كَذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣].

وقد حسم الإسلام -ذلك الدين العظيم- مادة هذا المدخل الشيطاني، فحرّم الذهاب للكهان، فالحمد لله على نعمة الإسلام.



(١) نقله ابن حجر عنه في «فتح الباري»، شرح حديث (٣٠٥٥).



ادّعاء غلاة المتصوفة لعلم الغيب

وأكثر مَنْ تنتشر بينهم الكهانة هم الصوفية، فأكثر مشايخهم ما بين كاهن وعرف، لأنهم قوم يدّعون الولاية والكرامة لمشايخهم، وادّعاء علم الغيب عندهم من مستلزمات الولاية والكرامة، ويسمونه بـ«الكشف»، ولا يسمونه ادّعاءً لعلم الغيب لئلا يُفتضح أمرهم^(١).

وقد زعم كثير من المتصوفة وال دراويش - بل صار من المستقر والضروري عندهم - أن بعض مَنْ وصفوهم بالأولياء لهم اطلاع على اللوح المحفوظ، ومن هؤلاء المتصوفة: عبد الوهاب بن أحمد الأنصاري، المعروف بالشعراني - وكان خرافيًا كبيرًا -، فقد ترجم في كتابه «الطبقات الكبرى» لإسماعيل بن يوسف الأنباي، وزعم أنه يرى اللوح المحفوظ!

وترجم - أيضًا - لإبراهيم بن أبي المجد الدسوقي المصري، الذي كان يدّعي أنه أغلق أبواب النار، وفتح أبواب الجنة، ومن زاره أسكنه جنة الفردوس، وأنه نظر في اللوح المحفوظ وهو ابن ثمان سنين.

وذكر أمورًا أخرى تضحك لسماحتها البهائم، وللدسوقي وغيره من الخرافيين قبور تعظمها جهلة الناس وتتوجه إليها، نسأل الله العافية.

(١) انظر «شرح مسائل الجاهلية»، للدكتور يوسف السعيد (ص ٨٧٦).

وخلاصة القول إن اختصاص الله بعلم الغيب صفة ثابتة له وحده لا شريك له، لا يشاركه فيها أحد، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولا نبي مرسل، فمن ادَّعَاها لنفسه أو لغيره فقد شَرَّكَ بين الله وبين خلقه فيما هو من خصائص الله وحده لا شريك له، وشَبَّهه به، ووقع في الشرك الأكبر، وقد روى الذهبي بإسناده إلى إمام أهل السنة في زمانه نُعَيْم بن حَمَّاد الخزاعي -شيخ البخاري- قال: «مَنْ شَبَّهَ الله بخلقه فقد كفر»^(١).



(١) انظر «العلو» رقم (٤٦٤)، وكذا كتاب «العرش» (ص ٩٣-٩٤)، وصححه، وأشار إلى ثبوته في «السير» (١٠/٦٢٥)، ورواه اللالكائي عن عبد الرحمن بن أبي حاتم تعليقاً في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» برقم (٩٣٦).



ممن يدّعي علم الغيب المُنجّمون

وممن يدّعي علم الغيب المُنجّمون، والمنجم هو الذي يستدل إلى معرفة الحوادث المستقبلية بحركة النجوم بزعمه، كأوقات هبوب الرياح ومجيء المطر وظهور الحر والبرد وتغير الأسعار ونحو ذلك، فهم يزعمون أنهم يعرفون ذلك بسير الكواكب في مجاريها، وباجتماعها واقترانها، وأن ذلك له تأثير في السفليات، وهذا ما يسمى بعلم التأثير ^(١)، ومدّعيه ربما سُمّي بالحازي ^(٢)، كما في الحديث: «وكان هرقل ^(٣) حَزَاءً ينظر في النجوم» ^(٤).

والمنجم في هذه الحالة يخاطب النجوم، فيصور له الشيطان صورة يستدل بها على ما تقدم، وهذا كله من الخرافة.

والجائز في الاستفادة من حركة النجوم هو علم التسيير، وهو ما يدرك بالمشاهدة والحس، كوقت الزوال وجهة القبلة وجهة البلد الفلاني ومواسم الزراعة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقال: ﴿وَعَلَّمَتِ وَالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

(١) انظر «شرح السنة» للبغوي (١٢/ ١٨٣).

(٢) قال ابن حجر في «الفتح» شرح حديث رقم (٧): «حزائي: تكهن».

(٣) هرقل هو ملك الروم، ولقبه: قيصر، وهو لقب ملوك الروم في ذلك الزمان.

(٤) رواه البخاري، كتاب (بدء الوحي)، حديث رقم (٧).

ويدخل في التنجيم استخدام الحروف الأبجدية (أبا جاد) مربوطة بسير النجوم لمعرفة الحوادث المستقبلية، وهو الذي عناه ابن عباس رضي الله عنه في قوله: «إن قومًا يحسبون (أبا جاد)، وينظرون في النجوم، ولا أرى لمن فعل ذلك من خلاق» ^{(١)(٢)}. والاستفادة من (أبا جاد) جائزة للتَّهَجِّي وحساب الجُمْل، أما إذا كان للاستعانة بذلك لادعاء علم الغيب فإنه حرام ^(٣).

ومن مظاهر التنجيم ما يدعيه بعض الفلكيين من المنجمين من معرفة ما سيحدث للإنسان في المستقبل، وينشرون هذا في الصحف والمجلات، فيزعمون أن من وُلِد في برج كذا من بروج النجوم، كبرج العقرب مثلاً، فطالعه نحس، أي حظُّه نحس، ومن وُلِد في برج الميزان - مثلاً - فطالعه سعيد، وهلمَّ جَرًّا.

وحكم التنجيم داخل في حكم السحر، فالجامع بينهما الاتصال بالشياطين، والدليل على ذلك حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَقْتَبَسَ عِلْمًا مِنْ النُّجُومِ؛ أَقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السَّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ» ^(٤).

(١) خلاق أي: نصيب، يعني نصيباً في الآخرة، ومعنى الكلام: أن فاعل ذلك قد هلك، لوقوعه في الكفر.

(٢) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» برقم (١٩٨٠٥) واللفظ له، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٣٩/٨).

(٣) انظر «القول المفيد» للشيخ محمد بن عثيمين رحمته الله، باب (ما جاء في الكهان ونحوهم).

(٤) رواه أحمد (٣١١/١)، وأبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦)، وحسنه الألباني كما في «الصحيحة» (٧٩٣).

فقوله «اقتبس» أي تعلّم، وقوله «شعبة من النجوم» أي طائفة من علم النجوم، ويُسمى علم التأثير، أي تأثير حركة النجوم في الحوادث الأرضية، كمن يستدل باقتران النجم الفلاني بالنجم الفلاني على أنه سيحدث كذا وكذا، وأنه إذا وُلِدَ إنسان في نجم الميزان -مثلاً- فإنه سيكون سعيدًا، وإذا وُلِدَ في نجم العقرب -مثلاً- فإنه سيكون شقيًّا، أو إذا طلع النجم الفلاني فسينزل المطر حتمًا، فهذا كله باطل، لأن الله تعالى - الذي هو خالق الأشياء كلها - لم يجعل علاقة بين الحوادث وطلوع النجوم، ومن زعم ذلك فعليه الإثبات.

وقوله «زاد ما زاد»: أي أن فاعل ذلك -أي التنجيم- قد زاد في تعلم شعب السحر بمثل ما زاد من اقتباس علم النجوم، وقد علّم أن أصل علم السحر حرام، والازدياد منه ازدياد في الوقوع في الحرام، فكذلك الازدياد من علم التنجيم ^(١).

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله في «فتاويه» ^(٢): «فهو يُفيد تحريم تعليم التنجيم، وأنه يدخل في السّحر، وأنه كلما زاد صاحبه توغُّلاً في علم النجوم المحرم؛ زاد بذلك توغُّلاً في علم السحر». اهـ.

ومن أدلة تحريم التنجيم حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لهم ذات يوم: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

(١) قاله الشيخ سليمان في «التيسير»، باب (بيان شيء من أنواع السحر)، والشوكاني رحمه الله في «نيل الأوطار»، باب (ما جاء في حد الساحر وذم السحر والكهانة)، كلاهما بنحوه.

(٢) (١/١٦٨).

قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنوء^(١) كذا وكذا؛ فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب^(٢)».

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمور الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة^(٣)».

كما جاء في ذم التنجيم عدة آثار عن السلف رضي الله عنهم، فقد روى ابن جرير بسنده عن قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَتْ وَيَالْجَمُّ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦] قال:

«العلامات النجوم، وإن الله ﷻ إنما خلق هذه النجوم لثلاث خصلات: جعلها زينة للسماء، وجعلها يُهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين، فمن تعاطى^(٤) فيها غير ذلك فقد رآه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به».

ورواه ابن أبي حاتم في تفسير سورة النمل^(٥) عن قتادة وزاد:

«وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة؛ من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمري ما من نجم إلا يُولد به الأحمر والأسود، والطويل والقصير، والحسن والذميم، وما عَلِمَ هذا

(١) النوء هو النجم.

(٢) رواه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

(٣) رواه مسلم (٩٣٤) وغيره.

(٤) التعاطي هو التناول والاستعمال، والمقصود من استعمال النجوم لغير هذه الأمور. انظر «النهاية».

(٥) آية: (٦٥).

النجم وهذه الدابة وهذا الطائر ^(١) بشيء من الغيب، وقضى الله أنه ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]، ولعمري لو أن أحدًا عَلِمَ الغيب لعلمه آدم الذي خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته، وعَلِمَ أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة يأكل منها رغدًا حيث شاء، ونُهي عن شجرة واحدة، فلم يزل به البلاء حتى وقع بما نُهي عنه.

ولو كان أحد يَعلم الغيب لعلمته الجن حين مات نبي الله سليمان ﷺ، فلبثت تعمل حولًا في أشد الهوان لا يشعرون بموته، ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ [سبأ: ١٤]، أي تأكل عصاه، فلما خَرَّ تبينت الجن، وهي في مصحف ابن مسعود: ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]، وكانت الجن تقول قبل ذلك إنها تعلم الغيب، وتعلم ما في غدٍ، فابتلاهم الله بذلك، وجعل موت سليمان للجن عظة ^(٢).

وروى أبو الشيخ في كتاب «العظمة» ^(٣) عن ابن كريب عن أبيه عن جده كريب أن ابن عباس ؓ قال له: «يا غلام، إِيَّاكَ والنظر في النجوم، فإنه يدعو إلى الكهانة».

وله عن عمر بن حسان قال: «كان مع علي بن أبي طالب ؓ مُنَجِّمٌ، فلما أراد أن يسير إلى «النهروان» قال: يا أمير المؤمنين، لا تَسِرْ هذه الساعة التي أمرك فيها فلان، فإنك إن سِرْتَ فيها أصابك وأصحابك ضُرٌّ وأذى، وسِرْ في الساعة التي أمرك

(١) كالهوم ونحوه مما كانوا يتشاءمون به في الجاهلية.

(٢) ورواه أبو الشيخ في كتاب «العظمة»، ذكر (النجوم).

(٣) كتاب «العظمة»، ذكر (النجوم).

فيها، فإنك إن سِرْتَ فيها ظَهَرْتَ وظَفَرْتَ ^(١) وأَصَبْتَ ^(٢).

فقال: أتدري ما في بطن هذا الفرس أذكر هو أو أنثى؟

قال: إن حَسَبْتُ ^(٣) عَلِمْتُ.

قال: مَنْ صَدَّقَكَ بهذا كَذِبَ بالقرآن، لقد ادَّعَيْتَ علماً ما ادَّعاه محمد ﷺ، ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤]، أتزعم أنك تهدي للساعة التي يُصِيبُ النفع من سار فيها، وتهدي للساعة التي يَحِقُّ السوء بمن سار فيها؟

قال: نعم.

قال: مَنْ صَدَّقَكَ بهذا استغنى عن أن استعان بالله ^(٤)، وينبغي للمقيم بأمرك أن يُؤَلِّيكَ الحمد دون ربِّه ﷻ ^(٥)، لأنك هديتهُ للساعة التي يُصِيبُ النفع فيه من سار فيها، وصرفتهُ عن الساعة التي يُصِيبُ السوء من سار فيها، بل نكذبك ونخالفك ونسير في الساعة التي نهيتنا فيها.

ثم قال: اللهم لا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ ^(٦)، ولا خير إِلَّا خيرك، ولا ربَّ غيرك.

(١) ظهرت وظفرت كلاهما بمعنى، أي: غلبت وانتصرت. انظر «لسان العرب».

(٢) أي: أصبت منهم غنائم.

(٣) أي: إن حسبْتُ بطريقة التنجيم.

(٤) أي: استغنى عن الاستعانة بالله.

(٥) أي: يلزم من كلامك أن من استمع لمشورتك وأتبعك أن يحمذك ولا يحمده الله، ومقصود

علي ﷺ هو بيان ما يلزم من تصديقه من لوازم كفرية.

(٦) سيأتي الكلام قريباً على معنى التطير.

ثم قال: أيها الناس، إنما المنجم مثل الساحر، والساحر مثل الكاهن، والكاهن مثل الكافر، والكافر في النار.

ثم قال: والله لئن بلغني أنك نظرت في شيء من هذا لأُخِلِدَنَّكَ السجن ما بقيت، ولأُحَرِّمَنَّكَ العطاء ما بقيت، ثم سار فظفر، فقال: لو سِرنا في الساعة التي أمرنا فيها المنجم لقال الناس: سار في الساعة التي أمره فيها المنجم فظفر، ما كان لرسول الله ﷺ منجم ولا لنا بعده (١).

وعن عمر رضي الله عنه قال: «تَعَلَّمُوا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر، ثم أَمْسِكُوا» (٢).

وروى ابن السري في كتاب «الزهد» عنه رضي الله عنه: «تَعَلَّمُوا من النجوم ما تهتدون بها، وتعلموا من الأنساب ما تَوَاصِلُونَ بها» (٣).

وروى الإمام أحمد عن ميمون بن مهران قال: «ثلاث ارفضوهن؛ سب أصحاب محمد ﷺ، والنَّظَرُ في النجوم، والنظر في القَدَر» (٤).

قال ابن عبد البر رحمه الله: «والمتخرصون بالنجامة كالمتخرصين بالعيافة والزجر وخطوط الكف والنظر في الكتف وفي مواضع قرض الفأر وفي الخِيَلان والعلاج

(١) كتاب «العظمة»، (ذكر النجوم).

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٢٥٦٤٠)، وابن عبد البر في كتاب «جامع بيان العلم وفضله» (٩/٢).

ومقصوده بقوله: «أَمْسِكُوا»؛ أي قِفُوا عند هذه، ولا تزيدوا عليها.

(٣) كتاب «الزهد»، باب (صلة الرحم).

(٤) رواه ابن عبد البر في كتاب «جامع بيان العلم وفضله» (١١/٢)، وأحمد في «فضائل الصحابة»

(١٧٣٩)، وصححه مُحَقِّقه الشيخ وصي الله عباس حفظه الله.

بالفكر وملك الجن وما شاكل ذلك مما لا تقبله العقول ولا يقوم عليه برهان ولا يصح من ذلك كله شيء، فإن ما يُدركون منه يخطئون في مثله مع فساد أصله، وفي إدراكهم الشيء وذهاب مثله أضعاف ما يدلك على فساد ما زعموه، ولا صحيح على الحقيقة إلا ما جاء في أخبار الأنبياء صلوات الله عليهم^(١).

فالحاصل أن تعلم التنجيم والعمل به حرام، لأنه لا علاقة البتة بين طلوع النجوم وسيرها وبين اقترانها بالحوادث الأرضية من حصول خير أو شر، وليس إلا ادعاء لعلم الغيب، وهو من خصوصيات الله تعالى، والله أعلم.



(١) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٨ - ٩).

باب في النهي عن إتيان الكهنة والعرفان والمنجمين

ولما يترتب على إتيان الكهنة والعرفان من المفساد الدينية العظيمة؛ فقد جاء الوعيد الشديد في حق مَنْ أتى عرافًا أو كاهنًا ولو لمجرد السؤال، فقد روى مسلم عن صفية رضي الله عنها عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً» (١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» (٢).

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مَتًّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطَيِّرَ» (٣) له، أَوْ تَكْهَنَ أَوْ تُكْهَنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ

(١) رواه مسلم (٢٢٣٠).

(٢) رواه أحمد واللفظ له (٤٢٩ / ٢)، وحسنه محققو «المسند».

ورواه الترمذي (١٣٥)، وابن ماجه (٦٣٩)، ورواه أبو داود (٣٩٠٤) بنحوه بألفاظ متقاربة ليس فيها ذكر العراف، وهذا لفظ ابن ماجه: «مَنْ أَتَى حَائِضًا أَوْ امْرَأَةً فِي دَبْرِهَا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»، وصححه الألباني رحمته الله.

وقال الحافظ ابن حجر رحمته الله: أخرجه أصحاب السنن وصححه الحاكم...، وله شاهد من حديث جابر وعمران بن حصين أخرجهما البزار بسندين جيدين. انظر «فتح الباري»، شرح حديث (٥٧٥٨).

(٣) سيأتي الكلام على معنى التطير عند الكلام عليه بتوسع.

بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» (١).

فالوعيد الوارد في الحديث الأول مُنطبق على من أتى العراف فسأله مجرد سؤالٍ دون أن يُصدِّقه، فهذا لا تقبل له صلاة أربعين يومًا، ولكنه لا يكفر، ولا يكون خارجًا من ملة الإسلام.

بينما الوعيد المذكور في الحديثين الثاني والثالث منطبقٌ على من سأل الكاهن أو العراف وصدَّقهما، ففاعل ذلك قد كفر وخرج من ملة الإسلام، لأنه لما صدَّقهما اعتقد أنهما شاركا الله تعالى في شيء من خصائصه، وهو علم الغيب، فكذب القرآن، فكفر عياذا بالله، نسأل الله العافية.



(١) رواه البزار كما في «كشف الأستار» (٣٠٤٤)، والطبراني في «الكبير» (١٨ / ١٦٢)، ولفظه: «عن عمران بن حصين أنه رأى رجلاً في عضده حلقة من صُفْرٍ (أي: النحاس الأصفر)، فقال له: ما هذه؟

قال: نُعِيت لي من الواهنة. قال: أما إن ميتٌ وهي عليك وُكِلت إليها، قال رسول الله ﷺ: «ليس منّا مَنْ تَطِير أو تُطِير له...»، الحديث.

قال الهيثمي: «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع، وهو ثقة». انظر «مجمع الزوائد» (١١٧/٥).

ورواه البزار -أيضاً- عن ابن عباس ؓ كما في «كشف الأستار» (٣٠٤٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٥٤٣٥) و«السلسلة الصحيحة» (٢١٩٥)، وجوّد إسناده المنذري في كتاب «الترغيب والترهيب»، كتاب (الأدب) وغيره، باب (الترهيب من السحر وإتيان الكهان والعرافين والمنجمين بالرمل والحصى أو نحو ذلك وتصديقهم).



التفصيل في حكم سؤال الكاهن

قال أبو بكر ابن العربي في «أحكام القرآن» ونقله عنه القرطبي في «تفسيره»:

«وأما من ادّعى علم الكسب في مستقبل العمر فهو كافر، أو أخبر عن الكوائن الجمّلية^(١) أو المُفَصَّلَة فيما يكون قبل أن يكون؛ فلا ريبه في كفره أيضًا»^(٢).

استثناء - حكم اختبار الكاهن من قبل ولي الأمر أو نائبه

يُستثنى ممن نهي عن سؤال الكاهن ولي الأمر أو نائبه ممن لهم سلطة - كأهل الحسبة - لأجل اختبار الكهنة وإظهار عجزهم، فهذا لا بأس به، كما فعل النبي ﷺ مع ابن صياد وقد تقدمت القصة.

قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمته الله:

«الذي يأتي إلى الكاهن ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن يأتي إلى الكاهن فيسأله من غير أن يصدقه، فهذا محرم، وعقوبة فاعله ألا تقبل له صلاة أربعين يومًا، كما ثبت في «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أتى عرافًا فسأله لم تقبل له صلاة أربعين يومًا - أو - أربعين ليلة».

(١) أي: على سبيل الإجمال.

(٢) انظر «أحكام القرآن»، سورة الأنعام، المسألة السابعة، و«تفسير القرطبي»، تفسير سورة الأنعام، الآية: (٥٩).

القسم الثاني: أن يأتي الكاهن فيسأله ويصدق به بما أخبر به مما ادعاه من علم الغيب، فهذا كافر بالله ﷻ، لأنه صدّقه في دعوى علم الغيب، وكذب الله في قوله: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وتكذيب خبر الله ورسوله كفر، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «من أتى كاهنًا فصدق به بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ».

القسم الثالث: أن يأتي للكاهن فيسأله ليبين حاله للناس وأن ما يفعله كهانة وتمويه وتضليل، فهذا لا بأس به ^(١)، ودليل ذلك أن النبي ﷺ أتى ابن صياد فأضمر له النبي ﷺ شيئاً في نفسه، فسأله -أي النبي ﷺ- عما خبأ له، فقال: (الدُّخ)، يريد الدخان، فقال النبي ﷺ: «إخسأ فلن تعدو قدرك» ^(٢).

(١) وقال الشيخ رحمه الله في «القول المفيد على كتاب التوحيد» (١/ ٥٣٣ - ٥٣٤): «وإبطال قول الكهنة لا شك أنه أمر مطلوب، وقد يكون واجباً».

(٢) «فقه العبادات» ص (٦٣ - ٦٤).

وانظر للفائدة في باب (تحريم الكهانة) كتابه «القول المفيد على كتاب التوحيد»، باب (ما جاء في الكهان ونحوهم).

وانظر كذلك رسالة لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله في هذا الباب بعنوان: «إقامة البراهين على حكم من استغاث بغير الله أو صدق الكهنة والعرافين»، وقد ضُمّت في «مجموع فتاويه» (١/ ١٤٩).

وانظر أيضاً: «حكم الكهانة» للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي رحمه الله، وقد أودعه كتابه «أضواء البيان» عند تفسير قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

حكم الإخبار عن بعض الأمور المستقبلية بطريق الحساب

وأما الإخبار عن أمور مستقبلية تُدرك بطريق الحساب فليس من التنجيم ولا ادعاء علم الغيب، كالإخبار عن كسوف الشمس وخسوف القمر، ودخول فصل الربيع والصيف والخريف والشتاء، وما يسمى بأحوال الطقس من أمطار ورياح وغيوم، وطلوع بعض النجوم، ومرور بعض المذنبات كمذنب «هالي»، فهذه الأمور تُعرف بطريق الحساب، وبمعلومات حسيّة ونظريات فيزيائية، ومعلومات تُلتقط من مراصد لأحوال الجو منتشرة في أنحاء العالم، كما أن لهذه الأمور الطبيعية أوقات مقدرة، وعادة أجراها الله عليها، فإذا أخبر خبراء الطقس بأحواله المتوقعة في المستقبل ولم يجزموا به، بل استثنوا وصَرَّحوا بأنها توقعات - ليس إلا - يمكن حدوثها في خلال مدة زمنية محددة، وصرحوا بأن تلك الحسابات والمعلومات والنظريات تُصيب وتُخطئ؛ فعندئذ لا يعتبر هذا من ادعاء علم الغيب، بل من التوقعات الحسية، ونظير ذلك في العلم البدائي أنه إذا رُؤيت السماء وتجمعت الغيوم والرعد والبرق وثَقُل السحاب؛ قالوا: يُوشك أن ينزل المطر^(١).

والشيء الذي يُدرك بالحس إنكاره قبيح، كما قال السفاريني^(٢) رَحِمَهُ اللهُ:

(١) انظر مزيد تقارير علمية في هذه المسألة في «مجموع الفتاوى» (٢٥٤/٢٤ - ٢٥٨)، و«مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم» (١٦٨/١ - ١٧٠)، و«القول المفيد» للشيخ محمد بن عثيمين، باب (بيان شيء من أنواع السحر)، و«شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري» (١١٢/١) للشيخ عبد الله الغنيمان حفظه الله.

(٢) هو الشيخ محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، عالم بالأصول والأدب، من علماء فلسطين،

فكلُّ شيءٍ معلومٌ بحسٍّ أو حِجَا إنكاره جهلٌ قبيحٌ بالحِجَا^(١)

فالذي يُعلم بالحس لا يمكن إنكاره، ولو أن أحدًا أنكره مستندًا بذلك إلى الشرع؛ لكان ذلك طعنًا بالشرع.

قال المنذري رحمه الله في «الترغيب والترهيب»: «والمنهي عنه من علم النجوم هو ما يدعيه أهلها من معرفة الحوادث الآتية في مستقبل الزمان، ويزعمون أنهم يدركون ذلك بسير الكواكب واقتنائها وافتراقها وظهورها في بعض الأزمان، وهذا علمٌ استأثر الله به، لا يعلمه أحد غيره، فأما ما يدرك من طريق المشاهدة من علم النجوم الذي يعرف به الزوال وجهة القبلة، وكم مضى من الليل والنهار وكم بقي؛ فإنه غير داخل في النهي، وهو الذي يُسمَّى بـ(علم التسيير)، والله أعلم»^(٢).



درس على علماء الشام، ثم رجع إلى نابلس فدرّس فيها إلى أن مات، له عدة مؤلفات، منها: منظومة مشهورة في عقيدة السلف الصالح بعنوان «الدرة المضيئة في عقد أهل الفرقة المرضية»، وله شرح عليها بعنوان: «لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضيئة في عقيدة الفرقة المرضية»، وقد شرحها بعض المعاصرين، كالشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي النجدي رحمه الله، والشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله، والشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه الله. انظر «الأعلام» للزركلي رحمه الله.

(١) الحِجَا هو العقل.

(٢) كتاب «الترغيب والترهيب»، كتاب (الأدب وغيره)، باب (الترهيب من السحر وإتيان الكهان والعرافين والمنجمين بالرمل والحصى أو نحو ذلك وتصديقهم)، بتصرف يسير.

تكذيب الكهنة والعرافين بالدليل العقلي

ومما يدل على كذب الكهان والعرافين في دعواهم علم الغيب أن النبي ﷺ كان لا يعلم من الغيب شيئًا إلا علمًا علمه الله إياه ﷺ، فكيف يصح أن يدعي علم الغيب من ليس بنبي؟!

وقد جاء الدليل على أن النبي ﷺ لا يعلم شيئًا من الغيب في قوله تعالى لنبيه ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

قال ابن كثير رحمه الله: «أمره^(١) الله تعالى أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ الآية [الجن: ٢٦]». انتهى.

وقال أيضًا في تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدَ خَزَائِنِ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]: «يقول الله تعالى لرسوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدَ خَزَائِنِ اللَّهِ﴾، أي: لست أملكها ولا أتصرف فيها.

﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، أي: ولا أقول لكم إنني أعلم الغيب، إنما ذاك من علم الله ﷻ، ولا أطلع منه إلا على ما أطلعني عليه». انتهى.

(١) الضمير عائد على النبي ﷺ.

وفي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها قالت: «مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ ^(١) يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ ^(٢)، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]». هذا لفظ مسلم ^(٣).

ولفظ البخاري: «... وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ ^(٤) يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ يَأْيَ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]» ^(٥).

وفيهما عن أم سلمة رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ أنه سمعَ خصومةً بباب حُجْرَتِهِ، فخرجَ إليهم فقال: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْحَصَمُ، فَلَعَلَّ بَعْضُكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ فَأَقْضِي لَهُ بِذَلِكَ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ لِيَتْرَكْهَا» ^(٦).

فلو كان النبي ﷺ يعلم الغيب لعلم الظالم من المظلوم إذا تقدّمَا لفضِّ خصومتهم، ولم يحتج لمثل كلامه الذي قال.

ولما ابتلي النبي ﷺ في عرضه حين رُميت زوجته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ مكث مدة لا يعلم حقيقة الأمر، ورغم أنه كان يحسن الظن بأهله إلا أن ما أشاعه

(١) أي: رسول الله ﷺ.

(٢) الفرية هي الكذبة.

(٣) رواه مسلم (١٧٧).

(٤) أي: رسول الله ﷺ.

(٥) رواه البخاري (٤٨٥٥).

(٦) رواه البخاري (٧١٨١)، ومسلم (١٧١٣)، واللفظ للبخاري.

المنافقون من إشاعات أثرت في نفسه ﷺ، فاستشار عليًا وأسامة رضي الله عنهما في شأنها، وسأل عائشة فقال لها:

«أَمَّا بَعْدُ، يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذًا وَكَذًا، فَإِنْ كُنْتَ بَرِيئَةً فَسَيِّرْكِ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتَ أَلَمَمْتَ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ ثُمَّ تَابَ إِلَى اللَّهِ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ».

فالشاهد أن النبي ﷺ لم يكن يعلم كذب المنافقين في هذا الأمر المهم الذي يتعلق بأهله حتى أنزل الله تعالى الآيات من سورة النور: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١] الآيات، والقصة ثابتة في «الصحيحين» وغيرهما (١).

فالشاهد أنه لو كان النبي ﷺ يعلم الغيب لعلم أنها بريئة منذ أشيع الخبر، ولم يقل لها ما قاله.

ولما قالت فاطمة بنت قيس للنبي ﷺ: خطبني أبو جهم ومعاوية؛ قال لها النبي ﷺ: «أَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ (٢)، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ (٣) لَا مَالَ لَهُ، انْكِحِي أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ» (٤).

(١) انظر البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) يعني: من كثرة أسفاره، وقيل لكونه يضرب النساء، ويشهد لهذا المعنى رواية: «فرجل ضرباً للنساء»، إن صحّت.

(٣) صعلوك أي فقير.

(٤) رواه مسلم (١٤٨٠).

فلو كان النبي ﷺ يعلم الغيب لأشار عليها بمعاوية، لأنه صار ملكًا فيما بعد، وصار أغنى العرب.

ولما قدم وفد بني حنيفة على رسول الله ﷺ وفيهم مُسيلمة الكذاب؛ أتوه وتركوا مسيلمة في رحالهم، فلما أسلموا ذكروا مكانه فقالوا: يا رسول الله، إنا قد خلفنا صاحبًا لنا في رحالنا وركابنا يحفظها لنا، فأمر له رسول الله ﷺ بمثل ما أمر به للقوم وقال: «أما إنه ليس بأشركم مكانًا»، يعني لحِفظه مَالُ أصحابه، ثم انصرفوا، فلما انتهوا إلى الإمامة ارتدَّ عدو الله مسيلمة وادَّعى النبوة وقال: إني أشركت في الأمر معه ^(١)، ألم يقل لكم حين ذكرتموني له: «أما أنه ليس بأشركم مكانًا؟» وما ذاك إلا لما كان يعلم أني قد أشركت في الأمر معه! ^(٢).

فالشاهد من القصة أنه لو كان رسول الله ﷺ يعلم الغيب لما أثنى عليه في أول الأمر، ولعلم أنه كاذب في مبايعته، وأنه سيدعي النبوة فور رجوعه، وأنه سيكون رأسًا لفتنة عظيمة في الناس.

كذلك، فلم يكن النبي ﷺ يعلم ما سيحصل في معركة أُحُد من هزيمة للمسلمين، وما سيحصل في يوم حنين أيضًا من غلبة للكفار في أول الأمر، ولم يكن يعلم أن المشركين سيمنعونهم من أداء العمرة في قصة الحديبية، ولم يكن يعلم أسماء بعض المنافقين، كما قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَفَقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۗ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١].

(١) أي: في أمر النبوة.

(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي (٥ / ٣٣١)، باب (وفد بني حنيفة).

والأدلة في هذا الباب كثيرة لا تحصى.

فالحاصل أن النبي ﷺ بشرٌ كغيره، تخفى عليه الأمور، ولم يكن يعلم من الغيب شيئاً، وإذا كان الأمر كذلك فمن باب أولى ألا يعلم الغيب من ليس بنبي، كالكهنة والسحرة والعرافين.

ومما يدل أيضًا على كذب الكهان والعرافين في دعواهم علم الغيب؛ أن الإخبار عن بعض المُغيبات قد خُص به الأنبياء، وطريقه الوحي المُنزَّل عليهم لا غير، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٥١]، وقال جل ذكره: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩] الآية.

فهذه الآيات تفيد أن الإخبار ببعض المُغيبات خاص بالرسول، وقد خُتمت الرسالة به صلى الله عليه وآله وسلم، فانسد باب الاطلاع على الغيب بموته صلى الله عليه وآله وسلم مطلقاً.

ومما يدل أيضًا على كذب الكهان والعرافين في دعواهم علم الغيب؛ حال الصحابة والتابعين، الذين هم سادات الأولياء وأئمة الأصفياء رضي الله عنهم، أفكان عندهم من هذه الدعاوى شيء؟ لا والله.

ومن أوضح الأدلة أيضًا على كذب الكهنة في دعواهم أنهم يعلمون الغيب؛ أن هذا من تزكية النفس، وقد ورد النهي عن ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]، والحق أنهم يريدون المنزلة في قلوب الخلق والشهرة، وكسب

الدنيا والمال، وليس هذا من شأن أولياء الله، فإن شأنهم عيب أنفسهم واتهامهم لها بالتقصير، والزهد بما عند الناس.

ومن أدلة كذب الكهنة؛ دعواهم أن علمهم بالمغيبات من باب الكرامة، وهذا واضح البطلان، لأن الكرامة لا تتضمن دعوى مشابهة الرب في شيء من خصائصه، وإنما هي حصول أمر خارق للعادة، لدفع حاجة من حصلت له الكرامة^(١).

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب - رحمهم الله جميعاً - بعد كلام له في تعريف العراف:

«والمقصود من هذا معرفة أن من يدعي علم شيء من المغيبات فهو إما داخل في اسم الكاهن وإما مشارك له في المعنى فيُلحق به، وذلك أن إصابة المُخبر ببعض الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف^(٢)، ومنه ما هو من الشياطين، ويكون بالفأل والزجر والطير والضرب بالحصى والخط في الأرض والتنجيم والكهانة والسحر ونحو هذا من علوم الجاهلية، ونعني بالجاهلية كل من ليس من أتباع الرسل، كالفلاسفة والكهان والمنجمين وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي ﷺ، فإن هذه علوم قوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل ﷺ، وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهناً وعرافاً أو في معناهما، فمن اتاهم فصَدَّقَهم بما يقولون لحِقَهُ الوعيد، وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام فادَّعوا بها علم الغيب الذي استأثر الله

(١) انظر كتاب «النبوات» لابن تيمية رحمته الله (ص ١٠٨٤ - ١٠٨٥).

(٢) وذلك بحسب ما يدَّعيه الكاهن من انكشاف الغيب له، كما بيَّن ذلك الشيخ سليمان في أول شرحه لباب (ما جاء في الكهان ونحوهم).

تعالى بعلمه، وأدَّعوا أنهم أولياء وأن ذلك كرامة، ولا ريب أن من ادَّعى الولاية واستدل عليها بإخباره ببعض المغيبات فهو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن، إذ الكرامة أمر يُجْريه الله على يد عبده المؤمن المتقي إمَّا بدعاء أو أعمال صالحة لا صنع للولي فيها ولا قدرة له عليها، بخلاف من يدعي أنه ولي الله ويقول للناس اعلّموا أني أعلم المغيبات، فإن مثل هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب، وإن كانت أسبابًا محرمة كاذبة في الغالب، ولهذا قال ﷺ في وصف الكهان: «فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ»، فبيّن أنهم يصدّقون مرة ويكذبون مائة، وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعي الولاية والعلم بما في ضمائر الناس، مع أن نفس دعواه دليل على كذبه، لأن في دعواه الولاية تزكية النفس المنهي عنها بقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، وليس هذا من شأن الأولياء، بل شأنهم الإضرار على نفوسهم وغيبيهم لها وخوفهم من ربهم، فكيف يأتون الناس يقولون (اعرفوا أنّا أولياء، وأنّا نعلم الغيب)، وفي ضمن ذلك طلب المنزلة في قلوب الخلق واقتناص الدنيا بهذه الأمور، وحسبك بحال الصحابة والتابعين وهم سادات الأولياء، أفكان عندهم من هذه الدعاوى والشّطحات شيء؟ لا والله، بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن كالصّديق^(١)، وكان عمر يُسمَع نسيجه من وراء الصفوف يبكي في صلاته، وكان يمر بالآية في ورده بالليل فيمرض منها ليلي فيعوده الناس، وكان تميم الداري يتقلب في فراشه لا يستطيع النوم إلا قليلاً خوفاً من النار ثم يقوم إلى صلاته،

(١) يقصد الشيخ بسرّ هذه الأمثلة بيان ما كان عليه الصحابة من شعور بالتقصير في جنب الله، في

مقابل تزكية الكهنة أنفسهم بادّعائهم أنهم أولياء لله!

ويكفيك في صفات الأولياء ما ذكر الله تعالى من صفاتهم في سورة الرعد والمؤمنون والفرقان والذاريات والطور، فالمتصفون بتلك الصفات هم الأولياء الأصفياء، لا أهل الدعوى والكذب ومنازعة رب العالمين فيما اختص من الكبرياء والعظمة وعلم الغيب، بل مجرد دعواه علم الغيب كفر، فكيف يكون المدعي لذلك ولياً لله؟!!

ولقد عظم الضرر واشتد الخطب بهؤلاء المفترين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين، ولبسوا بها على خفافيش البصائر، نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة»^(١).



(١) انظر كتابه «تيسير العزيز الحميد»، باب (ما جاء في الكهان ونحوهم) (٢/ ٧٣٠ - ٧٣٣).



مما يلتحق بالكهانة؛ الطُّرق وقراءة الفنجان والعيافة والطَّيرة

ومما يَلْتَحِقُ بالكهانة والعرافة والتنجيم هذه الأمور الأربعة: الطُّرق وقراءة الفنجان والعيافة والطَّيرة، فأما الطرق فهو ضرب من ضروب الكهانة التي كان العرب يتوصلون بها لمعرفة المغيبات بزعمهم.

قال عوف العبدي^(١): «العيافة زجر الطير، والطرق: الخطُّ يُخَطُّ في الأرض»^(٢).

وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العيافة والطَّيرة والطُّرق من الجِبْتِ»^(٣).

وقال عمر رضي الله عنه: «إن الجِبْتِ هو السحر»^(٤).

وقد رُوي عن الحسن في تفسير الجبْت أنه الشيطان^(٥)، وسواء هذا أو ذاك

(١) عوف بن أبي جميلة العبدي الهجري، أبو سهل البصري، المعروف بالأعرابي، ثقة. انظر «التقريب».

(٢) رواه أبو داود (٣٩٠٨) والبيهقي (٨/ ١٣٩)، وصححه الألباني.

(٣) رواه أبو داود (٣٩٠٧)، وأحمد (٦٠/ ٥)، وابن حبان (١٣/ ٦١٣١) وغيرهما عن قبيصة بن مخارق رضي الله عنه، وحسنه النووي في «رياض الصالحين» (١٦٧٩)، وضعفه غيره، انظر «غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام» للألباني (٣٠١).

(٤) رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في كتاب (التفسير)، باب ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، وانظر ما قاله ابن حجر في وصل هذا الأثر.

(٥) ذكره أحمد عنه (٦٠/ ٥)، وكذا البيهقي (٨/ ١٣٩).

فمؤداهما واحد، فمن المعلوم أن الكاهن والساحر كلاهما يتلقى علومه من الشيطان الذي يَقْرُّ في أذنه ويكلمه بكلام يخفى على غيره.

والطَّرَق من الطريق، مِنْ طَرَقَ الأرض يَطْرِقُها، إذا سار عليها^(١)، فهم يُخْطُون خطوطا عليها كأنهم يَطْرِقونها أي يمشون عليها، ثم يخبرون من أتاهم بما يدعونه من علم الغيب بحسب ما ظهر لهم من تلك الخطوط المرسومة على الأرض - بزعمهم.

والطرق ألوان، فمنه الرَّمْلُ، وهو الخط في الأرض، والذي يَخْطُ يسمى الرَّمَال، ويسمى أيضا الحازي، قال البغوي في «شرح السنة»:

«قال ابن عباس: هو الخطُّ الذي يَخْطُهُ الحازي، وهو عِلْمٌ قد تركه الناس، قال: يأتي صاحب الحاجة إلى الحازي، فيعطيه حُلُوانًا^(٢)، فيقول له: اقعد حتى أخطَّ لك، وبين يَدَيِ الحازي غُلام معه ميل^(٣)، فيأمره الحازي أن يخط خطوطًا كثيرة على رمل أو تراب في خِفَّة وعجلة لئلا يلحقها العدد والإحصاء، ثم يأمره فيمحوها خَطَّين خَطَّين على مهل، وهو يقول:

ابْنِي عِيَان، أَسْرَعَا الْبَيَان

(١) انظر «القول المفيد» (١/ ٥١٤)، باب بيان شيء من أنواع السحر.

(٢) الحُلُوان هو ما يأخذه الكاهن أجرًا على كهنته.

(٣) الميل: عُوْدٌ دقيق الرأس، يُخْطُّ به في الأرض، سُمِّيَ هنا ميلًا، لأنه كالميل الذي يستعمل للاكتحال.



ثم يَنْظر إلى آخر ما يبقى منها، فإن بقي منها خطّان فهو علامة النجاح، وإن بقي خط واحد فهو دليل الخيبة والحرمان»^(١).

ومنه الضرب بالحصى، فإذا سُئل الكاهن عن حادثة؛ أخرج حصيات معه، فضرب بها على طريقة مخصوصة، فيتبين له -بزعمه الكاذب- جواب السؤال.

وقيل غير ذلك من التفسيرات، وكلها تدور حول ضرب شيء بشيء ثم يتبين للكاهن جواب السؤال بزعمه، فليست إلا اختلاف في المطروقات، تتغير كلما تغير الزمان، سواء كانت حصى أو ودعًا أو قضبانًا أو غير ذلك^(٢).

ومما يلحق بالطرق في هذا الزمان «زهر الطاولة»، و«الدومينو»، وهذان يقومان على التنبؤ بما سيكون في المستقبل عن طريق الأرقام المكتوبة على الزهر، ومن ذلك أيضًا قراءة «الكوتشينة» والضرب بحبّات الفول^(٣).

تنبيه: كان أحد الأنبياء يخطُّ، كما في «صحيح مسلم» عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: «ومنا رجال يخطُّون».

قال: «كان نبي من الأنبياء يخطُّ، فمن وافق خطُّه فذاك»^(٤).

أي من وافق خطُّه خطَّ ذلك النبي جاز له فعله.

(١) «شرح السنة» (١٢/١٨٣-١٨٤).

(٢) راجع للاستزادة كتب اللغة.

(٣) انظر «شرح مسائل الجاهلية» (ص ٨٦٣-٨٦٤).

(٤) «صحيح مسلم» (٥٣٧).

قال الخطابي رحمه الله في معنى قول النبي ﷺ: «فمن وافق خطئه فذاك»: «معناه الزجر عنه، إذ كان من بعده لا يُوافق خطئه، ولا ينال حظه من الصواب، لأن ذلك إنما كان آية لذلك النبي، وعلمًا لنبوته، فليس لمن بعده أن يتعاطاه طمعًا في نيله، والله أعلم»^(١).

ووافقه الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله، فقد أجاب عن هذا الإشكال بجوابين:

الأول: أن الرسول ﷺ علقه بأمر لا يتحقق الوصول إليه، لأنه قال: «فمن وافق خطئه فذاك»، وما يُدرينا هل وافق خطئه أم لا؟

الثاني: أنه إذا كان الخط بالوحي من الله تعالى كما في حال هذا النبي فلا بأس به، لأن الله يجعل له علامة ينزل الوحي بها بخطوط يُعلمه إياها، أما هذه الخطوط السحرية فهي من الوحي الشيطاني^(٢).

فالحاصل أن خط ذلك النبي كان معجزة له ودليلاً على نبوته، ولم يكن يدّعي علم الغيب، ومن ذلك ما حصل للنبي ﷺ، فقد أطلعه الله على شيء من الغيبات كدليل على صدق نبوته، ولم يكن يعلم الغيب استقلالاً.

قراءة الفنجان

ومن أنواع الكهانة قراءة الفنجان، أي فنجان القهوة، فإن الكاهن يعتمد على ما

(١) نقلاً من «شرح السنة» (١٢/ ١٨٤).

(٢) انظر «القول المفيد» (١/ ٥١٤ - ٥١٥)، باب (بيان شيء من أنواع السحر).



بقي فيه من القهوة، فيرسم بها على جوانب الفنجان خطوطًا، ثم يتنبأ بما فيه، ويزعم أنه سيكون كذا وكذا، ولا يشترط فيه الاتصال بالشياطين، فيمكن أن يكون تنبؤ الكاهن مجرد دعوى يدّعيها^(١).

ومما يلحق بقراءة الفنجان قراءة النار، فإن الكاهن ربما استدل بزعمه على ما سيقع في المستقبل بصور الجمر وتلهب النار^(٢).

ومن أنواع الكهانة قراءة الكف، والتي يعتمد فيها الكاهن على خطوط الكف، وما فيها من تقاطعات وتعرجات واتصالات، ثم يزعم أنه سيكون كذا وكذا^(٣).

العيافة والطيرة

ومما يلحق بالكهانة؛ العيافة والطيرة، فأما العيافة فهي خصوص زجر الطير، فإذا انبعثت يمينا تفاءلوا وقالوا سيحصل كذا، وإذا انبعثت شمالا تشاءموا وقالوا سيحصل كذا، وهذا من التكهّن.

ولا شك أن العيافة باطلة، حيث أن الطير خلق من خلق الله، ليس له تأثير ولا تدبير، بل هو مُدَبَّرٌ مربوب، كما قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَرَوْنَ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾، وقال عز وجل ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾.

(١) انظر «شرح مسائل الجاهلية» (ص ٨٦٤)، للدكتور يوسف السعيد.

(٢) المصدر السابق ص (٨٦٣).

(٣) انظر التعليق السابق.

وأما الطيرة فهي عموم التشاؤم، سواء كان من مرئي أو مسموع، والطيرة في الأصل من التطير، وهو التفاؤل أو التشاؤم من اتجاه الطير إذا زجروه، فإذا انبعث يميناً تفاءلوا، وإذا انبعث شمالاً تشاءموا، فالطيرة في أصلها اللغوي هي العيافة، ثم توسع مفهومها فصارت تعني عموم التشاؤم، حتى تشاءموا من أشياء كثيرة، من طيور وحيوانات وأدميين وأرقام، فتشاءموا من رؤية البوم والغراب، ومن الأرقام رقم ١٣، ومن الأدميين تشاءموا من الأعور والأحول والأعرج، فإذا رأى أحدهم أعورا أو نحوه قال هذا يوم سوء، فأغلق دُكانه، ولم يبيع ولم يشتر ذلك اليوم، وكأنه يتقن بحدوث بلاء عليه ذلك اليوم، وإذا أصابت الإنسان حِكَّةٌ في يده اليمنى قالوا سيحصل كذا، وإذا أصابته في اليسرى قالوا سيحصل كذا، وغير ذلك من الأمور التي لم يجعل الله فيها شؤماً فجعلوها شؤماً، وصيروا يومهم ذاك شؤماً وتعاسة، بينما لم يجعله الله كذلك، وكأنهم ادَّعوا مشاركة الله في معرفة ما سيكون في ذلك اليوم اعتماداً على أمور جعلوها أسباباً وهي في الحقيقة ليست أسباباً لحصول ذلك الأمر المكروه الذي توقعوا حصوله.

والتطير قبيح لأن فيه نوع كهانة وإن لم يقل المتطير سيحصل كذا وسيحصل كذا، لأن حقيقة التطير هو اعتقاد حصول سوء في المستقبل لا يُدرى ما هو، أما التكهّن فأخص من ذلك وهو تحديد حصول أمر ما - من خير أو شر - في المستقبل، فباب التشاؤم والتكهّن واحد، وإن كان التكهّن أقبح لأن فيه تحديداً وتأكيداً.

والطيرة حرام بل شرك، يدل لهذا بضعة أحاديث:

الأول: قول النبي ﷺ كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «الطيرة شرك، الطيرة شرك، ثلاثا»، وما منا إلا، ولكن الله يذهب بالتوكل^(١).

قوله (وما منا إلا)؛ أي وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيء من التطير، وهنا حُذف المستثنى وهو التطير لأنه حالة مكروهة، فكَّرَ عبد الله بن مسعود ذكرها، لأنها عبارة مستكرهة، والتقدير (وما منا إلا من يعتريه التطير).

قوله (ولكن الله يذهب بالتوكل)؛ فيه بيان أن التوكل على الله دواء من وقع في قلبه شيء من التطير.

الثاني: حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من ردَّته الطيرة عن حاجته فقد أشرك.

قالوا: يا رسول الله، ما كفارة ذلك؟

قال: أن يقول أحدهم: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك^(٢).

قال الشيخ سليمان رحمته الله: فيه الاعتراف بأن الطير خلق مسخر مملوك لله، لا يأتي بخير ولا يدفع شراً، وأنه لا خير في الدنيا والآخرة إلا خير الله، فكل خير فيهما فهو من الله تعالى، تفضلاً على عباده وإحساناً إليهم، وأن الإلهية كلها لله، ليس فيها

(١) رواه أبو داود (٣٩١٠)، وغيره واللفظ له، وصححه الألباني رحمته الله.

(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٢٠)، وحسنه محققو «المسند».

لأحد من الملائكة والأنبياء ﷺ شركاً، فضلاً عن أن يُشرك فيها ما يراه ويسمعه مما يُتشاءم به (١).

ووجه كون الطيرة شرك هو أن المتطير يعتقد بأن الطيرة تأتي بالشر، فقلبه متعلق بغير الله، وهذا شرك، إذ أنه لا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يأتي بالسيئات إلا الله.

وثمة وجه آخر لكون الطيرة شرك هو أن المتشائم تنبأ بحصول شيء في المستقبل بناء على سبب غير شرعي، ففعل كما فعل الكاهن والمتكهن، والله أعلم.

الثالث: ومما جاء في ذم الطيرة أيضاً قول النبي ﷺ: العيافة والطرق والطيرة من الجبت (٢).

وقد تقدم تفسير الجبت بأنه الشيطان، أي من عمل الشيطان.

الرابع: وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: لن يلج الدرجات العلوية من تكهن أو استقسم أو رده من سفر تطير (٣).

الخامس: وعن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: كنا نتطير.

(١) «تيسير العزيز الحميد»، باب ما جاء في التطير.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه الطبراني في «مسند الشاميين»، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٠٢)، و«السلسلة الصحيحة» (٢١٦١).

فقال رسول الله ﷺ: ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه، فلا يصدنكم (١).

السادس: ومن أدلة النهي عن التطير قول النبي ﷺ: (أَقْرُوا الطَّيْرَ عَلَى مَكِنَّاتِهَا) (٢)، أي أماكنها التي تُكِنُّهَا (٣)، فلا تُنفروها طلباً لمعرفة هل في سفرهم خير أم شر، قال أبو حاتم بن حبان: قوله ﷺ: (أَقْرُوا الطَّيْرَ عَلَى مَكِنَّاتِهَا) لفظة أمر مقرونة بترك ضده، وهو أن لا يُنفروا الطيور عن مكنااتها، والقصد من هذا الزجر عن شيء ثالث، وهو أن العرب كانت إذا أرادت أمراً جاءت إلى وكر الطير فنقرته، فإن تيامن مضت للأمر الذي عزمته عليه، وإن تياسر أغضت عنه وتشاءمت به، فزجرهم النبي ﷺ عن استعمال هذا الفعل بقوله: اقروا الطير على مَكِنَّاتِهَا (٤).

وقال الحطيفة يمدح أبا موسى الأشعري:

لا يزجر الطير إن مرّت به سَنَحًا (٥) ولا يُفَيضُ عَلَى قَسَمٍ بِأَزْلَامٍ

يعني أنه سلك مسلك الإسلام في التوكل على الله وترك زجر الطير والاستقسام.

(١) رواه مسلم (٥٣٧).

(٢) رواه أبو داود (٢٨٣٥) وابن حبان (٦١٢٦) وأبو نعيم في «الحلية» (١٠١/٩) بلفظ (وكناتها)، عن أم كرز رضي الله عنها، وصححه الألباني كما في «صحيح أبي داود»، والشيخ شعيب الأرنؤوط كما في حاشيته على «صحيح ابن حبان».

(٣) انظر «النهاية»، ومنه قوله تعالى ﴿ظَلَّلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكَنَاتًا﴾.

(٤) «صحيح ابن حبان» (٤٩٦/١٣).

(٥) سَنَحَ أي عرض له.

وقال بعض شعراء العرب يمدح نفسه:

ولا أنا ممن يزجر الطير همُّه
أصاح غراب أم تعرّض ثعلبُ

السابع: ومن أدلة ذم التطير أيضا قول النبي ﷺ: لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر (١).

وفي لفظ عند مسلم: ... ولا نوء ولا صفر.

ومعنى قوله (لا عدوى)، أي لا عدوى كائنة إلا بإذن الله عز وجل، فالعدوى بالأمراض لا تؤثر بنفسها بل هي سبب، كما أن النكاح سبب للولد.

وقوله (ولا طيرة) هو الشاهد من الحديث، والمراد بالنفي نفي حقيقة الطيرة، وأن هذه الأمور لا حقيقة لها البتة، وفي قوله: (ولا طيرة) نهى عن العمل بها ضمنا، إذ أن الأمر الباطل منهي عن العمل به في الإسلام.

قوله: (ولا هامة)؛ الهامة هي البوم، وكانوا في الجاهلية يتشاءمون إذا وقعت البومة على بيت أحدهم، يقول: نُعيت لي نفسي أو أحد أقاربي، وقيل غير ذلك من التأويلات، وكلها تدور حول التشاؤم بحصول أمور غيبية (٢).

والمراد بالنفي نفي حقيقة التشاؤم بالبوم وأنه لا وجود له في الحقيقة.

وفي قوله (ولا هامة) نهى عن العمل به ضمنا، إذ أن الأمر الباطل منهي عن العمل به في الإسلام.

(١) رواه البخاري (٥٧٠٧)، ومسلم (٢٢٢٠) عن أبي هريرة ؓ.

(٢) انظر «تيسير العزيز الحميد»، باب ما جاء في التطير.



قوله (ولا صفر)؛ قيل إن الصَّفَرَ عدوى تُصيب الماشية في البطن، فيكون المراد نفى تأثيرها بنفسها إلا بإذن الله الكوني، وتكون معطوفة على قوله (لا عدوى)، فيكون من عطف الخاص على العام.

وقيل إن المقصود هو شهر صفر، أي نفى حقيقة حصول الشؤم بشهر صفر، وقد كانت العرب تتشاءم منه، فربما تركوا السفر فيه، فأبطل النبي ﷺ ذلك.

والمراد بالنفي في قوله (ولا صفر) نفى حقيقة حصول الشؤم بشهر صفر كما تقدم في الطيرة والهامة.

وفي قوله (ولا صفر) نهي عن العمل به ضمناً، إذ أن الأمر الباطل منهي عن العمل به في الإسلام.

قوله (ولا نوء)؛ المراد نسبة السقيا ومجيء المطر إلى الأنواء - جمع نوء - وهي منازل القمر.

وقد كانت العرب تنسب نزول المطر لطلوع بعض النجوم وغياها، وتقول إن لها تأثيراً في ذلك، وهذا كذب، وبه فُسِّر قوله تعالى ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، أي تجعلون شكركم لله على ما أنزل إليكم من الغيث والمطر والرحمة أنكم تكذبون، فتنسبون هذه النعمة إلى غيره، وهي النجوم (١).

والمراد بالنفي في قوله (ولا نوء)؛ نفى حقيقة حصول نزول المطر بسبب النوء.

(١) انظر للفائدة «تيسير العزيز الحميد»، شرح باب «ما جاء في الاستسقاء بالأنواء».

وفي قوله (ولا نوء) نهي عن العمل به ضمنا، إذ أن الأمر الباطل منهي عن العمل به في الإسلام.

وقد جاء ذم نسبة السقيا إلى النجوم في حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: أربع في أمتي من أمور الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة (١).

أما إن كان مراده اتفاق الوقت بين طلوع النجم ونزول المطر فليس في هذا بأس، قال الشافعي رحمه الله في «الأم»:

من قال (مُطِرْنَا بفضل الله ورحمته)؛ فذلك إيمان بالله، لأنه يعلم أنه لا يُمَطَّر ولا يُعْطَى إلا الله عز وجل، وأما من قال (مُطِرْنَا بنوء كذا وكذا) على ما كان بعض أهل الشرك يعنون من إضافة المطر إلى أنه أمطره نوء كذا؛ فذلك كفر كما قال رسول الله ﷺ، لأن النوء وقت، والوقت مخلوق، لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا، ولا يمطر ولا يصنع شيئا.

فأما من قال (مطرنا بنوء كذا) على معنى (مطرنا بوقت كذا) فإنما ذلك كقوله (مطرنا في شهر كذا)، ولا يكون هذا كفرا، وغيره من الكلام أحب إلي منه.

قال الشافعي رحمه الله عليه: أحب أن يقول (مُطِرْنَا في وقت كذا) (٢).

قوله (ولا غول)؛ الغول هو جنس الجن والشياطين، وقد كانت العرب تظن أن

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انتهى النقل من كتاب «الأم»، كتاب الاستسقاء، كراهية الاستمطار بالأنواء.

الغول تتراءى للناس في الطريق وتضلهم وتهلكهم، فنفي النبي ﷺ هذا الاعتقاد وأبطله، وبين أن الغول لا تستطيع أن تُضِلَّ أحداً.

وفي قوله (ولا غول) نهي عن العمل به ضِمناً، إذ أن الأمر الباطل منهي عن العمل به في الإسلام.

الثامن: ومما جاء في ذم الطيرة من الآثار عن الصحابة رضوان الله عنهم ما رواه البيهقي عن قتادة أن كعباً قال: قال الله عز وجل:

ليس من عبادي من سَحَرَ أو سُحِرَ له، أو كَهَنَ أو كُهِنَ له، أو تطيَّر أو تُطَيَّرَ له^(١)، لكن من عبادي من آمن وتوكل علي^(٢).

فصل

فإن قال قائل: كيف أعرف أنني تطيرت، وأني تركت الأمر الفلاني أو فعلته معتمداً على التطير؟

فالجواب: إن الطيرة ما أمضاك فيما عزمت عليه أو ردك، فإذا أردت سفراً فرأيت أو سمعت ما تكره فرجعت عن سفرك الذي عزمت عليه فهذا من التطير، وقد ورد في هذا حديث ضعيف، ولكن معناه صحيح، وهو قول النبي ﷺ: إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك.

(١) أي: طلب من أحد أن يتطير بالنيابة عنه ثم يخبره بالنتيجة.

(٢) انظر «شعب الإيمان» (١١٧٦).

وقد روى البيهقي في «شعب الإيمان» عن قتادة قال: قال ابن عباس: إن مضيت فمتوكل، وإن نكصت فمتطير^(١).

تنبيه إلى الفرق بين التطير والتفاؤل

كان رسول الله ﷺ لا يتطير من شيء، ومع هذا كان يعجبه الفأل، ولذا كان إذا خرج لحاجة يحب أن يسمع: يا نجيح، يا راشد^(٢).

وإذا أراد أن يأتي أرضا سأل عن اسمها، فإن كان حسنا رؤي البشر في وجهه، وإن كان قبيحا رؤي ذلك في وجهه، ولم يكن يثنيه ذلك عن اتیان تلك الأرض أو يُمضيه.

وكذلك كان إذا بعث رجلا سأل عن اسمه، فإن كان حسن الاسم رؤي البشر في وجهه، وإن كان قبيحا رؤي ذلك في وجهه^(٣).

فإذا أراد الإنسان فعل أمرٍ وسمع اسما طيبا، أو رأى ما يحب، وانشرح صدره لذلك؛ فهذا من التفاؤل، وعليه أن يمضي في أمره، ولا يُعَدُّ هذا من التطير، بل من التفاؤل المحمود، وهو دليل على حسن الظن بالله، كما أنه موافق لطبيعة الإنسان.

وكذلك إذا رأى خلاف ذلك من شيء يكرهه، فعليه أن يمضي في أمره، ولا يتشائم من المضي فيه، ولا يردِّئه ذلك.

(١) «شعب الإيمان» (١١٧٥).

(٢) رواه الترمذي (١٦١٦)، وصححه الألباني رحمه الله.

(٣) ذكر ذلك عبد الله بن بريدة عن أبيه بريدة رحمه الله، انظر «المسند» (٣٤٧-٣٤٨).

والتطير من أسباب فساد الدين ونكد العيش وضيق الصدر، ودليل على سوء الظن بالله، وقد كانت العرب في الجاهلية يتشاءمون بعقد النكاح في شوال، فأبطل النبي ﷺ هذا، إذ كان نكاحه بعائشة رضي الله عنه في شوال، فكانت أسعد النساء حظًا!

ويكفي في ذم التطير أنه من عادات الأمم الجاهلية ممن كان قبلنا، فقد كانوا يستعملونه مع أنبيائهم لرد دعوتهم عياذا بالله، ومن هذا ما قصه الله عن قوم صالح أنهم قالوا لصالح ﷺ كما في سورة النمل ﴿أَطِيزْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾، وكذا قال قوم فرعون لموسى ﴿وَإِنْ نُصِيبَهُمْ سَيِّئَةً يَظْهَرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا إِنَّمَا طَازِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾، أي أن ما قدره الله من خير وشر هو من عنده سبحانه، كما قال تعالى ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَبِمَنْ لَدَى اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَبِمَنْ تَقْسِي﴾.

ومن تطير الجاهليين ما قصه الله تعالى عن أصحاب القرية أنهم قالوا لمن جاءهم من المرسلين ﴿قَالُوا إِنَّا تَطِيرُنَا بِكُمْ﴾ (١).

ومن المنتشر بين الناس اليوم عبارة (خير يا طير)، فهذه تدل على وجود شيء من عادة التطير في النفوس وإن لم يقصد أكثر الناس مرادها، فينبغي تركها والحذر منها.

فالحاصل أن الإنسان إذا تطير فرجع عما عزم القيام به فقد قرع باب الشرك وولجه، وبرء من التوكل على الله تعالى، وفتح على نفسه باب الوسواس والتعلق بغير الله، فالواجب الحذر من ذلك، والله أعلم.

فائدة تتعلق بموضوع التطير ذكرها ابن القيم رحمته الله

قال ابن القيم رحمته الله: مخالطة المجذوم ^(١) من أسباب العدوى، وهذا السبب يعارضه أسباب أخر تمنع اقتضائه، فمن أقواها التوكل على الله والثقة به، فإنه يمنع تأثير ذلك السبب المكروه، ولكن لا يقدر كل واحد من الأمة على هذا، فأرشدهم إلى مجانبة سبب المكروه والفرار والبعد منه، ولذلك أرسل إلى ذلك المجذوم الآخر بالبَيْعَةِ ^(٢) تشريعا منه للفرار من أسباب الأذى والمكروه، وأن لا يتعرض العبد لأسباب البلاء، ثم وَضَعَ يده معه في القصعة ^(٣)، فإنما هو سبب التوكل على الله والثقة به الذي هو من أعظم الأسباب التي يُدفع بها المكروه والمحذور، تعليما منه للأمة دفع الأسباب المكروهة بما هو أقوى منها، وإعلاما بأن الضرر والنفع بيد الله عز وجل، فإن شاء أن يَضُرَّ عبده ضَرَّهُ، وإن شاء أن يصرف عنه الضر صرفه، بل إن شاء أن ينفعه بما هو من أسباب الضرر ويضره بما هو من أسباب النفع فعل، ليتبين للعباد أنه وحده الضار النافع، وأن أسباب الضرر والنفع بيديه، وهو الذي جعلها أسبابا، وإن شاء خلع منها سَبَبِيَّتَهَا، وإن شاء جَعَلَ ما تقتضيه بخلاف المعهود منها، لِيُعْلَمَ أنه الفاعل المختار، وأنه لا يضر شيء ولا ينفع إلا بإذنه، وأن التوكل

(١) الجُذام مرض يصيب أصابع اليد فتتآكل، والغالب أنها تسبب قطع اليد، وهو مرض معد، وكانت العرب تطير منه. انظر «لسان العرب».

(٢) القصة باختصار أنه كان في وفد ثقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه النبي ﷺ (إنا قد بايعناك فارجع)، والشاهد أنه لا يريده أن يأتي إليهم لئلا يُعِدِّهم بِجُذامه، والقصة رواها مسلم (٢٢٣١) عن عمرو بن الشريد عن أبيه.

(٣) القصعة وعاء يؤكل فيه. انظر «النهاية».

عليه والثقة به تُحِيل الأسباب المكروهة إلى خلاف موجباتها، وتُتَبِّين مرتبتها، وأنها مَحَالٌّ لمجاري مشيئة الله وحكمته، وأنه سبحانه هو الذي يضر بها وينفع، ليس إليها ولا لها من الأمر شيء، وأن الأمر كله لله، وأنها إنما يَنَالُ ضررها من علَّق قلبه بها ووقف عندها وتطير بما يتطير به منها، فذلك الذي يصيبه مكروه الطيرة.

والطيرة سبب للمكروه على المتطير^(١)، فإذا توكل على الله ووثق به واستعان به لم يَصُدَّهُ التطير عن حاجته، وقال: (اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك)؛ فإنه لا يضره ما يتطير منه شيئاً.

فالطيرة إنما تصيب المتطير لشركه، والخوف دائماً مع الشرك، والأمن دائماً مع التوحيد، قال تعالى على لسان خليله إبراهيم أنه قال في محاجته لقومه ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَنتُمْ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فَحَكَمَ الله عز وجل بين الفريقين بحكم فقال ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

وقد صح عن رسول الله ﷺ تفسير الظلم فيها بالشرك، وقال: ألم تسمعوا قول العبد الصالح ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟^(٢)

(١) أي سبب لحصول المكروه على المتطير عقوبة له من الله كما تقدم وكما سيأتي قريباً في كلام المؤلف.

(٢) الحديث في الصحيحين عن علقمة عن عبد الله ﷺ قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قلنا: يا رسول الله، أيُّنا لا يظلم نفسه؟

فالتوحيد من أقوى أسباب الأمن من المخاوف، والشرك من أعظم أسباب حصول المخاوف، ولذلك من خاف شيئاً غير الله سُلِّطَ عليه، وكان خوفه منه هو سبب تسليطه عليه، ولو خاف الله دونه ولم يَخَفْهُ لكانَ عدمُ خوفه منه وتوكله على الله من أعظم أسباب نجاته منه، وكذلك من رجا شيئاً غير الله حُرِمَ ما رجاه منه، وكان رجاؤه غير الله من أقوى أسباب حرمانه، فإذا رجا الله وحده كان توحيد رجاؤه أقوى أسباب الفوز به أو بنظيره أو بما هو أنفع له منه، والله الموفق للصواب (١).

فصل

فالحاصل أن أنواع الكهانة كثيرة، إلا أن الكهان تجمعهم دعوى علم الغيب، وتتفرق بهم طرقه، وبعضهم يكون عنده اتصال حقيقي بالشياطين، وبعضهم يدعي ذلك مجرد دعوى ليُغَرَّرَ بالناس، عافانا الله من شرهم.

فائدة أخرى

من رحمة الله بعباده أن أغناهم عن التعلق بالخرافات والخزعبلات بما شرعه من صلاة الاستخارة، والتي تشرع إذا أرد الإنسان فعل شيء ذي بال وتردد فيه، كأن يريد سفراً أو دخولا في تجارة أو زواجاً بامرأة وشعر بشيء من الحيرة أو التردد، هل

=

قال: ليس كما تقولون، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَظْلِيلٌ﴾ بشرك، أولم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه ﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟

رواه البخاري (٣٣٦٠) ومسلم (١٢٤)، واللفظ للبخاري.

(١) «مفتاح دار السعادة» (٣/ ٣٨٥-٣٨٨)، باختصار يسير.

يُقبلُ على هذا الأمر أو يدَعُهُ، فحينئذ يُشرع له أن يصلي صلاة الاستخارة، ثم يسأل ربه الخيرة في الأمر الذي يريده، وأن يختار له ما هو خير، بذكر الدعاء الوارد فيها بعد السلام.

وحديث الاستخارة رواه البخاري رحمه الله عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول:

إِذَا هُمْ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلْ:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، أَوْ قَالَ: عَاجِلُ أَمْرِي وَآجِلُهُ؛ فَاقْدِرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ، فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدِرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي بِهِ.

قال: ويُسمى حاجته (١).

فالإنسان إذا كان غير عالم بمصلحته، ولا قادر عليها؛ فعليه أن يتوجه إلى ربه، ويسأله أن يهديه إلى ما فيه خير له، ليُعلمه من علمه، ويُقدِّره بقدرته على فعل ذلك الأمر، ويُعطيه من فضله العظيم، لا أن يتوجه إلى الحيوانات والطيور، أو يتعلق

(١) رواه البخاري (١١٦٢).

بأسباب ظنية، لم يجعلها الله أسباباً، ولم يرشد إليها بل نهى عنها، فإذا استخار الله كان ما شُرح صدره له هو الذي اختاره الله له (١).

قال القرطبي رحمه الله في كتابه «الجامع لأحكام القرآن» في تفسير قوله تعالى ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ (٢):

قال العلماء: وينبغي له أن يفرغ قلبه من جميع الخواطر حتى لا يكون مائلاً إلى أمر من الأمور، فعند ذلك ما يسبق إلى قلبه يعمل عليه، فإن الخير فيه إن شاء الله. انتهى.



(١) انظر للفائدة في هذا الباب «مجموع الفتاوى» (٢٦٧/٦)، (٥٣٩/١٠)، (٣٣/١)، (١٤٢/٤).

(٢) سورة القصص، آية ٦٨.



أمثلة من الواقع على نسبة علم الغيب لغير الله

من عجائب التناقضات؛ أن يدَّعي بعض الناس الإيمان بما في القرآن ثم يناقض ذلك بفعله، ومن ذلك أن الله تعالى يقول لنبيه: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وهم يقولون: إنه يعلم الغيب حتى بعد موته، ويعلم أعمال أمته كلها، ويسمع من دعاه، ومن أمثلة من انحرف في هذا الباب شاعرٌ - وما أكثر انحراف الشعراء - يقال له محمد بن سعد البوصيري المصري، عاش في الفترة ما بين (٦٠٨ - ٦٩٦ هـ)، ألف قصيدة أسماها بـ«البردة»، التجأ فيها إلى النبي ﷺ، والتاذ به فيها من كربات يوم القيامة، وطلب منه الشفاعة في الآخرة، وادَّعى بأن الدنيا والآخرة ملك له ﷺ، وأنه يعلم الغيب، وذكر طوام عديده، وأقوال كفرية تقشعر لسماعها جلود الموحدين، وهذه القصيدة كثيرًا ما يرددوها أهل الموالد، والتي يسمونها بالموالد النبوية، يظنونها تقربهم إلى الله، وتحيي في قلوبهم محبة النبي ﷺ، وهي في الحقيقة لا تزيدهم من النبي ﷺ إلا بُعدًا، بل هي الكفر بعينه، لأن محتواها يناقض دين الإسلام الذي بُعث به محمد ﷺ، ومن أبياتها قوله:

يا أكرم الخلق ^(١) ما لي من ألود به	سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن يوم المعاد آخذًا بيدي	فضلاً وإلا فقل يا زلّة القدم
وإن من جودك الدنيا وضرتها	ومن علومك علم اللوح والقلم
لو ناسبت قدره آياته عظمًا	أحيا اسمه حين يُدعى دارس الرّمم

(١) يقصد النبي ﷺ.

والملاحظ على هذه الأبيات من القصيدة أمور:

الأول: اعتقاده أن النبي ﷺ يملك الشفاعة، وهذا باطل، فإن الشفاعة ملك لله تعالى وليست ملكاً للنبي ﷺ.

الثاني: دعاؤه للنبي ﷺ أن يُنيلها إياه، وهذا باطل أيضاً، فإن دعاء غير الله شرك مخرج من ملة الإسلام، فإن جميع العبادات لا يصح صرفها إلا لله تعالى.

الثالث: اعتقاده أن النبي ﷺ يسمع دعاءه، وهذا سفة، إذ كيف يسمع الميت كلام الحي؟! قال تعالى لنبيه: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، ولو أن حياً خاطب حياً آخر وبينهما هذا الحاجز الكثيف من التراب لما استطاع سماعه فكيف يسمعه مَنْ كان ميتاً؟!

الرابع: حصره للجوء واللياذ يوم القيامة بغير الله، وذلك في قوله:
مالي من ألؤذ به سواك عند حدوث الحادث العمم
يقصد به قيام الساعة وما يتبدى للناس فيها من أهوال.

الخامس: أن النبي ﷺ عنده ليس يعلم فقط ما في غد، بل يعلم ما كان وما سيكون مما سطره القلم في اللوح المحفوظ! بل هو بعض علمه!! سبحانه هذا بهتان عظيم وإثم مبین.

ومن كان له اطلاع على كتب الصوفية والتي يسمونها بـ«الحقائق» وكتب الموالد ونحوها- يرى من هذا القبيل العجب العجائب (١).

(١) قاله الألباني رحمه الله في كتابه «جلباب المرأة المسلمة» (ص ٢٠١)، بتصرف يسير، ط. ١، =

السادس: وفي البيت الأخير استدرك البوصيري على الله ﷻ، فقال إن الآيات التي بُعث بها محمد ﷺ لا تناسب قدره ﷻ، ولو أنها ناسبت قدره لقامت الموتى من قبورهم بمجرد ذكر اسمه (محمد)، وهذه مبالغة لا تحتاج إلى تعليق!

• ومن أمثلة ما ادّعاه بعضهم لأصحاب القبور من الاطلاع على علم الغيب ما حصل عند احتلال فرنسا للقيروان في تونس، وهو أن رجلاً فرنسيًا دخل في الإسلام وسمّى نفسه سيد أحمد الهادي، واجتهد في تحصيل الشريعة حتى وصل إلى درجة عالية، وعُيّن إمامًا لمسجد كبير في القيروان، فلما اقترب الجنود الفرنسيون من المدينة استعد أهلها للدفاع عنها، وجاءوا يسألونه أن يستشير لهم ضريح شيخ في المسجد يعتقدون فيه، فدخل (سيد أحمد) الضريح، ثم خرج مهوّلًا بما سinalهم من المصائب، وقال لهم: إن الشيخ ينصحكم بالتسليم، لأن وقوع البلاد صار محتمًا، فاتّبع القوم البسطاء قوله، ولم يُدافعوا عن مدينة القيروان أقل دفاع، بل دخلها الفرنسيون آمنين في ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٨١م^(١).

أقول: انظر أيها القارئ الكريم كيف اعتقد أولئك الدراويش في هذا الميت أنه يعلم الغيب من حيث لا يدرون!

الناشر: المكتبة الإسلامية - عمان. وانظر للفائدة ما قاله في «صفة صلاة النبي ﷺ» - (الأصل) «(٣/ ٨٨٢).

(١) عزّا خالد أبو الفتوح صاحب مقال: «أفيون الشعوب الإسلامية، النتائج والآثار» هذه القصة إلى كتاب «التصوف بين الحق والخلق»، محمد فهر شقفة، ص (٢١١). انظر (ص ٧٧ - ٧٨) من «دمعة على التوحيد».

خلاصة البحث

تبين في هذا البحث بطلانُ دعوى علم الغيب عند الكهنة وغلاة الصوفية، وبيان أن ذلك من دعوى مشاركة الله في صفاته الخاصة به، وأن ذلك شرك بالله العظيم، فمن صدّق الكهنة ومُدّعي الغيب في ذلك فهو منهم، فالواجبُ الحَذَرُ.



ملاحق الكتاب

١. أحاديث ضعيفة في اتصال الأموات بالأحياء
٢. أحاديث الغلو بالنبي ﷺ
٣. الكلام على ما يسمى بالأبدال والنقباء والأوتاد والنجباء والأقطاب
٤. المراحل التي مر بها الفكر القبوري
٥. وصف مختصر لواقع الفكر القبوري في الأمة الإسلامية
٦. عوامل بقاء الفكر القبوري
٧. أثر الفكر القبوري على الأمة من الناحية الدنيوية
٨. التحذير من الوقوع في الشبهات
٩. مظاهر إهانة القبور
١٠. ما يُشرع للموتى من حقوق على إخوانهم الأحياء
١١. ملحق تابع للمظهر الثامن (دعاء أصحاب القبور)؛ خمسون دليلاً على بطلان دعاء غير الله

ذكر أحاديث ضعيفة تفيد اتصال الموتى بعالم الأحياء

❁ فصل: أحد عشر حديثاً ضعيفاً في تقرير عرض الأعمال على
الموتى

❁ فصل في بيان أحاديث تُفيد شعور الموتى بمن حولهم من
الأحياء وسماعهم لهم وبيان حال تلك الأحاديث
❁ ذكر حديث ضعيف في التقاء أرواح الموتى بعضها ببعض
واستخبارها عن أرواح الأحياء

❦ قاعدة:

(كل حديث يفيد اطلاع الموتى على سعي الأحياء، أو سماع النبي ﷺ وهو في قبره لكلام من خاطبه، أو سماع الموتى لكلام الأحياء، أو شعور الموتى بمن حولهم من الأحياء؛ فإنه حديث ضعيف أو موضوع).

وفيما يلي جملة من الأحاديث الواردة في هذا الباب، مع بيان وجوه ضعفها أو بطلانها.

وقبل البدء في سرد تلك الأحاديث فإنه يحسن التنبيه إلى أن القرآن الكريم يدل على استئثار الله ﷻ بعلم الغيب، ومن المسلم به قطعاً أن الإحاطة بأعمال البشر والاطلاع على ما سَجَّل في دواوينهم تفصيلاً من خصائص المولى القدير ﷺ.

والسنة الشريفة تدل على ما دل عليه القرآن، فقد ثبت في السنة من طرق عن جماعة من الصحابة في «الصحيحين» وغيرهما ما يدل على أن النبي ﷺ لا يعلم ما حَدَّث لأُمَّته بعد وفاته، وغيره من البشر داخلون في هذا، ومن ذلك أنه يقول حين يُطرد بعض أصحابه عن حوضه: «أصحابي أصحابي!

فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنَّهم لم يزالوا مُرتدين على أعقابهم منذ فارَقْتَهُمْ» (١).

والشاهد قوله: «إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك».

فهذا صريح في أنه لا يدري.

(١) انظر ما رواه البخاري (٤٦٢٥)، ومسلم (٢٨٦٠) عن ابن عباس ؓ.

ومن الأدلة كذلك ما رواه ابن أبي حاتم ^(١) والطبراني ^(٢) وغيرهما من طريق يونس بن محمد بن فضالة عن أبيه، أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد بني ظفر ومعه ابن مسعود وناس من أصحابه، فأمر قارئاً فقرأ حتى أتى على هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، فبكى رسول الله ﷺ حتى اضطرب لحياه، فقال: «أي رب، شهدت على من أنا بين ظهريه فكيف بمن لم أره؟».

وابن أبي حاتم سكت عن يونس وعن أبيه فلم يوثقهما ولم يضعفهما، وكذا صنع الحافظ لما ذكر هذا الحديث في «الفتح» ^(٣) فدل على اعتبارهما في الرواية ^(٤).



(١) (١٠٣٢/٤).

(٢) «المعجم الكبير» (١٩/٢٤٣ - ٢٤٤).

(٣) انظر «الفتح»، شرح حديث رقم (٥٠٥٦).

(٤) استفدت هذه الفائدة من الشيخ النجمي رحمه الله من كتابه «أوضح الإشارة» (ص ٣٨٠ - ٣٨١).



فصل: عشرة أحاديث ضعيفة في تقرير عرض الأعمال على الموتى

وقد وردت أحاديث في إطلاع الموتى على سعي الأحياء، فمن ذلك:

الحديث الأول

قال الطيالسي في «مسنده»: حدثنا أبو داود، قال: حدثنا الصلت بن دينار، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَى عَشَائِرِكُمْ وَأَقْرَبَائِكُمْ فِي قُبُورِهِمْ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا اسْتَبَشَرُوا بِهِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ قَالُوا: اللَّهُمَّ أَلْهِمَّهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا بِطَاعَتِكَ» (١).

هذا حديث ضعيف جدًا، ففي مسنده الصلت بن دينار، وهو متروك الحديث (٢).

وفي مسنده أيضًا الحسن، وهو مُدْلَسٌ وقد عَنَعَن.

قال مُقَيَّدُهُ عفا الله عنه: ولو قَدَّرْنَا جَدًّا صحة الحديث فإنه لا يفيد جواز طلب الاستغفار من الموتى، لأن دعاء الموتى للأحياء -الوارد في الحديث- حصل بدون طلب من الأحياء، فتنبّه.

(١) (٣/ ٣٤٠).

(٢) رقم (٩٢٣)، تحقيق: توفيق التكلة، الناشر: دار النوادر - دمشق.

الحديث الثاني

قال الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول»: حدثنا أبي رحمته الله، قال حدثنا قبيصة عن سفيان عن أبان بن أبي عياش عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَى عَشَائِرِكُمْ وَأَقَارِبِكُمْ مِنَ الْمَوْتَى، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا اسْتَبَشَرُوا، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ قَالُوا: اللَّهُمَّ لَا تُمَتِّهِمْ حَتَّى تَهْدِيَهُمْ لِمَا هَدَيْتَنَا» ^(١).

هذا حديث ضعيف جدًا، في سنده: أبان بن أبي عياش، وهو متروك.

وقد رواه أحمد في «مسنده» فقال: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان عن أنس بن مالك يقول: قال النبي ﷺ... فذكر الحديث ^(٢).

قال الألباني رحمته الله: «وهذا سندٌ ضعيفٌ لجهالة الواسطة بين سفيان وأنس» ^(٣).

قال مُقَيَّدُهُ عفا الله عنه: الواسطة هو أبان بن أبي عياش كما جاء في رواية الحكيم الترمذي، وقد تقدم الكلام عليه.

وقد ضعفه العجلوني كما في «كشف الخفاء» ^(٤).

الحديث الثالث

أخرج الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» من حديث عبد الغفور بن عبد العزيز عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) (١٦٥/٣).

(٢) (١٦٥/٣).

(٣) «السلسلة الضعيفة» (٨٦٣).

(٤) (٣٠٣٦) برقم.

«تُعرض الأعمال يوم الاثنين ويوم الخميس على الله، وتُعرض على الأنبياء وعلى الآباء والأمهات يوم الجمعة، فيفرحون بحسناتهم، وتزداد وجوههم بياضًا وتُشرق، فاتقوا الله عباد الله، لا تُؤذوا موتاكم بأعمالكم».

هذا حديث موضوع، في إسناده عبد الغفور بن عبد العزيز، قال ابن معين: «ليس حديثه بشيء» (١).

وذكره الدارقطني في «الضعفاء والمتروكون» (٢).

وقال النسائي: «متروك الحديث» (٣).

وقال ابن جبان: «كان ممن يضع الحديث على الثقات، كعب وغيره. لا يحل كتب حديثه ولا ذكره إلا على جهة التعجب» (٤).

وحكم عليه الألباني رحمته الله بأنه موضوع (٥).

الحديث الرابع

قال ابن أبي الدنيا في أول كتابه «المنامات»: حدثني أبو بكر، محمد بن رزق الله الكلوزاني وهاشم بن القاسم قالا: أنبأنا يحيى بن صالح الوحاظي قال: أنبأنا

(١) «الجرح والتعديل» (٦/ ٥٥).

(٢) ترجمة رقم (٣٥٧).

(٣) كتاب «الضعفاء والمتروكين».

(٤) كتاب «المجروحين من المحدثين»، ترجمة رقم (٧٥٤).

(٥) «الضعيفة» برقم (١٤٨٠).

أبو إسماعيل السكوني: سمعت مالك بن أدي يقول: سمعت النعمان بن بشير وهو على المنبر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الذباب تمر في جَوِّها، فالله الله في إخوانكم من أهل القبور، فإن أعمالكم تُعرض عليهم».

ورواه الحاكم في «المستدرک»^(١) عن يحيى بن صالح الوحاظي به.

والبيهقي في «شعب الإيمان»^(٢) عن يحيى بن صالح الوحاظي به.

وذكره الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» بدون إسناد!

والجواب: هذا حديث ضعيف، فإن إسماعيل السكوني ومالك بن أدي مجهولان، قاله أبو حاتم في «الجرح والتعديل»^(٣).

الحديث الخامس

قال ابن أبي الدنيا: حدثنا أبو سعيد المديني، عبد الله بن شبيب، حدثنا أبو بكر بن شيبه الحزامي، حدثنا فليح بن إسماعيل، حدثنا محمد بن جعفر بن أبي كثير، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) (٣٠٧/٤).

(٢) (٢٦١/٧).

(٣) (٣٣٦/٩).



«لا تَفْضَحُوا مَوْتَائِكُمْ بِسَيِّئَاتِ أَعْمَالِكُمْ، فَإِنَّهَا تُعْرَضُ عَلَى أَوْلِيَائِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ»^(١).

ورواه ابن الجَوْزِي من طريقه في «الثبت عند الممات»^(٢).

هذا حديث ضعيف، في سنده عبد الله بن شبيب، وفليح بن إسماعيل بن جعفر، مجهولان، ترجم لهما ابن أبي حاتم، ولم يذكر فيهما جرحًا ولا تَعْدِيلًا^(٣).

وقد ضعف الحديث العلامة محمد بن طولون الصالحي في كتابه «الشنرة في الأحاديث المشتهرة»^(٤)، والعلامة الشيخ عبد الرحمن الشيباني الشافعي في كتابه «تميز الطيب من الخبيث»^(٥)، والفُتَنِي في «تذكرة الموضوعات»^(٦)، والعجلوني في «كشف الخفاء»^(٧)، والسَّخَاوِي كما في «المقاصد الحسنة»^(٨).

(١) كتاب «المنامات» (٦/١).

(٢) (٧٣/١)، تحقيق: عبد الله الليثي الأنصاري، الطبعة الأولى، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت.

(٣) كتاب «الجرح والتعديل» (١٨٣/٥)، (٨٥/٧).

(٤) برقم (١١١٩).

(٥) (ص ١٩١).

(٦) (ص ٢١٦).

(٧) برقم (٣٠٣٦).

(٨) برقم (١٢٩٦).

الحديث السادس

قال البزار في «مسنده»:

حدثنا يوسف بن موسى، نا عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رَوَّاد عن سفيان عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله - هو ابن مسعود - عن النبي ﷺ قال: «إنَّ لله ملائكة سيَّاحين يُبلغوني عن أمتي السلام».

قال: وقال رسول الله ﷺ: «حياتي خيرٌ لكم، تُحدِّثون ونُحدِّث لكم، ووفاتي خير لكم، تُعرض عليَّ أعمالكم، فما رأيتُ من خير حمدت الله عليه، وما رأيتُ من شر استغفرت الله لكم»^(١).

فالجواب: أن هذا الحديث صحيح دون الزيادة الأخيرة فإنها شاذة وهي قوله: «حياتي خير لكم... إلخ».

فقد ذكر الألباني رحمه الله في «السلسلة الضعيفة»^(٢) أن هذا الحديث رواه النسائي من طرق عديدة عن سفيان عن عبد الله بن السائب به، ورواه الطبراني أيضًا في «المعجم الكبير»^(٣)، وأبو نُعَيْم في «أخبار أصبهان»^(٤)، وكذا ابن عساكر^(٥)، كلهم من طريق الأعمش عن عبد الله بن السائب به، ولم يأت في هذه الروايات ذكر هذه

(١) «البحر الزخار» المعروف بـ«مسند البزار» (٣٠٨/٥)، ط. مكتبة العلوم والحكم - المدينة.

(٢) رقم (٩٧٥).

(٣) (٢١٩/١٠).

(٤) (١٧٤/٢)، من اسمه محمد، تحقيق: سيد كسروي حسن، ط. دار الكتب العلمية.

(٥) (١٢٠/٧).

الزيادة التي تفرد بها عبد المجيد بن عبد العزيز عن سفيان عن عبد الله بن السائب به في رواية البزار، فهذا يدل على شذوذ هذه الرواية، لا سيما وعبد المجيد مُتَكَلِّم فيه من قِبَل حفظه، فقد قال ابنُ حَبَّان: «منكر الحديث جدًّا، يَقلب الأخبار، ويروي المناكير عن المشاهير، فاستحق الترك».

وقال الحافظ في «التقريب»: «صدوق يخطئ».

وقال الشيخ أحمد بن يحيى النجمي رحمته الله:

«وهناك شيء آخر لم يَخطر ببالي إلا في هذه اللحظة، وهو أن عبد المجيد كان مرجئًا داعية إلى الإرجاء، كما صرح به غير واحد، وهذا الأثر يؤيد مذهبه في الإرجاء، وهو كون النبي ﷺ يَسْتَغْفِر لَأَمْتِهِ في البرزخ، وعلى هذا فإن الأثر الذي رفعه يؤيد مذهبه، فلذلك لا يُقبل، وعلى هذا فلا حجة في هذه الأحاديث مرسلها وموصولها، ولا يحسن الاعتماد عليها في هذا الأمر الذي هو أصل من أصول العقيدة، وهو أمر غيبي لا ينبغي الاعتماد فيه على المراسيل ولا أحاديث الضعفاء، وإذا كان الضعيف صاحب بدعة، وكان الحديث يدعو إلى بدعته؛ بطل الاحتجاج به.

وإذا كان جمهور المحدثين وبعض الفقهاء قد ذهبوا إلى عدم قبول المرسل في الفروع، فكيف إذا كان في أصل من أصول العقيدة، وقد خالف المقطوع به من الكتاب والسنة؟». انتهى كلامه رحمته الله (١).

فالحاصل أن رواية عبد المجيد بن عبد العزيز ضعيفة، والله أعلم.

(١) «أوضح الإشارة في الرد على مَنْ أجاز الممنوع من الزيارة» (ص ٣٧٧-٣٧٨).

وقد روى هذا الحديث إسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم» عن بكر بن عبد الله المزني من طريقين، وكلاهما ضعيفان لإرسالهما^(١).

وذكر له الألباني في «السلسلة الضعيفة»^(٢) طريقًا ثالثة عن بكر، أخرجها الحارث بن أبي أسامة في «مسنده»^(٣) عن جسر بن فرقد عنه، ثم ضعفها لضعف جسر.

كما ذكر في «السلسلة الضعيفة»^(٤) لهذا الحديث أيضًا طريقين آخرين عن أنس ولفظهما:

«تعرض علي أعمالكم عشية الاثنين والخميس»، وفي إسناده خراش بن عبد الله، ساقط الحديث.

واللفظ الآخر: «تعرض علي أعمالكم كل خميس»، وفي إسناده محمد بن عبد الملك الأنصاري، قال العقيلي: «منكر الحديث».

ثم قال رحمه الله:

«وجملة القول إن الحديث ضعيف بجميع طرقه، وخيرها حديث بكر بن

(١) رقم (٢٥ و ٢٦) بتحقيق الألباني رحمه الله.

(٢) رقم (٩٧٥).

(٣) «بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث» برقم (٢٣٠).

(٤) رقم (٩٧٥).

عبد الله المزني وهو مرسل، وهو من أقسام الحديث الضعيف عند المحدثين، ثم حديث ابن مسعود، وشرها حديث أنس بطريقه». انتهى.

وعودًا على موضوع بطلان متن الحديث، فقد قال الشيخ محمد خليل هراس رحمته الله:

«فحياته كانت خيرًا لأمته بلا نزاع، يهديها إلى الرشd ويقودها إلى مواطن الفلاح والخير، ولكن كيف يكون موته خيرًا لها، وقد أدرك الصحابة عظم الفجعة فيه واستهلوا الخطب، حتى إن أشدهم شكيمة -وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه- قد غشي عليه من هول المصاب، وما من شك في أن فقده رضي الله عنه كان أعظم ما أصيبت به هذه الأمة من إرزاء.

ثم ما فائدة عرض الأعمال عليه وهو ليس مسئولًا عنها ولا مكلفًا بإحصائها وكتابتها ولا برفعها إلى الله، فإن لذلك كله ملائكة موكلين به، وكيف يُعقل أن يسوء الله سبحانه بنيه ويُحزن قلبه ويُنغص عليه ما هو فيه من أنواع النعيم بعرض حصائد الناس من الشرور والمعاصي عليه؟

أما يكفي ما تحمّله في حياته من أنواع المشقات وكبار التضحيات؟

والحديث فيه كذلك إغراء بالمعاصي ودعوة إليها، فإنه إذا كان الرسول ﷺ سيستغفر لعصاة أمتة كلما عرضت عليه أعمالهم -ولا شك أن استغفاره موجب لمغفرة^(١)- لم يضر أحدًا ما يرتكبه من ذنب.

(١) لعل الأصح: سبب للمغفرة.

ثم إن هذا الحديث معارض للأحاديث الصحيحة التي تدل على أنه لا يدري بعد موته شيئاً من أحوال أمته، فقد جاء في حديث الحوض أنه يَرِد عليه أناس من أمته الحوض، وأنه يَهَم ليسقيهم، فتجيء الملائكة وتذودهم عن الحوض، فيقول الرسول ﷺ: «هؤلاء أصحابي أعرفهم»، فيقال له: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فيقول: «سُحِقًا وَبُعْدًا لِمَن أَحْدَثَ بَعْدِي»، ويتلو قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] (١). انتهى كلام الشيخ محمد خليل هراس رحمته الله.

قلت: وقد أوغل ابن الحاج في كتابه «المدخل في فضل زيارة القبور» (٢)، فزعم أن حديث عرض الأعمال يُفيد اطلاع الرسول ﷺ على نيات الناس وأعمالهم!

وقد أجاب عن ذلك الشيخ أحمد بن يحيى النجمي رحمته الله فقال:

«إِنَّ مَا ادَّعَاهُ ابْنُ الْحَاجِّ مِنْ اطِّلاعِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أَعْمَالِ أُمَّتِهِ وَخَوَاطِرِهِمْ وَنِيَّاتِهِمْ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثُ عَرْضِ الْأَعْمَالِ وَإِنْ صَحَّ لَا مِنْ قُرْبٍ وَلَا مِنْ بُعْدٍ، وَلَا بِمَفْهُومٍ وَلَا مَنْطُوقٍ، وَلَا بِتَصْرِيحٍ وَلَا تَعْرِيفٍ، فَعَلَى فِرْضِ صَحْتِهِ وَثُبُوتِهِ فَإِنْ الْعَرْضُ إِنَّمَا يَكُونُ لِدَوَاوِينَ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَكْتُبُهَا عَلَيْهِمُ الْحَفِظَةُ، وَذَلِكَ يَحْصُلُ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْهَا، أَيْ: بَعْدَ أَنْ يَعْمَلَهَا الْعِبَادُ فَتُثَبَّتْهَا الْمَلَائِكَةُ فِي الدَّوَاوِينَ ثُمَّ تَعْرَجُ بِهَا، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ ﷺ يَعْلَمُ أَحْوَالَهُمْ حِينَمَا يَعْمَلُونَهَا، وَلَا أَنَّهُ يَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ

(١) «شرح القصيدة النونية» للشيخ محمد خليل هراس (٢/ ١٩ - ٢٠) بتصرف يسير، الناشر: دار الباز للنشر والتوزيع - مكة.

(٢) (١/ ٢٥٧)، كما في «أوضح الإشارة».

حين مباشرتهم لتلك الأعمال، ولا قبل ذلك حينما تتحرك إليها نياتهم وخواطرهم وإرادتهم، بل إن ذلك لا يعدو أن يكون غيبًا عنه حتى حين توضع دواوينهم بين يديه. ومن زعم أنه يعلم أحوالهم قبل ذلك ويطلع على نياتهم وإراداتهم حين تتحرك إلى هذه الأعمال فهو مفتر كذاب ضالٌّ مضل، يقول على الله وعلى رسوله بالخرص الكاذب، والتنطع الممقوت، وما مثل ذلك إلا كمثل إنسان كتب لك كتابًا وهو غائب عنك فإذا وصل إليك كتابه وقرأته لا تكون قد اطلعت على جميع أمره، لا حين كتب لك الكتاب، ولا حين وصل إليك الكتاب وقرأته، بل غاية ما في الأمر أنك تطلع على ما كُتب في الكتاب، وهذا بيّن لا يخفى، والله أعلم»^(١).

الحديث السابع

ربما فهم بعض الناس من الحديث التالي أن النبي ﷺ مطلع على أعمال أمته: **عن أنس رضي الله عنه قال:** قال رسول الله ﷺ: «عرضت عليّ أجور أمتي، حتى القذاة يُخرجها الرجل من المسجد، وعرضت عليّ ذنوب أمتي، فلم أر ذنبًا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها»^(٢).

فالجواب عن هذا الحديث من ثلاثة وجوه:

الأول: أن الحديث ضعيف كما قرر ذلك الألباني رحمه الله^(٣).

(١) «أوضح الإشارة في الرد على من أجاز الممنوع من الزيارة» (ص ٣٨٥-٣٨٦)، بتصرف يسير.

(٢) رواه أبو داود (٤٦١)، والترمذي (٢٩١٦).

(٣) انظر «ضعيف أبي داود» (٧١).

الثاني: على تقدير صحته، فإن العرض كان في حياة النبي ﷺ، ولهذا قال: «عُرِضْتُ»، ولم يقل: ستعرض.

الثالث: ليس في الحديث أنه سيستغفر لهم أو يدعو لهم، وهو المطلوب.

الأثر الثامن

قال ابن أبي الدنيا: حدثنا أبو هشام، ثنا يحيى بن يمان، عن عبد الوهاب بن مجاهد، قال مجاهد: «إن الرجل لُيُبَشَّرُ بصلاح ولده في قبره»^(١).

هذا أثر ضعيف جداً، في سنده أبو هشام محمد بن يزيد الرفاعي، وهو ضعيف جداً.

قال البخاري: «رأيتهم مُجْتَمِعِينَ على ضعفه».

وقال النسائي: «ضعيف».

وقال أبو حاتم الرازي: «سألت ابن نمير عنه فقال: كان أضعفنا طلباً وأكثرنا غرائب»^(٢).

وفي سنده يحيى بن يمان العجلي، ضعفه أحمد، وقال: «حدث عن الثوري بعجائب».

وقال - أيضاً - في رواية إسحاق: «ليس بحجة».

(١) كتاب «ذكر الموت» لابن أبي الدنيا، باب (معرفة الموتى عمل الأحياء).

(٢) انظر ترجمته في «تهذيب التهذيب».

وقال ابن معين: «ليس بثبت، لم يكن يبالي أي شيء حدث، كان يتوهم الحديث».

وقال يعقوب بن شيبة: «كان صدوقًا كثير الحديث، وإنما أنكر عليه أصحابنا كثرة الغلط، وليس بحجة إذا خولف».

وقال الآجري عن أبي داود: «يخطئ في الأحاديث ويقلبها».

وقال النسائي: «ليس بالقوي».

وذكره ابن جبان في «الثقات» وقال: «ربما أخطأ، وكان متقشفًا».

وقال ابن عدي: «عامّة ما يرويه غير محفوظ، وهو في نفسه لا يعتمد الكذب إلا أنه يخطئ ويشتبّه عليه». انتهى مختصرًا من ترجمته في «التهذيب».

الحديث التاسع

قال ابن المبارك في كتاب «الزهد»، باب: بشرى المؤمن عند الموت وغير ذلك:

«أخبرنا ثور بن يزيد عن أبي رهم السماعي عن أبي أيوب الأنصاري قال: إذا قبضت نفس العبد تلقاه أهل الرحمة من عباد الله كما يلقيون البشير في الدنيا، فيقبلون عليه ليسألوه، فيقول بعضهم لبعض: أنظروا أحاكم حتى يستريح، فإنه كان في كرب، فيقبلون عليه فيسألونه: ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟ هل تزوّجت؟ فإذا سألوا عن الرجل قد مات قبله قال لهم: إنه قد هلك. فيقولون: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهب به إلى أمه الهاوية، فبئست الأم، وبئست المربية».

قال: فيُعَرَّضَ عليهم أعمالهم، فإذا رأوا حسناً فرحوا واستبشروا وقالوا: هذه نعمتك على عبدك فأتممها، وإن رأوا سوءاً قالوا: اللهم راجع بعبدك».

قال ابنُ صاعد: رواه سلام الطويل عن ثور فرفعه (١).

ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢)، وفي «مسند الشاميين» (٣)، عن مسلمة بن علي عن زيد بن واقد وهشام بن الغاز، عن مكحول عن عبد الرحمن بن سلامة عن أبي رهم عن أبي أيوب به.

وروى النصف الأول في «المعجم الكبير» عن محمد بن إسماعيل بن عياش: «ثنا أبي ثنا ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد قال: كان عبد الرحمن بن سلامة...» فذكره (٤).

ورواه ابن الجوزي مرفوعاً في «العلل المتناهية» عن سلام التميمي (٥) عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أبي رهم عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ، فذكره.

والجواب: هذا أثر ضعيف جداً، قال ابنُ الجوزي بعدما رواه:

(١) كتاب الزهد (١ / ٢٦٧)، تحقيق: أحمد فريد، الناشر: الدار السلفية - الإسكندرية.

(٢) رقم (٣٨٨٧).

(٣) (٢ / ٣٨٢) رقم (١٥٤٤).

(٤) (٤ / ١٢٩) برقم (٣٨٨٩).

(٥) هو سلام الطويل، انظر «المجروحين».

هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وسلام هو الطويل، وقد أجمعوا على تضعيفه. وقال النسائي والدارقطني: «متروك»^(١).

وقال ابنُ جَبَّان في «المجروحين»: «يروي عن الثقات الموضوعات كأنه كان المتعمد لها».

وروى عن ابن معين قوله: «سلام بن سليمان ليس حديثه بشيء»^(٢).

وفي إسناد الحديث مسلمة بن علي، متروك أيضًا، قاله ابن حجر في «التقريب».

وفي إسناده عبد الرحمن بن سلامة، مجهول. قال الشيخ الألباني في «الصحيحة»^(٣): «لم أر له ترجمة».

ورواه أبو القاسم الحنائي في فوائده المُسماة «الحنائيات» من طريق ثابت بن ثوبان، عن مكحول، عن عبد الرحمن بن سلامة به^(٤).

وقد ذكر ابن أبي الدنيا هذا الأثر بتمامه في كتاب «ذكر الموت» بدون إسناد فقال: «عن أبي أيوب الأنصاري» فذكره^(٥).

(١) «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية» (٢/ ٩١٠ - ٩١١).

(٢) (٤٢٦/١) رقم (٤٢٢).

(٣) (٦/ ٦٠٥).

(٤) رقم (٢٥)، نقلًا من تعليق الشيخ مشهور على كتاب «ذكر الموت» لابن أبي الدنيا، (ص ١٥١).

(٥) كتاب «ذكر الموت» (ص ١٥١).

الأثر العاشر

قال ابن المبارك في «الزهد»، باب (في ذكر الموت) (رقم ١٦٦):

أنا رجلٌ من الأنصار عن المنهال بن عمرو أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: ليس من يومٍ إلا يُعرض فيه على النبي ﷺ أمته غدوة وعشية، فيعرفهم بسيماهم ليشهد عليهم، يقول الله ﷻ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

قال ابن كثير في تفسير سورة النساء عند قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١] في هذا الأثر: «فإنه أثر فيه انقطاع، فإن فيه رجلاً مبهمًا لم يسم، وهو من كلام سعيد بن المسيب لم يرفعه.

قال مُقَيَّدُهُ عفا الله عنه: وقد وافق القرطبي ابن كثير كما في «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة»، باب (ما جاء في شهادة النبي ﷺ على أمته).





فصل في بيان أحاديث تفيد شعور الموتى بمن حولهم من الأحياء وسماعهم لهم وبيان حال تلك الأحاديث

الحديث الأول

قال الطبراني في «المعجم الكبير»: حدثنا أبو عقيل أنس بن سلم الخولاني، ثنا محمد بن إبراهيم بن العلاء الحمصي، ثنا إسماعيل بن عياش، ثنا عبد الله بن محمد القرشي عن يحيى بن أبي كثير عن سعيد بن عبد الله الأودي ^(١) قال:

شهدت أبا أمانة وهو في النزع فقال: إذا أنا مت فاصنعوا بي كما أمر رسول الله ﷺ أن نصنع بموتانا، أمرنا رسول الله ﷺ فقال: «إذا مات أحد من إخوانكم فسويتم التراب على قبره، فليقف أحدكم على رأس قبره ثم ليقل: يا فلان ابن فلانة، فإنه يسمعه ولا يُجيب، ثم يقول: يا فلان ابن فلانة، فإنه يستوي قاعدًا، ثم يقول: يا فلان ابن فلانة، فإنه يقول: أرشدنا رحمك الله، ولكن لا تشعرون، فليقل: (اذكر ما خرجت عليه من الدنيا، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأنت رضىت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا، وبالقرآن إمامًا)، فإن منكرًا ونكيرًا يأخذ واحد منهما بيد صاحبه ويقول: انطلق بنا، ما نقعد عند من قد لقن حجته، فيكون الله حجيجه دونهما».

فقال رجل: يا رسول الله، فإن لم يعرف أمه؟

(١) وجاء في مصادر أخرى: (الأزدي).

قال: «فلينسبه إلى حواء، يا فلان ابن حواء»^(١).

ورواه ابن شاهين في كتاب «ذكر الموت» عن أبي أمامة الباهلي أيضًا^(٢).

فالجواب: هذا حديث سنده تالف، فيه شيخ الطبراني، أنس بن سلم الخولاني الأنطرسوسي، ذكره ابن عساكر في «تاريخ دمشق»^(٣)، والذهبي في «تاريخ الإسلام» في وفيات (٢٨١ - ٢٩٠)، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، وقد روى عنه جمعٌ ولم يُوثَّق، فهو مجهول الحال.

وفيه أيضًا محمد بن إبراهيم بن العلاء الحمصي، قال عنه ابن عدي: «منكر الحديث، وعامة أحاديثه غير محفوظة»^(٤).

وقال الدارقطني: «كذاب»^(٥).

وقال أبو نعيم: «روى عن الوليد بن مسلم وشعيب بن إسحاق وبقيّة وسويد بن عبد العزيز موضوعات»^(٦).

وأما سعيد بن عبد الله الأودي فلم أجد له ترجمة، فإن كانت (الأودي) تحريف عن (الأسدي) فقد قال أبو حاتم: «ليس هو بقوي»^(٧).

(١) (٢٤٩/٨) برقم (٧٩٧٩).

(٢) نقلًا من «المغني» (٤٣٨/٣).

(٣) (٣١٢/٩).

(٤) «الكامل في ضعفاء الرجال» (٥٢٤ - ٥٢٥/٧).

(٥) «موسوعة أقوال الدارقطني في رجال الحديث وعلمه»، ترجمة رقم (٢٨٩٩).

(٦) «تهذيب التهذيب»، ترجمة رقم (٦٧١٠).

(٧) «الجرح والتعديل» (٣٦/٤).



- وذكره البخاري في «التاريخ الكبير» ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا^(١).
- وبالجملة، فقد قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» في هذا الإسناد: «وفيه من لم أعرفه جماعة»^(٢).
- وقال نجم الدين محمد بن محمد الغزي الدمشقي في هذا الحديث: «ضعفه ابن الصلاح ثم النووي وابن القيم والعراقي»^(٣).
- وقال ابن القيم في «الزاد»: «هذا حديث لا يصح رفعه»^(٤).** وضعفه أيضًا في كتاب «الروح»^(٥).
- وقال أيضًا: «ولم يكن^(٦) يجلس يقرأ عند القبر، ولا يُلقن الميت كما يفعله الناس اليوم»^(٧).**
- وقال ابن حجر في «تخريج أحاديث الأذكار»: «حديث غريب، وسند الحديث من الطريقين (يعني طريق الطبراني وطريق سعيد بن منصور) ضعيف جدًا».**
- وقال الصنعاني في «سبل السلام»: «ويتحصّل من كلام أئمة التحقيق أنه حديث ضعيف، والعمل به بدعة، ولا يُغتر بكثرة من يفعله»^(٨).**
-
- (١) (٤٠٠ / ٣).
- (٢) (٣٢٧ / ٢).
- (٣) «إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن» برقم (٥٧٣).
- (٤) «زاد المعاد» (١ / ٥٢٣).
- (٥) ص (٧٠)، ط. دار ابن كثير - دمشق.
- (٦) أي النبي ﷺ.
- (٧) «زاد المعاد» (١ / ٥٢٢).
- (٨) كتاب (الجنائز)، عند شرح حديث ضمرة بن حبيب.

وقد ذكر الألباني هذا الحديث في «السلسلة الضعيفة»، وأشار إلى طريق آخر له أخرجه القاضي الخلعي في «الفوائد» عن أبي الدرداء هاشم بن محمد الأنصاري، ثنا عتبة بن السكن عن أبي زكريا عن جابر بن سعيد الأنصاري، فذكر الحديث.

ثم قال: «وهذا إسناد ضعيف جدًا، لم أعرف أحدًا منهم غير عتبة بن السكن. قال الدراقطني: متروك الحديث. وقال البيهقي: واهٍ منسوب إلى الوضع.

واختلف في اسم الراوي عن أبي أمامة، ففي رواية الخلعي أنه جابر بن سعيد الأزدي، وفي رواية الطبراني أنه سعيد بن عبد الله الأزدي، وهذا أورده ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، فهو في عداد المجهولين».

ثم قال رحمه الله: «وجملة القول إن الحديث منكر عندي إن لم يكن موضوعًا» (١).

وقال ابن قدامة في «المغني»: «فأما التلقين بعد الدفن فلم أجد فيه عن أحمد شيئًا، ولا أعلم فيه للأئمة قولًا، سوى ما رواه الأثرم، قال: قلت لأبي عبد الله: فهذا الذي يصنعونه إذا دُفن الميت، يقف الرجل ويقول: (يا فلان ابن فلانة، اذكر ما فارقت عليه، شهادة أن لا إله إلا الله). فقال: ما رأيت أحدًا فعل هذا إلا أهل الشام، حين مات أبو المغيرة جاء إنسان، فقال ذاك» (٢).

قلت: وتلقين الميت لا زال يُفعل في الشام منذ تلك الأزمان، أسأل الله أن يهدي الناس لترك هذه البدعة.

(١) «السلسلة الضعيفة» (٢/ ٦٥)، باختصار.

(٢) «المغني» (٣/ ٤٣٧-٤٣٨).

وللعلم، فقد أخرج سعيد بن منصور عن راشد بن سعد، وضمرة بن حبيب، وحكيم بن عمير قال: «إذا سُوي على الميت قبره وانصرف الناس عنه - كان يستحب أن يُقال للميت عند قبره:

يا فلان، قل: لا إله إلا الله ثلاث مرات.

يا فلان، قل: ربّي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ.

ثم ينصرف».

والجواب أن راشد بن سعد ومن ذكر معه لم يرووه عن النبي ﷺ، وإنما أطلقوا بدون إسناد ولا حتى نسبة إلى النبي ﷺ.

وحتى لو صحّ عنهم فليس قولهم بحجة، لأنه موقوف عليهم سواء كانوا تابعين أو تابعي تابعين.

نعم لو صح عن صحابي لكان له حكم الرفع إلى النبي ﷺ، وأئني له ذلك.

والذي ينبغي للمؤمن أن يقف عند ما وقف عنده النبي ﷺ ويترك ما سوى ذلك، فقد كان ﷺ يقف على القبر، ويدعو لصاحبه بالثبات عند سؤال المَلَكين، ويستغفر له، ويحث أصحابه على فعل ذلك، كما جاء ذلك في حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم، وسلّوا له التَّسْبِيت، فَإِنَّهُ الآن يُسأل»^(١).

(١) رواه أبو داود (٣٢٢١) عن عثمان رضي الله عنه، وصححه الشيخ ناصر في «صحيح أبي داود» (٣٢٢١).

الحديث الثاني

قال ابنُ أبي الدنيا: حدثنا محمد بن عون، حدثنا يحيى بن يمان، عن عبد الله بن سمعان، عن زيد بن أسلم، عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به، ورَدَّ عليه حتى يقوم»^(١).

هذا حديث ضعيف جداً، في سنده يحيى بن يمان العجلي، ضعفه أحمد، وقال: «حدث عن الثوري بعجائب».

وقال - أيضاً - في رواية إسحاق: ليس بحجة.

وقال ابنُ معين: ليس بثبت، لم يكن يبالى أي شيء حدث، كان يتوهم الحديث.

وقال يعقوب بن شيبه: كان صدوقاً كثير الحديث، وإنما أنكر عليه أصحابنا كثرة الغلط، وليس بحجة إذا خولف.

وقال الأجري عن أبي داود: يُخطئ في الأحاديث ويقلبها.

وقال النسائي: ليس بالقوي.

وذكره ابن حبان في «الثقات» وقال: ربما أخطأ، وكان متقشفاً.

وقال ابنُ عدي: عامة ما يرويه غير محفوظ، وهو في نفسه لا يتعمد الكذب، إلا أنه يخطئ ويشتبّه عليه».

(١) ملحق كتاب «القبور» لابن أبي الدنيا، ص (٢٠١)، ط. مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة.



انتهى مختصرًا من ترجمته في «التهذيب».

وفي السند أيضًا عبد الله بن سمعان، قال ابن رجب في «أهوال القبور»: «متروك»^(١).

وهناك علة ثالثة وهي الانقطاع، فزيد بن أسلم عن عائشة مُرسل كما في «جامع التحصيل».

الحديث الثالث

قال البيهقي: أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان، أخبرنا أبو الحسين أحمد بن عثمان الآدمي، حدثنا محمد بن يونس بن موسى، حدثنا الأصمعي، حدثنا محمد بن مروان السدي، عن الأعمش، عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ صَلَّى عَلَيَّ عِنْدَ قَبْرِي سَمِعْتَهُ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيَّ نَائِيًا وَكُلَّهَا مَلِكٌ يُبَلِّغُنِي، وَكُفِّي بِهَا أَمْرَ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، وَكُنْتُ لَهُ شَهِيدًا أَوْ شَفِيعًا»^(٢).

ورواه ابن الجوزي في كتاب «الموضوعات من الأحاديث المرفوعات» عن محمد بن مروان السدي به^(٣).

(١) ذكره ابن رجب عند سرد الآثار الواردة في معرفة الموتى في قبورهم بحال أهلهم وأقاربهم في الدنيا.

(٢) «شعب الإيمان» برقم (١٤٨١).

(٣) برقم (٥٦٢).

ورواه العقيلي عن محمد بن مروان السدي به بلفظ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ عِنْدَ قَبْرِي سَمِعْتَهُ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيَّ نَائِيًا أَبْلَغْتَهُ»^(١).

وكذا أبو عبد الله النجار في «الدرة الثمينة في أخبار المدينة» عن محمد بن مروان السدي به^(٢).

والجواب: هذا حديث ضعيف جدًا، في سنده محمد بن مروان السدي، كذبه ابن نمير^(٣).

وقال ابنُ معين: «ليس بثقة»^(٤).

وقال البخاري: «سكتوا عنه»^(٥).

وقال النسائي: «متروك الحديث»^(٦).

وقال العقيلي في الحديث بعدما أورده: «لا أصل له من حديث الأعمش، وليس بمحفوظ، ولا يُتابعه إلا من هو دونه».

ولذا ذكر هذا الحديث العقيلي في «المسند الضعيف» أيضًا^(٧).

(١) «الضعفاء» (٤/ ١٢٩٠).

(٢) (ص ٢٨٩ - ٢٩٠).

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) «التاريخ الكبير» (١/ ٢٣٣).

(٦) «الضعفاء والمتروكين»، ترجمة رقم (٥٣٨).

(٧) برقم (٦١٠).



وقال ابنُ الجَوْزِي بعدما رواه: «هذا حديث لا يصح».

وقد تابع الذهبيُّ ابنَ الجَوْزِي على حكمه على هذا الحديث بالوضع، فذكره في «ترتيب الموضوعات»^(١).

وكذا الشوكاني في «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة»^(٢).

وقال الألباني في «السلسلة الضعيفة»: «موضوع»^(٣).

وقال ابنُ تيمية: «والحديث موضوع على الأعمش باتفاق أهل العلم»^(٤).

وقال رحمه الله:

«الأحاديث المعروفة عند أهل العلم التي جاءت من وجوه حسان يُصدّق بعضها بعضًا، وهي متفقة على أنه من صلى عليه وسلّم من أمته فإن ذلك يُبلّغه ويُعرض عليه، وليس في شيء منها أن يسمع صوت المُصلّي والمُسلّم بنفسه، إنما فيها أن ذلك يُعرض عليه ويُبلّغه ﷺ في مدينته ومسجده أو مكان آخر»^(٥).

وقال أيضًا «إن هذا الحديث قد غُيّر لفظه فقال: «ففي النسخة التي رأيتهَا مصححًا: «وَمَنْ صَلَّى عَلَيَّ نَائِيًا سَمِعْتُهُ»، وإنما لفظه: «بُلَّغْتُهُ»»^(٦).

(١) برقم (٢٠٦).

(٢) (ص ٣٢٥).

(٣) برقم (٢٠٣).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٢٧ / ٢٤١).

(٥) «الرد على الإخنائي» ص (٣٤٦).

(٦) من المعلوم أن لفظ «بُلَّغْتُهُ» يُشعر بتبليغ الملائكة له، وهذا المعنى صحيح مستقيم، يدل

وهكذا ذكره القاضي عياض عن مسند بن أبي شيبه، وهو نُقِلَ منه.

ومن يحتج بمثل هذا الحديث الموضوع، ويُعرض عن أحاديث أهل السنن الحسان؛ فهو من أبعد الناس عن أهل العلم والعرفان^(١)، والله أعلم.

الأثر الرابع

قال البيهقي: «أخبرنا أبو سعيد بن أبي عمرو، أخبرنا أبو عبد الله الصفار، حدثنا ابن أبي الدنيا، حدثني إسحاق بن حاتم المدايني، حدثنا ابن أبي فديك، عن رباح بن بشير، عن يزيد بن أبي سعيد المهري قال: قدمتُ على عمر بن عبد العزيز إذ كان خليفة بالشام، فلما ودَّعته قال: إنَّ لي إليك حاجة إذا أتيت المدينة، سترى قبر النبي ﷺ، فأقرأه مني السلام»^(٢).

هذا أثر ضعيف، في إسناده رباح بن بشير، قال ابنُ أبي حاتم: «مجهول»^(٣). وفيه - أيضًا - يزيد بن أبي سعيد المهري، وهو مجهول الحال كما في «تهذيب التهذيب».

قلت: ومن المعلوم أن تبليغ النبي ﷺ السلام لا يُحتاج فيه إلى إرسال رسول، فإن الله جعل هناك ملائكة تبليغ النبي ﷺ السلام من أيِّ مكان سلَّم فيه المسلم على النبي ﷺ.

=

عليه حديث أوس بن أوس ؓ، وقد تقدم.

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٢٤١ - ٢٤٢).

(٢) «شعب الإيمان»، (٨ / ١٠٠ - ١٠١) برقم (٣٨٧٠).

(٣) «الجرح والتعديل» (٣ / ٤٩٠).

الأثر الخامس

قال البيهقي: «حدثنا عبد الله بن يوسف الأصفهاني، أخبرنا إبراهيم بن فراس بمكة، حدثني محمد بن صالح الرازي، حدثنا زياد بن يحيى، عن حاتم بن وردان قال: كان عمر بن عبد العزيز يوجه بالبريد قاصداً إلى المدينة، ليُقرئ عنه النبي ﷺ السلام»^(١).

هذا أثر ضعيف، في سنده محمد صالح الرازي وهو الكيليني، ذكره الحافظ ابن حجر في «تبصير المُتنبّه» (٣/ ١٢١٩)، ولم يذكر من الرواة عنه سوى حمزة الكناني، ونقل ذلك عنه الشيخ مقبل بن هادي الوادعي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «رجال الحاكم»^(٢)، فالرجل في عداد المجاهولين.

وأيضاً هو مرسل، فإن حاتم بن وردان لم يُدرَك عمر بن عبد العزيز، فبين وفاتيهما نحو ٨٣ سنة كما في ترجمتيهما من «التهذيب».

وفي سنده إبراهيم بن فراس، مجهول، ترجم له ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً^(٣).

الحديث السادس

قال أبو عبد الله النجار في كتابه «الدرة الثمينة في أخبار المدينة»:

«أنبأنا أبو الفرج بن علي الفقيه، أنبأنا عمر بن ظفر، أنبأنا جعفر بن أحمد، أنبأنا

(١) «شعب الإيمان» (٨/ ١٠٠) برقم (٣٨٦٩).

(٢) (٢/ ٢١٧)، ط. مكتبة صنعاء الأثرية - صنعاء.

(٣) كتاب «الجرح والتعديل» (٢/ ١٢٣).

عبد العزيز بن علي، حدثنا أبو الحسن الهمداني، حدثني محمد بن حَبَّان قال: سمعت إبراهيم بن شيبان يقول: حججت في بعض السنين فجئت المدينة فتقدمت إلى قبر النبي ﷺ، فسَلَّمْتُ عليه فسمعت من داخل الحجرة: «وعليك السَّلَامُ»^(١).

فالجواب: هذا أثر ضعيف، في سنده محمد بن حَبَّان بن الأزهر القطان، ضعفه ابن منده ومحمد بن علي الصوري، وذكره الذهبي في «المغني في الضعفاء» وفي «الميزان».

ولو قدَرنا جدلاً صحة القصة فلعله سمع شيطاناً أراد أن يُغويه، فالله أعلم.

الحديث السابع

قال أبو يعلى: حدثنا أحمد بن عيسى، حدثنا ابن وهب، عن أبي صخر أن سعيداً المقبري أخبره أنه سمع أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفس أبي القاسم بيده، لينزلن عيسى ابن مريم إماماً مقسطاً، وحكماً عدلاً، فليكسرنَّ الصَّليب، وليقتلنَّ الخنزير، وليصلحنَّ ذات البين، وليُذهبنَّ الشحنة، وليُعرضنَّ عليه المال فلا يقبله، ثم لئن قام على قبري فقال: (يا محمد)، لأجيبنه»^(٢).

فاحتج بعضهم بقوله: (لئن قام على قبري فقال: يا محمد، لأجيبنه) على سماع الموتى لخطاب الأحياء!

والجواب من ثلاثة وجوه:

أولاً: اضطراب هذه الرواية، لأن فيها أن سعيداً المقبري سمع أبا هريرة، بينما

(١) (ص ٢٩٥).

(٢) «مسند أبي يعلى» (٦٥٨٤)، ومن طريقه ابن عساكر (٤٧/٤٩٣).

في كافة الروايات الأخرى: سعيد المقبري عن عطاء عن أبي هريرة، وقد رواها أبو عوانة^(١) وأحمد^(٢) وأبو نُعَيْم الأصبهاني في «مستخرجه»^(٣) وابن عساكر^(٤)، إلا رواية الحاكم، وسيأتي الكلام عليها.

ثانيًا: أن هذا الإسناد فيه مطعنان:

المطعن الأولي: أحمد بن عيسى التستري، قال أبو داود: «كان ابنُ مَعِين يحلف بالله الذي لا إله إلا هو؛ إنه كَذَّابٌ».

وقال أبو حاتم الرازي: «تكلم الناس فيه، قيل لي بمصر: إنه قدِمها واشترى كتب ابن وهب، وكتاب المفضل بن فضالة، ثم قدمت بغداد فسألت: هل يحدث عن المفضل؟ فقالوا: نعم، فأنكرتُ ذلك، وذلك أن الرواية عن ابن وهب والرواية عن المفضل لا يستويان».

وأبو زرعة حينما سُئل عنه أشار إلى لسانه، كأنه يقول الكذب، وأنكر على الإمام مسلم روايته عن أحمد بن عيسى في «الصحيح». انظر هذه الأقوال في «تهذيب التهذيب».

المطعن الثاني: أن في سند الحديث أبا صخر حميد بن زياد، وقد ضعفه النسائي

(١) (٩٨ / ١) برقم (٣١٣).

(٢) «المسند» (٢ / ٤٩٤).

(٣) «المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم»، برقم (٣٩٢).

(٤) (٤٧ / ٤٩٢ - ٤٩٣)، ثم قال: «وهذا هو المحفوظ».

وابن معين في رواية، وذكره ابنُ عَدِي في «الكامل»، وذكر له أحاديث من مناكيره وقال: «وله أحاديث، وبعضها لا يُتابع عليها»^(١).

قلت: ولعل هذه الزيادة منها.

انظر تلك الأقوال في «تهذيب التهذيب».

ثالثاً: أن الرواة الثقات رووا هذا الحديث عن ابن شهاب عن ابن المسيب عن أبي هريرة - وهو إسناد أقوى من ذاك الإسناد - بدون هذه الزيادة: «ثم لئن قام على قبري فقال: يا محمد، لأجيبَنَّه».

ورواياتهم خَرَجَها البخاري^(٢) ومسلم^(٣) وأبو نُعَيْمٍ الأصبهاني^(٤) وأبو عَوَانَةَ في «مسنده»^(٥) والترمذي^(٦) وابن ماجه^(٧) وأحمد^(٨) والبيهقي^(٩) وعبد الرزاق^(١٠)

(١) «تهذيب التهذيب»، ترجمة رقم (١٨٢٢).

(٢) رقم (٣٤٤٨).

(٣) رقم (١٥٥).

(٤) «المسند المستخرج على صحيح مسلم»، باب (٧١)، ذكر قوله: «لْيُشْكَنَ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا»، رقم (٣٨٨).

(٥) (٩٨/١)، ذكر الخبر المُبِين أن الوتر ركعة من آخر الليل، برقم (٣١١).

(٦) رقم (٢٢٣٣).

(٧) رقم (٤٠٧٨).

(٨) «مسند أحمد» (٢/٢٤٠).

(٩) «سنن البيهقي» (١٨٦١٤)، باب (إظهار دين النبي ﷺ على الأديان).

(١٠) «المصنف» (٢٠٨٤٠).

وابن عساكر^(١)، بل قد أخرجها أبو يعلى^(٢) نفسه بدون هذه الزيادة.

وكذا أخرجها ابن عساكر عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة وزاد: «أَلَا فَمَنْ أَدْرَكَه مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ السَّلَام»^(٣).

فالحاصل أن هذه الزيادة ضعيفة لشذوذها، لكونها خالفت المحفوظ.

وإليك -أيها القارئ الكريم- لفظ البخاري للفائدة:

قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لئوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها»، ثم يقول أبو هريرة: واقراءوا إن شئتم ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩].

رابعاً: أن خطاب عيسى عليه السلام لمحمد ﷺ وهو في قبره لم يأت في الأحاديث الأخرى التي تكلمت عن نزول عيسى في آخر الزمان، والتي رواها أبو هريرة وغيره، فمن ذلك:

ما رواه الحاكم عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَدْرَكَ مِنْكُمْ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ فَلْيَقْرَأْهُ مِنِّي السَّلَام»^(٤).

(١) (٤٧/٤٨٩ - ٤٩١)، (ذكر من اسمه عيسى)، ثم قال ابن عساكر: «ولهذا الحديث عندنا طرق كثيرة».

(٢) رقم (٥٨٧٧).

(٣) (٤٧/٤٩٢).

(٤) (٤/٥٤٥)، كتاب (الفتن والملاحم)، وحسنه الألباني رحمه الله كما في «صحيح الجامع» (٦٠٠١).

وكذا ما رواه الطبراني في «الأوسط»^(١) عن عاصم ابن بهدلة عن أبي صالح عن أبي هريرة به.

وكذا ما رواه أحمد في «المسند» عن هشام عن محمد عن أبي هريرة^(٢).

وكذا ما رواه أبو داود عن عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة^(٣).

وكذا ما أخرجه مسلم^(٤) والترمذي^(٥) وابن ماجه^(٦) وابن عساكر^(٧) عن أبي أمامة الباهلي.

وكذا ما رواه ابن عساكر^(٨) وأبو نعيم^(٩) عن ابن شهاب عن نافع مولى أبي قتادة الأنصاري أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل ابنُ مريم فيكم وإمامكم منكم؟».

(١) (١٣٤٢)، برقم (٨٩ / ٢).

(٢) «المسند» (٤١١ / ٢).

(٣) رقم (٤٣٢٤).

(٤) (٢٩٣٧).

(٥) (٢٢٤٠).

(٦) رقم (٤٠٧٧).

(٧) «تأريخ دمشق»، باب (ذكر بعض أخبار الدجال وما يكون عند خروجه من الأهوال) (٢١٨ / ٢).

(٨) (٥٠٠ / ٤٧).

(٩) «المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم»، باب (٧٢) (كيف أنتم إذا نزل بكم ابنُ مريم ﷺ فأمنكم)، رقم (٣١٣).

فإن قيل: وما الجواب عن الحديث الذي رواه الحاكم فقال: أخبرني أبو الطيب محمد بن أحمد الحيري، ثنا محمد بن عبد الوهاب، ثنا يعلى بن عبيد، ثنا محمد بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن عطاء مولى أم حبيبة قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «ليهبطن عيسى ابن مريم حكمًا عدلاً وإمامًا مقسطًا، وليسلكن فجًا حاجًا أو معتمرًا أو بنيتهما، وليأتين قبري حتى يُسَلَّم عليّ، ولا تُردن عليه».

يقول أبو هريرة: أي بني أخي، إن رأيتموه فقولوا: أبو هريرة يقرئك السلام.

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة»^(١).

فالجواب أن هذا إسناد ضعيف، فأما محمد بن إسحاق فمدلس معروف وقد عنعنه، وأما عطاء فمجهول، قد ترجم له ابن أبي حاتم ولم يذكر راويًا عنه إلا سعيدًا المقبري، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا^(٢).

وقال الذهبي: «لا يُعرف»^(٣).

والعلة الثالثة هي الاختلاف عليه في إسناده، انظر ما قاله ابن أبي حاتم

(١) «المستدرک» (٢/ ٦٥١)، كتاب (تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين).

(٢) «الجرح والتعديل» (٦/ ٣٣٩). وأما قول الحافظ في «التقريب» في حال عطاء «مقبول»؛ فبعيد، لأنه قد نص هو في مقدمة «التقريب» أن من لم يرو عنه غير واحد ولم يُوثق، فإليه الإشارة بمجهول، وهذا حال عطاء، كما تقدم، فكيف يكون مقبولاً؟! أفادني بها الشيخ أبو همام، محمد بن علي الصومعي حفظه الله.

(٣) «ميزان الاعتدال» (٦/ ٩٩).

في «العلل»، ونقله الألباني في «الضعيفة»^(١) وانظر ما قاله رحمته الله في هذا الحديث^(٢).

وللعلم فقد أخرج مسلم^(٣) وأحمد^(٤) هذا الحديث دون هذه الزيادة المنكرة وهي قوله: «ولياتين قبري...».

وللعلم أيضاً، فقد روى ابن عساكر هذا الحديث من طريق آخر فقال:

أخبرناه أبو الفتح محمد بن علي بن عبد الله المصري، أنبأنا أبو عاصم الفضيل بن يحيى، أنبأنا أبو محمد بن أبي شريح، حدثنا يحيى بن محمد بن صاعد، حدثنا أبو مسلم، الحسن بن أحمد بن أبي شعيب الحراني، حدثنا محمد بن سلمة الحراني عن محمد بن إسحاق عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لِيُهْبِطَنَّ اللَّهُ ﷻ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا وَإِمَامًا مَقْسُطًا، فَلْيَسْلُكَنَّ فَجَّ الرُّوحَاءِ^(٥) حَاجًّا أَوْ مَعْتَمِرًا، وَلِيَقْفَنَّ عَلَى قَبْرِي فَلْيَسْلَمَنَّ عَلَيَّ وَلَا تُرَدَّنْ عَلَيْهِ»^(٦).

فالجواب: هذا هو نفس الحديث المتقدم، ومداره على محمد بن إسحاق، مدلس وقد عَنعن، فالحديث ضعيف كما تقدم^(٧).

(١) حديث رقم (١٤٥٠).

(٢) «السلسلة الصحيحة» (٣٩٠ / ٥).

(٣) (١٢٥٢).

(٤) (٥١٣ / ٢).

(٥) الفج هو الطريق الواسع. والروحاء: طريق من طرق المدينة. انظر «النهاية»، مادة (فجج).

(٦) (٤٩٣ / ٤٧)، باب (مَنْ اسْمُهُ عِيسَى).

(٧) أفادني بهذا الجواب الشيخ أبو همام، محمد بن علي الصومعي حفظه الله.



فإن قيل:

وما الجواب عن رواية ابن عساكر التي أخرجها فقال: أخبرنا أبو محمد بن طائوس، أنبأنا أبو الحسين أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الذكواني، أنبأنا أبو الفرج عثمان بن أحمد بن إسحاق البرجي، حدثنا أبو جعفر محمد بن عمر بن حفص، حدثنا إسحاق بن إبراهيم شاذان، حدثنا سعد بن الصلت عن حميد بن صخر عن شبيه المدني عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل عيسى ابن مريم إمامًا مقسطًا وحكمًا عدلًا، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويذهب الشحناء، ويصلح السنن، ويفيض المال فلا يقبله أحد، فإن قام عند قبري فقال: يا محمد، لأجيبه»^(١)؟

فالجواب:

أن عثمان بن أحمد بن إسحاق ذكره أبو نُعيم في «ذكر أخبار أصبهان» (١/ ٣٦١)، وكذا ذكر شيخه محمد بن عمر (٢/ ٢٧٢)، ولم يذكر فيهما جرحًا ولا تعديلاً.

وإسحاق بن شاذان ثقة، إلا أن شيخه سعد بن الصلت -وهو خاله- ترجم له ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٤/ ٨٦)، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً.

وحמיד بن صخر تقدم قريبًا كلام الأئمة فيه.

ولعل هذه الزيادة منه «فإن قام عند قبري...»، كما أشرت فيما تقدم.

(١) (٤٩٦/٤٧).

وشيوخه لم أعرفه، وأخشى من تصحيفٍ في اسمه.

وعلى كلٍّ فهذه الزيادة ضعيفة، ومما يؤكد ذلك أن الحديث رواه الثقات عن أبي هريرة بدون هذه الزيادة^(١).

الحديث الثامن

قال أبو عبد الله النجار في «الدرة الثمينة في أخبار المدينة»:

أنبأنا يحيى بن بوش، عن أبي علي الحداد، عن أبي نُعَيْم، عن جعفر الخلدي، أخبرنا محمد بن عبد الرحمن، حدثنا الزُّبَيْر بن بكار، حدثنا محمد بن الحسن، عن عبد العزيز بن محمد عن محمد بن زيد بن المهاجر عن المقبري، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مَارٌّ بِالْمَدِينَةِ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا، وَلَنْ سَلَّمَ عَلَيَّ لَأُرَدَّنَ عَلَيْهِ»^(٢).

هذا إسناد ضعيف جدًا، في سنده الحسن بن محمد بن زباله، كذاب، قاله أبو داود.

وقال النسائي والأزدي: «متروك».

وقال أبو حاتم: «واهي الحديث».

(١) أفادني بهذه الإجابة العلمية الشيخ أبو همام، محمد بن علي الصومعي حفظه الله.

(٢) «الدرة الثمينة في أخبار المدينة» (ص ٢٩٢ - ٢٩٣).

وقال الدارقطني وغيره: «منكر الحديث»^(١).

وقال ابنُ حزم: «ساقط بالجملة، قال فيه يحيى بن معين: ليس بثقة، وهو بالجملة متفق على اطراحه»^(٢).

الأثر التاسع

قال ابنُ سعد في «الطبقات»: «أخبرنا الوليد بن عطاء بن الأعز المكي قال: أخبرنا عبد الحميد بن سليمان عن أبي حازم قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: إنه كان يلزم المسجد أيام الحرّة^(٣)...»

(١) «ميزان الاعتدال» (١٠٨/٦).

(٢) «المحلى»، لابن حزم (٥/٣٣٢، ٣٣٤)، تحقيق: أحمد شاكر، ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٣) أي: وقعة الحرّة، وكانت في خلافة يزيد بن معاوية، وسميت بذلك، لأنها وقعت في حرة المدينة، وهي أرض بظاهر المدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، بها حجارة سودّ كبيرة، وبها كانت وقعة الحرّة، وهي من أشهر الوقائع في الإسلام في ذي الحجة سنة ثلاث وستين من الهجرة أيام يزيد بن معاوية، وكان سبب وقعة الحرّة أن وفدًا من أهل المدينة قدّموا على يزيد بن معاوية بدمشق، فأكرمهم وأحسن جائزتهم وأطلق لأمرهم، وهو عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر قرييًا من مائة ألف، فلما رجعوا ذكروا لأهلهم عن يزيد ما كان يقع منه من القبائح في شربه الخمر، وما يتبع ذلك من الفواحش التي من أكبرها ترك الصلاة عن وقتها بسبب السكر، فاجتمعوا على خلعه فخلعوه عند المنبر النبوي، فلما بلغه ذلك بعث إليهم سرية يقدمها رجلٌ يقال له: مسلم بن عقبة، وإنما يُسمّى السلف: مسرف بن عقبة، فلما ورد المدينة استباحها ثلاثة أيام، فقتل في غضون هذه الأيام بشرًا كثيرًا حتى كاد لا يفلت أحد من أهلها. انظر ما قاله ابن كثير رحمته الله في «البداية والنهاية»، (أحداث سنة ٦٣).

وما يأتي وقت صلاة إلا سمعت أذاناً في القبر، ثم تقدمت فصلت وما في المسجد أحد غيري»^(١).

ورواه أبو نُعَيْم في «دلائل النبوة» فقال: «حدثنا محمد بن عبد العزيز بن سهل الخشاب النيسابوري قال: حدثنا إبراهيم بن إسحاق الأنماطي، حدثنا محمد بن سليمان لوين قال: حدثنا عبد الحميد بن سليمان عن أبي حازم عن سعيد بن المسيب قال:

لقد رأيتني أيام الحرة وما في مسجد رسول الله ﷺ غيري، وما يأتي وقت صلاة إلا سمعت الأذان من القبر، ثم أتقدم فأقيم وأصلي، وإن أهل الشام يدخلون زمراً زمراً فيقولون: انظروا إلى هذا الشيخ المجنون»^(٢).

وروى نحوه الدارمي في (المقدمة)، باب (ما أكرم الله به نبيه ﷺ بعد موته) فقال:

«أخبرنا مروان بن محمد، عن سعيد بن عبد العزيز، قال: لما كان أيام الحرة، لم يؤذن في مسجد النبي ﷺ ثلاثاً ولم يُقَم، ولم يبرح سعيد بن المسيب من المسجد، وكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهمهمة يسمعها من قبر النبي ﷺ»، فذكر معناه.

هذا أثر ضعيف جداً، في سنده عبد الحميد بن سليمان الخزاعي، قال ابن معين: ليس بشيء.

(١) «الطبقات» (٦٧/٥)، ترجمة سعيد بن المسيب.

(٢) (٥٦٨/٢)، تحقيق: محمد رواس قلعه جي، وعبد البر عباس، ط. دار النفائس - بيروت.

وقال ابن المديني: ضعيف.

وقال النسائي: ضعيف.

وقال في موضع آخر: ليس بثقة.

وقال الدارقطني: ضعيف الحديث». انظر «التهذيب».

قال الشيخ حمود بن عبد الله التويجري رحمته الله رادًا على هذه الشبهة ما نصّه:

«أما ما ذكر عن سعيد بن المسيب أنه كان يسمع الأذان من قبر النبي ﷺ في أيام الحرية فهو غير ثابت عنه، وقد رواه ابن سعد في «الطبقات» بإسنادين ضعيفين جدًّا، أما أحدهما ففيه عبد الحميد بن سليمان الخزاعي، قال ابن معين في رواية عنه: «ليس بشيء»، وقال في رواية أخرى: «ليس بثقة»، وكذا قال أبو داود والنسائي «إنه ليس بثقة».

وقال النسائي في موضع آخر «إنه ضعيف».

وضعفه أيضًا ابن المديني وصالح بن محمد والدارقطني والذهبي.

وأما الإسناد الثاني ففيه الواقدي وهو متروك.

وما كان بهذه المثابة فإنه لا يُعتد به، وعلى تقدير ثبوته فليس فيه ما يدل على جواز الاستنجاد بالنبي ﷺ، ولا على جواز اللجوء إلى قبره والدعاء عنده ولا عند قبور الصالحين، لأن الاستنجاد بالنبي ﷺ واللجوء إلى قبره أو إلى قبور الصالحين شرك أكبر، وأما الدعاء عند قبره ﷺ وعند قبور الصالحين فهو من أعظم الوسائل إلى الشرك، والوسائل لها حكم الغايات والمقاصد، وما كان كذلك فإنه لا يجوز فعله.

وأما قولهم: مَنْ ذا الذي كان يؤذّن من داخل قبر رسول الله ﷺ؟

فجوابه أن يُقال: إن إسناد الخبر في سماع الأذان من القبر النبوي ضعيف جداً، وقد تقدم بيان ذلك، وما لم يثبت بإسناد صحيح فإنه لا يُعتد به.

ولم يذكر عن النبي ﷺ أنه أذّن في حياته ولا مرة واحدة، فكيف يُتوهم أنه كان يؤذّن في قبره بعد مماته وانقطاع التكليف عنه؟! (١). انتهى كلامه رحمته الله.

قال مُقيّده عفا الله عنه: ولو قدّرنا جدلاً ثبوت هذا الأثر عن سعيد؛ فكان ماذا؟!
فلعل أحد الجن أذّن عند قبر النبي ﷺ لِيُلبّس على السامع.

الحديث العاشر

قال الزبير بن بكار في «أخبار المدينة»:

«حدثنا محمد بن الحسن، حدثني غير واحد منهم، عن عبد العزيز بن أبي حازم، عن عمر بن محمد، أنه لما كان أيام الحرة ترك الأذان في مسجد رسول الله ﷺ ثلاثة أيام، وخرج الناس إلى الحرة، وجلس سعيد بن المسيب في مسجد رسول الله ﷺ، قال: فاستوحشتُ فدنوتُ من قبر رسول الله ﷺ، فلما حضرت الصلاة، سمعتُ الأذان في قبر النبي ﷺ فصليتُ ركعتين، ثم سمعتُ الإقامة فصليت الظهر، ثم جلستُ حتى أصلي العصر، فسمعتُ الأذان في قبر النبي ﷺ، ثم سمعتُ الإقامة، ثم لم أزل أسمع الأذان والإقامة في قبره ﷺ حتى مضت الثلاث، وقفل القوم ودخلوا

(١) «الأجوبة الجليّة على الأسئلة الكويتية» ص (١٣ - ١٤).

مسجد رسول الله ﷺ، وعاد المؤذنون فأذَّنوا، فتسمَّعتُ الأذان في قبره ﷺ فلم أسمعهُ، فرجعتُ إلى مجلسي الذي كنت فيه أكون»^(١).

ورواه ابن النجار في «الدرة الثمينة في أخبار المدينة» عن ابن بكار به^(٢).

هذا أثر موضوع، في إسناده: الحسن بن محمد بن زبالة، كذاب، قاله أبو داود.

وقال النسائي والأزدي: «متروك».

وقال أبو حاتم: واهي الحديث.

وقال الدارقطني وغيره: منكر الحديث»^(٣).

وقال ابنُ حزم: «ساقط بالجملة، قال فيه يحيى بن معين: ليس بثقة، وهو بالجملة متفق على اطراحه»^(٤).

وفي الإسناد مَنْ لم يُسمَّ.

الحديث الحادي عشر

قال الطبراني في «المعجم الأوسط»: حدثنا عمر بن حفص السدوسي، قال: حدثنا أبو بلال الأشعري قال: حدثنا يحيى بن العلاء الرازي، عن عبد الأعلى بن

(١) نقلته من رواية ابن النجار عنه، لأن «تاريخ المدينة» لابن بكار ليس عندي، وللعلم فقد نقل السيوطي رواية ابن بكار، ولكن بين السندين اختلافًا، واعتمدت رواية ابن النجار.

(٢) رقم (٦٤)، (ص ٢٩٧).

(٣) «ميزان الاعتدال» (١٠٨/٦).

(٤) «المحلى» لابن حزم (٥/٣٣٢، ٣٣٤).

عبد الله بن أبي فروة، عن قطن بن وهب، عن عبد الله بن عمر قال: مرَّ رسولُ الله ﷺ على مصعب بن عمير حين رجع من أحد، فوقف عليه وعلى أصحابه فقال: «أشهد أنكم أحياء عند الله، فزوروهم وسلّموا عليهم، فوالذي نفس محمد بيده لا يُسلّم عليهم أحد إلا رُدُّوا إلى يوم القيامة» (١).

هذا حديث ضعيف جداً، فيه يحيى بن العلاء الرازي وهو متروك.

قال أحمد: «كذاب يضع الحديث» (٢).

وقال ابن حبان: «لا يجوز الاحتجاج به، كان وكيع شديد الحمل عليه» (٣).

وانظر كلام الألباني رحمه الله على هذا الحديث في «السلسلة الضعيفة» (٤).

الحديث الثاني عشر

أخرج الحاكم من طريق محمد بن إسماعيل (وهو البخاري)، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الأوسي، حدثنا سليمان بن بلال، عن عبد الأعلى بن عبد الله بن أبي فروة، عن قطن بن وهب، عن عبيد بن عمير، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد مرَّ على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه، فوقف عليه رسول الله ﷺ ودعا له، ثم قرأ هذه الآية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ مَحَبَّهُ، وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

(١) «المعجم الأوسط» (٤/ ٢٦٢) برقم (٣٧٠٠).

(٢) نقلاً من «المغني في الضعفاء» للذهبي.

(٣) كتاب «المجروحين من المحدثين»، ترجمة رقم (١٢٠١).

(٤) برقم (٥٢٢١).

ثم قال رسول الله ﷺ: «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم وزُورهم، والذي نفسي بيده، لا يُسلَّم عليهم أحدٌ إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه»^(١).

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

قال الذهبي في «التلخيص»: «أنا أحسبه موضوعًا، وقطن لم يرو له البخاري، وعبد الأعلى لم يُخرجا له».

وأخرجه الطبراني في «الكبير»^(٢)، وأبو نعيم في «الحلية»^(٣) عن عبيد بن عمير مرسلًا، وفي سنده يحيى بن العلاء البجلي.

قال الإمام أحمد: «كذاب يضع الحديث»^(٤).

ورواه البيهقي في «دلائل النبوة» من طريق الحاكم به^(٥).

فالحاصل أن هذا الحديث موضوع بكل طرقة، والله أعلم.

الحديث الثالث عشر

أخرج الحاكم من طريق العطف بن خالد المخزومي، حدثني عبد الأعلى بن عبد الله بن أبي فروة عن أبيه: «أن النبي ﷺ زار قبور الشهداء بأحد فقال: اللهم إن

(١) «المستدرک علی الصحیحین» (٢/٢٤٨).

(٢) (ج ٢٠)، برقم (٨٥٠).

(٣) (١/١٥٣) ط. دار الكتب العلمية - بيروت.

(٤) «تهذيب التهذيب».

(٥) (٣/٢٨٤).

عبدك ونبئك يشهد أن هؤلاء شهداء، وأنه من زارهم وسلّم عليهم إلى يوم القيامة ردّوا عليه».

قال العطف: «وحدثني خالتي أنها زارت قبور الشهداء، قالت: وليس معي إلا غلامان يحفظان عليّ الدابة. قالت: فسلمتُ عليهم، فسمعتُ ردّ السلام، قالوا: والله إنّنا نعرفكم كما يعرف بعضنا بعضًا. قالت: فاقشعررت فقلت: يا غلام أدنّ بغلتي، فركبتُ» (١).

قال الحاكم: هذا إسناد مدنيّ صحيح، ولم يُخرجاه!

ورواه البيهقي في «دلائل النبوة» عن الحاكم به (٢).

الجواب: هذا حديث ضعيف، فقد قال الذهبي في «تلخيص المستدرک»: «مرسل».

وعبد الله بن أبي فروة قال فيه الألباني **رحمته الله**: «لم أجده ترجمه» (٣).

وقال العقيلي في ترجمة محمد بن الأشعث: «مجهول في النسب والرواية، وحديثه غير محفوظ» (٤).

(١) «المستدرک علی الصحيحین» (٢٩/٣).

(٢) (٣٠٧/٣).

(٣) «معجم أسامي الرواة الذين ترجم لهم العلامة محمد ناصر الدين الألباني جرحاً وتعديلاً»

(٢/٦٥٥)، أحمد شكوكانی وصالح اللحام، الناشر: دار ابن حزم - بيروت.

(٤) كتاب «الضعفاء» (١١٩١/٤)، ترجمة محمد بن الأشعث.

الحديث الرابع عشر

قال البيهقي في «دلائل النبوة»: «وأخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن بطة قال: حدثنا الحسن بن الجهم قال: حدثنا الحسين بن الفرج قال: حدثنا الواقدي قال: قد كان رسول الله ﷺ يزورهم في كل حَوْلٍ، وإذا تَفَوَّه الشَّعب^(١) رفع صوته فيقول: سلامٌ عليكم بما صَبَرْتُمْ فنعم عقبى الدار.

ثم أبو بكر كُلُّ حَوْلٍ يفعل مثل ذلك، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان، وكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تأتيهم فَتَكُنُ^(٢) عندهم وتدعو، وكان سعد بن أبي وقاص يُسَلِّمُ عليهم ثم يُقْبِلُ على أصحابه فيقول: أَلَا تُسَلِّمُونَ على قوم يَرُدُّونَ عليكم السلام.

وكان أبو سعيد الخدري يزور تلك القبور، وذكّر ذلك أيضًا عن أم سلمة وعبد الله بن عمر وأبي هريرة^(٣).

والجواب: هذا حديث ضعيف جدًّا، في سنده محمد بن عمر الواقدي وهو كذاب، والأثر مع ذلك مُعْضَل.

الحديث الخامس عشر

قال ابن أبي الدنيا: «حدثنا محمد بن قدامة الجوهري، حدثنا معن بن عيسى

(١) أي: دخل في فُؤَوه الشَّعب، وهو أوله.

(٢) أي: تمكث عندهم.

(٣) «دلائل النبوة» (٣/ ٣٠٨).

القزاز، أخبرنا هشام بن سعد، حدثنا زيد بن أسلم، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: إذا مرَّ الرجل بقبر أخيه يعرفه فسَلَّم عليه، ردَّ ﷺ وعَرَفَه، وإذا مرَّ بقبر لا يعرفه فسَلَّم عليه؛ ردَّ ﷺ» (١).

هذا أثر ضعيف جداً، في سنده محمد بن قدامة الجوهري.

قال ابن محرز عن ابن معين: «ليس بشيء».

وقال أبو داود: «ضعيف، لم أكتب عنه شيئاً قط».

انتهى مختصراً من «تهذيب التهذيب».

وفي سنده هشام بن سعد المدني، وهو ضعيف (٢).

وزيد بن أسلم لم يسمع من أبي هريرة، قاله يحيى بن معين والترمذي كما في «جامع التحصيل».

والأثر أخرجه البيهقي في «الشعب» عن ابن أبي الدنيا به (٣).

الحديث السادس عشر

الحديث الذي رواه الخطيب البغدادي من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ما من عبد يمرُّ بقبر رجل كان يعرفه في الدنيا فيُسلِّم عليه إلا عَرَفَه ورَدَّ ﷺ» (٤).

(١) ملحق كتاب «القبور» لابن أبي الدنيا، (ص ٢٠٢)، ط. مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة.

(٢) انظر «میزان الاعتدال» (٧ / ٨٠ - ٨١).

(٣) (١٦ / ٨٨٥٧) ط. الدار السلفية - الهند.

(٤) (٦ / ٧٠) في ترجمة إبراهيم بن عمران، أبو إسحاق الكرمانى.

ورواه ابنُ الجَوْزِي في كتابه «العلل المتناهية من الأحاديث الواهية» من طريق الخطيب به^(١).

هذا حديثٌ ضعيفٌ جدًّا، فيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ضعيفٌ جدًّا.

قال الساجي: «منكر الحديث»^(٢).

وقال الطحاوي: «حديثه عند أهل العلم بالحديث في النهاية من الضعف»^(٣).

وقال الحاكم وأبو نُعَيْم: «روى عن أبيه أحاديثَ موضوعةً»^(٤).

وذكره الدارقطني في كتابه «الضعفاء والمتروكون»^(٥).

وقال ابنُ جَبَّان: «كان ممن يقلب الأخبار وهو لا يعلم، حتى كثر ذلك في روايته من رفع المراسيل وإسناد الموقوف، فاستحق الترك»^(٦).

ونقل ابن أبي حاتم عن يحيى بن معين قوله: «عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ليس حديثه بشيء، ضعيف»^(٧).

(١) رقم (١٥٢٣).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) رقم (٣٣١).

(٦) «المجروحين» (٢/٢٢).

(٧) «الجرح والتعديل» (٥/٢٣٣).

وقال أبو حاتم: «ليس بقويّ الحديث، ضَعَفَهُ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ جَدًّا. وقال أبو زرعة: ضعيف الحديث» (١).

بل قال ابنُ الجَوْزِيِّ: «هذا حديث لا يصح، وقد أجمعوا على تضعيف عبد الرحمن بن زيد» (٢).

وقال- أيضًا- في كتابه «أحوال القبور»: «إنه غريب، بل منكر» (٣).

وَمِمَّنْ ضَعَفَهُ مِنَ الْمَعَاصِرِينَ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ رحمته الله، كما في «السلسلة الضعيفة» (٤)، و«ضعيف الجامع» (٥).

وقد رواه ابن عبد البر عن ابن عباس رضي الله عنهما فقال:

أخبرنا أبو عبد الله عبيد بن محمد قال: أملت علينا فاطمة بنت الرِّيَّانِ المُسْتَمْلِي قالت: حدثنا الربيع بن سليمان المؤذن صاحب الشافعي قال: حدثنا بشر بن بكير عن الأوزاعي عن عطاء عن عبيد بن عمير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ:
«مَا مِنْ أَحَدٍ مَرَّ بِقَبْرِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا فَسَلَّمَ عَلَيْهِ إِلَّا عَرَفَهُ وَرَدَّ ﷻ» (٦).

(١) «الجرح والتعديل» (٥/ ٢٣٤) برقم (١١٠٧)، باختصار.

(٢) «العلل المتناهية» برقم (١٥٢٣).

(٣) (ص ١٤١)، فصل: (معرفة الموتى بمن يزورهم ويسلم عليهم).

(٤) رقم (٤٤٩٣).

(٥) رقم (٥٢٠٨).

(٦) «الاستذكار» (١/ ١٨٥)، وقد نقلت السند باختصار كلام فيه ليس من السند.

هذا حديث منكر، ففاطمة مجهولة، وليس لها ذكر في كتب الرجال.

وعبيد بن عمير مولى ابن عباس، مجهول أيضًا، كما في «التقريب».

وأما بشر بن بكر ^(١) التنيسي فقد قال ابن حجر في ترجمته:

«قال مسلمة بن قاسم: روى عن الأوزاعي أشياء انفرد بها» ^(٢).

وقد ضعفه المحدث الألباني رحمته الله ^(٣).

وقد أغرب عبد الحق الإشبيلي فقال: «إسناده صحيح»! ^(٤).

وقد أجاب عنه ابن رجب في «الأهوال» بما هو أغرب فقال: «يشير ^(٥) إلى أن

رواته ثقات، وهو كذلك، إلا أنه غريب، بل منكر»! ^(٦).

هكذا قال ابن رجب مع أن في سنده انقطاعاً وجهالة!

الحديث السابع عشر

قال عبد الرزاق في «مصنفه»: «أخبرنا يحيى بن العلاء عن ابن عجلان عن

زيد بن أسلم قال: مرَّ أبو هريرة وصاحب له على قبر، فقال أبو هريرة: سَلِّمْ. فقال

الرجل: أَسَلِّمْ على القبر؟

(١) في «الاستذكار»: «بكير».

(٢) «تهذيب التهذيب».

(٣) انظر «السلسلة الضعيفة» (٩ / ٤٧٥).

(٤) «الأحكام الشرعية الصغرى الصحيحة»، كتاب (الجنائز)، (١ / ٣٤٥)، تحقيق: أم محمد بنت

أحمد الهليس، ط. مكتبة العلم - جدة.

(٥) يعني: عبد الحق الإشبيلي.

(٦) (ص ٨٢)، عند ذكره للآثار الواردة بمعرفة الموتى بمن يزورهم.

فقال أبو هريرة: إن كان رآك في الدنيا يوماً قط إنه ليعرفك الآن» (١).

هذا أثر موضوع، فيه يحيى بن العلاء، قال أحمد بن حنبل: «كذاب يضع الحديث».

وقال أبو حاتم عن ابن معين: ليس بشيء» (٢).

وقال عمرو بن علي والنسائي والدارقطني: «متروك الحديث».

وقال في موضع آخر: شيخ واهٍ.

وقال ابن حبان: ينفرد عن الثقات بالمقلوبات. لا يجوز الاحتجاج به.

وقال ابن عدي: والضعف على رواياته بين، وأحاديثه موضوعات» (٣).

وذكره الذهبي في «الضعفاء» (٤).

وقال ابن حجر في «التقريب»: «رُمي بالوضع».

وتقدم أن زيد بن أسلم لم يسمع من أبي هريرة، قاله يحيى بن معين والترمذي كما في «جامع التحصيل».

الحديث الثامن عشر

قال العقيلي في ترجمة محمد بن الأشعث:

«ومن حديثه ما حدثناه محمد بن عمار، عن عطية الرازي، حدثنا حفص بن عمر

المهرقاني، حدثنا النجم بن بشير بن عبد الملك بن عثمان القرشي، حدثنا محمد بن

(١) «مصنف عبد الرزاق» (٣/٥٧٦).

(٢) كتاب «الجرح والتعديل» (٩/١٧٩).

(٣) نقلت هذه الأقوال من «تهذيب التهذيب»، ترجمة رقم (٨٨٩٦).

(٤) ترجمة رقم (٧٠٢٣).

الأشعث عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال أبو رزين: يا رسول الله، إن طريقي على الموتى، فهل من كلام أتكلم به إذا مررت عليهم؟ قال: «قل: السَّلام عليكم أهل القبور من المسلمين والمؤمنين، أنتم لنا سَلَفٌ ونحن لكم تَبَعٌ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون».

قال أبو رزين: يا رسول الله، يسمعون؟

قال: «يَسْمَعُونَ، ولكن لا يستطيعون أن يُجِيبُوا».

قال: يا أبا رزين، ألا تَرْضَى أن يرد عليك بعددهم من الملائكة؟^(١).

الجواب: هذا حديث منكر، في سنده محمد بن الأشعث، قال العقيلي: «مجهول في النسب والرواية، وحديثه غير محفوظ».

ثم قال بعد سياق الحديث: ولا يُعرف إلا بهذا اللفظ، وأمّا: «السَّلام عليكم يا أهل القبور» -إلى قوله- «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» فيروى بغير هذا الإسناد من طريقٍ صالح، وسائر الحديث غير محفوظ.

الحديث التاسع عشر

ومن الأحاديث الموضوعة الواردة في هذه الباب الحديث الذي أخرجه ابن الجَوْزِي في كتابه «الموضوعات من الأحاديث المرفوعات» عن أبي مقاتل السمرقندي قال: حدثنا محمد بن ثابت الأنصاري، عن كثير بن شنظير، عن الحسن، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الميت يسمع الأذان ما لم يُطَيَّن قبره».

(١) كتاب «الضعفاء» (٤/ ١١٩١)، ترجمة محمد بن الأشعث.

قال ابن الجوزي: «هذا الحديث موضوع على رسول الله ﷺ وفيه محن:

أما الحسن فإنه لم يسمع من ابن مسعود.

وأما كثير بن شنظير، فقال يحيى: ليس بشيء.

وأما أبو مقاتل فقد قال ابن مهدي: والله ما تحل الرواية عنه.

غير أن المتهم بوضع هذا الحديث محمد بن القاسم، فإنه كان علماً في الكذابين الوضاعين. قال أبو عبد الله الحاكم: كان يضع الحديث»^(١). انتهى.

ووافقه الذهبي في «ترتيب الموضوعات»^(٢).

الأثر العشرون

روى الإمام أحمد في «مسنده»^(٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إن الميت يعرف من يحمله، ومن يغسله، ومن يدليه في قبره».

هذا حديث ضعيف، في سنده رجل مبهم.

وانظر ما قاله العلامة الألباني رحمه الله في «السلسلة الضعيفة»^(٤)، ومحققو «المسند»^(٥).

(١) كتاب «الموضوعات» برقم (١٧٨٢).

(٢) رقم (١١٠٦).

(٣) (٣/٣، ٦٢).

(٤) رقم (٣١٥٢).

(٥) رقم (٢٩/٣).



الحديث الحادي والعشرون

ومن الأحاديث الضعيفة التي تفيد شعور الميت بمن حوله، الحديث الذي أخرجه ابنُ الجَوْزِي في كتاب «الموضوعات من الأحاديث المرفوعات» من طريق سليمان بن عيسى قال: حدثنا مالك عن نافع بن مالك عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ادفنوا موتاكم وسط قوم صالحين، فإن الميت يتأذى بجار السوء، كما يتأذى الحي بجار السوء».

ورواه من طريق آخر فقال: «روى داود بن الحصين عن إبراهيم بن الأشعث عن مروان بن معاوية الفزاري عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ»، فذكر الحديث.

قال ابنُ الجَوْزِي: «هذا حديث لا يصح، أما الطريق الأول ففيه سليمان بن عيسى، قال فيه السعدي: هو كذاب مصرح.

وقال ابنُ عَدِي: يضع الحديث.

وأما الثاني ففيه داود بن الحصين، قال أبو حاتم بن حبان: داود يُحدِّث عن الثقات بما لا يُشبه حديث الأثبات، يجب مُجانبة روايته، والبلية هذا منه.

قال: وهذا خبر باطل، لا أصل له من كلام رسول الله ﷺ^(١). انتهى.

ووافقه الذهبي في «ترتيب الموضوعات»^(٢).

(١) كتاب «الموضوعات» برقم (١٧٨١).

(٢) رقم (١١٠٥).

ذكر حديث ضعيف في التقاء أرواح الموتى بعضها ببعض واستخبارها عن أرواح الأحياء

أخرج ابنُ الجَوْزِي في كتاب «الموضوعات من الأحاديث المرفوعات» عن سليمان بن أرقم عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حَسِّنُوا أَكْفَانَ مَوْتَاكُمْ، فَإِنَّهُمْ يَتَزَاوَرُونَ فِي قُبُورِهِمْ»^(١).

ورواه أيضًا من طريق سعيد بن سلام العطار قال: حدثنا أبو ميسرة عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا وَلِيَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلِيَحْسِنْ كَفَنَهُ، فَإِنَّهُمْ يُبْعَثُونَ فِي أَكْفَانِهِمْ، وَيَتَزَاوَرُونَ فِي أَكْفَانِهِمْ»^(٢).

قال ابنُ الجَوْزِي: «هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ».

وأما حديث أبي هريرة فلم يروه عن ابن سيرين إلا سليمان بن أرقم.

قال فيه أحمد: ليس بشيء، لا يروى عنه الحديث.

وقال يحيى: ليس بشيء، لا يسوي فلسًا.

وقال أبو داود والنسائي والدارقطني: متروك.

(١) ورواه ابن عدي في «الكامل»، (مَنْ اسْمُهُ سُلَيْمَان) (٢٣٧/٤).

(٢) ورواه -أيضًا- العقيلي في «الضعفاء»، كما في «اللائل المصنوعة»، ولم أجده في «الضعفاء» للعقيلي ولا «المسند الضعيف» له، وعلى كل حال فهو من نفس طريق ابن الجوزي، وقد تبين ضعفه.



وأما حديث أنس ففيه سعيد بن سلام، قال محمد بن عبد الله بن نمير
وأحمد بن حنبل: هو كذاب.

وقال البخاري: يُذكر بوضع الحديث.

وقال الدارقطني: متروك يُحدّث بالأباطيل». انتهى^(١).

وذكره الذهبي في «ترتيب الموضوعات»^(٢).



(١) كتاب «الموضوعات من الأحاديث المرفوعات» برقم (١٧٨٨)، مختصرًا.

(٢) رقم (١١١٠).

تنبيه على حديثين موضوعين
يُقرآن الفلو بالنبي ﷺ

ورد حديثان موضوعان بقران الغلو بالنبي ﷺ، وتناقض منهج الوسط الذي قرّره الإسلام في تعظيم النبي ﷺ، وهما:

الأول: الحديث الذي رواه ابن عساكر^(١) وابن الجوزي في «الموضوعات»^(٢) عن سلمان الفارسي رضي الله عنه وفيه: «ولقد خلقت الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك ومنزلتك عندي، ولولاك يا محمد ما خلقت الدنيا».

ورواه الديلمي^(٣) مختصرًا عن ابن عباس رضي الله عنه ولفظه: «وعزّي وجلالي لولاك ما خلقت الجنة، ولولاك ما خلقت الدنيا».

والجواب: هذا حديث موضوع، كما قال السيوطي في «اللائل المصنوعة»^(٤)، والألباني في «الضعيفة»^(٥).

والحق الذي لا مربة فيه أن الحكمة من خلق الجنة والنار والناس كلهم هي العبادة وليست خلق محمد ﷺ، هذا مع الإقرار بعظم قدره ﷺ، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادَةٍ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

(١) انظر «تاريخ دمشق» (٣/ ٥١٨).

(٢) انظر كتاب «الموضوعات من الأحاديث المرفوعات» (٢/ ١٩)، كتاب (الفضائل والمثالب)، باب: (حديث آخر في فضله على الأنبياء).

(٣) انظر «مسند الفردوس» (رقم ٨٠٣١).

(٤) (١/ ٢٧٢).

(٥) (١/ ٤٥١).

الثاني: نسب بعضهم إلى عبد الرزاق في «المصنف» حديثاً عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله: بأبي أنت وأمي، أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء».

قال: يا جابر، إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جن ولا إنس، فلما أراد الله أن يخلق الخلق قسّم ذلك النور أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول القلم، ومن الثاني اللوح، ومن الثالث العرش، ثم قسّم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول حملة العرش، ومن الثاني الكرسي، ومن الثالث باقي الملائكة، ثم قسّم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول السماوات، ومن الثاني الأرضين، ومن الثالث الجنة والنار، ثم قسّم الرابع أربعة أجزاء؛ فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين، ومن الثاني نور قلوبهم وهي المعرفة بالله، ومن الثالث نور أنسهم وهو التوحيد: لا إله إلا الله، محمد رسول الله... إلخ.

والجواب: إن هذا الحديث باطل، قد بيّن بطلانه الشيخ العلامة محمد أحمد عبد القادر الشنقيطي بدلالة العقل والنقل في رسالته المسماة «تنبيه الحذّاق على بطلان ما شاع بين الأنام من حديث النور المنسوب لمصنف عبد الرزاق»، وقد قدّم لها الشيخ العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمته الله، وقال:

«وكل من تأمل الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة علم يقيناً أن هذا الخبر من جملة الأباطيل التي لا أساس لها من الصحة، وقد أغنى الله نبيه ﷺ عن مثل هذا بما

أقام من الدلائل القاطعة، والبراهين الساطعة، والمعجزات الباهرة على صحة نبوته ورسالته ﷺ، كما أغناه عن هذا الخبر المكذوب وأشباهه بما وهبه من السمائل العظيمة والصفات الكريمة والأخلاق الرفيعة التي لا يُشاركه فيها أحد من قبله ولا ممن بعده، فهو سيد ولد آدم، وخاتم المرسلين، ورسول الله إلى جميع الثقلين، وصاحب الشفاعة العظمى، والمقام المحمود يوم القيامة، إلى غير ذلك من خصائصه وسمائله وفصائله الكثيرة ﷺ، وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله ونصر دينه وذبح عن شريعته وحارب ما خالفها»^(١).

شبهة

فإن قيل: ألا يعني قوله ﷺ لما سُئِل: متى كنت نبياً؟ فقال: «وآدم بين الروح والجسد»^(٢)، ألا يعني هذا أن النبي ﷺ كان إذ ذاك مخلوقاً؟

(١) نقلاً من حاشية الشيخ عبد السلام بن برجس رحمته الله على «الصواعق المرسلية الشهابية على الشبه الداحضة الشامية» (ص ٣٤).

(٢) يشير إلى الحديث الذي رواه أحمد (٦٦/٤)، وصححه محققو «المسند»، ورواه ابن أبي شعبة في «المصنف» (٣٦٥٤٢)، والحاكم في «المستدرک» (٦٠٩/٢) واللفظ له قال: حدثنا أبو النضر الفقيه وأحمد بن محمد بن سلمة العنزي قالا: ثنا عثمان بن سعيد الدارمي ومحمد بن سنان العوفي، ثنا إبراهيم بن طهمان، عن بديل بن ميسرة، عن عبد الله بن شقيق، عن ميسرة الفخر، قال: قلت لرسول الله ﷺ: متى كنت نبياً؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد». قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وشاهده: حديث الأوزاعي الذي حدثناه أبو بكر بن إسحاق، أنبأ سليمان بن محمد بن الفضل، ثنا محمد بن هاشم البعلبكي، ثنا أبو الوليد بن مسلم عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: =

فالجواب: أن هذا محمول على تقدير الله في الأزل أن محمدًا ﷺ سيكون نبيًا، ولا تعني أن النبي ﷺ كان نبيًا مخلوقًا حينئذ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله:

ثبوت الشيء في العلم والتقدير ليس هو ثبوت عينه في الخارج، بل العالم يعلم الشيء ويتكلم به ويكتبه وليس لذاته في الخارج ثبوت ولا وجود أصلاً، وهذا هو تقدير الله السابق لخلقه، كما في «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»^(١).

وفي «سنن أبي داود» عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ».

قال: ربِّ، وما أكتب؟

قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»^(٢).

وقال ابن عباس: «إنَّ الله خلق الخلق، وعلم ما هم عاملون، ثم قال لعلمه: كن كتابًا فكان كتابًا، ثم أنزل تصديق ذلك في كتابه فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج: ٧٠]»^(٣).

=

قيل للنبي ﷺ: متى وجبت لك النبوة؟ قال: «بين خلق آدم ونفخ الروح فيه». قلت: ورواه الترمذي (٣٦٠٩) عن الوليد بن مسلم به غير أنه قال: «وآدم بين الروح والجسد».

(١) رقم (٢٦٥٣).

(٢) رقم (٤٧٠٠).

(٣) انظر «تفسير الطبري»، سورة الحج: (٧٠).

وهذا هو معنى الحديث الذي رواه أحمد في «مسنده» عن ميسرة الفجر قال:
 قلت: «يا رسول الله، متى كنت نبياً؟» وفي رواية: «متى كُتبت نبياً؟».
قال: «وآدم بين الروح والجسد».

هكذا لفظ الحديث الصحيح ^(١). انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله.



(١) «مجموع الفتاوى» (٢/١٤٦ - ١٤٧)، وانظر للفائدة الصفحات بعدها.

الكلام على ما يسمى بالأبدال والنقباء والأوتاد والأقطاب

✻ الأبدال

✻ النُّقباء

✻ النُّجباء

✻ الأوتاد

✻ الأقطاب

✻ كلام جامع لابن تيمية رحمه الله في الأبدال والنقباء والنقباء

والأوتاد والأقطاب

✻ توضيح مصطلح «المُحدَّث»

انتشر عند أهل الغلو في الأشخاص - لا سيما الصوفية - أن هناك أشخاصًا على هذه الأرض لهم خصوصية تأثير في الكون، يُسمَّون بـ (الأبدال والنجباء والنقباء والأوتاد والأقطاب والغوث)، وهذا أوان الشروع في معاني تلك الاصطلاحات، ومما شجع على هذا الاعتقاد ورود أحاديث في تسمية بعض هذه المصطلحات والألقاب، وفي هذا الجزء من البحث سنتكلم - بما يسر الله - على تلك الألقاب والمصطلحات، مع ذكر الأحاديث الواردة فيها إن وُجدت، مع بيان وجوه ضعفها.

الأبدال

مصطلح الأبدال مأخوذ من التبديل وهو التغيير، وعند الصوفية: الأبدال هم سبعة رجال يُسافر أحدهم عن موضع ويترك جسدًا على صورته، بحيث لا يُعرف أحد أنه فقد، وهم على قلب إبراهيم عليه السلام^(١).

والجواب أن لفظ الأبدال لم يرد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ، إلا في حديث ضعيف رواه أحمد في «مسنده» عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الأبدال يكونون بالشَّام، وهم أربعون رجلًا، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلًا، يُسقى بهم الغيث، ويُنتصر بهم على الأعداء، ويُصرف عن أهل الشام بهم العذاب»^(٢).

(١) «معجم اصطلاحات الصوفية» (ص ٦٢)، للكاشاني.

(٢) «المسند» (١/ ١١٢).

قال محققو «المسند»^(١): «إسناده ضعيف لانقطاعه، وحديث الباب باطل عن رسول الله ﷺ، وأحاديث الأبدال النبي رُويت عن غير واحد من الصحابة أسانيدُها كلها ضعيفة، لا ينتهض بها الاستدلال في مثل هذا المطلب». انتهى الغرض منه.

وقال ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وهو حديث منقطع ليس بثابت، ومعلوم أن علياً ومن معه من الصحابة أفضل من معاوية ومن معه بالشام، فلا يكون الناس في عسكر معاوية دون عسكر علي»^(٢).

قلت: وأما دعوى الصوفية بأن الأبدال مثل إبراهيم الخليل فلعل عمدتهم - كعادتهم - الحديث الضعيف الذي رواه الإمام أحمد في «مسنده» عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنه قال: «الأبدال في هذه الأمة ثلاثون، مثل إبراهيم خليل الرحمن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، كلما مات رجلٌ أبدل الله ﷻ مكانه رجلاً»^(٣).

قال محققو «المسند»: «منكر، وإسناده ضعيف من أجل الحسن بن ذكوان وعبد الواحد بن قيس».

وكذا قال الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الضعيفة»^(٤).

قلت: وقد ورد في الأبدال الأحاديث الموضوعة التالية:

١. روى أبو نُعَيْمٍ في «حلية الأولياء»^(٥) عن نافع عن ابن عمر رضي الله تعالى

(١) (٢/ ٢٣١)، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.

(٢) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص ٧٢ - ٧٣).

(٣) (٥/ ٣٢٢).

(٤) برقم (٩٣٦).

(٥) (١/ ٣٩).

عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خيار أمتي في كل قرن خمسمائة، والأبدال أربعون، فلا الخمسمائة ينقصون، ولا الأربعون، كلما مات رجل أبدل الله ﷻ من الخمسمائة مكانه، وأدخل من الأربعين مكانهم.

قالوا: يا رسول الله، دُلّنا على أعمالهم.

قال: يعفون عمّن ظلمهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، ويتواسون فيما آتاهم الله ﷻ.

هذا حديث موضوع، انظر «الموضوعات»^(١) لابن الجوزي، و«الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة»^(٢) للشوكاني، و«السلسلة الضعيفة»^(٣) للألباني، وقال في إسناده: «وهذا سند مظلم».

٢. وروى أبو نُعَيْم في «حلية الأولياء» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ﷻ في الخلق ثلاثمائة، قلوبهم على قلب آدم ﷺ، والله تعالى في الخلق أربعون، قلوبهم على قلب موسى ﷺ، والله تعالى في الخلق سبعة، قلوبهم على قلب إبراهيم ﷺ، والله تعالى في الخلق خمسة، قلوبهم على قلب جبريل ﷺ، والله تعالى في الخلق ثلاثة، قلوبهم على قلب ميكائيل ﷺ، والله تعالى في الخلق واحد، قلبه على قلب إسرئيل ﷺ، فإذا مات الواحد **أبدل** الله ﷻ مكانه من الثلاثة، وإذا مات من الثلاثة **أبدل** الله تعالى مكانه من الخمسة، وإذا مات من الخمسة **أبدل** الله

(١) (٣/ ٣٩٨)، كتاب (الزهد)، باب (عدد الأولياء).

(٢) ص (٢٤٥)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

(٣) برقم (٩٣٥).

تعالى مكانه من السبعة، وإذا مات من السبعة **أبدل** الله تعالى مكانه من الأربعين، وإذا مات من الأربعين **أبدل** الله تعالى مكانه من الثلاثمائة، وإذا مات من الثلاثمائة **أبدل** الله تعالى مكانه من العامة، فيهم يحيي ويميت، ويُمطر ويُنبِت، ويُدفع البلاء.

قيل لعبد الله بن مسعود: كيف بهم يحيي ويميت؟

قال: لأنهم يسألون الله ﷻ إكثار الأمم فيكثرون، ويدعون على الجبابرة فيقضمون، ويستسقون فيسقون، ويسألون فتُنبت لهم الأرض، ويدعون فيُدفع بهم أنواع البلاء»^(١).

هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، في سننه عثمان بن عمار وهو كذاب، انظر «الموضوعات»^(٢) لابن الجوزي، و«ميزان الاعتدال»^(٣) للذهبي وقال بعدما ذكره: فقاتل الله من وضع هذا الإفك.

قلت: وقد وردت عدة أحاديث في وجود ما يُسمون بالأبدال ولكنها ضعيفة جداً أو موضوعة، وقد جمعها الشيخ المحدث ناصر الدين الألباني رحمته الله كلها أو أكثرها في موسوعته النفيسة «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة»^(٤).



(١) (١/٣٩ - ٤٠).

(٢) (٣/٣٩٨)، كتاب (الزهد)، باب (عدد الأولياء).

(٣) برقم (٥٥٤٩) في ترجمة: عثمان بن عمار.

(٤) انظر الأحاديث من رقم (١٤٧٤ - ١٤٧٩، ٢٤٩٨، ٢٩٩٣).



النقباء

النقب في اللغة هو الرجل العالم بالأشياء، الكثير البحث عنها^(١).

وفي اصطلاح الصوفية: النقباء هم الذين تحققوا بالاسم الباطن، فأشرفوا على بواطن الناس، فاستخرجوا خفايا الضمائر لانكشاف الستائر لهم عن وجوه السرائر، وهم ثلاثمائة^(٢).

وهذا الاصطلاح عند الصوفية لا أصل له في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ، بل هو باطل، إذ إن ما في الضمائر من الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله ﷻ.



(١) انظر «النهاية».

(٢) «معجم اصطلاحات الصوفية» (ص ١١٦)، للكاشاني.

النجباء

النجيب في اللغة الرجل الكريم الفاضل ^(١).

وفي اصطلاح الصوفية: النجباء هم الأربعون القائمون بإصلاح أمور الناس وحمل أثقالهم، المتصرفون بحقوق الخلق لا غير ^(٢).

وهذا الاصطلاح عند الصوفية لا أصل له في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ، بل هو مناقض للشرع، إذ الشرع يأمر بالعمل ويحذر من التقاعس والكسل في طاعة الله وفي غيرها، قال تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه **قال:** قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوهُ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلَفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ مَاذَا تَعْمَلُونَ؟» ^(٣).

وكان النبي ﷺ يستعيز بالله من الكسل، فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من الكسل وسوء الكِبَر» ^(٤).

(١) انظر «النهاية».

(٢) «معجم اصطلاحات الصوفية» (ص ١١٤)، للكاشاني.

(٣) رواه مسلم (٢٧٤٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم (٢٧٢٣) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وسوء الكِبَر، أي: سوء طول العمر.



الأوتاد

الوتد في اللغة معروف، وهو ما غُرِزَ في الحائط أو الأرض من الخشب أو المعدن.

وفي اصطلاح الصوفية: الأوتاد هم الرجال الأربعة الذين على منازلهم الجهات الأربع من العالم، أي الشرق والغرب والشمال والجنوب، بهم يحفظ الله تعالى تلك الجهات، لكونهم محالاً نظره تعالى^(١).

أقول: ولا شك أن هذه خرافة لا تحتاج إلى تفنيد، فإن الله يحفظ الناس أينما كانوا على هذه الأرض إذا حفظوا أمره واجتنبوا نهيه، وليس فقط أهل الجهات الأربع، كما قال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «احفظ الله يحفظك»^(٢).



(١) «معجم اصطلاحات الصوفية» (ص ٢٦٤)، تأليف: د. عبد المنعم حنفي - الناشر: دار المسيرة - بيروت.

(٢) رواه أحمد (٢٩٣/١)، وصححه محققو «المسند»، وكذا الأرناؤوط في تحقيق «رياض الصالحين» (رقم ٦٢).

الأقطاب

القطب في اللغة هو القائم الذي تدور عليه الرحى، وقطب القوم سيدهم ^(١).

وفي اصطلاح الصوفية: القطب رجل واحد يكون موضع نظر الله تعالى من العالم في كل زمان، وهو على قلب إسرائيل ^(٢).

ويُسمى غوثًا باعتبار التجاء الملهوف إليه، وهو خُلِقَ على قلب محمد ﷺ، ويسمى - أيضًا - بقطب العالم، وقطب الأقطاب، والقطب الأكبر، وقطب الإرشاد، وقطب المدار ^(٣).

قال ابن تيمية في مصطلح «القطب الغوث الفرد الجامع»:

وأما سؤال السائل عن (القطب الغوث الفرد الجامع) فهذا قد يقوله طوائف من الناس، ويفسرونه بأمور باطلة في دين الإسلام، مثل تفسير بعضهم أن (الغوث) هو الذي يكون مدد الخلائق بواسطته في نصرهم ورزقهم، وهذا من جنس قول النصاري في المسيح عليه السلام والغالية في علي، وهذا كفر صريح، يُستتاب منه صاحبه فإن تاب وإلا قتل، فإنه ليس من المخلوقات لا مَلَك ولا بَشَر يكون إمداد الخلائق بواسطته ^(٤).

(١) انظر «المعجم الوسيط».

(٢) «معجم اصطلاحات الصوفية» (ص ١٦٢)، للكاشاني.

(٣) انظر «معجم مصطلحات الصوفية»، تأليف: د. عبد المنعم الحنفي، (ص ٢١٧ - ٢١٨).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٩٦/٢٧)، ثم استطرد رحمه الله كعادته في بيان بطلان هذا المصطلح في نحو عشر ورقات، فانظرها فإنها مفيدة.



وقال عبد الرحمن الوكيل في كتابه «هذه هي الصوفية»:

القطب وأعوانه أسطورة خرافية، تنزع إلى تجريد الله من الربوبية والإلهية، وخلعها على كل وهم باطل. سُمِّي في الفلسفة: «العقل الأول»، وفي المسيحية «الكلمة»، وفي الصوفية «القطب»^(١).

وقال الصوفي الخُرَافِي أحمد أبو العباس المرسِي:

«لو كان الحق -سبحانه- يُرضيه خلاف السُّنة، لكان التوجه في الصلاة للقطب الغوث أولى من التوجه للكعبة»^(٢).



(١) (ص ١٢٤).

(٢) «الطبقات الكبرى» للشعراني، (ص ٣١٥)، الناشر: دار المعرفة - بيروت.

كلام جامع لابن تيمية رحمته الله في الأبدال والنجباء والنقباء والأوتاد والأقطاب

قال ابن تيمية رحمته الله:

«كل حديث يُروى عن النبي ﷺ في عِدَّة (١) الأولياء والأبدال والنقباء والنجباء والأوتاد والأقطاب - مثل أربعة أو سبعة أو اثني عشر أو أربعين أو سبعين أو ثلاثمائة أو ثلاثة عشر أو القطب الواحد - فليس في ذلك شيء صحيح عن النبي ﷺ، ولم ينطق السلف بشيء من هذه الألفاظ إلا بلفظ الأبدال، ورُوي فيهم حديث أنهم أربعون رجلاً وأنهم بالشام، وهو في «المسند» من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢)، وهو حديث منقطع ليس بثابت، ومعلوم أن علياً ومَن معه من الصحابة أفضل من معاوية ومن معه بالشام، فلا يكون أفضل الناس في عسكر معاوية دون عسكر علي! (٣).

وقال الشيخ صنع الله بن صنع الله الحنفي رحمته الله:

«وأما ما قالوه: (منهم أبدالٌ ونقباءٌ وأوتادٌ ونجباءٌ وسبعين وسبعةٌ وأربعين وأربعةٌ، والقطب هو الغوث للناس، وعليه المدد بلا التباس)؛ فهذا من موضوعات

(١) أي: عدد.

(٢) الحديث الذي ورد في الأبدال رواه أحمد (١/ ١١٢)، وقد تقدم ذكره.

(٣) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص ٧٠ - ٧٤).

إفكهم كما ذكره القاضي المُحَدَّث ابنُ العربي ^(١) في «سراج المُريدين»، وابن الجَوْزِي ^(٢) وابن تيمية ^(٣). انتهى كلامه رحمهُ اللهُ ^(٤).

توضيح مصطلح «المُحَدَّث»

المُحَدَّث هو المُلَهَم، الذي يُلهمه الله الصواب فيجري على لسانه من غير قصد، قال ابنُ وهب ^(٥): «تفسير (مُحَدَّثون): مُلهمون» ^(٦).

قلت: وعليه فإن مصطلح المُحَدَّث لا يدخل في تلك الاصطلاحات المذمومة التي لا أصل لها، غير أنه لا يصح نسبته إلا لمن شهد له الشرع بذلك، ولم يرد ذلك إلا لعمر رضي الله عنه، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيما مَضَى قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ مُحَدَّثُونَ، وَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أُمَّتِي هَذِهِ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ» ^(٧).

^(١) هو محمد بن عبد الله المعافري، المشهور بالقاضي أبو بكر ابن العربي الإشبيلي المالكي الحافظ، عالم أهل الأندلس ومسنِّدِهِم، وهو غير ابن عربي: محمد بن علي الأندلسي المرسى، الملقب بمحيي الدين، فهذا صوفي ملحد يقول بوحدة الوجود، أي: (أن الوجود هو الله، تعالى الله عن ذلك).

اشتهر الأخير بابن عربي تمييزًا له عن القاضي المالكي ابن العربي.

^(٢) ذكر ابن الجوزي تلك الأحاديث في كتابه «الموضوعات»، كتاب (الزهد)، باب (عدد الأولياء).

^(٣) تقدمت الإحالة على كلام ابن تيمية في هذا الباب.

^(٤) «سيف الله على من كذب على أولياء الله» (ص ٦٤ - ٦٥).

^(٥) هو عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي، فقيه ثقة حافظ عابد، مات سنة ١٩٧. انظر ترجمته في «التقريب».

^(٦) ذكره مسلم عن ابن وهب بعدما خرَّج حديث عائشة التالي ذكره.

^(٧) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه (٣٤٦٩)، ومسلم عن عائشة رضي الله عنها (٢٣٩٨).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله تعالى وضع الحق على لسان عمر يقول به» ^(١).

قال مُقَيِّدُه عفا الله عنه: قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: «ما سمعت عمر لشيء قط يقول: (إني لأظنه كذا)؛ إلا كان كما يظن» ^(٢).

قال ابن تيمية رحمته الله:

«وقد ثبت في «الصَّحيح» تعيين عمر بأنه محدَّث في هذه الأمة، فأبى محدَّث ومخاطبٍ فَرَض ^(٣) في أمة محمد ﷺ فعمرُ أفضل منه، ومع هذا فكان عمر رضي الله عنه يفعل ما هو الواجب عليه، فيعرض ما يقع له على ما جاء به الرسول ﷺ، فتارة يوافقه فيكون ذلك من فضائل عمر، كما نزل القرآن بموافقته غير مرة، وتارة يخالفه فيرجع عمر عن ذلك، كما رجع يوم الحديبية لَمَّا كان قد رأى محاربة المشركين ^(٤).

وكذلك لما مات النبي ﷺ أنكر موته أولاً، فلما قال أبو بكر إنه مات رجع عمر عن ذلك.

وكذلك قال في مانعي الزكاة، قال عمر لأبي بكر: كيف تُقاتل الناس وقد قال

(١) رواه أبو داود (٢٩٦٢)، وابن ماجه (١٠٨)، وصححه الألباني رحمته الله.

(٢) رواه البخاري (٣٨٦٦).

(٣) أي: افترض وجوده.

(٤) في يوم الحديبية رأى عمر أن يحارب المسلمون المشركين، لأنهم صدوهم عن أداء العمرة، ولكن النبي ﷺ تصالح معهم، فتغيَّظ عمر، ثم لما أخبره النبي ﷺ أنه فعل هذا بوحي من عند الله رجع عن رأيه ﷺ.

رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها؟».

فقال له أبو بكر رضي الله عنه: ألم يقل: «إلا بحقها»؟ فإن الزكاة من حقها، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها.

قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعلمت أنه الحق.

ولهذا نظائر تبين تقدّم أبي بكر على عمر، مع أن عمر رضي الله عنه محدّث، **فإن مرتبة الصديق فوق مرتبة المحدث، لأن الصديق يتلقّى عن الرسول المعصوم كلّ ما يقوله ويفعله، والمحدث يأخذ عن قلبه أشياء، وقلبه ليس بمعصوم، فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبي المعصوم،** ولهذا كان عمر رضي الله عنه يشاور الصحابة رضي الله عنهم ويناظرهم ويرجع إليهم في بعض الأمور وينازعونه في أشياء، فيحتج عليهم ويحتجون عليه بالكتاب والسنة، ويقرّهم على منازعته ولا يقول لهم: أنا محدّث ملهمّ مخاطب، فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تعارضوني.

فأيُّ أحد ادّعى أو ادّعى له أصحابه أنه وليّ الله، وأنه مخاطبٌ يجب على أتباعه أن يقبلوا منه كل ما يقوله ولا يعارضوه، ويُسَلِّموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة، فهو وهم مخطئون، ولو قدّر هذا من أفضل الناس، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه أفضل منه، وهو أمير المؤمنين، وكان المسلمون ينازعونه ويعرضون ما يقول هو على الكتاب والسنة^(١).

(١) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص ١٥٢ - ١٥٨).

وقال ابن القيم رحمته الله في كلام له عن مرتبة التحديث:

وهذه دون مرتبة الوحي الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما قال النبي: «قد كان يكون في الأمم قبلكم مُحَدَّثُونَ، فإن يكن في أمتي منهم أحدٌ، فإن عمر بن الخطاب منهم».

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رحمته الله يقول: «جُزِمَ بأنهم كائنون في الأمم قبلنا، وعلّق وجودهم في هذه الأمة بـ«إن» الشرطية^(١)، مع أنها أفضل الأمم، لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبينا ورسالته، فلم يُخْرِجِ الله الأمة بعده إلى مُحَدَّثٍ ولا مُلْهِمٍ ولا صاحب كشف ولا منام، فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها، لا لنقصها».

والمُحَدَّث هو الذي يُحَدَّث في سِرِّه وقلبه بالشيء، فيكون كما يُحَدَّث به.

قال شيخنا: «والصديق أكمل من المُحَدَّث، لأنه استغنى بكمال صديقيته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف، فإنه قد سلّم قلبه كله وسِرّه وظاهره وباطنه للرسول، فاستغنى به عما منه».

قال: «وكان هذا المُحَدَّث يعرض ما يُحَدَّث به على ما جاء به الرسول، فإن وافقه قبله وإلا رده، فعُلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث».

قال: «وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات: (حدثني قلبي عن ربي)؛ فصحيح أن قلبه حدثه ولكن عمّن؟ عن شيطانه أو عن ربّه؟ فإذا

(١) يشير إلى «إن» الواردة في الحديث: «فإن يكن في أمتي منهم أحد...».

قال: (حدثني قلبي عن ربي)؛ كان مُسندًا الحديث إلى مَنْ لم يُعلم أنه حدثه به، وذلك كذب».

قال: «وَمُحَدَّثُ الْأُمَّةِ ^(١) لم يكن يقول ذلك ولا تفوّه به يومًا من الدهر، وقد أعاده الله من أن يقول ذلك، بل كتب كاتبه يومًا: (هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب)، فقال: لا، بل اكتب: (هذا ما رأى عمر)، فإن كان صوابًا فمن الله، وإن كان خطأ فمن عمر، والله ورسوله منه بريء ^(٢).

وقال في الكلالة ^(٣): أقول فيها برأيي، فإن يك خطأ فمني ومن الشيطان، وإن يك صوابا فمن الله ^(٤).

فهذا قول المُحَدَّث بشهادة الرسول، وأنت ترى الاتحادي والحلولي والإباحي الشطّاح والسّماعي مجاهر بالقحّة ^(٥) والفريّة يقول: حدثني قلبي عن ربّي.

فانظر إلى ما بين القائلين والمُرتبتين والقولين والحالين، وأعطِ كلّ ذي حق حقه، ولا تجعل الزّغل ^(٦) والخالص شيئًا واحدًا ^(٧).

(١) يعني عمر رضي الله عنه.

(٢) رواه البيهقي في «الكبرى» (١١٦/١٠) عن مسروق، وقد ضبطت النص من «السنن»، وصححه الحافظ في «التلخيص الحبير» (٣٢٠٢/٦)، الناشر: أضواء السلف - الرياض.

(٣) يعني: في نصيب الكلالة من الإرث، والكاللة هو من مات وليس له ولدٌ ولا والد.

(٤) وهم المؤلف رحمته الله فجعله من كلام عمر، والحق أنه من كلام ابن مسعود رضي الله عنه، رواه أحمد في «مسنده» (٢٧٩/٤)، وصححه محققو «المسند».

(٥) القحّة هي قلة الحياء، كما في «الصّحاح» للجوهري، مادة (وقع).

(٦) الزّغل هو الغش. انظر «المعجم الوسيط».

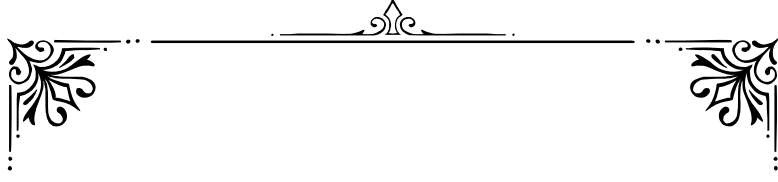
(٧) «مدارج السالكين» (١/١٠١-١٠٣).

وقال الشوكاني رحمه الله في كلام له على حديث النفس الذي يحصل للمحدثين:

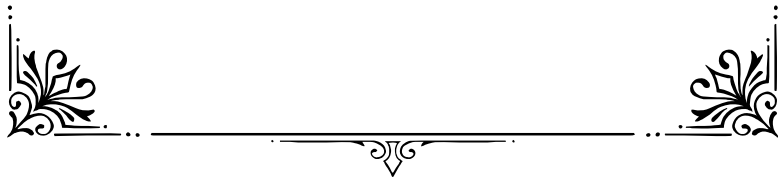
«وهذا الحديث هو شيء يُوقعه الله في رُوع من كُتِب له ذلك، فيُلقيه إلى الناس فيكون مطابقاً للواقع، وليس من الكهانة، ولا من باب النجامة والرمل، ولا من باب تلقين الشيطان، كما كان يقع لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وسيأتي في هذا الحديث الذي نحن بصدد شرحه أنه لا يزال العبد يتقرب إلى الله سبحانه بالنوافل حتى يحبه، فإذا أحبه كان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها»^(١).



(١) «قطر الولي على حديث الولي» (ص ٤٤)، والحديث الأخير رواه البخاري (٣٨٦٦) عن أبي



المراحل التي مر بها الفكر القبوري



لقد مر تحول الناس من عبادة الله إلى عبادة القبور بمراحل عديدة، نذكر هنا ما يسر الله الوقوف عليه:

المرحلة الأولى - نشأة الناس على التوحيد ثم طرأ فيهم الشرك

كان الناس منذ خلق آدم ﷺ ولمدة عشرة قرون أمة واحدة على الإسلام والتوحيد الخالص، كما قال ابن عباس ؓ: «كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»^(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩]، أي اختلفوا عما كانوا عليه من الدين الصحيح ووقعوا في الشرك.

وقال ﷺ: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كلُّ مالٍ نَحَلْتُهُ^(٢) عبدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم^(٣)، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم^(٤) عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن

(١) رواه ابن جرير في تفسير سورة البقرة: (٢١٣)، وبنحوه عن قتادة ومجاهد والسدي، ورواه الحاكم (٥٤٦/٢)، وقال: «صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي»، ولكن علّق د. عبد الله بن مراد السلفي في كتابه «تعليقات على ما صححه الحاكم ووافقه الذهبي» (ص ٢٣٣)، فقال: «الإسناد فيه أبو داود هو الطيالسي، علّق له البخاري، فالحديث على شرط مسلم». قال مقيده: وروى نحوه ابن جرير عن عكرمة في تفسير سورة نوح: (٢٤).

(٢) أي: وهبته.

(٣) قال في «النهاية»: «الحنفاء: جمع حنيف، وهو المائل إلى الإسلام، الثابت عليه». والحنيف عند العرب: مَنْ كان على دين إبراهيم ﷺ، وأصل الحَنَفِ: الميل.

(٤) أي: حوّلهم، انظر «القاموس المحيط».

يُشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً» (١).

وبعد وقوع الشرك بعث الله الأنبياء للدعوة إلى التوحيد والندارة عن الشرك كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وأول رسول بعثه الله للدعوة إلى التوحيد بعد وقوع الشرك هو نوح عليه السلام كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣].

قال ابن كثير رحمه الله: «إنَّ الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله نوحاً عليه السلام، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض» (٢).

وكان منشأ الشرك في عهد نوح عليه السلام من تعظيم الصالحين، كما في «صحيح البخاري» عن ابن عباس عليه السلام في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] قال: «أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا (٣) أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً (٤)، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخَ العلمُ (٥) عُبدت» (٦).

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥)، وأحمد (١٦٢/٤) عن عياض بن حمار عليه السلام.

(٢) «تفسير ابن كثير»، البقرة: (٢١٣)، بتصرف يسير.

(٣) أي: ماتوا.

(٤) أي: اصنعوا أنصاباً، وهي تماثيل تُصنع على هيئتهم، ثم تنصب في المجالس، ليراها الناس! وهكذا دخل عليهم الشيطان.

(٥) أي: تحول من حال إلى حال. انظر «النهاية».

قال مقبده: وسبب التحول والتحريف هو عدم الحفظ.

(٦) رواه البخاري (٤٩٢٠).



المرحلة الثانية - انتشار الشرك في الأرض بعد نشوئه

وبعد نشوء الشرك وعبادة الأصنام تتابع الناس على ذلك وانتشر بينهم على مر القرون، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما وَدٌّ فكانت لكلب بدومة الجندل ^(١)، وأما سُواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمُراد ثم لبني عُطيف بالجُرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نَسْر فكانت لحِمْير، لآل ذي الكَلاع» ^(٢).

وقال قتادة: «كانت هذه الآلهة يعبدها قوم نوح، ثم اتخذها العرب بعد ذلك» ^(٣).

وفي هذه الحقبة من بعد نوح إلى عهد محمد ﷺ بعث الله الرسل تترى، تأمر قومهم بعبادة الله وحده، وترك عبادة ما كان يُعبد من دون الله من الأوثان والقبور، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ومن المعلوم أن تلك الأوثان كانت رموزًا لرجال صالحين.

المرحلة الثالثة - انحصار الفكر القبوري ببعثة النبي محمد ﷺ

قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ ^(٤) حفظه الله:

«وببعثة نبي الهدى والرحمة محمد ﷺ زالت عبادة الأصنام على أصنافها،

(١) دومة الجندل: موضع في شمال جزيرة العرب.

(٢) رواه البخاري (٤٩٢٠).

(٣) «تفسير ابن جرير»، تفسير سورة نوح: (٢٤)، (١٢/٢٥٤).

(٤) تقدمت ترجمته.

وتحررت العقول من دناءة تفكيرها ووضاعة تصورها، فارتقت إلى التوحيد بعد أن كانت في حَمأة الشرك، وأصبحت قلوب العرب وغيرهم متجهة إلى الله وحده لا شريك معه غيره، لا نبي مرسل، ولا مَلِك مقرب، فأتم الله الأمر، وأكمل دينه، وأعلى كلمته».

المرحلة الرابعة - ظهور الحركات الباطنية

ثم أتبع الشيخ قائلًا:

فدام على هذا المسلمون زمانًا وقرونًا^(١) حتى ظهرت فيهم الحركات الباطنية الخبيثة، كالإسماعيلية وما تفرَّع عنها من قرامطة وإخوان الصفا وعبيدين ودروز ونحوهم، مما يُعدُّون صورًا لعقيدة واحدة.

اتخذت هذه الحركة منذ القديم تقديس أهل بيت الرسول ﷺ شعارًا لها، وسَلَسَلُوا الإمامة في إسماعيل بن جعفر، وكانوا في تقديسهم لآل البيت مشهورين، فالدولة الفاطمية أثر^(٢) هذه الحركات الباطنية.

فالمسلمون في القرون الأولى لا يُوجد بينهم مَنْ تحوم مظاهر الشرك في ذهنه، كشرك العرب باتخاذ الصالحين والأنبياء وسائل وشفعاء، حتى بثَّ الإسماعيليون معتقداتهم بين الناس سرًّا، فاستحسن الجُهال هذا الأمر لخِفَّتِهِ وطرح التكاليف الشرعية، فأخذ يظهر الاعتناء بالقبور وتشديد مزارات ومشاهد، وتحري الدعاء

(١) داموا ثلاثة قرون، وفي هذا مصداق لقوله ﷺ: «خيرُ الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...»، الحديث.

(٢) أي: نتيجة.



عندها، حتى نقلهم الشيطان إلى اتخاذهم شفعاء، ثم نقلهم إلى دعاء صاحب القبر، ثم نقلهم إلى الاعتقاد بأن له تصرفًا في الكون، تدرج هذا في قرنين أو نحوها.

وإن أقدم من وقفت عليه يُرجعُ المسلمين إلى دين الجاهلية في الاعتقاد بالأرواح والقبور هم الإسماعيليون، وبخاصة إخوان الصفا، تلك الجماعة السرية الخفية التي بثت عقائدها ورسائلها الخمسين بسرية تامة، حتى لا يكاد يُعرف لها كاتب ولا مُصنّف، وإن ظن ظنًا.

ثم تبعهم على تقديس المقبورين من أهل البيت المُوسويون المُلقبون بالإثني عشرية، وصنفوا التصانيف في الحج إلى المشاهد، وفي كيفية الزيارات والأدعية عند القبور، يُسندونها بطرق باطلة كاذبة إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وقد طالعت كتاب «الزيارات الكاملة» لابن قولويه، فرأيت فيه من هذا شيئًا كثيرًا، وهو مطبوع.

ومن طالع تراث الإسماعيليين وحركة إخوان الصفا وجد ما قلته ماثلاً أمامه، فإن الشأن عظيم، وإن فتنة الناس بالقبور واتخاذ أهلها شفعاء ووسطاء لم تُعرف قبلهم، ولما غلب الجهل قبل ظهور الدولة الفاطمية عرفت هذه الأمور طائفة من الناس، فلما ظهرت الدولة العبيدية شيدت المشاهد ونشرت ما كان سرًا من عقائدها.

جاء في الرسالة الثانية والأربعين من «رسائل إخوان الصفا» ما يُبين هذا ويُبرهن له، فقال مؤلفو الرسائل (٤ / ١٩ - ٢١):

«وذلك أن القوم الذين بُعث إليهم النبي ﷺ، والتَّحِيَّة والرَّضْوَان، كانوا يتدينون بعبادة الأصنام، وكانوا يتقربون إلى الله تعالى بالتعظيم لها والسجود

والاستسلام والبخورات، وكانوا يعتقدون أن ذلك يكون لهم قربة إلى الله وزلفى، والأصنام هي أجسام خرس، لا نطق لها ولا تمييز ولا حس ولا صورة ولا حركة، فأرسلهم الله ودلّهم على ما هو أهدى وأقوم وأولى مما كانوا فيه.

وذلك أن الأنبياء ﷺ، وإن كانوا بشرًا، فهم أحياء ناطقون مميزون، علماء مُشاكِلون^(١) للملائكة بنفوسهم الزكية، يعرفون الله حق معرفته، والتقرب إلى الله بهم أولى وأهدى وأحق من التوسل بالأصنام الخرس التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنك شيئًا.

ثم اعلم أنّا نبين ههنا بدء عبادة الأصنام فنقول بأن بدء عبادة الأمم للأصنام أولاً كان عبادة الكواكب، وبدء عبادة الكواكب كان عبادة الملائكة، وسبب عبادة الملائكة كان التوسل بهم إلى الله تعالى وطلب القربة إليه.

وذلك أن الحكماء الأولين لما عَرَفُوا بذكاء نفوسهم وصفاء أذهانهم أن للعالم صانعًا حكيمًا، وذلك لتأملهم عجائب مصنوعاته وتفكرهم في غرائب مخلوقاته، واعتبارهم تصانيف أحوال مخترعاته، ولما تحققت في نفوسهم هويته؛ أقرّوا له عند ذلك بالوحدانية ووصفوه بالربوبية، وعلموا أن له ملائكة هم صفوته من خلقه، وخالص عباده من بريته، طلبوا عند ذلك إلى الله القريبى، وتوسلوا إليه بهم، وطلبوا الزلفى لديه بالتعظيم لهم كما يفعل أبناء الدنيا، ويطلبون القربى إلى ملوكهم بالتوسل إليهم بأقرب المختصين بهم، وكان من الناس من يتوسل إلى الملك بأقاربه وندمائه ووزرائه وكتّابه وخَوَاصِّه وقُوَّاده ومَن يُمكنه، بحسب ما

(١) أي: مُشابهون.

يتأتى له، الأقرب فالأقرب، والأدنى الأدنى، كل ذلك طلبًا للقربى إليه والزلفى لديه، فهكذا وعلى هذا المثال فعلت الحكماء وأهل الديانات ومن عرف الله وآمن به وأقرب به، فإنهم طلبوا القربة إليه والزلفى عنده، كل واحد بحسب ما أمكنه وتأتى له، وأدّى إليه اجتهاده وتحقق في نفسه.

فلما مضى أولئك الحكماء والربانيون العارفون بالله حق معرفته وانقرضوا؛ خلفهم قوم آخرون لم يكونوا مثلهم في المعرفة والعلم، ولم يعرفوا مغزاهم في دياناتهم، فأرادوا الاقتداء بهم في سيرتهم، واتخذوا أصنامًا على مثل صورتهم، وصوروا تماثيل على مثل ما فعلت النصارى في بيعهم من التماثيل والصور مثل أشباه المسيح ﷺ، ومثل رُوح القدس وجبرائيل ومريم ﷺ، وكذلك أحوال المسيح في مُتصَرِّفاته، ليكون ذلك تذكيرًا لهم بأحواله كيفما يَمَمُّوا تلك التصاویر والتماثيل.

ثم قال إخوان الصفا:

فصل

ثم اعلم يا أخي أن من الناس من يتقرب إلى الله بأنبيائه ورسله وبأئمتهم وأوصيائهم، أو بأولياء الله وعباده الصالحين، أو بملائكة الله المقربين، والتعظيم لهم ومساجدهم ومشاهدهم، والاقتداء بهم وبأفعالهم، والعمل بوصاياهم وسُنَنهم على ذلك، بحسب ما يمكنهم ويتأتى لهم، ويتحقق في نفوسهم ويؤدي إليه اجتهادهم.

فأما من يعرف الله حق معرفته فهو لا يتوسل إليه بأحد غيره^(١)، وهذه مرتبة أهل المعارف الذين هم أولياء الله.

(١) أي أن العارف بالله لا يحتاج لأن يتوسل إلى الله بأحد، بل يطلب من الله مباشرة، وأما غير

وأما مَنْ قَصُرَ فَهْمُهُ ومَعْرِفَتُهُ وحَقِيقَتُهُ فليس له طريق إلى الله تعالى إلا بأنبيائه، وَمَنْ قَصُرَ فَهْمُهُ ومَعْرِفَتُهُ بهم فليس له طريق إلى الله تعالى إلا بالأئمة من خلفائهم وأوصيائهم والتعلق بسُنَنِهِمْ^(١)، والذهاب إلى مساجدهم ومشاهدتهم، والدعاء والصلاة والصيام والاستغفار وطلب الغفران والرحمة عند قبورهم وعند تماثيلهم المصورة على أشكالهم، لِتَذْكَارِ آيَاتِهِمْ، وتعرّف أحوالهم من الأصنام والأوثان وما يُشاكل ذلك، طلباً للقربة إلى الله والزلفى لديه.

ثم اعلم أنه -على كل حال- مَنْ يعبّد شيئاً من الأشياء ويتقرب إلى الله تعالى بأحد فهو أصلح حالاً ممن لا يدين شيئاً، ولا يتقرب إلى الله البتة». انتهى^(٢).

قال الباحث خالد أبو الفتوح: «تعتبر «رسائل إخوان الصفا» مرجعاً مهماً في تسويغ عقائد الباطنية الشريكية، وقد ألّفها مجموعة من الفلاسفة، أشياخ الفاطميين (العبيديين) في القرن الرابع الهجري»^(٣).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فهل يُنكر أحد ممن يعرف دين المسلمين أو اليهود أو النصراني أن ما يقوله أصحاب «رسائل إخوان الصفا» مخالف للملل الثلاث، فإن في ذلك من مخالفة الرسل فيما أخبرت به وأمرت به، والتكذيب بكثير مما جاءت به،

العارف بالله فلا ينبغي له أن يطلب من الله مباشرة (بحسب زعمهم)، فينبغي أن يتوسل بذوات أنبيائه ورسله وبأئمتهم وأوصيائهم... إلخ!

(١) أي: بطريقتهم.

(٢) انتهى نقل الشيخ صالح لكلام مَنْ يُسمّون بإخوان الصفا، وقد أودعه كتابه: «هذه مفاهيمنا» (ص ١٠٤ - ١٠٨).

(٣) من مقاله: «قبس من الظلمات»، ويقع في كتاب «دمعة على التوحيد» (ص ٩٧).

وتبديل شرائع الرسل كلهم بما لا يخفى على عارف بملة من الملل، فهؤلاء خارجون عن الملل الثلاث.

ومن أكاذيبهم وزعمهم أن هذه الرسائل من كلام جعفر بن محمد الصادق، والعلماء يعلمون أنها إنما وُضعت بعد المائة الثالثة، زمان بناء القاهرة، وقد ذكر واضعها فيها ما حدث في الإسلام من استيلاء النصارى على سواحل الشام ونحو ذلك من الحوادث التي حدثت بعد المائة الثالثة، وجعفر بن محمد عليه السلام توفي سنة ثمان وأربعين ومائة، قبل بناء القاهرة بأكثر من مائتي سنة، إذ القاهرة بُنيت حول الستين وثلاثمائة كما في «تاريخ الجامع الأزهر»، ويقال إن ابتداء بنائها سنة ثمان وخمسين، وأنه في سنة اثنتين وستين قدم معد بن تميم من المغرب واستوطنها^(١).

ونقل الذهبي في «السَّير» في ترجمة أبي حامد الغزالي عن أبي بكر الطرطوشي

قوله عن «إخوان الصفا» أنهم قوم يرون أن النبوة مكتسبة، وزعموا أن معجزات الأنبياء حيلٌ ومخاريق، وليست من عند الله، تأييدًا لهم وتصديقًا لرسالاتهم.

وقال الباحث سالم بن قطوان العبدان:

«وظل المسلمون على ما ورثوه من زيارة القبور التي علّمهم نبيهم إلى بداية خلافة بني العباس، حيث لا زالت الخلافة في حال استقامتها، فلم تُبْنِ المشاهد ولم تُعظم القبور سواء ما كان منها صدقًا أو كذبًا، لأن الإسلام حيثنذ ما يزال في قوته وعنفوانه، ولم يظهر في تلك الفترة وما قبلها من ذلك شيء في بلاد الإسلام، لا في

(١) «مجموع الفتاوى» (١٣٤/٣٥)، باختصار يسير.

الحجاز ولا اليمن ولا الشام ولا العراق ولا مصر ولا خراسان ولا المغرب، ولم يُعمل مشهد على قبر نبي ولا صاحبٍ ولا أحد من أهل البيت وصالح أصلاً.

وفي أواخر الخلافة العباسية -ابتداءً من دولة المقتدر- عندما انشغلت الدولة بنفسها وضعفت شوكتها، وبظهور حركات التشيع؛ برزت الأضرحة^(١)، وكان ذلك في عهد دولة بني بُويه لما ظهرت القرامطة العبيدية القداحية بأرض المشرق والمغرب، ووجدوا في بني بُويه رُضاً وموافقة على ذلك، لما عُرف من كثير منهم غلو في التشيع، فبنوا المشاهد المختلفة، كمشهد عليّ بناحية النجف، وإلا قبل ذلك لم يكن أحد يقول: إن قبر عليّ هناك، وإنما دفن عليّ بقصر الإمارة بالكوفة.

وفي تلك الفترة ظهرت المشاهد المنسوبة لأصحابها بالعراق وغير العراق ما كان كثيراً منها كذباً، ولما بُني مشهد الحسين بكر بلاء غشاه^(٢) أمراء عظماء، وأنكر عليهم العلماء هذا الصنيع، حتى إن المتوكل لما بُيّن له هذا الأمر يُقال إنه بالغ في الإنكار، وزاد على الواجب.

وأما في الشام فإن أحداً من الصحابة والتابعين لم ير قبراً ظاهراً في مسجد بني أمية أو غيره، بل غاية ما جاء في بعض الروايات عن زيد بن واقد أنهم في أثناء العمليات وجدوا مغارة فيها صندوق فيه سَفَط^(٣)، وفي السَفَط رأس يحيى بن زكريا عليه السلام، مكتوب عليه: (هذا رأس يحيى عليه السلام)، فأمر به الوليد فُرِدَّ إلى المكان وقال: اجعلوا العمود فوقه

(١) الضريح: بناء له جدران أربعة، تعلوه قبة مدورة، ويقع بداخله قبر.

(٢) أي: زاره.

(٣) السَفَط: وعاء يُوضع فيه الطيب ونحوه من أدوات النساء. انظر «المعجم الوسيط».

مغيرًا من الأعمدة، فجعل عليه عمودًا مُسَبَّكًا مُسَقَط الرأس، ومع هذا فإني أقطع من الاستقراء أنه لم يكن في المسجد قبر حتى أواخر القرن الثاني الهجري، لما أخرجه الربيعي عن الوليد بن مسلم أنه سئل: أين بلغك رأس يحيى بن زكريا؟

قال: (بلغني أنه ثم)، وأشار بيده إلى العمود المُسَقَط الرابع من الركن الشرقي، فهذا يدل على أنه لم يكن هناك قبر في عهد الوليد بن مسلم، وقد توفي في سنة (١٩٤ هـ / ٧٧٣ م).

أما في مدينة الخليل فقد كانت البنية التي على قبر إبراهيم عليه السلام مسدودة، لا يدخل إليها أحد إلى حدود المائة الرابعة الهجرية، فقل إن بعض النسوة المُتَّصَلات بالخلفاء رأت في ذلك منامًا، فعند ذلك قاموا بنقبها.

وقيل: إن النصاري لما استولوا على هذه النواحي نقبوا ذلك، ثم ترك مسجدًا بعد الفتوح المتأخرة^(١). انتهى كلامه حفظه الله.

وقال ابن تيمية رحمته الله: «ولم يكن على عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم من ذلك^(٢) شيء في بلاد الإسلام، لا في الحجاز، ولا اليمن، ولا الشام، ولا العراق، ولا مصر، ولا خراسان، ولا المغرب، ولم يكن قد أحدث مشهد، لا على قبر نبي، ولا صاحب، ولا أحد من أهل البيت، ولا صالح أصلاً، بل عامة هذه المشاهد مُحدثة بعد ذلك، وكان ظهورها وانتشارها حين ضعفت خلافة بني العباس وتفرقت الأمة،

(١) «زيارة القبور عند المسلمين» (ص ١٧ - ٢٠).

(٢) أي من تلك المشاهد على القبور.

وكثر فيهم الزنادقة المُكَبِّسون على المسلمين، وفشت فيهم كلمة أهل البدع، **وذلك من دولة المقتدر في أواخر المائة الثالثة**، فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة العبيدية القداحية بأرض المغرب، ثم جاءوا بعد ذلك إلى أرض مصر».

ثم قال: «وقريباً من ذلك ظهر بنو بويه، وكان في كثير منهم زندقة وبدع قوية، وفي دولتهم قَوِي بنو عبيد القداح بأرض مصر، وفي دولتهم أظهر المشهد المنسوب إلى عليٍّ عليه السلام بناحية النَّجف، وإلا فقبل ذلك لم يكن أحد يقول: إن قبر عليٍّ هناك، وإنما دُفِن عليٌّ عليه السلام بقصر الإمارة بالكوفة»^(١).

وقال: «ولم يكن في العصور المفضلة «مشاهد» على القبور، وإنما كثر بعد ذلك في دولة بني بويه، **لَمَّا ظهرت القرامطة بأرض المشرق والمغرب**، وكان بها زنادقة كُفَّار مَقْصُودُهُم تبديل دين الإسلام، وكان في بني بويه من الموافقة لهم على بعض ذلك ومن بدع الجهمية والمعتزلة والرافضة ما هو معروف لأهل العلم، فَبَنَوْا المشاهد المكذوبة كمشهد عليٍّ عليه السلام وأمثاله»^(٢).

وقد نقل الباحث خالد محمد حامد^(٣) عن الباحثة في مجال الآثار د. سعاد ماهر قولها في كتابها «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون»^(٤):

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٧/٤٦٦)، باختصار يسير.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٧/١٦٧).

(٣) نقله ضمن مقال له بعنوان: «فسطاط الخرافة...، الجذور والواقع»، ويقع ضمن كتاب «دمعة على التوحيد»، من (ص ١٥ - ٣٨).

(٤) «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون» (١/٤٦).

«إنَّ أقدم ضريح في الإسلام أُقيمت عليه قبة يرجع إلى القرن الثالث الهجري، وقد عُرِف هذا الضريح باسم (قبة الصليبية)^(١)، ويوجد في مدينة «سمارا» بالعراق على الضفة الغربية لنهر دجلة إلى الجنوب من قصر العاشق.

ويقول الطبري: إنَّ أم الخليفة العباسي استأذنت في بناء ضريح منفصل لولدها فأذن لها، إذ كانت العادة قبل ذلك أن يُدفن الخليفة في قصره، فأقامت (قبة الصليبية) في شهر ربيع الثاني سنة ٢٨٤ هـ، وقد ضمَّ الضريح إلى جانب المنتصر الخليفة المعز والمهتدي، وتُعتبر قبة الصليبية أول قبة في الإسلام».

ثم تابعت قائمة عن أوائل الأضرحة ذات القباب:

«ويليها^(٢) من حيث التاريخ: ضريح إسماعيل الساماني المبني سنة ٢٩٦ هـ في مدينة بخارى، ثم ضريح الإمام علي في النجف الذي بناه الحمدانيون سنة ٣١٧ هـ، ثم ضريح محمد بن موسى في مدينة (قُم) بإيران سنة ٣٦٦ هـ، ثم ضريح (السبع بنات) في الفسطاط سنة ٤٠٠ هـ، وقد احتفظت لنا جَبَانَةٌ^(٣) أسوان بمجموعة كبيرة من الأضرحة ذات القباب التي يرجع تاريخ معظمها إلى العصر الفاطمي في القرن الخامس الهجري».

ثم تابع خالد محمد حامد قائلاً:

«ولكن الدكتورة سعاد تذكر لنا الأضرحة (ذات القباب) فقط، ولا ندرى هل كانت قبل (قبة الصليبية) أضرحة أخرى ليست ذات قباب أم لا، فالقَبَاب عنصر

(١) قال خالد محمد حامد: «سُمِّيَتْ بذلك نسبة إلى موقع ضريح عند تقاطع طريقين!»

(٢) أي: قبة الصليبية.

(٣) الجبانة هي المقبرة. انظر «المعجم الوسيط».

معماري أنشئ في أول أمره لإبراز بعض أجزاء المسجد، ثم تطور استعمالها إلى تغطية قبور الشخصيات البارزة أو (أولياء الله)»^(١).

ثم قال الباحث المذكور:

«وأيضاً فإن أصحاب الأضرحة الكبرى ممن يُنسب إلى التصوف هم في الحقيقة من غلاة الشيعة الباطنية، حيث من العراق انطلق أحد أتباع الرفاعي إلى مصر، وهو أبو الفتح الواسطي (جد إبراهيم الدسوقي)، لنشر دعوتهم الباطنية بها، وقد كان ذلك في العهد الأيوبي، وبعد موت الواسطي جاء البدوي، ليخلفه في دعوته تلك، وقد توزع هؤلاء الدعاة في مصر، فكان الدسوقي بدسوق، وأبو الحسن الشاذلي بالإسكندرية، وأبو الفتح الواسطي ما بين القاهرة وطنطا والإسكندرية، ولما مات الواسطي حلَّ محله البدوي بطنطا، وجميعهم من فلول العبيديين الذين طردهم صلاح الدين الأيوبي من مصر، ثم حاولوا العودة تحت ستار التصوف والزهد»^(٢).

وفي أواخر عهدهم أنشأ الفاطميون المشهد الحسيني عام ٥٥٠ هـ عندما شعروا بأن سلطتهم قد ضعفت ليجذبوا إليهم المصريين، وعهدوا إلى ابن مرزوق القرشي (٥٦٤ هـ) تربية مُريدي الصوفية، فانتظم أتباعه في طوائف وطرق لنشر الدعوة

(١) «دمعة على التوحيد» (ص ١٩).

(٢) عزا الباحث هذه المعلومات إلى كتاب «بدع الاعتقاد» لمحمد حامد الناصر، (ص ٢٤٧)، نقلاً عن «السيد البدوي.. دراسة نقدية» للدكتور عبد الله صابر. انظر «دمعة على التوحيد» (ص ٢١).



الشيعة، إلا إن هذه التنظيمات انهارت بانحيار الدولة الفاطمية، وتحول المشهد الحسيني إلى ضريح صوفي»^(١). انتهى كلام الباحث: خالد محمد حامد.

والحاصل أن «تقديس القبور وزيارة المشاهد **تقليد شيعي في نشأته**، فالشيعة هم أول من بنى المشاهد على القبور، حيث تتبعوا قبور من مات قديمًا ممن يُعظمونهم من آل البيت، وراحوا يبنون على قبورهم ويجعلونها مشاهد ومزارات، **ثم جاء الصوفية فنسجوا على هذا المنوال**، فجعلوا أهم مشاعرهم هو زيارة القبور وبناء الأضرحة والطواف بها والتبرك بأحجارها والاستغاثة بالأموات، بل جعل الصوفية جل همهم هو بناء هذه القبور وتعظيمها ودعوة الناس إليها، وجعلوا أعظم مشاعرهم هو الطواف بها والتبرك بها ودعاؤها من دون الله ﷻ، بل لا يوجد شيخ صوفي متبع إلا وبنى لنفسه قبة كبيرة ومقامًا، وهكذا أعادوا من جديد شرك الجاهلية الأولى»^(٢).

قال مُقَيِّدُه عفا الله عنه: ولما كان أمر الفاطميين كذلك، قام عليهم القائد العظيم صلاح الدين الأيوبي قومة واحدة فسحق دولتهم وطردهم قبل غزوه لليهود لفتح فلسطين لئلا يُطعن من الخلف، فلله دَرُه من قائد فذٍّ.

(١) عزا الباحث هذا النقل إلى كتاب «الصوفية والسياسة في مصر» لعمار علي حسن، (ص ٨٨).
انظر «دمعة على التوحيد» (ص ٢١).

(٢) باختصار وتصرف يسير من كتاب «الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة»، الباب الخامس: (الصلة بين التصوف والتشيع.. أوجه التلاقي بين التصوف والتشيع)، قسم (د): (تقديس القبور وزيارة المشاهد).

المرحلة الخامسة، ظهور أضرحة الرؤيا

قال الباحث خالد محمد حامد:

«وأصبح تقديس القبور والأضرحة لازماً من لوازم الطرق الصوفية، بحيث لا يتصور أحد وجود طريقة صوفية من غير ضريح -أو أكثر- تقدّسه، ومع تمكن الداء من جسد الأمة ظهرت الحاجة إلى تعدد الأضرحة والمزارات لتبلي رغبات من صرعتهم الأوهام، وضاق بالقبوريين أن يتحرّوا ثبوت قبور الأولياء المشهورين لدى جمهورهم، ولأن الحاجة أم الاختراع -كما يقال- فقد وجدوا لهذه الأزمة بعض المخارج والحيل، فظهر ما يسمى أضرحة الرؤيا، تقول د. سعاد ماهر:

ظهر في العصور الوسطى -وخاصة في أوقات المحن والحروب التي لا تجد فيها الشعوب من تلوذ به غير الواحد القهار- أن يتلمسوا أضرحة آل البيت والأولياء للزيارة والبركة والدعاء ليكشف الله عنهم سوء ويرفع البلاء، ومن ثم ظهر ما يعرف بأضرحة الرؤيا، فإذا رأى ولي من أولياء الله الصالحين في منامه رؤيا مؤداها أن يقيم مسجداً أو ضريحاً لأحد من أهل البيت أو الولي المسمى في الرؤيا؛ فكان عليه أن يقيم الضريح أو المسجد باسمه»^(١).

أقول: ومن العجائب أن هذه هي نفس العلة التي اعتمد عليها النصاري لإقامة مزارات الشهداء، «وكان ذلك إبان القرن الخامس الميلادي، حيث أصبح لكل قرية

(١) عزّا خالد محمد خالد هذا النقل إلى كتاب «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون» (١/ ١٠٢ -

مزار لشهيد يحوي عظامًا لبعض الموتى المجهولين، أخرجت من القبور، ومُنحت كل التبجيل والاحترام، دون أدنى دليل يُثبت أنها - على الأقل - بقايا مسيحيين^(١)، ويُخلع على هذه الرُفات أسماء وألقاب لائقة، وفي حالات كثيرة كان المرجع الوحيد في هذا الشأن (حلم) أو (رؤيا) لكاهن أو راهب^(٢).

وهي الدَّعوى نفسها أيضًا^(٣) التي أسَّس عليها اليهود مزاراتهم من القبور (المقدسة)، يقول جعفر هادي حسين:

وبين فترة وأخرى يطلع على الناس شخص في (إسرائيل) يعلن عن اكتشاف قبر (مُقدَّس) أو إقامة مزار له، لِحُلم قد رآه، فيصبح قبره أو مقامه مقصدًا للرائحين والغادين^(٤).

انتهى كلام الباحث: خالد محمد حامد.

قلت: وهذا التشبه بأهل الكتاب ليس غريبًا، فقد أخبر عنه النبي ﷺ في قوله: «لَتَبْعَنَ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شَبْرًا بِشَبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ».

(١) الأولى أن يُقال: «نصارى»، كما سَمَّاهم الله بذلك في القرآن..

(٢) عزّ خالد محمد حامد هذا النقل إلى «موالد مصر المحروسة» لعرفة عبده علي (ص ٧١).

(٣) والكلام لا زال لخالد محمد حامد.

(٤) «جريدة الحياة»، عدد (١٣٠١٣)، بتاريخ (٢٩/٦/١٤١٩هـ)، من مقال: «اعتراضات سياسية

على ظاهرة تدخل الحاخامين في الانتخابات الإسرائيلية».

قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟

قال: «فَمَنْ؟» (١).

﴿ خرافة تحديد قبر (الولي) ﴾

قال بعض الباحثين مبيناً كيفية تحديد مكان قبر الولي:

«يتم ذلك عن طريق ما يسمونه بـ(البيان)، فحسب الاعتقاد السائد في السودان يمكن أن يرى شخص ما رؤية منامية، يرى فيها شيخاً من الشيوخ ممن ماتوا ودُفِنوا في مكان ما، فيرى الرائي أن هذا الشيخ دلَّه على مكانٍ معين وبَيَّن، أي: ظهر فيه، فيبادر هذا الرائي عند استيقاظه بالتوجه إلى ذلك المكان **فِيرْفَعُهُ عَنْ سَطْحِ الأرض** (٢)، وينصب عليه الخرق والرايات، معلناً أن الشيخ الفلاني بيَّن في هذا المكان، فيُعرف المكان بأنه (بيان) الشيخ الفلاني، ثم يُزار كغيره من الأضرحة والقباب، وتُعتقد له وحوله الطقوس المعروفة بهذه الأضرحة» (٣).

قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللهُ في معرض كلام له عن المشاهد التي تنسب لبعض الأنبياء

والصالحين بسبب رؤيا منامية:

«وكذلك تُضاف إلى بعض الأنبياء أو الصالحين بناء على أنه رؤي في المنام هناك، ورؤية النبي ﷺ أو الرجل الصالح في المنام ببقعة لا يوجب له فضيلة تقصد البقعة

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أي: يرفع سطح القبر ببناء ونحوه.

(٣) من مقال: «الأضرحة في العالم الإسلامي، مشاهد متفرقة»، وهو منقول برمته في كتاب «دمعة على التوحيد»، والكلام المنقول يقع في (ص ٤٠) منه.

لأجلها وتُتخذ مصلى بإجماع المسلمين، وإنما يفعل هذا وأمثاله أهل الكتاب.

وربما صُوِّر فيها صورة النبي أو الرجل الصالح أو بعض أعضائه مضاهاة لأهل الكتاب، كما كان في بعض مساجد دمشق مسجد يسمى «مسجد الكف» فيه تمثال كف يقال إنه كفُّ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، حتى هدم الله ذلك الوثن»^(١).

وقال الإمام محدث الشام عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المعروف بأبي شامة^(٢) من فقهاء الشافعية وقدمائهم في كتابه الذي سَمَّاه «الباعث على إنكار البدع والحوادث» في فصل (البدع المستقبحة)، قال:

«هذه البدع والمحدثات المستقبحة تنقسم إلى قسمين: قسم تعرف العامة والخاصة أنه بدعة محدثة، إمَّا مُحَرَّمَةٌ وإمَّا مَكْرُوهَةٌ، وقسم يَظُنُّه مُعْظَمُهُمْ - إلا من عصم - عبادات وقربات وطاعات وسننًا.

فأمَّا القسم الأول فلا نطوِّلُ بذكره، إذ كُفِينَا مؤنة الكلام فيه لاعتراف فاعله أنه ليس من الدين، لكن نبين من هذا القسم ما قد وقع فيه جماعة من جهال العوام المنابذين لشرعية الإسلام، التاركين للاقتداء بأئمة الدين من الفقهاء، وهو ما يفعله طوائف من المتممين للفقير، الذي حقيقته الافتقار من الإيمان، من مؤاخات النساء الأجانب والخلوة

(١) «اقتضاء الصراط» (٢/ ٦٥٥).

(٢) الشيخ عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي من القُرَّاء والمحدثين، وهو من علماء القرن السادس، له تصانيف عديدة في العقيدة والحديث والقراءات والأصول والتاريخ. توفي رحمته الله سنة (٦٦٥). كان فوق حاجبه الأيسر شامة كبيرة فقيل له: (أبو شامة). انظر ترجمته في «تذكرة الحفاظ» (١١٥٧) و«معرفة القراء».

بهن، واعتقادهم في مشائخ لهم ضالين مضلين يأكلون في نهار رمضان من غير عذر، ويتركون الصلاة، ويخامرون النجاسات غير مكترئين لذلك، فهم داخلون تحت قوله تعالى: ﴿أَمَلَهُمْ شُرَكَؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

وبهذه الطرق وأمثالها كان مبادئ ظهور الكفر من عبادة الأصنام وغيرها، ومن هذا القسم أيضاً ما قد عمَّ الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة تخليق^(١) الحيطان والعمد، وسرّج مواضع مخصوصة في كل بلدٍ يحكي لهم حاكٍ أنه رأى في منامه بها أحداً ممن اشتهر بالصلاح والولاية، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه، مع تضييعهم فرائض الله تعالى وسننه، ويظنون أنهم متقربون بذلك، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم، فيُعظمونها ويرجون الشفاء لمرضاهم، وقضاء حوائجهم بالنذر لها، وهي ما بين عيون وشجر وحائط وحجر^(٢).

المرحلة السادسة - ظهور القبور المكذوبة

ثم ظهرت أضرحة مزعومة ومكذوبة في طول البلاد وعرضها، وتعددت الأضرحة للولي الواحد في أكثر من قطر، ولتسويغ ذلك الخطل^(٣) نسجوا خرافة واضحة الزور والبهتان، فقالوا: **إن الأرض لأجسام الأولياء كالماء للسّمك**، فيظهرون بأماكن متعددة ويزار كل مكان قيل عنه: إن فيه نبياً كريماً أو ولياً عظيماً^(٤)، أي:

(١) التخليق هو وضع الخلق، وهو نوع من أنواع الطّيب.

(٢) (ص ٣٤ - ٣٥)، ط. مكتبة المؤيد.

(٣) الخطل هو الكلام الفاسد الكثير المضطرب. انظر «المعجم الوسيط».

(٤) انظر كتاب «الانحرافات العقديّة والعلمية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر» لعلي بن

يستطيع الولي المقبور أن يكون بالشام ثم يسبح -تحت الأرض- إلى مصر، وبعدها يحضر إلى إيران وهكذا، ليُجيب مُريديه وعابديه حول أضرحتهم المتعددة!

المرحلة السابعة - مرحلة نسج كرامات مكذوبة حول القبور المعظمة

ثم اتسع الخرقُ جدًّا، ووجد شياطين الإنس والجن ضالّتهم في عقول هؤلاء السذج، فانفتح باب الأكاذيب والاختلاقات على مصراعيه، فقاموا بنسج الكرامات حول الشخص المزعوم بأنه ولي، أو حول المكان المزعوم بأنه مكان قبر ولي.

ومن طرق النسج حول المكان المزعوم ما ذكره الإمام ابن تيمية رحمته الله عن القبر المشهور في سفحة بالكرك^(١) الذي يقال إنه قبر نوح حيث قال إنه «باطلٌ مُحالٌ، لم يُقَلْ أحدٌ ممن له عِلْمٌ ومعرفةٌ إن هذا قبرُ نُوح ولا قبرُ أحدٍ من الأنبياء أو الصّالحين، ولا كان لهذا القبر ذكر ولا خبر أصلاً، بل كان ذلك المكان حاكورة^(٢) يُزرع فيها، ويكون بها الحاكاة^(٣) إلى مدة قريبة، رأوا هناك قبراً فيه عظمٌ كبير، وشموا فيه رائحة، فظن الجاهل أنه لأجل تلك الرائحة يكون قبر نبي، وقالوا مَنْ كان من الأنبياء كبيراً؟ فقالوا: نوح، فقالوا: هو قبر نوح، وبنوا عليه في دولة الرافضة الذين كانوا مع الناصر -صاحب حلب- ذلك القبر، وزيد بعد ذلك في دولة الظاهر، فصار

بخيت الزهراني، (ص ٢٨٥).

(١) الكرك: قرية في أصل جبل لبنان. انظر «معجم البلدان».

(٢) الحاكورة: أرض تُحسب لزراعة الأشجار قرب الدور. انظر «المعجم الوسيط».

(٣) الحاكاة أصلها حاك، أي: تبخر في مشيته واختال. انظر «لسان العرب». والمقصود هو التهكم بهؤلاء الذين قالوا إنه لأجل تلك الرائحة فإن القبر قبر نبي!

وثنًا يُشرك به الجاهلون، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ لَحُومَ الْأَنْبِيَاءِ»^(١)، فلو كان قبر نبي لم يتجرد العظم.

وحدثني من الثقات مَنْ شاهد في المقابر القريبة منه رءوسًا عظيمة جدًا تناسب تلك العظام»^(٢).

وبالجملة فإن غالب ما يستند إليه الواحد من هؤلاء أنه يدّعي أنه رأى منامًا، أو أنه وجد بذلك القبر علامة تدل على صلاح ساكنه، إمّا رائحة طيبة، وإمّا توهُم خرق عادة ونحو ذلك، وإمّا حكاية عن بعض الناس أنه كان يعظم ذلك القبر^(٣).

وقد ذكر ابن الجوزي في تاريخه «المنتظم» في حوادث سنة ٥٣٥ أن رجلاً دخل بغداد وأظهر الزهد والتنسك، فقصده الناس من كل جانب.

ثم إن رجلاً من سواد بغداد^(٤) مات له صبي فدفنه، فعلم به هذا المتزهّد، فمضى إلى قبر ذلك الصبي، فنبشه، وأخرج الصبي، ثم دفنه في موضع آخر لحاجة في نفسه.

ثم قال للناس في بعض الأيام: (اعلموا أني قد رأيت عمر بن الخطاب في

(١) اللفظ مضبوطاً: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ». رواه أبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (١٣٧٣)، وابن ماجه (١٠٨٥)، وأحمد (٨/٤)، عن أوس بن أبي أوس رضي الله عنه، وصححه الألباني.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٧/٦١ - ٦٢).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٧/٤٥٧).

(٤) السواد هو الشخص يُرى من بعيد، سُمّي بذلك، لأن الشخص إذا رُئي من بعيد رئي أسود. والأساود هي الجماعات المتفرقة، يقال: مرت بنا أساود من الناس. انظر «النهاية».

المنام، ومعه علي بن أبي طالب، فسلمتُ عليهما وسلّموا عليّ، وقالوا لي: إن في هذا الموضع صبيًّا من أولاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وخطأً لي المكان، ثم أشار المتزهّد إلى ذلك الموضع، فحفروا في ذلك المكان، فرأوا الصبي وهو أمرّد فازدحموا عليه، وانصرفوا إليه، فمن وصل إلى قطعة من أكفانه فكأنه حاز الدنيا، حتّى خرج أبواب الدولة وأهل بغداد، وانقلبت البلد، ووضعوا عند قبره ماء الورد والبخور، وأخذ جهال الناس التراب للتبرّك، وازدحم الناس على القبر، حتّى لم يصل إليه أحد من كثرة الزحام، وجعل الناس يقبلون يد ذلك المتزهّد وهو يظهر التمتع والبكاء والخشوع، والناس تارة يزدحمون عليه، وتارة يزدحمون على الميت، وبقي الناس على هذا أيّامًا، والميت مكشوف يبصره الناس، حتّى ظهر نتن رائحته.

وجاء جماعة من أذكياء بغداد، فتفقّدوا كفنه فوجدوه خامًا، ووجدوا تحته حصيرًا جديدًا، فقالوا: هذا لا يمكن أن يكون على هذه الصفة منذ أربعمئة سنة! فما زالوا ينقبون على ذلك حتّى جاء والد الصبي فأبصر ابنه، فقال للناس: هذا والله ولدي.

فمضى معه قوم إلى المكان، فرأوا القبر قد نُبش، وليس فيه ميت! فلما سمع المتزهّد ذلك هرب، فطلبوه وظفروا به، فقَرّروه فأقر أنه فعل ذلك حيلة، فأخذ وأركب حمارًا، وشهّر به.

وهذا حال قبور كثيرة، ليس فيها أحد، أو فيها ضال، أو كافر، أو غير ذلك، فإن كُشِف حال قبر منها فقد بقيت الأخرى!

المرحلة الثامنة والأخيرة - اختلاق شخصيات مكذوبة ثم إنشاء أضرحة

على قبورهم

ولم يقف الأمر عند نسبة القبور زورًا إلى شخصيات لها نصيبها في الإسلام، بل وصل الادعاء إلى اختلاق بعض الشخصيات ثم نسبة أضرحة إليها، فمن ذلك قبر في طريق بلدة (طورخال) بتركيا منسوب لصحابي اسمه (كيسك باش!!).

وفي معرة النعمان ضريح لرجل يدعى (عطا الله) يزعمون أنه صحابي أيضًا^(١).

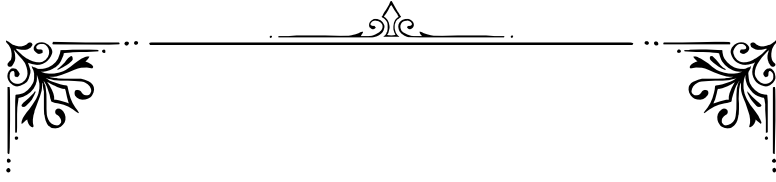
قال مُقَيِّدُه عفا الله عنه:

فانظر أخي إلى تاريخ الغلو في القبور المتهالك، كيف كانت البداية بأن زين الشيطان للناس اتخاذ صور الآباء ليكون أنشط لهم على العبادة، ثم آل بهم الأمر إلى الغلو في تعظيمها حتى عبدوها، ثم استمر الأمر على هذا إلى وقتنا الحاضر، سواء على صورة صنم منحوت من حجر أو شجر كما في المجتمعات البوذية، أو على شكل قبور كما هو منتشر في بعض بلدان المسلمين، فاللهم سخر لها من ولاة الحق يدًا من الحق حاصدة، وثبتنا على عبادتك وحدك لا شريك لك، آمين يا رب العالمين.

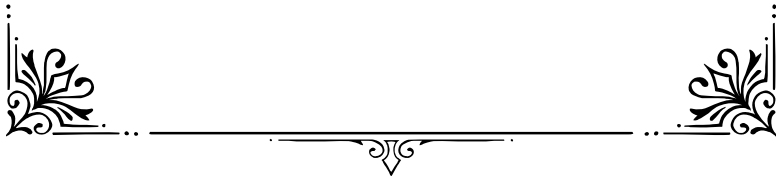


(١) ذكر هاتان الخرافتان مؤلف «الانحرافات العقديّة» في (ص ٢٩٠، ٢٩١)، وعلق على الثانية بقوله: ولا يُعرف في الصحابة مثل هذا الاسم.

قلت: وكذلك لا يُعرف في الصحابة من اسمه (كيسك باش)!



وصف مختصر
لواقع الفكر القبوري في الأمة الإسلامية



ليس ما ذكرناه من المظاهر الشريكية أو البدعية لتعظيم القبور من قبيل دفع شر محتمل الوقوع أو معلومات نظرية لم تحصل في أرض الواقع، بل هو حقيقة واقعة، فمن أمثلة القبور المعاصرة التي غلا فيها الناس غلوًا فاحشًا قبر جلال الدين الرومي^(١) الذي كُتب على قبره ومزاره: صالح للأديان الثلاثة: (المسلمين واليهود والنصارى)، ويدعى هذا الوثن بالقطب الأعظم، وفعلاً كان قطبًا تدور عليه أفلاك أرباب المصالح الدنيوية، طُلاب الشرف باسم الدين المزور، وقد لقي كل تشجيع وتقديس من الأيدي الخفية، لإبقاء شعلة الوثنية وقادة في العالم الإسلامي، فقبر جلال الدين الرومي في دولة ضُمَّت الإسلام ثمانية قرون على أيدي السلاطين المسلمين، ليسوا بالعرب ولا العرب منهم، ولكنهم المسلمون الذين تنبأت الرسالة المحمدية بظهورهم، فكان في ظهورهم دلالة من دلائل النبوة، وغير جلال الدين الرومي كثير وكثير في هذه الدولة التي أضحت دولة علمانية تُحارب كل ما هو إسلامي، حتى أصبح الإسلام غريبًا في بحور المادة^(٢).

وعندما حلَّ الحكم العثماني في بلاد المسلمين ازداد التعلق بالقبور والأضرحة، حيث إن الموجود في القاهرة في بداية القرن الرابع عشر الهجري وحدها كان يبلغ مائتين وأربعة وتسعين ضريحًا، وفي الأستانة^(٣) عاصمة السلطنة كان يوجد

(١) جلال الدين الرومي متصوف شهير، صاحب الطريقة المولوية الشهيرة في تركيا الآن، انظر للتوسع كتاب «أخبار جلال الدين الرومي»، لمؤلفه أبي الفضل محمد القونوي.

(٢) من مقال: «من لهذه الوثنية المتعددة؟»، للشيخ إسماعيل بن سعد بن عتيق، انظر «دمعة على التوحيد» (ص ٥٥-٥٦).

(٣) الأستانة هي ما تُعرف الآن باسم (إسطنبول).

أربعمئة وواحد وثمانون جامعاً لا يكاد يخلو جامع فيها من ضريح، وتنافس الملوك والأمراء على تشييدها، وتعلّق الناس بها^(١).

ووصل الأمر أحياناً أن يبنى على قبر صعلوك -كان قاطع طريق- جامع وقبة، كما صنع الخديوي إسماعيل سنة ١٢٨٠هـ / ١٨٥٩م برجلاً يُدعى صالح أبو حديد كان قاطع طريق، فصار يعمل له حضرة كل أسبوع، ومولد كل عام^(٢).

ومن أمثلة القبور المعاصرة أيضاً التي غلا فيها الناس غلوّاً فاحشاً قبر محيي الدين بن عربي صاحب كتاب «فصوص الحکم»، صاحب القول بوحدة الوجود والحلول والاتحاد، وزعيم الفلاسفة القائلين بهذه المقولة المَكْفُرة.

ومن تلك القبور أيضاً قبر أحمد التيجاني، زعيم طائفته، ورائد التضليل، الذي شرّع بمشورة الفرنسيين الطريقة المنسوبة إليه، والقائل: إن «جوهرة الكمال» أفضل من القرآن الكريم سبعمئة مرة، وكذا القائل بأن الورد المعروف بـ«صلاة الفاتح»، والذي تردده الطائفة التيجانية في أفريقيا صباحاً ومساءً، تكفي **قراءتها** وتلاوتها عن القرآن الكريم.

وقبر هذا الزعيم أحمد التيجاني يعتبر وثناً يعبد من دون الله، ويَحجج له الناس تعبدًا لنيل البركات^(٣).

(١) كتاب «بدع الاعتقاد» لمحمد حامد الناصر (ص ٢٦٦-٢٦٧).

(٢) عزاه صاحب كتاب «بدع الاعتقاد» في (ص ٢٦٧) لكتاب «الخطط التوفيقية» (٢٨٨/٣) باشا مبارك.

(٣) من مقال: «من لهذه الوثنية المتعددة؟» للشيخ إسماعيل بن سعد بن عتيق، انظر «دمعة علي»

وقد لوحظ أيضًا عدم اقتصار اتخاذ القباب على قبور المعظمين في المسلمين، بل من شدة الجهل والغفلة اتُّخذت قبة على مقبرة الرفيق الصيني الشيوعي يانغ تشي تشنغ، في ود مدني، ولوحظ كذلك أن بعض هذه القباب يتوسط المساكن^(١).

ويذكر الجبرتي أنه في سنة ١٢٠٧ هجرية مات رجل يدعى السيد علي البكري، وكان يمشي في الأسواق عريانًا، ويخلط في كلامه، فلما مات أقام له أخوه مشهدًا ودعا الناس له، فاجتمع الناس لمشهده من كل ناحية وعملوا على قبره مقصورة، وازدحم عنده أصناف الخلائق^(٢).

ومن مظاهر الغلو في القبور ما أشار إليه الإمام الصنعاني رحمته الله في قصيدته التي أرسلها إلى شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب^(٣) رحمته الله، واصفًا فيها حال بعض أهل زمانه في غلوهم بالقبور، قال فيها:

التوحيد» (ص ٥٧).

(١) من مقال «الأضرحة في العالم الإسلامي.. مشاهد متفرقة»، انظر «دمعة على التوحيد» (ص ٤٢).

(٢) «عجائب الآثار» للجبرتي، (حوادث سنة ١٢٠٧ هجرية).

(٣) الشيخ محمد بن المجددين لما اندرس من معالم دين الإسلام في شبه الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر الهجري، أحيا الله به الدين إلى يومنا هذا، ونفع به وبمؤلفاته، كلامه في العقيدة مبثوث في كتبه، وُلِدَ الشيخ محمد سنة ١١١٥ هـ وتوفي سنة ١٢٠٦ هـ، وكل من جاء بعده من علماء الجزيرة العربية عيالٌ عليه إلى يومنا هذا.

انظر ترجمته في كتاب «علماء نجد خلال ثمانية قرون» للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسّام، وانظر لزامًا كتاب «عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية» للشيخ د. صالح بن عبد الله العبود.

أعادوا بها^(١) معنى سُواعٍ ومثله
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها
وكم عقروا في سُوحها^(٢) من عقيرة
وكم طائف حول القبور مُقَبِّل
يغوث ووَدَّ بئس ذاك من وَدَّ
كما يهتف المضطر بالصَّمد الفرد
أُهَلَّتْ لغير الله جهلاً على عمد
ويلتمس الأركان منهمن بالأيدي

قال الشيخ أحمد بن يحيى النجمي رحمه الله تعالى:

«وبعد أن فرغ منهم الشيطان في عبادة النبي ﷺ بما بالغوا فيه من تعظيمه، انتقل بهم إلى عبادة الأولياء والصالحين ومشايخ الطرق والمخدومين، ثم انتقل بهم إلى عبادة الأشجار والأحجار والمقامات المختلفة والقبور المزورة، والمشاهد المكذوبة وغير المكذوبة.

ولقد حَدَّثَنِي ثقة من علماء الهند بقصة محصَّلتها أَنَّ رجلاً من المسيحيين^(٣) كانت له مزرعة في الهند زمن الاحتلال البريطاني له، وكان يعمل معه فيها شاب مسلم، فمات كلب البريطاني فتأسف عليه، وأمر الشاب أن يحفر له قبراً في المزرعة،

وله ترجمة حافلة بقلم حفيده الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله، وهي مُثبتة في «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (٣/ ٣٧٨ - ٤٢٩)، وكذا في «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (١/ ٣٧٢ - ٤٣٩).

(١) أي: بفعل تلك المظاهر.

(٢) أي: ساحات تلك القبور.

(٣) الأوَّلَى أن يقال: (النصارى)، هذا هو التعبير القرآني، والنصارى يُسمُّون أنفسهم بالمسيحيين، والمسيح من غُلُوهم فيه براء.

فدفنه فيه ثم بنى عليه قبة، وبعد أن انتهى الاحتلال ارتحل البريطاني وانتقلت المزرعة إلى أيدي بعض المسلمين هناك، فلما رأوا القبة ظنوا أنها على وليّ فعبدوها، وكانوا يقيمون لها زيارة، وكان الشاب الذي حفر القبر وحضر القصة قد غاب عن ذلك البلد، ثم عاد إليه بعد زمن طويل، فرآهم يقيمون زيارة لتلك القبة، فجاء وأخبرهم خبرها فكذبوه وضربوه، فمكث حتى الليل وذهب فحفر تحت القبة حتى وجد عظام الكلب ورأسه، فوضعها لهم على القبة، ومن هنا نعلم مدى ما وصل إليه بعض المسلمين من الخُذْلان، والعياذ بالله^(١).

ولو ذهبنا نستقرئ الأمثلة على مظاهر الغلو في أصحاب القبور لطال الكلام وملّ القارئ، ومن أراد الاستزادة فعليه بالمراجع التالية:

١. «دمعة على التوحيد»، وهو من منشورات مجلة البيان بلندن، وقد حوى مقالات مفيدة في مظاهر الغلو في القبور.
٢. «الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر» لبخيت الزهراني.
٣. «موالد مصر المحروسة» لعرفة عبده علي.
٤. «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون» لسعاد ماهر فهمي.
٥. «السيد البدوي ودولة الدراويش في مصر»، لمحمد فهمي عبد اللطيف.
٦. «الصُوفية والسياسة في مصر» لعمّار علي حسن.
٧. «بدع الاعتقاد» لمحمد حامد الناصر.

(١) أوضح الإشارة في الرد على من أجاز الممنوع من الزيارة، (ص ٤٣٣ - ٤٣٤).

٨. «موالد الأولياء في مصر» لهيام فتحي دربك.
٩. «الطرق الصُوفية بين الساسة والسياسة» للدكتور زكريا سليمان بيومي.
١٠. الجزء السابع والعشرون من «مجموع فتاوى ابن تيمية»
١١. «الفكر الصُوفي في ضوء الكتاب والسنة» لعبد الرحمن عبد الخالق.
١٢. «اعترافات.. كنت قبوريًّا» لعبد المنعم الجدّاوي.
١٣. «هذه هي الصوفية» لعبد الرحمن الوكيل.
١٤. «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» أو «تاريخ الجبرتي» لعبد الرحمن بن حسن برهان الدين الجبرتي^(١).
١٥. «الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ»، لمحمد عبد الرؤوف القاسم.
١٦. «الأضرحة وشرك الاعتقاد» للدكتور عبد الكريم دهينة.
١٧. «الآثار الإسلامية(!) في مصر من الفتح العربي حتى نهاية العصر الأيوبي»، لمصطفى عبد الله شبيحة.
١٨. «الوثنية في ثوبها الجديد» لسمير شاهين.
١٩. مقال «تأملات في حقيقة أمر أولياء الله الصالحين» لحسين أحمد أمين.
٢٠. مقال «المزارات في شرق الأردن».



(١) هذا الكتاب يُعتبر من أهم الكتب في تاريخ مصر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجري.

عوامل بقاء الفكر القبوري

- ❁ الانتفاع المادي من قبل سَدَنَةِ القبور
- ❁ الانتفاع المعنوي المتمثل بِالْوَجَاهَةِ (والشَّرَف) اللذين يتمتع بهما القائمون على قبور (الأولياء) من السَدَنَةِ ونحوهم
- ❁ تعظيم بعض الحكام للقبور
- ❁ تَبَنَّى بعض (علماء) تلك البلاد لهذا الفكر والدعوة إليه
- ❁ استفادة الحكام من مشائخ القبورية في تطويع الدين حسبما شاءوا لتحقيق مصالحهم الشخصية
- ❁ الاستغلال الحزبي السياسي لحشد التأييد الشعبي
- ❁ دعم المستعمرين (المُخَرَّبِينَ) لهذا الفكر لتحقيق مآربهم
- ❁ الاستعمارية
- ❁ دعوى المحافظة على (التراث)
- ❁ تناقل التراث العلمي (الهَدَام) الذي يُقرر الغلو بالقبور جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، في الكتب والرسائل وغيرها
- ❁ قلة العلم وكثرة الجهل
- ❁ تقليد الآباء والأجداد



لقد نَخَرَ الفكرَ القبوري في جسد الأمة الإسلامية لعدة قرون، وقد كان لهذا النخر أحد عشر رافدًا، هذا أوان الشروع في ذكرها:

١. الانتفاع المادي من قِبَل سَدَنَةِ القبور -وهم خُدامها والمُتَوَلُّون أُمورها- وأهل البلد التي فيها قبور معظمة، وكذا خِزانات بعض الدول!

أما السدنة، فإن عوائد القبور عليهم تعتبر مصدرًا أساسيًا للرزق عندهم، فالألوف من سدنة القبور تُصرف لهم إعانات مادية من وزارات الأوقاف والشئون الاجتماعية كما يُصرف لغيرهم من أصحاب الوظائف الدينية كالقضاة والمدرسين وأئمة المساجد.

وهناك موارد أخرى غير رسمية تدخل عليهم من وراء رعايتهم وخدمتهم للقبور، فالنذور والصدقات التي تُدفع لتلك القبور من قِبَل زُوارها الذين يأتونها من كل فج تعتبر دافعًا هامًا من دوافع استمرار السدنة في تلك الوظائف، ناهيك عن الذبائح والأنعام التي تُساق إلى هناك، وصدق الشاعر الكبير حافظ إبراهيم رحمه الله حين قال:

أحيًاؤنا لا يُرزقون بدرهمٍ وبألف ألفٍ يُرزق الأموات
مَن لي بحظِّ النائمين بحفرةٍ قامت على أحجارها الصَّلوات

أما عند تغيير كسوة الضريح وعمامة الولي - مثلاً -، فالسدنة يقومون بعملية تجارية غير رسمية، فإنهم يمزقون الكسوة والعمامة القديمتين إلى قُصاصات صغيرة، ثم يبيعون هذه القصاصات نظير مبالغ كبيرة.

ولستُ بمفشيٍّ سرًّا إن قلت إن بعض سدنة القبور من أغنى الناس في تلك البلاد^(١).

هذا في سائر أيام السنة، أما في أيام الموالد التي تقام تكريمًا لأصحاب تلك القبور والأضرحة فلا تسأل عن استفادة أهل تلك البلد -من غير السدنة- من الحركة التجارية التي ليس لها نظير في موسم المولد، فالمطاعم والمقاهي تستقبل رؤّادها على مدار الساعة، ومبيعات البخور والعطور -المستعمل لتطيب الضريح- يصل إلى أعلى معدلاته، وكذا غيرهم من التجار يستفيدون بما يدخل عليهم من ريع الإيجارات وبيع السلع للزوار والسُّياح (والحُجَّاج)، حتى إن بعض التجار يُعلقون أداء ديونهم على موسم المولد!

بل إن صناديق النذور والأوقاف التي تُوقف على تلك القبور تعتبر أحد الموارد الاقتصادية لبعض الدول التي فيها جمعٌ من تلك الأضرحة.

٢. العامل الثاني من عوامل بقاء الفكر القبوري هو الانتفاع المعنوي المتمثل بالوجهة (والشرف) اللذين يتمتع بهما القائمون على قبور (الأولياء) من السدنة ونحوهم، فخادم الضريح له مكانة ووجهة بما (تشرف) به من خدمة الضريح، وبما انتقل إليه من بركة صاحب الضريح بسبب مجاورته لذلك الميت (ورضاه) عنه، بل ربما تمسح بذلك الخادم بعض الزوار (لنيل البركة).

ومن العجائب أن وجود الأضرحة في بعض المجتمعات ربما كان سببًا للفخر

(١) بتصرف من مقال: «عاصفة الأوهام» لخالد محمد حامد، وهو منقول برمته في كتاب «دمعة على التوحيد»، والمنقول يقع في (ص ١٧٣).

على مستوى البلد، فأهل البلد التي فيها قبور ربما افتخروا بكثرة قبور (الأولياء) عندهم على من ليس عندهم قبور أو أقل منهم.

والحق أن وجود قبور الصالحين في بلد ما لا يُعدُّ مفخرة في دين الإسلام، ولو كان الأمر كذلك لافتخر الصحابة في المدينة على من هم بخارجها بوجود القبر النبوي فيها وقبور الصحابة والتابعين وشهداء أحد التي تُعد بالألوف، ولكن لم يكن من ذلك شيء، بل إنهم لم يتعرضوا للقبر النبوي ولا غيره من القبور بشيء إطلاقاً، لا خدمة ولا كسوة ولا غير ذلك، مع كونهم هم أعرف الناس بحقوق النبي ﷺ وحقوق الصحابة، وهم أفضل الأمة إلى قيام الساعة.

٣. العامل الثالث من عوامل بقاء فكر تعظيم القبور هو تعظيم بعض الحُكَّام

للقبور، ولا يخفى على القارئ ما لولاية الأمر من صلاحية ونفوذ لنصرة الحق أو الباطل إلا ما شاء الله، ومن أولئك الحكام الذين عَظَّمُوا القبور وشيّدوها عبيد الله بن السري بن الحكم، والي الأمويين على مصر، فإنه أول من بنى ضريحاً على قبر السيدة نفيسة بالقاهرة (١).

وأما السلطان قلاوون الصالحى فهو أول من أنشأ قبة على قبر النبي ﷺ، وكان ذلك في سنة ٦٧٨ هـ (٢).

(١) عزاه صاحب المقال المنقول منه إلى «مساجد مصر وأولياؤها الصّالحون» (١/ ١٢٦)، انظر «دمعة على التوحيد» (ص ١٧٩).

قلت: ولهذا كان الدعاء للولاية بالهداية للحق من أهم الأمور عند أهل السنة والجماعة، فإن الوالي إذا كان ضالاً نشر ضلاله بقوة السلطان، والله المستعان.

(٢) عزاه صاحب المقال المنقول منه إلى «تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة» (ص ٨١)،

أما الدولة العثمانية، فقد فاقت مَصْرُوفاتها على ضريح الجيلاني في السنة الواحدة ما كانت تصرفه على الحرمين الشريفين أضعافاً مضاعفة^(١).

والعثمانيون - كما هو معلوم - اعتنقوا الإسلام على يد مشائخ الطرق الصوفية قبل استقرارهم في آسيا الصغرى^{(٢)(٣)}، وهم أصحاب الدِّعم القوي للغلو في القبور.

وعلى الجانب الآخر، فلَوْلَاة التوحيد شأن آخر مع تعظيم القبور، ومن ذلك ما كتبه الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى سليمان باشا - من ولاية الدولة العثمانية -، قال فيه:

«وقد رأينا لَمَّا فتحنا الحجرة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام عام اثنين وعشرين^(٤) رسالة لسلطانكم سليم، أرسلها ابن عمه إلى رسول الله ﷺ يستغيث به ويدعوه ويسأله النصر على الأعداء من النصاري وغيرهم، وفيها من الذل والخضوع والعبادة والخشوع ما يشهد بكذبكم.

وأولها: «من عُبَيْدِكَ^(٥) السلطان سليم وبعد: يا رسول الله، قد نالنا الضر، ونزل بنا من المكروه ما لا نَقْدِر على دفعه، واستولى عُبَاد الصليبان على عُبَاد الرحمن،

=

انظر «دمعة على التوحيد» (ص ١٧٩).

(١) انظر «الانحرافات العقدية» (ص ٣٠٨).

(٢) آسيا الصغرى هي تركيا.

(٣) عزاه صاحب المقال المنقول منه إلى «الطرق الصوفية بين الساسة والسياسة»، انظر «دمعة

على التوحيد» (ص ١٨٤).

(٤) بعد المائة الثانية عشرة.

(٥) انظر إلى التصريح بعبادة الرسول ﷺ!

نسألك النصر عليهم والعون عليهم، وأن تكسرهم عنا»، وذكر كلامًا كثيرًا هذا معناه وحاصله»^(١).

وهكذا بعض سلاطين دولة المماليك، فالسلطان قايتباي -مثلاً- كان كثير الإعجاب بالبدوي والاعتقاد فيه، وقد زار ضريحه عام ٨٨٨ هجري، ووسّع في مقامه، وشيّد له المباني العظيمة، وقد كان السلطان قايتباي هذا **يعتقد في الشيوخ والأولياء عامة**، وكان كثير الانجذاب إليهم والإقبال عليهم^(٢).

وفي المغرب عندما تولى السلطان الحسن بن محمد (المتوفى سنة ١٣١١هـ) مقاليد الحكم في بلاده، سارع إلى تقديم الذبائح إلى الضريح الإدريسي^(٣).

وقد كان لسلاطين اليمن القدماء قَصْبُ السبق في هذا، فالإمام عبد الله بن حمزة الذي عاش في آخر القرن السادس وأوائل القرن السابع هو أول من سَنَّ لأئمة الزيدية - أي حكامهم - سُنَّة البناء على المشاهد، ولم يُسجل لأحد قبله شيء من هذا، وأول قبة بنيت في حضرموت هي قبة السلطان مسعود بن يمان، المتوفى سنة ٦٤٨هـ.

ومُعظم المشاهد المعظمة في الديار الزيدية هي للأئمة وحواشيهم، وقل أن تجد مشهدًا لرجل فقير أو ضعيف، ولا حول ولا قوة إلا بالله، جعلوا الدين مطية للأطماع الشخصية.

(١) «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (١/ ٣٠٤).

(٢) عزاه صاحب المقال المنقول منه إلى كتاب «السيد البدوي ودولة الدراويش» (ص ١٤١)، انظر «دمعة على التوحيد» (ص ١٨٤).

(٣) انظر كتاب «الانحرافات العقدية» (ص ٣٣١).

وكذلك سلاطين الدولة الأيوبية- وهم معاصرون للدولة الزيدية ومنافسون لهم -، دُفن معظم سلاطينها في قباب خاصة.

وعلى أنقاض الدولة الأيوبية جاءت الدولة الرسولية المنسوبة إلى مؤسسها نور الدين عمر بن علي بن رسول (٦٤٧ هـ)، الذين رَسَخُوا القبور في اليمن خلال قبور سلاطينهم، وتَبَنَّوا بناء بعض المشاهد على قبور من يُعتقد فيهم الصلاح، كمشهد أحمد بن علوان^(١).

٤. **الرافد الرابع من روافد تعظيم القبور في بعض البلاد** هو تَبَنِّي بعض (علماء) تلك البلاد لهذا الفكر والدعوة إليه، وحدث عن آثار فساد عقائد العلماء على البلاد والعباد ولا حرج، فزلل العلماء -بحسن نية أو سوء نية- هو الحِجَاب الأكبر بين أكثر العوام وبين الفهم الصحيح لمقاصد الدين، ونصوص الكتاب والسنة وما فيهما من الدين والهدى، لأن الناس -في الغالب- تبع لعلمائهم في الأمور الدينية، وقد حذر النبي ﷺ من زلة العالم، فقد روى البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَشَدَّ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي ثَلَاثُ: زَلَّةُ عَالِمٍ، وَجِدَالُ مُنَافِقٍ بِالْقُرْآنِ، وَدُنْيَا تَقْطَعُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ»^(٢).

(١) ما تقدم من مظاهر الغلو في بلاد اليمن هو ملخص من الصفحات (٢٦٣-٢٧٣) من كتاب «القبورية.. نشأتها، آثارها، موقف العلماء منها» للشيخ أحمد بن حسن المعلم حفظه الله، الناشر: دار ابن الجوزي- الدمام.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٣١١)، (١٠٣١٣)، وقد أعله الدراقطني مرفوعاً، ورجحه موقوفاً كما في «العلل المتناهية» لابن الجوزي، (ص ١٣٩).

كما حذر النبي ﷺ من الأئمة المضلين، أي علماء السوء - فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»^(١).

وقال عمر رضي الله عنه: «يُفسد الزمان ثلاثة: أئمة مضلون، وجدال منافق بالقرآن والقرآن حق، وزلة العالم»^(٢).

ومن أمثلة ذلك الانحراف عند بعض المنتسبين للعلم ما قاله الشيخ يحيى بن حمزة - كما نقل عنه الإمام المهدي في كتابه «البحر الزخار»:-

مسألة (ي): ولا بأس بالقباب والمشاهد على الفضلاء، لاستعمال المسلمين ولم يُنكر.

ثم تبعه الإمام المهدي في كتابه «الأزهار في فقه الأئمة الأطهار».

وقدرّد عليه الإمام الشوكاني (رحمته الله) في كتابه: «شرح الصدور في تحريم رفع القبور».

٥. العامل الخامس من عوامل بقاء فكر تعظيم القبور هو استفادة الحكام من مشائخ القبورية في تطويع الدين حسبما شاءوا لتحقيق مصالحهم الشخصية، كأعياد الميلاد وأبهة السلطان وليقال إنه رجل صالح يحب الأولياء^(٣)، بمقابل مادي أو بغير مقابل، فقد «كانت الصوفية في عهد الملكية في مصر تُضفي طابعًا دينيًا على المناسبات الخاصة المتعلقة بالحكام كالاحتفال بعيد ميلاد الملك، وإحياء

(١) رواه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢٢٩)، وأحمد (٢٧٨/٥)، وصححه الألباني.

(٢) رواه البيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (٨٣٣).

(٣) سيأتي بعد قليل ذكر استغلال الحكام لمشائخ القبورية لتحقيق المصالح السياسية.

الذكريات الحزينة لوفاة مَنْ يموت من الأسرة الملكية، وبالمقابل تتلقى تلك الطرق من الحكام ما تتلقاه من المكافآت المادية والمعنوية.

ولهذا بُسِطت حماية رسمية على تلك الطرق الصوفية ورموزها وأوقافها، ومُهدت لها طرق الانتشار والتغلغل الآمن في الأوساط العامة، ولو بدون اقتناع بتلك الطرق من الساسة^(١) «(٢)».

بل قد استغل الحكام بعض علماء الصوفية القبورية لإلهاء الشعب عنهم، كما قال الباحث علي بن بخيت الزهراني حفظه الله: «وكان كثيرٌ من الملوك والحكام في ذلك الزمن يلجأون إلى عمارة تلك الأضرحة والإنفاق عليها، ليس إيماناً بها بقدر ما كان إرضاءً لمشاعر الناس ومحاولةً لكسب ولائهم والعمل على إلهائهم بتلك الأضرحة التي تُعبد من دون الله ﷻ، واطمئناناً على الأقل من ثوراتهم وتمرداتهم نتيجة لما كان يمارسه هؤلاء الحكام من ظلم وطغيان.

بل لقد كان ذلك علامة على صلاح وعدل مَنْ يفعله من الحكام والأمراء، فمن كان منهم مُكرِّماً للأولياء -بزعمهم- يبني الأضرحة على قبورهم، ويُشيّد القباب عليها، ويزور تُربّهم، ويمرغ خديه على عتباتهم؛ فهو الحاكم الصالح المحبوب عند رعيته ولو كان من أظلم الظالمين»^(٣).

(١) فكيف إذا كان باقتناع؟!

(٢) من مقال: «سيف السياسة بين نصرة الحق ومظاهرة الباطل»، لعبد العزيز مصطفى، وهو منقول في كتاب «دمعة على التوحيد» (ص ٢٠٥-٢٠٦)، بتصرف يسير.

(٣) انظر «الانحرافات العقدية»، ٢٩٦-٢٩٧.

٦. العامل السادس من عوامل بقاء فكر تعظيم القبور هو الاستغلال الحزبي السياسي لحشد التأييد الشعبي، فقد استغل العلمانيون والشيوعيون الطرق الصوفية (والتي من أهم مبادئها تعظيم القبور) التي خدّرت مشاعر الناس وصرفت أنظارهم عن مزاحمتهم أو حتى الإنكار عليهم، وذلك باسم التوكل والإيمان بالقدر والزهد وترك مباهج الحياة والانصراف عن الدنيا، فحزب «الوفد» العلماني استفاد من «الطريقة البغدادية» وشيخها سيد عفيفي البغدادى لحشد التأييد الشعبي له، وكذا استفاد من «الطريقة العفيفية» وشيخها عبد العزيز عفيفي لحشد التأييد الشعبي له أيضًا، بل بلغت المهزلة إلى حدّ أن تولّى مشيخة تلك الطريقة بعد وفاة شيخها أحد أعضاء هذا الحزب العلماني وهو أحمد الساكت^(١)!

ليس العلمانيون فحسب، بل قد وجد الاشتراكيون في مصر ضالّتهم عند هؤلاء القُبوريين السذج، ولهذا لما قامت الثورة الاشتراكية، جعلوا منصب شيخ مشائخ الطرق الصوفية لا يتولاه أحد إلا بقرار من الحاكم السياسي، وليس بقرار من «المجلس الصوفي الأعلى» كما كان الأمر من قبل^(٢).

وبعد صدام الدولة المصرية مع جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٥٤م، أدرك النظام أنه لا بد من إيجاد بديل يُقدّم للناس على أنه التدين الذي تقبله الدولة، فأقدم

(١) من مقال «سيف السياسة بين نصره الحق ومظاهرة الباطل»، لعبد العزيز مصطفى، انظر «دمعة على التوحيد» (ص ٢٠٧).

(٢) من مقال: «سيف السياسة بين نصره الحق ومظاهرة الباطل»، لعبد العزيز مصطفى، انظر «دمعة على التوحيد» (ص ٢٠٨).

عبد الحكيم عامر على إقالة شيخ مشايخ الطرق المنتخب (أحمد الصاوي)، وعيّن (محمد محمد علوان) شيخ مشايخ الطريقة الخلوتية شيخاً عاماً للطرق الصوفية منذ أن طبقت لائحة المجلس الصوفي الأعلى عام ١٩٠٣م، وتم هذا في إطار نظام إصلاح الطرق الصوفية الذي تولى عبد الحكيم عامر الإشراف عليه، فاستسلمت جماهير الطريقين للمصلح الجديد (عبد الحكيم عامر)، واستكانت لتوجيهاته طوعاً أو كرهاً، خاصة بعد أن رأوا كيف فعلت الدولة بأكبر وأقوى تجمع إسلامي في مصر، وهم الإخوان.

ثم أصبح للطرق الصوفية مجلة تصدر عن مجلسهم الأعلى، وكانت شبه ناطقة باسم الحكومة، ومُسَوَّغة لكل إجراءاتها الثورية الاشتراكية.

لقد وجد كثير من الناس في الطرق الصوفية سبيلاً إلى ممارسة التدين بطريقة مأمونة تحت المظلة الحكومية، فانتعش الوجود الصوفي الطُّرقي في تلك الحقبة بكل ما يعنيه وما يترتب عليه من انتشار الخرافة والدجل والبدعة، التي لا يؤمن بها الثوريون أصلاً ولا بغيرها من قيم الدين الصحيحة، ولكنهم وجدوا في الصوفية ضالتهم إلى إفراغ الإسلام من محتواه الإصلاحية الحقيقي، لتصنع منه خادماً لأصول الاشتراكية الثورية.

ولما أثبتت الصوفية جدارتها وصدقها مع الحزب الاشتراكي؛ دفعت السلطة بحزبها السياسي الوحيد في ذلك الوقت وهو (الاتحاد الاشتراكي) لكي يستغل احتفالات الصوفية ونشاطاتها ليوزع المنشورات ويطلق الشعارات وربما الشائعات للدعاية للنظام.

وظلت السلطة مستمرة في دفع عجلة الصوفية للأمام على حساب الاتجاهات الدعوية الأخرى، حتى إنها صدّرت رجلاً من رجالها وهو (أحمد رضوان) وأقحمته لرئاسة مشيخة الطريقة (الخلوتية) التي كانت تدعمها الحكومة أكثر من غيرها.

ولما توفي الشيخ الحكومي سنة ١٩٦٧م بُني له ضريح، ونُسجت حوله الأساطير، وأسندت إليه الكرامات والخوارق والمعجزات، التي ربما لم يُسمع عنها غيره، وربما لم يعلم هو عنها شيئاً طيلة حياته.

وقد استمر الدعم الحكومي للطُّرقية بعد عهد عبد الناصر، حتى أصبحت الطرق الصوفية التي تَقَرَّب من الخمسين طريقة هي **النشاط الديني الوحيد التابع لرئاسة الجمهورية رأساً، وله ميزانيته الخاصة في الدولة^(١).**

بل قد استغل السياسيون الفكر القبوري **لضرب الاتجاهات الدينية المعارضة لهم**، «فرغم إعلان السياسيين العلمانيين أن لا دين في السياسة، ولا سياسة في الدين، إلا أننا رأيناهم **يدعمون القبورين بانتهازية** واضحة، باعتبارها مظهرًا من (مظاهر الدين) يمكن ضرب الصحوة الإسلامية به.

يقول الباحث عمار على حسن: «النظام الحاكم كان معنيًا بدرجة كبيرة أن يقدم نفسه في صورة المُدافع عن الإسلام في وجه جماعات (العنف والإرهاب) ودعاة (التطرف والخروج)، فالإستراتيجية التي تبنتها الحكومة لم تُقابل أفكار الجماعات

(١) بتصرف يسير من مقال «سيف السياسة بين نصره الحق ومظاهرة الباطل»، لعبد العزيز مصطفى، انظر «دمعة على التوحيد» (ص ٢٠٨ - ٢٠٩).

الإسلامية بأفكار علمانية، ولكن كانت الخطة هي منافسة هذه الجماعات داخل مساحة الإسلام نفسها، لتميع الموقف وسد الطريق أمام هذه الجماعات، ولذا نجد أن الخطاب الذي واجه به نظام مبارك هذه الجماعات كان خطاباً دينياً أيضاً يعتمد على طرح ديني مغاير، ويجعل الصراع بين الجماعات والحكومة ليس صراعاً بين الإسلام و (اللا إسلام)، ولكنه صراعٌ على تطبيق (الإسلام الصحيح)، والذي يرى كل منهما أنه هو الذي يمثله.

على هذا الأساس خُلِقت الظروف الملائمة **لتحالف النظام مع الصوفية ضد الجماعات الإسلامية، فالنظام يلتحف بها** باعتبارها طَرحاً دينياً له مكانته لدى المصريين، ليُحسن صورته أمام الرأي العام بأنه يحترم حدود الدين، والصوفية تحتمي بالنظام من جماعات الإسلام السياسية التي تهدد الصوفية بحرق وتدمير الأضرحة، وتسعى إلى تقويض أركان التصوف من منبعه، ومن هذا المنطلق استمر المسؤولون في حرصهم على حضور الحفلات الصوفية المختلفة في كافة أنحاء مصر»^(١).

٧. العامل السابع من عوامل بقاء الفكر القبوري دعم المستعمرين (المُخَرَّبِينَ) لهذا الفكر لتحقيق مآربهم الاستعمارية، فلم يكن المحتلون الإنجليز والفرنسيين (قبل الساسة) أقل ذكاءً عن الأحزاب السياسية الحاكمة بغير ما أنزل الله، فإنَّ الإنجليز لما أدركوا دور الفكر الصوفي في تخدير مشاعر الناس وصرف الأنظار

(١) عزاه صاحب المقال المنقول منه إلى كتاب «الصوفية والسياسة في مصر» (ص ١٠٣ - ١٠٤)، باختصار وتصرف يسير، انظر «دمعة على التوحيد» (١٨٦ - ١٨٧).

عن مزاحمتهم أو حتى الإنكار عليهم؛ اجتهدوا في دعم الفكر الصوفي القبوري ليحتلوا بلاد المسلمين، «ولهذا حرصت سلطات الاحتلال في مصر وغيرها على إطلاق يد الطرق الصوفية في ممارسة أنشطتها، وقد ساعد على ذلك سيطرة سلطات الاحتلال على وزارة الداخلية، مما مكَّنها بالتالي من السيطرة على تلك الطرق ومعرفة تحركاتها وأساليبها وتوجيهها إلى الوجهة التي تضمن للمحتل خدمات أكثر، فما كان من سلطات الاحتلال إلا أن احتضنت الطرق الصوفية في البلاد التي بسطت سلطانها عليها»^(١)، فسُهِلت السيطرة على تلك البلاد.

وقد قام أولئك القبوريون الدراويش برد الجميل لأولئك المحتلين الغزاة، فكانوا يُضفون الشرعية على وجودهم، يسوِّغون للناس بقاءهم، ووصل الأمر إلى أن بعض مشايخ الصوفية في مصر قاموا بجمع توقيعات أثناء ثورة ١٩١٩م تطالب ببقاء الإنجليز في مصر! وكان من هؤلاء شيخ الطريقة (السمانية): محمد إبراهيم الجمل^(٢).

ومن أمثلة ذلك في الواقع القصة التي تقدم ذكرها عند احتلال فرنسا للقيروان في تونس، وكذلك القصة التي ذكرها الباقوري عن أحد كبار المستشرقين في وصف أساليب استغلال المستعمرين للفكر الصوفي القبوري لتسهيل مهماتهم، وقد تقدم ذكرهما في الفصل السابق: (أثر الفكر القبوري على عمارة الأرض).

(١) من مقال «سيف السياسة بين نصره الحق ومظاهرة الباطل»، لعبد العزيز مصطفى، انظر «دمعة على التوحيد» (ص ٢٠٥).

(٢) انظر الهامش السابق، ص (٢٠٤ - ٢٠٥).

وقال الشيخ الإمام محمد البشير الإبراهيمي^(١) رَحِمَهُ اللهُ:

«وسر ما شئت في جميع الأوقات، وفي جميع طرق المواصلات تر القباب البيضاء لائحة في جميع الثنايا والآكام ورءوس الجبال، وسل تجد القليل منها منسوباً إلى معروف من أجداد القبائل، وتجد الأقل مجهولاً، والكثرة منسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني.

واسأل الحقيقة تجبك عن نفسها بأن الكثير من هذه القباب إنما بناها المعمارون الأوروبيون^(٢) في أطراف مزارعهم الواسعة، بعدما عرفوا افتتاح هؤلاء المجانين بالقباب، واحترامهم لها، وتقديسهم للشيخ عبد القادر الجيلاني، فعلوا

(١) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وُلد في الجزائر عام ١٣٠٦ هـ، الموافق سنة ١٨٨٩ م، حفظ القرآن ومتون العلم، وتلقى علوم الدين والعربية في بيت أسرته، وهبه الله حافظه خارقة، وذاكرة عجيبة، رحل إلى المدينة النبوية وتلقى فيها علم التفسير، وعلم الحديث، رواية ودراية، وعلم الرجال وأنساب العرب.

في عام ١٣٤٩ هـ - الموافق ٥ مايو ١٩٣١ ميلادية - أسس جمعية العلماء مع العلامة عبد الحميد بن باديس، ثم عُيِّن رئيساً لها بعد وفاة ابن باديس.

زار العديد من الدول لأجل نصرته قضايها بلده وبالأخص قبول البعثات العلمية للطلبة الجزائريين.

جُمعت مقالاته وكلماته في خمس مجلدات بعنوان: «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي».

توفي عام ١٣٨٥ هـ، الموافق ١٩٦٥ م.

المرجع: «آثار الإمام مُحَمَّد البَشِير الإبراهيمي» (٥/٢٩٠)، جمع وتقديم نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، الناشر: دار الغرب الإسلامي.

(٢) المعمارون: أناس مدينون أتت بهم فرنسا للاستثمار في الجزائر، ومنحتهم أراضي وبيوت الجزائريين، ووظفوا لهم من الجزائريين عمالاً يعملون عندهم في مزارعهم وأعمالهم.

ذلك لحماية مزارعهم من السرقة والإتلاف، فكل مُعَمَّر^(١) يبني قبة أو قبتين من هذا النوع يأمن على مزارعه السرقة، ويستغني عن الحُرَّاس ونفقات الحراسة، ثم يترك لهؤلاء العميان -الذين خسروا دينهم وديارهم- إقامة المواسم عليها في كل سنة، وإنفاق النفقات الطائلة في النذور لها، وتعاهدا بالتبويض^(٢) والإصلاح.

وقد يحضّر المُعَمَّر معهم الزّردة^(٣)، ويشاركهم في ذبح القرابين، ليقولوا عنه إنه مُحَبَّبٌ في الأولياء^(٤)، خادمٌ لهم، حتى إذا تمكّن من غرس هذه العقيدة في نفوسهم راعَ عليهم نزعًا للأرض من أيديهم، وإجلًا لهم عنها، وبهذه الوسيلة الشيطانية استولوا المُعَمَّرُونَ على تلك الأراضي الخصبة التي أحالوها إلى جنّات، زيادة على الوسائل الكثيرة التي انتزعوا بها الأرض من أهلها^(٥).

قلت: الفرنسيون فعلوا هذه الخرافة ليس عن اقتناع بها، بل هو من باب الحيلة على الجزائريين حتى يمتنعوا عن التّعدي على ممتلكات أولئك المعمرين، التي هي في الحقيقة أراضي الجزائريين، سلبها الفرنسيون المستعمرون وأعطوها للمعمرين ليستثمروها في الزراعة.

(١) أي: المُستعمر.

(٢) أي: بصبغها باللون الأبيض.

(٣) الزّردة: نوع من الاحتفالات تقام عند قبور من يوصفون بالأولياء، ويطاف في تلك الاحتفالات بقبورهم، وتُذبح لهم الذبائح تقريبًا إليهم، ثم يُطبخ الطعام، ويوزعونه على الحاضرين، وأهل الحق والتوحيد يسمون هذه الاحتفالات بأعراس الشيطان، لما يقع عندها من البدع والشرك.

(٤) أي أن الأولياء المقبورين يُحبونه.

(٥) «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي» (٣/ ٣٢١)، جمع: أحمد طالب الإبراهيمي حفظه الله.

فانظر إلى أي حدّ وصل تأثير الخرافة على هؤلاء الصوفية القبورية المنتسبين للإسلام، أضاعوا التوحيد، فأضاعوا دينهم ودنياهم.



وقال أيضًا رحمه الله:

«كان من وسائل فرنسا لإفساد المعنويات هذه الأعمال التي نذكرها مسرودة - وذكر منها -:

حماية الدجالين والمضلّين باسم الدين من شيوخ الطرق الصوفية، وقد جنت فرنسا من هؤلاء كل خير لنفسها، فقد كانوا مطاياها وجنودها الروحيين في احتلال الأوطان الإسلامية، ويقول بعض المغفلين إنهم هم الذين نشروا الإسلام في أواسط إفريقيا وفي السودان، وهذا تخليط، فإن الذين نشروا الإسلام في تلك الأصقاع هم طائفة من أجدادهم الصالحين بمعونة التجّار، أما هؤلاء الأحفاد فما نشروا إلا الاستعمار الفرنسي»^(١).



وقال أيضًا رحمه الله:

«أجمَعنا في معرض الرأي الفاصل على أننا أمام استعمارين يلتقيان عند غاية، أحدهما استعمار رُوحاني داخلي يقوم به جماعة من إخواننا الذين يُصلُّون لقلبنا باسم الدين، وغايتهم استغلال الأمة، ووسيلتهم صدُّ الأمة عن العلم، حتى يستمرَّ

(١) «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي» (٥ / ٧٩).

لهم استغلالها، وهؤلاء هم مشائخ الطرق الصوفية التي شوّهت محاسن الإسلام.
والثاني استعمار مادي تقوم به حكومة الجزائر باسم فرنسا، وغايته استغلال
الأمة، ووسيلته سد أبواب العلم في وجه الأمة حتى يتم لها استغلالها، والاستعماران
يتقارضان التأييد^(١)، ويتبادلان المعونة، كل ذلك على حساب الأمة الجزائرية
المسكينة، أولئك يضلّونها، وهؤلاء يذلّونها، وجميعهم يستغلّونها.

كنا نتفق على هذا، ولكننا نجمل الرأي في أيّ الاستعمارين يجب أن نبدأ
بالحجوم عليه، ولم يكن من الصعب علينا الاتفاق على الهدف الأول للهجوم،
فاتفقنا على أن نبدأ بالحجوم على الاستعمار الأول وهو الطرق الصوفية، لأنها
هي مطايا الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا ووسطها وغربها، ولولاها لم يتم
له تمام^(٢).



وقال الباحث أحمد طالب الإبراهيمي في كتابه «آثار الإمام محمد البشير

الإبراهيمي»:

«قضى الإمام الإبراهيمي أزهر مراحل عمره في تحرير عقول الجزائريين وتغيير
ما بأنفسهم، وقد عمل في سبيل هذا الهدف في عدّة جهات - وذكر على رأسها فرقة
الصوفية فقال -:

(١) أي أن كل واحد يؤيد الآخر، كما لو كان كل واحد يقرض الآخر دينًا ليستفيدا جميعًا، وتسير
أموالهما وفق ما أرادا.

(٢) «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي» (٥/ ١٤١).

جبهة الطُّرُقِيَّة المنحرفة وعلماء الدِّين الرسميين، الذين ضلَّ سعيهم، واتخذوا الفرنسيين أولياء لهم، ورَضُوا بالدَّنيَّة في دينهم، وأوحوا إلى الشعب الجزائري أن الاستعمار قضاءٌ وقدرٌ لا مردَّ له، وأن رَفْضَهُ ومقاومته محادة لله، وكذبوا، وصدق الله القائل عن نفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وهل يوجد من هو أفحش من الاستعمار الفرنسي الذي اغتصب البلاد، واستعبد العباد، وأهان الدين، وانتهك الأعراس، ونشر الجهل، وحرَّم العلم، وأمر بالمنكر ونهَى عن المعروف؟» (١).



وقال الإمام الإبراهيمي رحمته الله:

«إبحثوا في تاريخ الاستعمار العام، واستقصوا أنواع الأسلحة التي فتك بها في الشعوب، تجدوا فتكها في استعمال هذا النوع الذي يسمَّى «الطرق الصوفية»، وإذا خفي هذا في الشرق، أو لم تظهر آثاره جلية في الاستعمار الانكليزي، فإن الاستعمار الفرنسي ما رَسَتْ قواعده في الجزائر وفي شمال أفريقيا على العموم وفي أفريقيا الغربية وفي أفريقيا الوسطى إلا على الطرق الصوفية وبواسطتها، ولقد قال قائد عسكري فرنسي معروف كلمة أحاطت بالمعنى من جميع أطرافه قال:

«إِنَّ كَسْبَ شيخ طريقة صوفية أنفعُ لنا من تجهيز جيشٍ كامل، وقد يكونون ملايين، ولو اعتمدنا في إخضاعهم على الأموال والجيش لما أفادتنا ما تفيدته تلك

(١) «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي» (٥/ ١٨).

الكلمة الواحدة من الشيخ، على أن الخضوع لقوّتنا لا تؤمن عواقبه لأنه ليس من القلب، أما كلمة الشيخ فإنها تجلب لنا القلوب والأبدان والأموال أيضًا.

هذا معنى كلمة القائد الفرنسي وشرحها، ولعمري إنها لكلمة تكشف الغطاء عن حقيقة ما زال كثير من إخواننا الشرقيين منها في شكٍّ مريب....

وما زال الاستعمار بالجزائر يسمّي هؤلاء المشائخ (أحباب فرنسا)»^(١).

وقال الشيخ أحمد حماني^(٢) رَحِمَهُ اللهُ:

«وكانت عبادة الأضرحة قد ازدهرت في ظل الاستعمار حتى بلغ الأمر بالمعمّرين الكبار أن يجعلوا في حقولهم ضريحًا لـ (سيدي عبد القادر) يحرس لهم أموالهم، ويخافه العامة أكثر من خوفهم من الله، ويكون (حارسًا) لما نهبوه من الشعب»^(٣). انتهى.



(١) «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي» (٥/ ١٤٣).

(٢) هو أحمد بن محمد بن مسعود حماني، تتلمذ على يد العلامة ابن باديس، ثم رحل إلى تونس للتعليم في جامع الزيتونة حتى مرحلة الدراسات العليا.

امتاز بالجد والمثابرة في طلب العلم مما أورثه علمًا جمًّا، مما أهله ليُعين رئيسًا للمجلس الإسلامي الأعلى، ثم رئيسًا لجمعية علماء المسلمين، توفي رَحِمَهُ اللهُ سنة ١٤١٩ هجرية.

ترك الشيخ مؤلفات مطبوعة ومخطوطة، ومجموعة كبيرة من المقالات منها: «صراع بين السنة والبدعة»، و«رسائل الدلائل البادية على ضلال البابية وكفر البهائية»، و«فتاوى الشيخ أحمد حماني».

مصدر ترجمته: كتاب «العلامة أحمد حماني شيخ الإفتاء في الجزائر» تأليف: محفوظ بن صغير، دار الوعي - الجزائر.

(٣) «فتاوى الشيخ العلامة أحمد حماني»، جمع وتقديم: مصطفى صابر، الناشر: عالم المعرفة - الجزائر.

وقال الباحث د. علي بن محمد الدخيل الله، في كتابه «التيجانية»:

وفي رسالة للمارشال (بوجو) أول حاكم فرنسي للجزائر إلى شيخ الطريقة التيجانية، ذات النفوذ الواسع جاء فيها: «أنه لولا موقف الطريقة التيجانية المتعاطف لكان استقرار الفرنسيين في البلاد المفتوحة حدثاً أصعب بكثير مما كان»^(١).

ومن أمثلة ذلك أيضًا عند الفرنسيين ما ذكره مصطفى كامل بطل الوطنية المصرية في كتابه «المسألة الشرقية»، فقد ذكر قصة غريبة، قال:

«ومن الأمور المشهورة عن احتلال فرنسا للقيروان في تونس أن رجلاً فرنسيًا دخل في الإسلام وسمى نفسه سيد أحمد الهادي، واجتهد في تحصيل الشريعة حتى وصل إلى درجة عالية، وعُيِّن إمامًا لمسجد كبير في القيروان، فلما اقترب الجنود الفرنسيون من المدينة استعد أهلها للدفاع عنها، وجاءوا يسألونه أن يستشير لهم ضريح شيخ في المسجد يعتقدون فيه، فدخل (سيد أحمد) الضريح، ثم خرج مهوَّلاً بما سينالهم من المصائب، وقال لهم: إن الشيخ ينصحكم بالتسليم، لأن وقوع البلاد صار محتماً، فاتَّبِع القوم البسطاء قوله، ولم يُدافعوا عن مدينة القيروان أقل دفاع، بل دخلها الفرنسيون آمنين في ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٨١ م»^(٢).

أقول: انظر أيها القارئ الكريم كيف اعتقد أولئك الدراويش في هذا الميت أنه يعلم الغيب من حيث لا يدرون.

(١) «التيجانية»، علي بن محمد الدخيل الله، (ص ٦١)، دار طيبة، الرياض

(٢) عزاه كاتب مقال «أفيون الشعوب الإسلامية، النتائج والآثار» إلى كتاب «التصوف بين الحق والخلق»، لمحمد فهد شقفة، ص (٢١١)، انظر «دمعة على التوحيد» (ص ٧٧-٧٨).

وقال الشيخ عبد العزيز بن فيصل الراجحي حفظه الله:

«وقد سعى النَّصارى الصَّليبيون في القرن الماضي في نشر هذه الخرافات، وصرَفوا الناس عن دينهم إلى الوثنية، وعما يجب عليهم تجاه أولئك المستعمرين، بتزيين ما يفعلونه عند القبور.

حتى إن بعض الجزائريين أخبرني أنَّ الفرنسيين لما استولوا على الجزائر كانوا يعمدون إلى بعض المشاهد والأضرحة التي يُنسب أصحابها إلى الصلاح، فيجمعون الناس لها ثم يوجهون المدفع إليها، مُظهرين لهم أنهم يريدون إصابته وتدميره، وقد ملؤوه بارودًا دون ذخيرة -مكرًا-، ثم يطلقون عليه، فيدوي صوت المدفع، حتى يخال^(١) الحاضرون أنه قد أصابه، ثم ينظرون فإذا هو باق مكانه، فيزيد تعلقهم به واعتقادهم فيه!

وذكر الشيخ أحمد بن حسن الباقوري المصري الأزهري (ت ١٤٠٥هـ) في فتوى له في النَّهي عن زخرفة القبور وبناء القباب والمساجد عليها أن أحد كبار الشرقيين حدَّثه عن بعض أساليب الاستعمار في آسيا، فكان مما ذكره له أن المستعمرين كانوا يضطرون إلى تحويل القوافل الآتية من الهند إلى بغداد عبر تلك المنطقة الواسعة إلى اتجاه جديد لهم فيه حاجة وغاية، فكانوا يسعون جاهدين في صرف القوافل عن اتجاهها الأول إلى الاتجاه الجديد، فلا يستطيعون ذلك، حتى اهتدوا إلى حيلة جعلت تلك القوافل تغير اتجاهها إلى وجهتهم المرادة، فأقاموا عدة أضرحة وقباب على مسافات متقاربة في ذلك الطريق المراد سلوكه، ثم أشاعوا

(١) أي: يظن.

الشائعات أن في تلك الأضرحة أولياء صالحين، وأنه قد شوهد من كراماتهم كذا وكذا، فانتشرت الإشاعات في الآفاق، وذاعت الأخبار في كل مصرٍ وعراقٍ، فصارت تلك الطرق عامرة مأهولة!

وقد ذكر هذه القصة الشيخ الألباني رحمته الله، وعزاها إلى الباقرى كما في «تحذير الساجد» (ص ١٤٨ - ١٤٩) ^(١).

وقد قام أولئك القبورية الدراويش ببذل المزيد من الخنوع والخضوع لأولئك المحتلين الغزاة، فكانوا **يُضفون الشرعية على وجودهم**، لِيُسَوِّغُوا للناس بقاءهم، ووصل الأمر إلى أن بعض مشايخ الصوفية في مصر قاموا بجمع توقعات أثناء ثورة ١٩١٩م تطالب ببقاء الإنجليز في مصر! وكان من هؤلاء شيخ الطريقة (السمانية): محمد إبراهيم الجمل ^(٢).

فالحاصل أن تعظيم القبور والأضرحة قد كان سبباً رئيساً لتسلط الأعداء على المسلمين، وتعطيل عمارة الأرض بالإسلام بما يزيد عن قرن من عمر الأمة الإسلامية، والله المستعان.



(١) «مجانبة أهل الثبور، المصلين في المشاهد وعند القبور» (ص ٣٣٧ - ٣٣٩).

(٢) بتصرف يسير من مقال: «سيف السياسة بين نصره الحق ومظاهرة الباطل»، لعبد العزيز مصطفى، انظر «دمعة على التوحيد» (ص ٢٠٤ - ٢٠٥).

٨. العامل الثامن من عوامل بقاء فكر تعظيم القبور هو دعوى المحافظة على (التراث)، فبعض (المثقفين) يطالبون بالمحافظة على تلك الأضرحة التي يُشرك عندها بالله العظيم، بدعوى المحافظة على التراث، مصادمين بذلك أمر الله وأمر رسوله بهدم ما بُني على القبور المعظمة وطمس معالمها، والتي تقدم في مظهر «البناء على القبور» ذكر جملة منها.

٩. العامل التاسع من عوامل بقاء فكر تعظيم القبور هو تناقل هذا التراث العلمي (الهدّام) الذي يقرر الغلو بالقبور جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، في الكتب والرسائل وغيرها، والمحتوي على الشبهات العقلية والأحاديث الضعيفة والموضوعة التي تُقرر الغلو بالقبور، وبثها بين الناس، الذين هم أصناف، منهم الذي يطلب الحق ولا يعرف أين يجده، ومنهم الذي يطلب الحق ويعرف أين يجده، ومنهم الجاهل الذي يطلب الحق وعنده مَنْ يدلّه عليه، ومنهم الجاهل الذي يطلب الحق وليس عنده مَنْ يدلّه عليه، ومنهم العالم الذي يعرف الحق ويدلّ عليه، ومنهم العالم الذي يعرف الحق ويعرض عنه، ومنهم العالم الذي يعرف الحق ويعرض عنه ويصد الناس عنه تعصباً لهواه وشيطانه.

أقول: ومما ساعد على انتشار تراث القبورية الهدام عدم وجود الرقابة العلمية على التراث من قبل كثير من الدول الإسلامية، والتي من واجبها منع الكتب التي تخالف عقيدة الإسلام.

ولتمام الفائدة، فهذا ذكر لشيء من بعض الكتب التي تقرر الغلو في القبور، والتي انتشرت بن المسلمين في بلاد وأزمان متفرقة، أذكرها هنا للعلم والحدز:

١. «شفاء السَّقام في ذكر خير الأنام» لتاج الدين السبكي الشافعي، وقد ردَّ عليه ابن عبد الهادي في كتابه «الصَّارم المنكي في الرد على السبكي».
 ٢. «تحفة الزوار لقبر النبي المختار» لابن حجر الهيتمي.
 ٣. كتب داود بن جرجيس العراقي، وقد ردَّ عليه عدد من أئمة الدعوة النجدية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجري.
 ٤. «مفاهيم يجب أن تُصحح»، لمحمد بن علوي المالكي، إمام الصوفية في الحجاز، وقد هلك غير مأسوف عليه عام ١٤٢٥، وقد رد عليه عدد من المشائخ، ولعل أفضل الردود رد الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ برد علمي رصين ووسمه «هذه مفاهيمنا».
- وقد رد أهل السنة بردود علمية كثيرة على أمثال هؤلاء، وقد ذكرتهم في آخر ملحق (التحذير من الشبهات).

١٠. العامل العاشر: قلة العلم وكثرة الجهل، فالجهل رافد قوي من روافد انتشار الخرافة حتى في الرسائل السابقة، لا سيَّما الجهل بمعنى توحيد العبادة وشروطه ونواقضه، قال تعالى عن بني إسرائيل ﴿قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالمًا اتخذ الناس رءوسًا جهالًا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا» ^(١).

وعن عبد الله بن مسعود وأبي موسى رضي الله عنه قالوا: قال النبي ﷺ: «إن بين يدي الساعة لأيامًا ينزل فيها الجهل، ويُرفع فيها العلم، ويكثر الهرج» ^{(٢)(٣)}.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «كيف أنتم إذا لبستكم فتنة، يهرم فيها الكبير ويربو فيها الصغير، ويتخذها الناس سُنة، فإذا غُيّرت قالوا: غُيّرت السنة!»

قالوا: ومتى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟

قال: إذا كثرت قراؤكم، وقَلَّت فقهاؤكم، وكثرت أمراؤكم، وقَلَّت أمتاؤكم، والتُسمت الدنيا بعمل الآخرة» ^(٤).

١١. العامل الحادي عشر: تقليد الآباء والأجداد، وهذا العامل من أقوى العوامل التي يتمسك بها العوام في السير على ما هم عليه، سواء كان حقًا أم باطلاً، والواجب هو معرفة الحق بدليله، وألا يكون الإنسان إمعة ^(٥)، إن أحسن الناس أحسن، وإن أساءوا أساء، قال الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود رحمهما الله تعالى:

(١) رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) وغيرهما.

(٢) الهرج أي القتل.

(٣) رواه البخاري (٧٠٦٣)، ومسلم (٢٦٧٢) وغيرهما.

(٤) رواه الدارمي في «المقدمة»، باب (٢٢)، (تغير الزمان وما يحدث فيه).

(٥) الإمعة هو الذي يقول لكل أحد: (أنا معك)، ولا يثبت على شيء، لضعف رأيه. انظر «المعجم الوسيط».

«والعادة ملاكة^(١)، تَقْلِبُ الشَّيْنَ زِينًا، ولم تُعَادِي الرِّسْلَ بِشَيْءٍ قَطُّ أَعْظَمَ مِنْ

العادة»^(٢).

وصدق ﷺ، فقد قال تعالى واصفًا حال المشركين وحجتهم في شركهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ ^(٣) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ * قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِآهَدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قُلُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٣﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٤]، وقال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَنْحِتَكُنَّ أَمْ وَأَجِدْنَا عَلَىٰ آبَائِنَا طِبًّا فَهَلْ نَكُونُ لَكُمْ أَلْكَبَرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨]، وقال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا هَاهُنَا عِبِيدِينَ﴾ ^(٤) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٣﴾ [الأنبياء: ٥٣-٥٤]، وقال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤].

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله: «وهذا الاحتجاج من هؤلاء المشركين الضالين بتقليدهم لأبائهم الضالين ليس المقصود به اتباع الحق والهدى، وإنما هو تعصُّبٌ محضٌ يُراد به نُصرة ما معهم من الباطل»^(٥).



(١) أي: تملك سلوك الشخص وتسيطر عليه.

(٢) «الدرر السنية» (١/ ٢٧٨).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، سورة الزخرف: (٢٣).

**أثر تعظيم القبور والأضرحة على الأمة
من الناحية الدنيوية**

ترتفع الخرافة إلى ذروتها حينما يعمد القبوريون إلى تعيين تخصصات للأضرحة، فطلب الشفاعة هو مطلب الجميع، غير أن بعض قبور الأولياء مشتهر بتحقيق رغبات النساء، كالزواج للعوانس، والإنجاب للعاقات^(١)، وآخر لشفاء أمراض الأطفال، وآخر لشفاء أمراض الروماتيزم^(٢).

وفي هذا النوع من الخرافة يقول الباحث علي الزهراني حفظه الله معلقًا:

«وهكذا انصرف الناس إلى خدمة الأموات بإعمار أضرحتهم وبناء القباب عليها، وصرفوا جهودهم وأموالهم، وكان ذلك على حساب الاهتمام بخدمة الأحياء بالتربية والتعليم، وتوفير وسائل العيش الكريم لهم، وتقوية الأمة التي كان أعداؤها في الخارج يتربصون بها الدوائر»^(٣).

وهذا الاعتقاد ناشئ عن قصور كبير في الإيمان باسم الله تعالى (الشافعي).



(١) عزاه مؤلف «الانحرافات العقديّة» (ص ٣٣٦) إلى كتاب «الحكومة الباطنية» (ص ١٦٧) تأليف د. حسن الشرقاوي، ط ٢ دار المعارف - القاهرة، وقال: «وهذا الكتاب من شر الكتب المؤلفة حديثًا في التصوف، ويدور على ترويح الشرك الأكبر في هذا العصر».

(٢) قاله خالد أبو الفتوح في مقاله «أفيون الشعوب الإسلامية، النتائج والآثار»، انظر «دمعة على التوحيد» (ص ٨٢).

(٣) انظر «الانحرافات العقديّة» (ص ٣٠٩-٣١٠) باختصار.

التحذير من الوقوع في الشبهات

- ❁ تعريف الشبهة
- ❁ كيف تنشأ الشبهات؟
- ❁ لكل شبهة جواب
- ❁ الشبهات تتجدد ولا حد لها
- ❁ استبانة طريق المجرمين والمبتدعين وكشف شبههم من أعظم ما جاء به شرعنا الحنيف
- ❁ عند ظهور الشبهات تتجلى حكمة الابتلاء للمؤمنين، ويظهر الدين
- ❁ أقسام من يروج الشبهات
- ❁ أخطر الشبه هي الشبه المتعلقة بالاعتقاد
- ❁ وجوب الحذر من الشبهات وعدم الاستشراف لها
- ❁ واجب ولادة الأمر من العلماء والأمرأ تجاه من يروجون الشبهات
- ❁ علاج الشبه يكون بالرجوع إلى العلماء الربانيين، المتبعين للكتاب والسنة وفق فهم السلف الصالح
- ❁ أهل الباطل يخلطون شبههم بشيء من الحق ليروج بين الناس
- ❁ الذب عن الدين والرد على شبه أهل الباطل من أفضل أنواع الجهاد في سبيل الله
- ❁ عناية العلماء في القديم والحديث برد شبه أهل الباطل
- ❁ ثبت يتضمن أهم الكتب التي تُعنى بالرد على الشبهات المتعلقة بتوحيد العبادة

ترك النبي ﷺ أُمَّتَهُ عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبِيضَاءِ، لَيْلَهَا كُنْهَارُهَا، وَأَكْمَلَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمُ الدِّينَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

قال أبو ذر رضي الله عنه: «لقد تركنا محمد ﷺ وما يُحرك طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علماً» (١).

وفي زيادة عند الطبراني: فقال رسول الله ﷺ: «ما بقي شيء يُقَرَّبُ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَبَاعِدُ مِنَ النَّارِ إِلَّا وَقَدْ بُوِّنَ لَكُمْ» (٢).

ولكن قوماً ضاقت صدورهم بصفاء هذا الدين ووضوحه، فلما علموا أنهم لا يقدرون على تحطيمه ومحوه من صدور الناس؛ ذهبوا يُشَوِّشُونَ عليه، وَيُبْشُونَ الشكوك حول حقائقه وثوابته، ليصير المسلمون في شك وحيرة من دينهم، ويكون تمسكهم به تمسكاً صورياً لا يُجاوز العبادات الظاهرة ونحوها، أما العقيدة -التي هي عمل القلب- فيريدون أن يعودوا بالمسلمين بها إِلَى عقائد الجاهلية الأولى، كعبادة غير الله، أو عقائد الفلاسفة والصابئة، كنفي صفات الكمال عن الرب جل وعز، أو عقيدة النصاري المتمثلة بحلول الله في نبيه عيسى عليه السلام، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وغير ذلك من الاعتقادات الهدامة.

وقد نجح أعداء الإسلام في بثِّ هذه المعتقدات بين صفوف كثير من جهلة

(١) رواه أحمد (١٥٣/٥) وابن حبان (٦٥)، وصححه الألباني في «التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (١٩٢/١)، الناشر: (دار باوزير - جدة).

(٢) انظر «المعجم الكبير» (١٦٤٧)، وقد صحح هذه الزيادة الألباني في «الصحيحة» (١٨٠٣).

المسلمين، فتلقفها مَنْ تلقفها -بسوء نية أو حسن نية- على أنها جزء من عقائد الإسلام، وجعلوا يَبْثُونها بين عوامِّ المسلمين، فتلقفها من ضَعُفَ دينه وعلمه وعقله، وردَّها من أراد الله هدايته ونجاته.

ولما كان هذا البحث منصباً على الجواب عن أهم الشبهات التي يتعلّق بها من يدعو غير الله، رأيت تذييله بذكر بعض الضوابط لفهم حقيقة الشبهات وسبل الوقاية فيها، لتكون معونة للعاقل وتذكرة للجاهل، وذلك أن الشبهات لا حصر لها، ولا يخلو زمان من قائمين على بثها ونشرها بين المسلمين، ليفسدوا عليهم دينهم، كما قال ابن القيم رحمه الله: «وقد خلق الله تعالى لكل باطلٍ وبَهْتٍ حَمَلَةً، كما للحق حَمَلَةً»^(١)، ولكن إذا تحصن المسلم بمعرفة الضوابط العلمية المعينة على فهم حقيقة الشبهات ووسائل التحصن منها صار في عصمة من الوقوع فيها بإذن الله، وهذا أوّان الشروع في ذكر تلك الضوابط.



(١) انظر «إغاثة اللهفان» (ص ١١٢٨).



تعريف الشبهة

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «الشبهة واردٌ يردُّ على القلب يحول بينه وبين انكشاف الحق له، فمتى باشر القلب حقيقة العلم لم تؤثر تلك الشبهة فيه، بل يقوى علمه ويقينه بردها ومعرفة بطلانها، ومتى لم يباشر حقيقة العلم بالحق قلبه؛ قدحت فيه الشك بأول وهلة (١)، فإن تداركها وإلا تتابعت على قلبه أمثالها حتى يصير شاكًا مرتبًا.

والقلب يتوارده جيشان من الباطل؛ جيش شهوات الغي وجيش شبهات الباطل، فأثما قلب صغا إليها وركن إليها تشرَّبها وامتلا بها، فينضح لسانه وجوارحه بموجِبها، فإن أُشرب شبهات الباطل تفجرت على لسانه الشكوك والشبهات والإيرادات، فيظن الجاهل أن ذلك لسعة علمه، وإنما ذلك من عدم علمه ويقينه» (٢).

ثم قال: «وإنما سُميت الشبهة شبهة لاشتباه الحق بالباطل فيها، فإنها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل» (٣).



(١) أي أن الشبهة تقدح في القلب شكًا إذا باشرته.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/٤٤٢).

(٣) المصدر السابق (١/٤٤٣).

كيف تنشأ الشبهات؟

قال ابن القيم رحمه الله مبيناً كيفية نشأة فتنة الشبهات: «وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد، وتارة من نقل كاذب، وتارة من حق ثابت خفي على الرجل لم يظفر به، وتارة من غرض فاسد وهوى متبع، فهي من عمى في البصيرة، وفساد في الإرادة»^(١).



(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٧٧) تحقيق الفقير ط. دار الكتب العلمية.



لكل شبهة جواب

اعلم -رحمك الله تعالى- أن المشركين وأهل البدع لهم شبهات وحجج كثيرة يستدلون بها على صواب الباطل وإبطال الصواب، كما قال تعالى: ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥]، أي ليبطلوه، ولكن يُعلم أن كل شبهة فإنها باطلة، ولكل شبهة جواب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] (١).

وقد اعتنى القرآن بالرد على الشبهات، ومن ذلك الرد على شبهة اليهود التي أثاروها، لما أمر الله بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة فقالوا: ﴿مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]، فردَّ الله عليهم، وبَيَّن أن الحكمة في ذلك هو أن الله له المشرق والمغرب، يأمر الناس بالتوجه إلى ما شاء ﷻ، وسماهم سفهاء لما اعترضوا بهذا الاعتراض، فقال سبحانه: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

وفي هذا الرد القرآني لفظة أخرى وهي: إذا كان اعتراض اليهود وأشباههم على الشريعة قد سمَّاه الله سفهاء، فيماذا يُوصف من اعترض على أحقية الله وحده بالدعاء والعبادة؟

(١) وانظر ما قاله الإمام فيصل بن تركي رحمه الله كما في «الدرر السنية» (٢/ ٢٨٨).

الشبهات تتجدد ولا حد لها

ومما ينبغي أن يُعلم أن الشبهات لا حد لها، فلا يلزم الرد عليها كلها، لأن الحق إذا تبين بأدلتة اليقينية لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه، بل ينبغي الإعراض عن سماعها وتلقّيها، لأن بطلانها أمر معلوم من الدين بالضرورة، ولأن كل ما نافي الحق الواضح فهو باطل، كما قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، فعلى هذا فيكون حلُّ الشُّبه والرد عليها من باب التبرع^(١).

ومما ينبغي أن يُعلم - أيضًا - أن الشبهات لها أهلون، يُثيرونها كلما اندرست، ويُحيونها كلما خَبَت، ليُضلوا بها عباد الله، ويصرفوهم عن عبادته سبحانه، وعن تعظيمه اللائق به، وليس ذلك بغريب عليهم، فقديماً قيل: لكل قوم وارث.

فظهر المناوئين لدعوة الرسل وإثارتهم للشبه والأحقاد أمر مشهور في تاريخ الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

قال ابن القيم رحمه الله: وقد خلق الله تعالى لكل باطلٍ وبهتٍ حملةً، كما للحق حملة^(٢).



(١) قاله ابن سعدي رحمه الله في تفسير الآية الكريمة من سورة البقرة: (١٤٥).

(٢) «إغاثة اللهفان»، ص ١١٢٨، ط دار عالم الفوائد - مكة.



استبانة طريق المجرمين والمبتدعين وكشف شبههم من أعظم ما جاء به شرعنا الحنيف

قال الله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٥٥]،

قال الباحث (تميم بن عبد العزيز القاضي) حفظه الله معلقاً على الآية الكريمة:

عُلم بهذا أن استبانة طريق المجرمين والمبتدعين المخالفين لرسول رب العالمين، وهتك أستارهم، وكشف شبههم؛ من أعظم ما جاء به شرعنا الحنيف، فهذه آيات القرآن المتتابعة في ذكر عقائد الأمم الكافرة من يهود ونصارى ومشركين وصابئة وغيرهم، قد ذكرها الله وكررها، إذ ببيان عقائدهم يتم للمؤمنين الحذر منها، وبيانها يتحقق للمؤمنين مبدأ الولاء والبراء، ولهذا دأب علماء أهل السنة على التصدي لأهل البدع ورد باطلهم. انتهى كلامه حفظه الله (١).



(١) مقدمة كتابه «قلب الأدلة على الطوائف المضلة في توحيد الربوبية والأسماء والصفات»

(ص ٧)، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض.

عند ظهور الشبهات

تتجلى حكمة الابتلاء للمؤمنين، ويظهر الدين

ومن حكم ظهور المناوئين لدعوة الرسل وأتباعهم وإثارتهم للشبه؛ تمحيص المؤمنين واختبار صبرهم، وإقامة الحجة على الكافرين وإبطال كيدهم، ثم إنجاز الله وعده للمؤمنين بنصرهم على من عاداهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۖ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ۖ وَإِن جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

ومن حكم ظهور المناوئين لدعوة الرسل؛ ظهور الإيمان والدين، قال ابن تيمية رحمه الله:

«إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ ظُهُورِ الْإِيمَانِ وَالْدِينِ، وَبَيَانِ حَقِيقَةِ أَنْبَاءِ الْمُرْسَلِينَ؛ ظُهُورُ الْمُعَارِضِينَ لَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْإِفْكَ الْمُبِينِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْحَقَّ إِذَا جُحِدَ وَعُورِضَ بِالشَّبَهَاتِ - أَقَامَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مَا يُحَقِّقُ بِهِ الْحَقَّ وَيُبْطِلُ بِهِ الْبَاطِلَ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، بِمَا يُظْهِرُهُ مِنْ أَدْلَةِ الْحَقِّ وَبِرَاهِينِهِ الْوَاضِحَةِ، وَفَسَادِ مَا عَارِضَهُ مِنَ الْحَجَجِ الدَّاحِضَةِ» (١).

وقال أيضاً: «وَمِنْ سُنَّةِ اللَّهِ أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ إِظْهَارَ دِينِهِ؛ أَقَامَ مَنْ يَعَارِضُهُ، فَيُحَقِّقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ، وَيَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمِغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ» (٢).

فالأمر كما قال الأول:

وَالضُّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضُّدُّ وَبِضُّدِهَا تَمَيُّزُ الْأَشْيَاءِ

(١) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، (١/ ٨٥-٨٦) بتصرف يسير.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٥٧/ ٢٨).

أقسام من يُروّج الشبهات

والذين يُروجون الشبهات بين المسلمين لا يخرجون عن ثلاثة أصناف:

الأول: كونهم لم يفهموا دلالات النصوص الشرعية على مراد الشارع الحكيم، بل على ما أملت عليهم فهمهم، ففهموا خلاف المراد، كما قال الأول:
وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وأفته من الفهم السقيم

قال ابن القيم رحمته الله مبيناً ضرر سوء فهم المراد عن الله ورسوله ﷺ:

«فقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، بل هو أصل كل خطأ في الأصول والفروع، ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد، فيتفق سوء الفهم في بعض الأشياء من المتبوع مع حسن قصده وسوء القصد من التابع، فيا محنة الدين وأهله، والله المستعان»^(١).

الصنف الثاني هم من استدلوا على ما تعلقوا به من شبهات بأحاديث ضعيفة أو باطلة أو منامات وحكايات، ونحو ذلك من الاستدلالات التي لا تثبت بها الأحكام الشرعية الفرعية فضلاً عن أصول الدين ومبادئه العظام، والذين يُثبتون العبادات بالحكايات والمنامات والمقاييس والعقول^(٢) والأذواق هم اليهود والنصارى، وعندهم من ذلك الشيء الكثير.

(١) «الروح» (ص ١٧٩)، الناشر: دار ابن كثير - دمشق.

(٢) ملاحظة: العقل الصريح لا يُعارض النقل الصحيح، يراجع للتوسع كتاب «درء تعارض العقل والنقل» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله.

بل إن الذين يُقرِّرون الشبهات عمومًا يحشون كتبهم بالأشعار والحكايات والمنامات، لأن الأدلة الشرعية لا تعينهم على باطلهم، بل تنقذه من أسسه، فلهذا يلجأون إلى الحكايات والمنامات والأشعار، وهذه ليس لها عماد ولا وتد في دين الله، بل هي كالسراب يحسبه الظمآن ماءً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وأما أولئك الضلال، أشباه المشركين النصاري؛ فعمدَتُهُمْ إما أحاديث ضعيفة أو موضوعة، أو منقولات عمن لا يُحتج بقوله، إما أن يكون كذباً عليه وإما أن يكون غلطاً منه، إذ هي نقل غير مُصَدِّقٍ عن قائل غير معصوم، وإن اعتصموا بشيء مما ثبت عن الرسول حَرَفُوا الكلم عن مواضعه، وتمسَّكوا بمتشابهه، وتركوا محكمه، كما يفعل النصاري»^(١).

وقال أيضًا: «وربما احتجوا بأمثلة جزئية خاصة لإثبات قضايا كلية عامة، فيحتجون لإثبات جواز مطلق الاستغاثة -فيما يقدر عليه المخلوق وما لا يقدر عليه- بسؤال بعض الناس النبي ﷺ أن يدعو لهم، ومعلوم أن هذا الذي ثبتت به السنة حق لا ريب فيه، لكن لا يلزم من ذلك ثبوت جميع الدعاوى العامة، وإبطال نقيضها، إذ الدعوى الكلية لا تثبت بمثال جزئي، لا سيما مع الاختلاف والتباين، وهذا كمن يريد أن يثبت حل جميع الملاهي لكل أحد والتقرب بها إلى الله بكون الجاريتين غنتا عند عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في بيت النبي ﷺ يوم عيد، مع كون وجهه كان مصروفًا إلى الحائط لا إليها، أو يحتج على استماع كل قول بقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴿الزمر: ١٧، ١٨﴾، ولا يدري أن القول هنا هو

(١) «الاستغاثة في الرد على البكري» (٢/ ٥٨٢ - ٥٨٧) باختصار يسير.

القرآن، كما في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وإلا فمُسَلَّمٌ أنه لا يسوغ استماع كل قول. اهـ (١).

الصف الثالث هم من أتبع المتشابه وترك المحكم، وهذا سبيل أهل الباطل الذين يفهمون الآيات المحكمات على ضوء الآيات المتشابهات، أي التي يشبه فهم معناها الظاهر على عامة الناس ولا يعلمها إلا علماءهم، وهذا مسلك خاطئ، والواجب فهم الآيات المتشابهات على ضوء الآيات المحكمة لا العكس، ونصوص الشريعة - بحمد الله - ليس بينها تناقض، بل متفقة، يفسر بعضها بعضًا، وقد حذر النبي ﷺ من اتباع المتشابه وترك المحكم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سَمَّى الله فاحذروهم» (٢).



(١) «الاستغاثة في الرد على البكري» (٢/ ٥٨٨ - ٥٨٩).

(٢) تقدم تخريجه.

أخطر الشُّبه هي الشُّبه المتعلقة بالاعتقاد

الشبه كلها خطيرة، ولكن أخطرها هو الذي يترتب عليه خروج من ملة الإسلام، كالشُّبه التي تقرر دعاء غير الله، وكذلك الشبه التي تقرر تعطيل الله عن صفاته التي وصف بها نفسه، أو الشبه التي يراد بها الطعن في مصادر التشريع، القرآن والسنة، أو الشبه التي يراد منها تحليل ما حرم الله، كتحليل الربا مثلاً ونحو ذلك.





وجوب الحذر من الشبهات وعدم الاستشراف لها

يجب على المسلم الذي يريد أن يسلك طريق السلامة لدينه أن يحذر من الوقوع في الشبهات ولا يتصدر لها، فإن النبي ﷺ لمَّا ذَكَرَ فتنة الدجال للصحابه أمرهم أن ينأوا عنه ولا يتصدروا له، فقال: «إذا سمعتم به في أرض فانأوا عنه»، أي ابتعدوا عنه ولا تتعرضوا له، هذا مع علو كعبهم في الديانة والعلم، فكيف بمن هم دونهم؟!

قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن رحمه الله: «فربما خرج الإنسان من الإسلام بشبهة تحول بينه وبين ما يجب لله من التوحيد والإخلاص والبراءة من عبادة ما عُبد معه من الأوثان والأصنام»^(١).



(١) «منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود بن جرجيس» (ص ١٣).

واجب ولاية الأمر من العلماء والأمراء تُجاه مَنْ يروجون الشبهات

يجب على ولاية الأمر الأخذ على أيدي مَنْ يروجون الشبه، وأن يُعزّروهم بحبس أو ضرب أو نفي، ولا يتركوا المجال مفتوحاً لهم لإفساد عقائد المسلمين ببث الشبه، باسم حرية الرأي، أو الحوار مع الآخر، أو الديمقراطية ونحو ذلك من الشّعارات البرّاقة، التي هي محض مناهج الدول الغربية الكافرة.

كما يجب على العلماء والمتخصصين في العلوم الشرعية أن يردوا على الشبه الدينية حتى لا تروج بين المسلمين، لأن الشبهة كالمرض العضوي، إذا تُرك فإنه ينتشر ويستشري.

قال ابن تيمية رحمته الله في سياق أمثلة مَنْ يجب بيان حاله والرد عليه:

«ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة، أو العبادات المخالفة للكتاب والسنة، فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين، حتى قيل لأحمد بن حنبل: (الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحبُّ إليك أو يتكلم في أهل البدع؟

فقال: إذا قام وصَلَّى واعتكف فإنما هو لنفسه، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين، هذا أفضل).

فَيَبِينُ أَنَّ نَفْعَ هَذَا (١) عَامٌّ لِلْمُسْلِمِينَ فِي دِينِهِمْ، مِنْ جِنْسِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِذْ تَطْهِيرُ سَبِيلِ اللَّهِ وَدِينِهِ وَمَنْهَاجِهِ وَشَرْعَتِهِ، وَدَفْعُ بَغْيِ هَؤُلَاءِ وَعُدْوَانِهِمْ عَلَى ذَلِكَ وَاجِبٌ عَلَى الْكَفَايَةِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَوْلَا مَنْ يُقِيمُهُ اللَّهُ لِدَفْعِ ضَرَرِ هَؤُلَاءِ لَفَسَدَ الدِّينُ، وَكَانَ فُسَادُهُ أَعْظَمَ مِنْ فُسَادِ اسْتِيلَاءِ الْعَدُوِّ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ، فَإِنْ هَؤُلَاءِ إِذَا اسْتَوْلَوْا لَمْ يُفْسِدُوا الْقُلُوبَ وَمَا فِيهَا مِنَ الدِّينِ إِلَّا تَبَعًا، وَأَمَّا أَوْلَئِكَ فَهُمْ يَفْسِدُونَ الْقُلُوبَ ابْتِدَاءً، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» (٢)، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ، وَأَنَّهُ أَنْزَلَ الْحَدِيدَ كَمَا ذَكَرَهُ، فَقِوَامُ الدِّينِ بِالْكِتَابِ الْهَادِي وَالسِّيفِ النَّاصِرِ، ﴿وَكَفَىٰ بَرِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]...

فَإِذَا كَانَ أَقْوَامٌ مُنَافِقُونَ يَتَدَعُونَ بَدْعًا تَخَالِفُ الْكِتَابَ وَيُلَبِّسُونَهَا عَلَى النَّاسِ وَلَمْ تُبَيِّنْ لِلنَّاسِ؛ فَسَدَ أَمْرُ الْكِتَابِ وَبُدِّلَ الدِّينُ كَمَا فَسَدَ دِينُ أَهْلِ الْكِتَابِ قَبْلَنَا بِمَا وَقَعَ فِيهِ مِنَ التَّبْدِيلِ الَّذِي لَمْ يُنْكَرْ عَلَى أَهْلِهِ.

وَإِذَا كَانَ أَقْوَامٌ لَيْسُوا مُنَافِقِينَ لَكِنْهُمْ سَمَاعُونَ لِلْمُنَافِقِينَ قَدْ التَّبَسَّ عَلَيْهِمْ أَمْرُهُمْ حَتَّى ظَنُّوا قَوْلَهُمْ حَقًّا، وَهُوَ مُخَالَفٌ لِلْكِتَابِ، وَصَارُوا دَعَاةً إِلَى بَدْعِ الْمُنَافِقِينَ فَلَا بَدَ - أَيْضًا - مِنْ بَيَانِ حَالِ هَؤُلَاءِ، بَلِ الْفِتْنَةُ بِحَالِ هَؤُلَاءِ أَعْظَمُ، فَإِنْ فِيهِمْ إِيْمَانًا يُوجِبُ

(١) أي: الراد على أهل البدع.

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤).

موالاتهم وقد دخلوا في بدعٍ من بدع المنافقين التي تُفسد الدين، فلا بد من التحذير من تلك البدع وإن اقتضى ذلك ذكرهم وتعيينهم، بل ولو لم يكن قد تلقوا تلك البدعة عن منافق لكن قالوها ظانين أنها هدى وأنها خيرٌ وأنها دين ولم تكن كذلك؛ لوجب بيان حالها.

ولهذا وجب بيان حال من يغلط في الحديث والرواية، ومن يغلط في الرأي والفتيا، ومن يغلط في الزهد والعبادة وإن كان المخطئ المجتهد مغفوراً له خطؤه وهو مأجور على اجتهاده، فبيان القول والعمل الذي دل عليه الكتاب والسنة واجبٌ وإن كان في ذلك مخالفة لقوله وعمله^(١). انتهى كلامه رحمه الله.

قال مُقْبِدُهُ عفا الله عنه: وقد وصف النبي ﷺ مُرَوِّجي الشبه بين الناس بالدجاجلة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر الزمان دَجَالُونَ كَذَّابُونَ، يَأْتُونَكُمْ مِنَ الْأَحَادِيثِ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَاهُمْ، لَا يُضِلُّونَكُمْ وَلَا يَفْتَنُونَكُمْ»^(٢).

وعن جابر بن سَمُرَةَ رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ كَذَّابِينَ فَاحْذَرُوهُمْ»^(٣).



(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٣١ - ٢٣٤).

(٢) رواه مسلم (٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم (١٨٢٢).



علاج الشبه يكون بالرجوع إلى العلماء الربانيين، المتبعين للكتاب والسنة وفق فهم السلف الصالح

وكما تقدم من كلام أهل العلم؛ فإن في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ الهدى والنور، والجواب عن جميع الإشكالات التي قد تعرض للمسلم فيما يتعلق بأمور دينه، لأن النبي ﷺ ترك الناس على جادة بيضاء نقية، ليس فيها لبس ولا اختلاف، فمن عرض عليه إشكال أو طرأ عليه استفسار فما عليه إلا البحث عن جوابه في الكتاب والسنة، مسترشداً بكلام أهل العلم الموثوق بعلمهم وأمانتهم ودينهم، سواء المحدثون في الكتب أو الأشرطة أو بالاتصال بهم شخصياً، قال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، وأهل الاستنباط هم العلماء.

أقول: ولا يخلو زمان من علماء ربانيين يُفندون شبه أهل الباطل ويردّون عليهم، كما قال ابن تيمية رحمته الله:

«هذه الأمة والله الحمد لم يزل فيها من يتفطن لما في كلام أهل الباطل من الباطل ويردّه، وهم لما هداهم الله به يتوافقون في قبول الحق وردّ الباطل رأياً ورواية، من غير تشاعر ولا تواطؤ» (١).

(١) «مجموع الفتاوى» (٩/ ٢٣٣).

وقال أيضًا: "الثبات على العلم والإيمان عند وقوع الفتن والشبهات هو من أعظم النوع، فإن من الناس من يؤمن في العافية، ثم إذا فتن ارتد، فينبغي أن يعلم أن ثباته على الإيمان عند الفتنة والشبهة من أعظم النعم" (١).

بيان أنه لولا الرد على أهل الباطل لانهدم الدين ولما وصل إلينا نقيًا صافيًا

قال الشيخ الأديب سليمان بن سحمان (٢) رحمه الله:

وَعَن كُلِّ بَدْعٍ أَتَى بِالمصائب	مِنَ الدِّينِ كَشَفَ العَيْبِ عَن كُلِّ كَاذِبٍ
مَعَاقِلُ دِينِ اللَّهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ	وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ لَهُدِّمَتْ



(١) «جامع المسائل والرسائل» (٣٩٩/٩)، الناشر: دار عالم الفوائد.

(٢) تقدمت ترجمته.



أهل الباطل يَخْلِطُونَ شَبَهُهُم بِشَيْءٍ مِنَ الْحَقِّ ليُروِجَ بَيْنَ النَّاسِ

قال الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه الله: «وقوله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى الْآخَرِ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، الزخرف في الأصل الذهب، وزُخِرِفَ القول هو القول المُمَوَّه المَزُور لأجل أن يُغَرَّ النَّاسُ، فالقول المزخرف هو الباطل المغلف بشيء من الحق، وهذا من أعظم الفتنة، لأن الباطل لو كان مكشوفًا ما قبله أحد، لكن إذا غُطِّيَ بشيء من الحق فإنه يقبله كثير من الناس، وينخدعون بهذه الزخرفة، فهو باطل في صورة الحق»^(١).

وقال ابنُ تيمية رحمته الله: «ولا يشتبه على الناس الباطل المحض، بل لا بد أن يُشَابَ (٢) بشيء من الحق»^(٣).

وقال أيضًا: «ولا يُنْفَقُ (٤) الباطل في الوجود إلا بشوبٍ من الحق، كما أن أهل الكتاب لبسوا الحق بالباطل بسبب الحق اليسير الذي معهم»^(٥).

وقال أيضًا: كل ذي مقالة فلا بد أن تكون في مقالته شبهة من الحق، ولولا

(١) انظر كتاب كشف الشبهات» له (ص ٥٦)، الناشر: مؤسسة الرسالة- بيروت.

(٢) يُشَابَ أي يُخلط.

(٣) انظر «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٨ / ٣٧).

(٤) يُنْفَقُ الباطل أي يروِج.

(٥) انظر «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٣٥ / ١٩٠).

ذلك لما راجت واشتبهت^(١).

وقال ابن القيم رحمه الله: «فكلُّ صاحب باطل لا يتمكن من ترويج باطله إلا بإخراجه في قالب حق»^(٢).

وقال الباحث (تميم بن عبد العزيز القاضي) حفظه الله:

ولقد كان من طريقة أهل الباطل على مر العصور أن يُلبَّسوا باطلهم بالزخرف من القول والزور، بدءًا من إبليس الذي احتج على كفره بالقدر، حيث قال ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، ومرورًا بأعداء الرسل الذين لم يتركوا سبيلًا للتضليل إلا وسلكوه، وانتهاء بفرق الضلال من هذه الأمة، الذين ورثوا زبالات الأمم الماضية، وشبهات الفلاسفة الصابئة، ثم موَّهوها بألفاظ حسنة وكلمات قرآنية، ليحسبها الجاهل عسلًا صافيًا، وماء زُلالًا، وهي السُّمُّ الزعاف.

إلا أن هذه الشبهات لم تكن لتنتطلي على أهل الإيمان، ممَّن تنوّرت عقولهم بالسنة والقرآن، فجردوا في وجوه الباطل سيوف الحجة والبرهان، وقابلوا شبهاتهم بالكشف والبيان، فأضحت شبهات الضلال كعصفٍ مأكول، وذهب زبد باطلهم جفاء، وبقي الحق جليًّا ناصعًا ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّيْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكِّتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧]^(٣).

(١) انظر «قاعدة في المحبة»، ص ٢٨٩، تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: مكتبة التراث الإسلامي - القاهرة.

(٢) انظر «إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان» (٢/ ٧٨١).

(٣) مقدمة كتابه «قلب الأدلة على الطوائف المضلّة في توحيد الربوبية والأسماء والصفات» (ص ٧)، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض.



الذب عن الدين والرد على شبه أهل الباطل من أفضل أنواع الجهاد في سبيل الله

قال ابن القيم رحمه الله:

قوام الدين بالعلم والجهاد، ولهذا كان الجهاد نوعين:

جهاد باليد والسنان، وهذا المُشارِك فيه كثير.

والثاني: الجهاد بالحجّة والبيان، وهو جهاد الخاصّة من أتباع الرُّسل، وهو

جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادين، لِعِظَم منفعته وشدّة مؤنته وكثرة أعدائه ^(١).

انتهى كلامه رحمه الله.



(١) «مفتاح دار السعادة»، ص ٧٣، ط دار الكتب العلمية.

عناية العلماء في القديم والحديث برّد شُبّه أهل الباطل

وقد عُنِيَ علماء الإسلام بالردّ على شُبّه أهل الباطل على مرّ العصور والدهور، سواء فيما يتعلق بتوحيد العبادة أو بتوحيد الأسماء والصفات أو غيره من مسائل العقيدة، لأن هذا من الجهاد في سبيل الله، ومن الدفاع عن الدين، ولولا ردودهم لاستعلَى الباطل وقَوِيَ، واضمحل الحق وضعُفَ.

وفيما يلي ثَبَّتْ يتضمن أسماء كتب أهل العلم المؤلفة في الدفاع عن توحيد العبادة، وكشف الشبه المثارة حوله^(١).



(١) وللعلم، فقد يَسَّرَ الله إعداد قائمة علمية مُوسعة تحوي مراجع أهل السنة في العقيدة والشرعية والسلوك، تتضمن أسماء كتب كثيرة في الردّ على كثير من الطوائف والفرق المخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة في شتّى مسائل العقيدة، وقد وسمتها «الفهرس الكبير لمؤلفات أهل السنة والجماعة في العقيدة والشرعية والسلوك»، وهي منشورة في شبكة المعلومات في الموقع التالي: www.saaaid.net/kutob.



ثَبَّتْ يَتَضَمَّنْ أَهَمُّ الْكُتُبِ الَّتِي تُعْنَى بِالرَّدِّ عَلَى الشُّبُهَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِتَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ

الناشر	اسم المؤلف	اسم الكتاب
	محمد بن عبد الوهاب	كشف الشُّبُهَاتِ
دار الثريا- الرياض	محمد بن صالح بن عثيمين	شرح كتاب كشف الشبهات
دار النجاح- الرياض	صالح بن فوزان الفوزان	شرح كتاب كشف الشبهات
دار العاصمة- الرياض	عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ	كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس على قلب داود بن جرجيس
مؤسسة الرسالة- بيروت	عبد الله بن عبد الرحمن أبابطين	تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود بن جرجيس
دار الهداية- الرياض	عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ	منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود بن جرجيس
دار العاصمة- الرياض	سليمان بن سحمان	تُحْفَةُ الطَّالِبِ وَالْجَلِيسِ فِي كَشْفِ شُبُهَةِ دَاوُدَ بْنَ جَرَجِيسَ
دار العاصمة- الرياض	سليمان بن سحمان	الضياء الشارق في الرد على المارق الماذق
دار العاصمة- الرياض	سليمان بن سحمان	الصواعق المرسلّة الشهابية على الشبهة الداحضة الشامية
مكتبة العلم- جدة	محمد بشير السهسواني الهندي	صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان
دار الحبيب- الرياض	صالح بن محمد الشثري	تأييد الملك المنان في نقض ضلالات دحلان

اسم الكتاب	اسم المؤلف	الناشر
فتح المنان في نقض شبه الحاج دحلان	زيد بن محمد آل سليمان	دار التوحيد للنشر - الرياض
مصباح الظلام في الرد على مَنْ كذب على الشيخ الإمام	عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ	دار الهداية - الرياض
المورد العذب الزُّلال في نقض شبه أهل الضلال	عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ	دار الهداية - الرياض
البيان والإشهار لكشف زيف الملحد الحاج مختار	فوزان بن سابق السابق	
غاية الأمان في الرد على النبهاني	محمود شكري الألوسي	مكتبة الرشد - الرياض
كشف الشبهتين	سليمان بن سحمان	دار العاصمة - الرياض
هذه مفاهيمنا - رد على كتاب «مفاهيم يجب أن تصحح» لمحمد بن علوي المالكي	صالح بن عبد العزيز آل الشيخ	
دحض شبهات على التوحيد من سوء الفهم لثلاثة أحاديث	عبد الله بن عبد الرحمن أبابطين	دار العاصمة - الرياض
كشف غياهب الظلام عن أوهام جلاء الأفهام	سليمان بن سحمان	مكتبة أضواء السلف - الرياض
الأسنة الجداد في رد شبهات علوي الحداد	سليمان بن سحمان	مكتبة أضواء السلف - الرياض
فتح الملك الوهاب في رد شبه المرتاب (رد على شبهات في إعراب كلمة التوحيد)	عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ	



الناشر	اسم المؤلف	اسم الكتاب
دار الصفوة - مصر	عبد الكريم بن صالح الحميد	الإبطال والرفض لعدوان من تجرأ على كشف الشبهات بالنقض، ويليهِ: ملامح جهمية (وهو رد على حسن بن فرحان المالكي)
مكتبة الرشد - الرياض	أسامة بن عطايا العتيبي	الأحاديث الموضوعة التي تنافي توحيد العبادة
دار الخراز - جدة	شيخ الإسلام ابن تيمية	الإختائية أو الرد على الإختائي
دار الصميعي - الرياض	شيخ الإسلام ابن تيمية	اللمعة في الأجوبة السبعة
دار الصميعي - الرياض	محمد بن سلطان الحنفي	حكم الله الواحد الصمد في حكم الطالب من الميت المدد
دار العاصمة - الرياض	محمد بن سلطان الحنفي	المشاهدات المعصومية عند قبر خير البرية
	مجدي بن حمدي بن أحمد	الفرقان بين توحيد أهل السنة وتوحيد القبوريين
دار العاصمة - الرياض	محيي الدين البركوي الحنفي	زيارة القبور الشرعية والبدعية
دار العاصمة - الرياض	أحمد الرومي الحنفي	المجالس الأربعة من مجالس الأبرار
دار الصميعي - الرياض	شمس الدين السلفي الأفغاني	جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية
المكتب الإسلامي - بيروت	نعمان بن محمود الألوسي	الآيات البينات في عدم سماع الأموات عند الحنفية السادات

اسم الكتاب	اسم المؤلف	الناشر
تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد للصنعاني، ويليهِ شرح الصدور في تحريم رفع القبور للشوكاني	محمد بن إسماعيل الصنعاني/ محمد بن علي الشوكاني	دار المغني - الرياض
مسألة في الذبائح على القبور وغيرها	محمد بن إسماعيل الصنعاني	دار ابن حزم - بيروت
شفاء الصدور في زيارة المشاهد والقبور	زين الدين مرعي بن يوسف الكرّمي	مكتبة نزار الباز - مكة
المجموع المفيد في نقض القبورية ونصرة التوحيد	محمد بن عبد الرحمن الخميس	دار أطلس الخضراء - الرياض
النبهة الشريفة النفيسة في الرد على القبورين	حمد بن ناصر آل معمر	دار العاصمة - الرياض
معارج الأبواب في مناهج الحق والصواب	حسين بن مهدي النعمي	دار المغني - الرياض
من يدع القبور	حمد بن عبد الله الحميدي	دار المتعلم - الزلفي
الصارم المنكي في الرد على السبكي	محمد بن أحمد بن عبد الهادي	مؤسسة الريان - بيروت
الكشف المبدي لتمويه أبي الحسن السبكي (تكملة الصارم المنكي)	محمد بن حسين الفقيه	دار الفضيلة - الرياض
هدم المنارة لمن صحح أحاديث التوسل والزيارة	عمرو عبد المنعم سليم	دار الضياء - طنطا
رسالة في التبرك والتوسل والقبور	عبد العزيز بن عبد الله بن باز	مدار الوطن - الرياض
الرد على فيصل مراد علي رضا فيما كتبه عن شأن الأموات وأحوالهم	صالح بن فوزان الفوزان	دار العاصمة - الرياض
الإجابة الجلية على الأسئلة الكويتية	حمود بن عبد الله التويجري	مكتبة المعارف - الرياض



اسم الكتاب	اسم المؤلف	الناشر
أوضح الإشارة في الرد على من أجاز الممنوع من الزيارة	أحمد بن يحيى النجمي	مكتبة الغرباء الأثرية- المدينة
الاستغاثة في الرد على البكري	شيخ الإسلام ابن تيمية	مكتبة دار المنهاج- الرياض
تنبيه زائر المدينة على الممنوع والمشروع من الزيارة	صالح بن غانم السدلان	دار بلنسية- الرياض
الانتصار لحزب الله الموحدين والرد على المجادلين المشركين	عبد الله بن عبد الرحمن أبابطين	دار ابن الجوزي- الدمام
شبهات المبتدعة في توحيد العبادة	د. عبد الله بن عبد الرحمن الهذيل	مكتبة الرشد- الرياض
مجانبة أهل الثبور المصلين في المشاهد وعند القبور (رد على من أجاز الصلاة في المقابر وعند القبور)	عبد العزيز بن فيصل الراجحي	مكتبة الرشد- الرياض
زيارة القبور عند المسلمين	سالم بن قطوان العبدان	دار غراس- الكويت
بدع القبور، أنواعها وأحكامها	صالح بن مقبل العصيمي	دار الفضيلة- الرياض
البيان المبدي لشناعة القول المجدي، ويليهِ رجم أهل التحقيق والإيمان على مُكفِّري صديق حسن خان	سليمان بن سحمان	دار أضواء السلف- الرياض
القبورية (نشأتها- آثارها)	أحمد بن حسن المعلم	دار ابن الجوزي- الدمام
البناء على القبور	عبد الرحمن بن يحيى المعلمي	دار أطلس الخضراء- الرياض

مظاهر إهانة القبور

مظاهر إهانة القبور خمسة:

❁ الأول: الجلوس على القبر أو الوطأ عليه

❁ الثاني: المشي بين القبور بالنعال

❁ الثالث: قضاء الحاجة فيها

❁ الرابع: نبش القبور

❁ الخامس: سب الموتى

الإسلام دينٌ وسط، فكما أنه نهى عن تعظيم القبور فإنه نهى عن إهانتها، وصدق الله ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

❖ ومظاهر إهانة القبور أربعة:

الأول: الجلوس على القبر أو الوطء عليه، ودليل النهي عن ذلك حديث مرثد الغنوي أنه رضي الله عنه قال: «لا تَجْلِسُوا على القبور، ولا تُصَلُّوا إليها» ^(١).

وقوله رضي الله عنه: «لأنَّ يَجْلِس أَحَدُكُمْ على جمرة فتَحْرِق ثيابه، فتخلُص إلى جِلده خيرٌ له من أن يَجْلِس على قبر» ^(٢).

وفي رواية: «مَنْ أن يَطَأ على قبر» ^(٣).

وقال جابر رضي الله عنه: «نهى رسول الله ﷺ أن يُجَصَّص القبر» ^(٤)، وأن يُقعد عليه، وأن يُبنى عليه» ^(٥).

(١) رواه مسلم (٩٧٢)، ورواه النسائي (٧٥٩) بلفظ: «لا تُصَلُّوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها»، ورواه أحمد (١٣٥ / ٤) بلفظ: «لا تجلسوا على القبور، ولا تُصَلُّوا عليها».

(٢) رواه مسلم (٩٧١).

(٣) رواه أحمد (٥٢٨ / ٢)، وصححه محققو «المسند».

(٤) الجصُّ: طلاء أبيض يستعمل للتزيين، وهو الذي يُسمى في زماننا بالجبس، وهو سبب لتقوية ما طُلي به، لأنه إذا جفَّ صار صلبًا متماسكًا، فإن طُلي به تراب القبر - مثلاً - كان ذلك سببًا في ثبات التراب وعدم اندثاره، وليس هذا من مقاصد الشريعة، فإن المقابر شأنها الاندثار والبلوى.

(٥) تقدم تخريجه.

الثاني: المشي بين القبور بالنعال، ودليل النهي عن ذلك حديث بشير بن الخصاصية رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يمشي في نعلين بين القبور فقال: «يا صاحب السَّبتين (١) أَلْقِهما» (٢).

أما المشي في المقبرة بالنعلين بعيداً عن القبور في الأماكن التي لم تحفر بعد أو في الطرق المعدة للمشاة في المقبرة فليس فيه بأس، وإنما المحرم هو المشي بين القبور.

الثالث: قضاء الحاجة فيها والمشي عليها، ودليل النهي عن ذلك حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أَمْشِي عَلَى جَمْرَةٍ أَوْ سِيفٍ أَوْ أَخْصِف (٣) نَعْلِي بِرِجْلِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمْشِي عَلَى قَبْرِ مُسْلِمٍ، وَمَا أُبَالِي أَوْسَطَ الْقُبُورِ قَضَيْتُ حَاجَتِي أَوْ وَسَطَ السُّوقِ» (٤).

وروى ابن أبي شيبه بإسناده عن مجاهد قال: «لَا يُحَدِّثُ وَسَطَ مَقْبَرَةٍ وَلَا يَبُولُ فِيهَا» (٥).

(١) السبتين: نوع من النعال لا شعر فيها، وذُكِرَ هذا النوع من النعال خرج مخرج الغالب، فالنهي يتناول النعال عموماً، سواء كانت سبتية أو غير سبتية، والله أعلم.

(٢) رواه أبو داود (٣٢٣٠)، والنسائي (٢٠٤٨)، وابن ماجه (١٥٦٨)، وأحمد واللفظ له (٨٣/٥)، وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود».

(٣) أي: أخرزها بالمخصف، وهي آلة الخرز.

(٤) رواه ابن ماجه (١٥٧٧)، وابن أبي شيبه في «المصنف» (١١٧٧٣)، وصححه الشيخ ناصر في «إرواء الغليل» (٦٣).

(٥) «مصنف ابن أبي شيبه» (١١٧٧٩).

قال ابن تيمية رحمه الله: «فإن قبر المسلم له من الحرمة ما جاءت به السنة، إذ هو بيت المسلم الميت، فلا يُترك عليه شيء من النجاسات بالاتفاق، ولا يُوطأ ولا يُداس ولا يتكأ عليه عندنا وعند جمهور العلماء، ولا يُجاور بما يؤذي الأموات من الأقوال والأفعال الخبيثة، ويُستحب عند إتيانه السلام على صاحبه والدعاء له، وكلما كان الميت أفضل كان حقه أوكد»^(١).

الرابع: نبش القبور، ودليل تحريمه ما رواه مالك عن عمرة بنت عبد الرحمن أنه سمعها تقول: «لعن رسول الله ﷺ المختفي والمختفية»، يعني نبّاش القبور^(٢). ومن جهة أخرى فإن في نبش القبور تعريضاً لعظام الميت للكسر، وكسر عظم الميت المسلم حرام لقوله ﷺ: «إنَّ كسر عظم المؤمن ميتاً مثل كسره حيّاً»^(٣).

أما إذا بلي الميت وصار تراباً كما هو الحاصل في المقابر القديمة فحيثئذ يجوز نبش القبر ودفن غيره فيه بعد تنحية عظامه، ولكن هذا يكون إذا دعت الحاجة إلى ذلك كضيق البلد ونحوه.

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٦٥).

(٢) رواه مالك في كتاب (الجنائز) واللفظ له، باب (ما جاء في الاختفاء)، والبيهقي في «الكبرى» (٨/ ٢٧٠).

وروى عبد الرزاق في «مصنفه» (١٠/ ٢١٥) والبيهقي في «الكبرى» (٨/ ٢٧٠) واللفظ له عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لعن رسول الله ﷺ المختفي والمختفية»، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢١٤٨).

(٣) رواه أبو داود (٣٢٠٧)، وأحمد (٦/ ٥٨) واللفظ له عن عائشة رضي الله عنها، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود».



ما يُشرع للموتى من حقوق على إخوانهم الأحياء

❁ بيان ما يُشرع للموتى من حقوق على إخوانهم الأحياء

❁ فصلٌ في بيان ما يُشرع وما يحُرّم عند زيارة القبور

❁ فائدةٌ في أنواع زيارة القبور





بيان ما يُشرع للموتى من حقوق على إخوانهم الأحياء

شريعة الإسلام شريعة كاملة، لم تأت شريعة بأحسن مما جاء فيها من بيان لحقوق الخلق، أحيائهم وأمواتهم، وهذه جملة من حقوق الموتى على إخوانهم الأحياء من المسلمين:

الأول: الدعاء لهم والترحم عليهم والاستغفار لهم، سواء كان عند زيارة قبورهم أو من بعيد.

ودليله قوله تعالى في صفة المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠].

وعن عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا كان ليأتي منه؛ يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: «السَّلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما تُوعَدون، غداً مُؤَجَّلون، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد» ^(١). رواه مسلم ^(٢).

وعنها أيضاً: أن جبريل عليه السلام أتاه فقال: إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ.

(١) الغرقد: نوع من الشجر يُشبه العرفج، وبنيت في المدينة النبوية، وسميت مقبرة بقيع الغرقد بهذا الاسم، لغرقد كان فيها، وعلى هذا فلا يقال عند دخول المقابر الأخرى: اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد، بل يقال: اللهم اغفر لأهل هذه المقبرة، أو نحو هذا من الدعاء.

(٢) (٩٧٤).

قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟

قال: قولي: «السَّلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويَرْحَمُ الله المستقدمين منَّا والمُستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون»^(١).

وعن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يُعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا:

«السَّلام على أهل الديار» -وفي لفظ: «السَّلام عليكم أهل الديار -من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية»^(٢).

الثاني والثالث والرابع: الصدقة عنهم وقضاء صيامهم والحج عنهم، والدليل على هذا حديث بُريدة بن الحصيْب قال: بينا^(٣) أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ أتته امرأة فقالت: إنِّي تصدقت على أُمِّي بجزارية، وإنها ماتت.

فقال: «وجب أجرك، وردَّها عليك الميراث»^(٤).

قالت: يا رسول الله، إنه كان عليها صوم شهر، أفأصوم عنها؟

قال: «صُومي عنها».

(١) رواه مسلم (٩٧٤).

(٢) رواه مسلم (٩٧٥).

(٣) أي: بينما.

(٤) أي أن شريعة الميراث تفرض عليك أن تكون الجزارية المملوكة من ضمن الإرث الذي تركته أمك.

قالت: إنها لم تحج قط، أفحج عنها؟

قال: «حُجِّي عنها»^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مَن مات وعليه صيامٌ صام عنه وليُّه»^(٢).

الخامس: الكف عن التحدث بمساوئهم، وقد جاء في النهي عن سبِّ الموتى عدة أحاديث وآثار منها:

حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: «لا تسبُّوا الأموات، فإنهم قد أفضوا إلى ما قَدَّموا»^(٣).

وروى ابن أبي شيبة بإسناده عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لا تذكروا موتاكم إلا بخير»^(٤).

وروى ابن أبي شيبة بإسناده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: «سابُّ الميت كالْمُشْرِفِ على التهلكة»^(٥).

السادس: إمضاء وصية الميت كما وصَّى على أن لا تتعدى الثلث، وذلك بعد

(١) رواه مسلم (١١٤٩).

(٢) رواه البخاري (١٩٥٢) ومسلم (١١٤٧).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

إخراج الدين الذي على المتوفى إن كان عليه دين، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (١٨٠) فمن بدله بعد ما سمعه، فإنما إثمه على الذين يبدلونه، إن الله سميعٌ عليمٌ ﴿[البقرة: ١٨٠-١٨١].

السابع: وفاء ديونهم التي عليهم، والدليل على هذا حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن أمي ماتت وعليها صوم شهر. **فقال:** «أرأيت لو كان عليها دينٌ، أكنتِ تقضينه؟».

قالت: نعم.

قال: «فدينُ الله أحقُّ بالقضاء» (١).

ففي هذا الحديث يستفاد وجوب قضاء الدين سواء كان مالا أو صوما لم يصمه الميت، كقضاء إفطار أيام من رمضان ونحو ذلك.



(١) رواه مسلم (١١٤٨)، وينظر البخاري (١٨٥٢)..



فصل في بيان زيارة القبور الشرعية والبدعية

شرع النبي ﷺ لأئمة زيارة القبور لقصد العبرة والاتعاظ وتذكر الموت، ومما يشرع أيضًا السلام على الموتى والدعاء لهم عند دخول المقبرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «زُورُوا القبورَ، فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الموتَ»^(١).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القبورِ فزُورُوهَا، فَإِنَّ فِيهَا عِبْرَةً»^(٢).

وعن ابن بُريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القبورِ فزُورُوهَا»^(٣).

ولفظ النسائي: «ونَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القبورِ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَزُورَ فَلْيَزِرْ، وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا»^(٤).

قال أبو عيسى الترمذي بعد روايته للحديث: «حديث بُريدة حديث حسن

(١) رواه مسلم (٩٧٦).

(٢) رواه أحمد (٣٨/٣)، وصححه محققو «المسند» (٤٢٩/١٧).

(٣) رواه مسلم (٩٧٧) واللفظ له، والترمذي (١٠٥٤)، ورواه أحمد (٦٣/٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) هجراً أي فحشاً، انظر «النهاية»، وقد كانت العرب في الجاهلية تتسخط على أقدار الله عند المصيبة، وكانوا يقولون هجراً كقولهم: يا خيبة الدهر.

صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم، لا يرون بزيارة القبور بأسًا، وهو قول ابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ إذا كان ليلتي منه يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: السَّلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما توعدون، غداً مُؤَجَّلُونَ^(٢)، وإِنَّا إِن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد»^(٣).

والبقيع مقبرة أهل المدينة، وسُمِّي بقيع الغرقد بذلك لِغَرَقِدٍ كان فيه، والغرقد ما عَظُم من شجر العوسج.

فالحاصل أن المقصود من زيارة القبور أمران: الأول تذكر الآخرة، والثاني الدعاء للميت، بالترحم عليه والاستغفار له وسؤال الله العافية له، فمن زاد أو غيّر في الحكمة من هذا التشريع فقد أحدث في دين الله ما ليس منه، وعمله مردود عليه ليس بمقبول، لقول النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

(١) فائدة: نهى النبي ﷺ عن زيارة القبور في أول الإسلام خوفًا عليهم من الوقوع في تعظيم أهلها، ثم لما تمكن التوحيد من نفوسهم أذن لهم بزيارتها، وذلك بعدما تمكن التوحيد والإيمان في نفوسهم، وتعلقت قلوبهم بالله وحده عبادة وتعظيمًا، قال النووي رحمته الله في «المجموع» (٢٨٥/٥): «وكان النهي أولًا لقرب عهدهم من الجاهلية، فربما كانوا يتكلمون بكلام الجاهلية الباطل، فلما استقرت قواعد الإسلام وتمهدت أحكامه واستشهرت معالمه أبيح لهم الزيارة، وأحاط ﷺ بقوله: «ولا تقولوا هجرًا».

قلت: أحاط، أي: احتاط، يعني: احتاط لأئمة.

(٢) مؤجلون؛ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أنتم.

(٣) رواه مسلم (٩٧٤).

قال الشيخ أحمد الرومي الحنفي^(١) في كتابه «المجالس الأربعة من مجالس

الأبرار»:

«فعلى هذا فينبغي على كل من يريد أن يزور القبور من الرجال أن لا يكون حظه من زيارته لها الطواف عليها كالبهائم، بل ينبغي له إذا جاءها أن يسلم على أهلها، ويسأل الله الرحمة والمغفرة والعافية، ثم يعتبر ممن^(٢) كان تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، وأنه حين دخل القبر ابتلي بالسؤال، هل أصاب في الجواب وكان قبره روضة من رياض الجنة، أو أخطأ الجواب وكان قبره حفرة من حفر النار؟

ثم يجعل نفسه كأنه مات ودخل القبر وذهب عنه ماله وأهله وأولاده ومعارفه، وبقي وحيداً فريداً، وهو الآن يسأل فماذا يُجيب؟ وماذا يكون حاله؟ ويكون مشغولاً بهذا الاعتبار ما دام هناك، ويتعلق بمولاه في الخلاص من هذه الأمور الخطيرة العظيمة، ويلجأ إليه^(٣).

ثم قال: «وأما الزيارة البدعية فهي زيارة القبور لأجل الصلاة عندها، والطواف بها، وتقيلها واستلامها وتعفير الخدود عليها، وأخذ تراها، ودعاء أصحابها والاستغاثة بهم، وسؤالهم النصر والرزق والعافية والولد، وقضاء الدين وتفريج الكربات، وإغاثة اللفهان، وغير ذلك من الحاجات التي كان عبّاد الأصنام يسألونها

(١) تقدمت ترجمته في المظهر الأول.

(٢) لعل الأولى: بمن.

(٣) (ص ٥٦ - ٥٧)، باختصار وتصرف يسير.

من أصنامهم، فإنَّ أصلَ هذه الزيارة البدعية الشركية مأخوذ منهم، وليس شيء من ذلك مشروعاً باتفاق علماء المسلمين، إذ لم يفعله رسولُ ربِّ العالمين، ولا أحد من الصَّحابة والتَّابعين وسائر أئمة الدِّين، بل قد أنكر الصحابة ما هو دون ذلك بكثير.

ولقد جرَّد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه، حتى كانت الصحابة والتابعون حين كانت الحُجرة النبوية منفصلة عن المسجد زمن الوليد بن عبد الملك لا يدخل فيها أحد، لا لصلاة ولا لدعاء ولا لشيء آخر مما هو من جنس العبادة، بل كانوا يفعلون جميع ذلك في المسجد، وكان أحدهم إذا سلَّم على النبي ﷺ وأراد الدعاء استقبل القبلة وجعل ظهره إلى جدار القبر ثم دعا، وهذا مما لا نزاع فيه بين العلماء، وإنَّما نزاعهم في وقت السلام عليه.

قال أبو حنيفة: يستقبل القبلة عند السَّلام أيضاً، ولا يستقبل القبر.

وقال غيره: لا يستقبل القبر عند الدعاء، بل قالوا إنه يستقبل القبلة وقت الدعاء، ولا يستقبل القبر حتى لا يكون الدعاء عند القبر، فإن الدعاء عبادة، كما ثبت بالحديث المرفوع: «الدُّعاء هو العبادة»^(١).

والسلف الصالح من الصحابة والتابعين جعلوا العبادة خالصة لله تعالى، ولم يفعلوا عند القبور شيئاً منها إلا ما أذن فيه النبي ﷺ، من السلام على أصحابها، وسؤال الرحمة والمغفرة والعافية من الله لهم، وسبب ذلك أن الميت قد انقطع عمله وهو يحتاج إلى مَنْ يدعو له ويشفع لأجله، ولهذا شرع في الصلاة عليه من الدعاء له

(١) تقدم تخريجه.

- وجوبًا أو ندبًا- ما لم يُشرع مثله في الدعاء للحي، فإنما لما كنا إذا قمنا إلى جنازة ندعو له ونشفع لأجله، فبعد الدفن أولى أن ندعو له ونشفع، لأنه في قبره بعد الدفن أشدُّ احتياجًا إلى الدعاء له منه على نعشه، لأنه حينئذ مُعرض للسؤال وغيره، على ما روي عن عثمان بن عفان، أنه ﷺ كان إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل»^(١).

فهذه سنة رسول الله ﷺ في أهل القبور بضعة وعشرين سنة، وهذه سنة الخلفاء الراشدين وطريقة جميع الصحابة والتابعين، فبدل أهل البدع والضلال قولاً غير الذي قيل لهم، فإنهم قصدوا بالزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ -إحساناً إلى الميت وإلى الزائر- سؤالهم للميت والاستعانة به، وليس هذا إلا الفتنة التي قال فيها عبد الله بن مسعود: «كيف إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير، وينشأ فيها الصغير، تجري على الناس يتخذونها سنة، إذا غيّرت قيل غيّرت السنة».

انتهى كلام الشيخ أحمد الرومي رحمته الله^(٢).



(١) رواه أبو داود (٣٢٢١)، وصححه الألباني.

وفي هذا بيان لشيء مما يُسنّ فعله في حق الميت، فكيف يسوغ لمؤمن بالله أن يترك ما فعله النبي ﷺ ويفعل أموراً لم ترد عنه ﷺ؟

(٢) (ص ٥٩ - ٦٣)، باختصار، وقد استفاد رحمته الله جزءاً من كلامه المنقول من كتاب «إغاثة اللهفان» لابن القيم رحمته الله، فرحم الله علماء أهل السنة، يعرف بعضهم من إناء بعض.

فائدة في أنواع زيارة القبور

يمكن مما سبق أن نخلص بأن زيارة القبور تنقسم إلى ثلاثة أنواع: شرعية وبدعية وشركية.

فأما الشرعية فهي التي يقصد بها صاحبها ما قصده النبي ﷺ وصحابته من زيارة القبور؛ تذكُّر الآخرة والدعاء للميت.

وأما الزيارة الشركية فهي التي يقصد بها صاحبها التقرب لذلك الميت؛ بدعائه وطلب الحوائج منه، أو الذبح له، أو النذر له، أو الطواف بقبره، أو السجود لقبره.

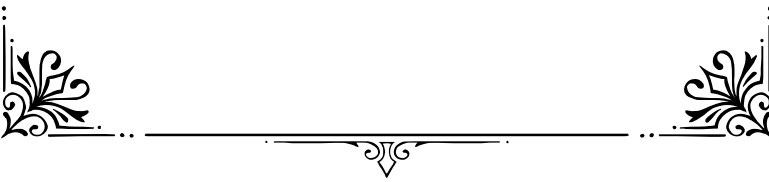
والزيارة البدعية هي التي يقصد بها فعل أمور مبتدعة لم يرد بها الشرع، ولكنها لا تُخرج الإنسان من دين الإسلام، كدعاء الله عندها وقراءة القرآن، ظناً أن هذا له مزية وفضل، فمن عمل هذا فعمله بدعة، وعبادته مردودة عليه، لأنه فعلها على خلاف الهدي النبوي، فالنبي لم يقل إن العبادات عند القبور لها مزية وفضل، وقد قال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهَا أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

اللهم أحيينا مسلمين وتوفينا مسلمين، واجعل آخر كلامنا من الدنيا كلمة التوحيد «لا إله إلا الله». آمين، آمين، آمين.





**ملحق تابع للمظهر الثامن (دعاء أصحاب القبور):
خمسون دليلا على بطلان دعاء غير الله**



تقدم الكلام في المظهر الثامن على (مظهر دعاء أصحاب القبور)، وختم ذلك المظهر بالإشارة إلى أن دعاء غير الله -عمومًا- باطلٌ من خمسين وجهًا، وأن تلك الوجوه ستُفرد في خاتمة الكتاب بملحق مستقل، وهذا أوّان الشروع في ذكرها، نفع الله بها كاتبها وقارئها، فأقول:

إنه بالرغم من عظم مكانة الدعاء بين سائر العبادات؛ إلا أنه من أكثر العبادات التي شَرَّكَ الناس فيها بين الله وبين خلقه، وقد وصف الله دعاء غيره بأنه باطل في موضعين من القرآن؛ الموضع الأول قوله تعالى في سورة الحج ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

والموضع الثاني قوله تعالى في سورة لقمان ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠].

وكذلك مدَّحَ النبي ﷺ من قال إن عبادة غير الله باطلة، قال ﷺ: «أصدقُ كلمةٍ قالها الشاعر؛ كلمة لبيد^(١)»:

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل^(٢).

(١) هو لبيد بن ربيعة العامري، ذكره البخاري وابن أبي خيثمة في الصحابة، سكن الكوفة، وتوفي في خلافة عثمان، عاش مائة وخمسين سنة، وقيل أكثر، وهو القائل:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس: كيف لبيد؟

انتهى مختصرًا من «فتح الباري» في شرح الحديث المذكور.

(٢) رواه البخاري (٣٨٤١) ومسلم (٢٢٥٦) عن أبي هريرة ؓ، وتمايم البيت: وكل نعيم لا محالة زائل.

وصدق الله ورسوله ﷺ، فدعاء غير الله باطل من خمسين وجهًا، هذا أو ان الشروع في ذكرها، فاللهم يسر وأعِن.

الوجه الأول: أن الله - سبحانه - أمر بأن تُصرف العبادات كلها له وحده لا شريك له، الدعاء وغيره، فمن صرف شيئاً منها لغير الله على سبيل المشاركة أو الاستقلال - فقد أشرك بالله العظيم، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ونهى عباده عن أن يشركوا معه في عبادته أحدًا غيره فقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [٥٩] بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿ [الزمر: ٦٥-٦٦]، وبين لنا أن الشرك أعظم الذنوب وأن الله لا يغفره إذا مات العبد عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

الوجه الثاني: أن القرآن والسنة قد خصّبا الدعاء بتأكيد الإخلاص فيه، والنهي عن صرفه لغير الله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال ﴿أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢]، وقد تقدم في (فصل في الأمر بدعاء الله وحده والنهي عن دعاء غيره) تقرير أن مسألة إفراد الله بالدعاء ذكرت في نحو ثلاثمائة موضعٍ من أنواع القرآن بصيغ متعددة (١).

(١) وانظر ما قاله الشنقيطي رحمه الله في مسألة وجوب إفراد الله بالدعاء في كتابه «الأضواء» في تفسير

الوجه الثالث: أن الله والملائكة وأولي العلم شهدوا أنه لا يستحق العبادة غير الله، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، وشهادة أن لا إله إلا الله هي أعظم شهادة في الوجود من أعظم شاهد جل وعز، وشهادة رب العالمين لا ينقصها شيء البتة، فلم يبق بعد هذه الآية معبود يعبد الأولون والآخرين من دون الله إلا بطلت عبادته بهذه الشهادات الثلاث.

الوجه الرابع: أن دعاء غير الله شرك أكبر مهما كانت ذريعته، والشرك معلوم تحريمه بالضرورة من دين الإسلام وكافة الأديان، وهو ناقض لدين الإسلام بالكلية، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رده على من اتخذ واسطة بينه وبين الله: «وهذا جهل بدين الحنفاء، فإن الحنفاء ليس بينهم وبين الله تعالى واسطة في العبادة والدعاء والاستعانة، بل يناجون ربهم ويدعونه ويعبدونه بلا واسطة، وكل مُصلِّ يعبد ربه منه إليه بلا واسطة» (١).

وهذه المسألة مُجمع عليها عند علماء الإسلام قاطبة، من علماء المذاهب الأربعة وغيرهم، فقد أجمعوا على أن دعاء غير الله شرك أكبر مخرج من ملة

سورة الحجرات، الآية (٢) من عند قوله ﷺ: «المسألة الثانية وهي من أهم المسائل...».

(١) «الاستغاثة في الرد على البكري»، (٢/ ٤٧٧-٤٧٨) باختصار.

الإسلام، وإجماع المسلمين حجة شرعية كما قال الرسول ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ، وَيَدُ اللَّهُ عَلَى الْجَمَاعَةِ»^(١).

وقد حكى إجماعهم على أن دعاء غير الله شركٌ أكبرٌ مُخرجٌ من ملة الإسلام جمعٌ من العلماء، منهم شيخ الإسلام، أبو العباس، أحمد بن تيمية رحمته الله، حيث قال:

«سؤال الميت والغائب -نبياً كان أو غيره- من المحرمات المنكرة باتفاق أئمة المسلمين، لم يأمر الله به ولا رسوله، ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، ولا استحسنته أحد من أئمة المسلمين، وهذا مما يُعلم بالاضطرار من دين المسلمين»^(٢).

وقال أيضاً: «لم يقل أحد من علماء المسلمين إنه يُستغاث بشيء من المخلوقات في كل ما يستغاث فيه بالله تعالى، لا بنبيٍّ ولا بملك ولا بصالح ولا غير ذلك، بل هذا مما يُعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لا يجوز إطلاقه»^(٣).

وقال أيضاً: «مَنْ جعل الملائكة والأنبياء وسائط، يدعوهم، ويتوكل عليهم، ويسألهم جلب المنافع، ودفع المضار، مثل أن يسألهم غفران الذنب، وهداية القلوب، وتفريج الكرب، وسد الفاقات؛ فهو كافر بإجماع المسلمين»^(٤).

(١) رواه الترمذي (٢١٦٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني، وكذا الحاكم في «مستدركه» (١١٥، ١١٦)، وحكى بعد روايته للحديث إجماع أهل السنة على هذه القاعدة، وأنها من قواعد الإسلام.

(٢) «الاستغاثة في الرد على البكري» (ص ٣٣١).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١/ ١٠٣)، وانظر ما قاله في «الفتاوى الكبرى» (٤/ ٥٠٦)، (اختيارات شيخ الإسلام)، باب (حكم المرتد)، الناشر: دار القلم - بيروت.

(٤) «مجموع الفتاوى» (١/ ١٢٤).

ونقله عنه الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب من علماء الحنابلة في كتابه «تيسير العزيز الحميد» ثم قال:

نقله ^(١) عنه غير واحد مُقَرَّرين له، منهم ابنُ مُفلح في «الفروع» ^(٢)، وصاحب «الإنصاف» ^(٣)، وصاحب «الغاية» ^(٤)، وصاحب «الإقناع» ^(٥)، وشارحه ^(٦)، وغيرهم، ونقله صاحب «القواطع» ^(٧) في كتابه عن صاحب «الفروع».

قلت ^(٨): وهو إجماعٌ صحيح معلوم بالضرورة من الدين، وقد نص العلماء من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم في باب (حكم المرتد) على أن من أشرك بالله فهو كافر، أي عبد مع الله غيره بنوع من أنواع العبادات، وقد ثبت بالكتاب والسنة والاجماع أن دعاء

(١) أي: الإجماع على كفر من دعا غير الله.

(٢) (١٥٨/٦)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط. سنة ١٤١٨.

(٣) أي: المرادوي (٣٢٧/١٠)، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٤) أي: «غاية المنتهى في الجمع بين الإقناع والمنتهى» لمرعي الكرمي (٤٩٨/٢)، تحقيق: ياسر إبراهيم المزروعى، رائد يوسف الرومي، الناشر: دار غراس - الكويت.

(٥) (٢٨٥/٤) لشرف الدين، موسى بن أحمد الحجاوي المقدسي، تحقيق: د. عبد الله التركي، الناشر: دار هجر - مصر.

(٦) يعني: الشيخ منصور بن يونس البهوتي في كتابه «كشاف القناع في شرح الإقناع» (١٦٨/٦)، الناشر: دار الفكر، بيروت، ط. ١٤٠٢.

(٧) أي: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي الشافعي، واسم كتابه: «الإعلام بقواطع الإسلام»، وقد تقدم التعريف به.

(٨) لا زال الكلام للشيخ سليمان.

الله عبادة له، فيكون صرفه لغير الله شركاً». انتهى كلام الشيخ سليمان رحمته الله (١).

وممن حكى أيضاً إجماع العلماء على أن دعاء غير الله شرك أكبر مخرج من ملة الإسلام الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن (٢)، فقد ذكر أن المسلمين قد أجمعوا على تكفير من ارتكب الشرك الأكبر، وكفر بآيات الله ورسله، أو بشيء منها بعد قيام الحجة وبلوغها المعتبر، كمن عبد الصالحين ودعاهم مع الله، وجعلهم أنداداً له فيما يستحقه على خلقه من العبادات والإلهية، وذكر أن هذا مجمع عليه بين أهل العلم والإيمان، وأن كل طائفة من أهل المذاهب المقلدة يفردون هذه المسألة باب عظيم يذكرون فيه حكمها وما يوجب الردة ويقتضيها، وينصون على الشرك، وأن ابن حجر (٣) قد أفرد هذه المسألة بكتاب سَمَاهُ: «الإعلام بقواطع الإسلام» (٤)(٥).

وقال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمته الله: «لا نعلم نوعاً من أنواع الكفر والردة وردَ فيه من النصوص مثل ما ورد في دعاء غير الله، من النهي والتحذير عن

(١) «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد»، باب (من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره)، (ص ٤٢٧).

(٢) تقدم التعريف به.

(٣) أي: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي الشافعي.

(٤) الكتاب طبع مستقلاً، وطبع بتحقيق د. محمد الخميس، ضمن مجموع «الجامع في ألفاظ الكفر»، الناشر: دار إيلاف - الكويت.

(٥) «الدرر السنية» (١/ ٤٦٧ - ٤٦٨).

فعله، وكُفِّر فاعله، والوعيد عليه بالخلود في النار، فما المانع من تحكيم الكتاب والسنة وأتباع إجماع الأمة، وقد أفردت هذه المسألة بالتصنيف، وحكى الإجماع عليها غير واحد من أهل العلم، وذكروا أنها من ضروريات الإسلام؟» (١).

فصل

وللفائدة؛ فهذا طَرَفٌ من كلام بعض علماء المذاهب الأربعة في تقرير أن دعاء غير الله شرك أكبر.

كلام الحنفية

قال الشيخ محمد عابد السَّندي الحنفي في كتابه «طوالع الأنوار شرح تنوير الأبصار مع الدر المختار» ما نصُّه:

«ولا يقول: (يا صاحب القبر، يا فلان، اقض حاجتي)، أو: (سَلِّها من الله)، أو: (كن لي شفيعًا عند الله)، بل يقول: (يا مَنْ لا يشرك في حكمه أحدًا؛ اقض لي حاجتي هذه)».

وقال الشيخ صنع الله بن صنع الله الحلبي الحنفي ما نصُّه:

«هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدَّعون أن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات، ويُستغاث بهم في الشدائد والبلیات، وبهم تنكشف المُهمات، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات، مُستدلين على أن ذلك منهم كرامات!

وهذا كلام فيه تفريط وإفراط، بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السَّرمدي، لما فيه من

(١) «السيف المسلول على عابد الرسول» (ص ٢٤).

روائع الشرك المحقق، ومصادرة الكتاب العزيز المصدق، ومخالفة لعقائد الأئمة، وما أجمعت عليه هذه الأمة، وفي التنزيل ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]» (١).

وبهذا قال جمع من أئمة الحنفية المتأخرين، كالإمام أحمد السرهندي (٢)، والإمام أحمد الرومي (٣)، والشيخ سجان بخش الهندي، ومحمد بن علي التهانوي (٤)، ومحمد إسماعيل الدهلوي (٥)،

(١) «سيف الله على من كذب على أولياء الله» باختصار (ص ١٥ - ١٦).

(٢) انظر ترجمته في كتاب «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» (٥/ ٤٣ - ٥٥)، لمؤلفه عبد الحي بن فخر الدين الحسيني، الناشر: دار المعارف العثمانية - حيدر آباد.

(٣) هو أحمد بن محمد الأفحصاري الحنفي، ويعرف بالرومي، من علماء الدولة العثمانية، له تصانيف واشتغال بعلوم الشريعة، توفي سنة ١٠٤٣ هـ، له كتاب «حاشية على تفسير أبي السعود»، وكذا كتاب «مجالس الأبرار ومسالك الأخيار» في شرح مائة حديث من المصابيح، وغيرها، انظر ترجمته موسعة في «هدية العارفين» (١/ ١٥٧)، ط. دار الكتب العلمية، سنة ١٤١٣ هـ، و«معجم المؤلفين» (٢/ ٢٥٢).

وكلامه في التحذير من دعاء غير الله مذكور في كتابه «مجالس الأبرار ومسالك الأخيار»، المجلس السابع عشر والسابع والخمسين.

(٤) باحث هندي، له كتاب «كشاف اصطلاحات الفنون»، انظر ترجمته في كتاب «نزهة الخواطر» (٦/ ٢٧٨)، و«هدية العارفين» (٢/ ٣٢٦)، و«الأعلام» للزركلي (٦/ ٢٩٥)، وكلامه في ذم دعاء غير الله مذكور في كتابه «كشاف اصطلاحات الفنون» (٤/ ١٤٦ - ١٥٣).

(٥) هو محمد بن إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي، محدث، من آثاره: «إنجاح الحاجة في شرح سنن ابن ماجه»، انظر «ترجمته في كتاب «نزهة الخواطر» و«معجم المؤلفين» (٣/ ١٣٣)، وكلامه في ذم دعاء غير الله مذكور في كتابه «تقوية الإيمان».

والشيخ محمود بن عبد الله الألوسي^(١)، وغيرهم^(٢).

وقد ألّف الشيخ الدكتور شمس الدين الأفغاني رحمته الله رسالة عظيمة جمع فيها أقوال علماء الأحناف في إبطال عقائد القبورية، ومن المعلوم أنّ الدعاء هو أكثر فعل القبوريين عند القبور التي يعظمونها لاعتقادهم فيها، وأسماءها «جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية»، تقع في ثلاث مجلدات، نال فيها رسالة (الدكتوراة) العالمية، أشار فيها إلى جهود علماء الحنفية في بيان مصدر عبادة القبور ونشأة القبورية وانتشارهم، وتحقيق أن القبورية أهل شرك ووثنية، وجهودهم -أي علماء الحنفية- في إبطال عقائد القبورية^(٣).

ثم نقل رحمته الله مقالات جمع من علماء الحنفية في التحذير من الشرك وإبطال ثلاثين ذريعة من ذرائعه التي يتمسك بها القبورية بمُجملهم^(٤).

ثم ذكر رحمته الله أمثلة لغلو القبوريين في الصالحين، وجهود علماء الحنفية في إبطاله، فابتدأ بذكر غلوهم في النبي صلّى الله عليه وآله، ودعوى أنه يعلم الغيب، وأن له تصرفاً في الكون، وأنه

(١) هو محمود شكري بن عبد الله بن شهاب الدين الألوسي الحسيني، أبو المعالي، مؤرخ عالم بالأدب والدين، من الدعاة إلى الإصلاح في العراق، حمل على أهل البدع برسائل فعاده كثيرون، له اثنان وخمسون مصنفًا، توفي رحمته الله سنة ١٣٤٢ في بغداد.

وكلامه في ذمّ دعاء غير الله مذكور في تفسيره الموسوم «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»، عند الآية (٧٣) من سورة الحج.

(٢) انظر أقوالهم مُفَصَّلة في الإنكار على من دعا غير الله في «المجموع المفيد في نقض القبورية ونصرة التوحيد»، جمع د. محمد الخميس، (ص ٤١٢ - ٤١٨)، الناشر: دار أطلس - الرياض، وقد اكتفيت بالإحالة عليها عن نقلها مفصلة طلبًا للاختصار.

(٣) انظر الصفحات (٣٥٣ - ٥٦١).

(٤) انظر الصفحات (٥٦٣ - ٦٨٢).

يسمع صوت المستغيثين، فأبطل ذلك كله، ثم عطف على أمثلة الغلو في غير النبي ﷺ، كعبد القادر الجيلاني والرفاعي والبدوي وغيرهم ممن تدعى له الولاية (١).

وأما كلام المالكية في باب تحريم دعاء غير الله فقد قال الإمام محمد بن أحمد القرطبي المالكي رحمته الله في تفسيره الموسوم «الجامع لأحكام القرآن» في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ [فاطر: ١٤]: «قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، أي إن تستغيثوا بهم في النوائب لا يسمعوا دعاءكم، لأنها جمادات لا تبصر ولا تسمع، إذ ليس كل سامع ناطقاً.

وقال قتادة: المعنى: لو سمعوا لم ينفعوكم.

وقيل: أي لو جعلنا لهم عقولاً وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم، ولما استجابوا لكم على الكفر.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، أي يجحدون أنكم عبدتموهم، ويتبرءون منكم.

ثم يجوز أن يرجع هذا إلى المعبودين مما يعقل، كالملائكة والجن والأنبياء والشياطين، أي يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقاً، وأنهم أمروكم بعبادتهم، كما أخبر عن عيسى بقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

ويجوز أن يندرج فيه الأصنام أيضاً، أي يحييها الله حتى تخبر أنها ليست أهلاً للعبادة.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، هو الله جل وعز، أي لا أحد أخبر بخلق الله من الله، فلا يُنبئك مثله في عمله». انتهى.

وقال العلامة عبد الحميد بن باديس الجزائري^(١) -رحمه الله- وهو من متأخري المالكية - في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨]:
«مزيد بيان لتوحيد الرحمن:

من دعا غير الله فقد عبده

ما يزال الذكر الحكيم يُسمى العبادة دعاء ويُعبر بها عنها، ذلك لأنه عبادة، فعبر عن النوع ببعض أفراده، وإنما اختير هذا الفرد ليعبر به عن النوع لأن الدعاء منح

(١) هو الشيخ الداعية عبد الحميد بن مصطفى بن مكّي بن باديس، من دعاة النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري في الجزائر، درس على عدة مشايخ في الجزائر وتونس، ثم انكب على التعليم والدعوة ومحاربة البدع لا سيما بدع الطرق الصوفية، حتى إن الصوفية دبروا مكيدة لاغتياله، فنجاه الله منها، أسس جريدة (الشّهاب)، وكان له نشاط ظاهر في بعض المجالات الدينية، وتخرج على يديه دعاة عدة، منهم (مبارك الملي، والفضيل الورتيلاني، ومحمد سعيد الزاهري، وأحمد حماني، ومحمد الصالح بن عتيق، ومحمد الصالح رمضان). له مقالات جُمعت فيما بعد فصارت كتبًا، منها «مبادئ الأصول» و«العقائد الإسلامية» و«التفسير» أو (مجالس التذكير) و«رجال السلف ونساؤه» و«جواب سؤال عن سوء مقال» ردّ فيه على ابن عليوة الطريقي، وقد جُمعت مقالات الشيخ في الثلاثة الأخيرة في ستة مجلدات، وأصدرتها وزارة الشؤون الدينية الجزائرية.

بذل ابن باديس نفسه ووقته وجهده من أجل قضية تحرير الجزائر من احتلال الفرنسيين، وأمضى عمره في التعليم والدعوة، حتى عُدد من أئمة الدعوة في المغرب العربي، وافته المنية في ١١ ربيع الثاني ١٣٥٨ هـ رحمه الله رحمة واسعة. مصدر الترجمة: «أصول الدعوة السلفية عند العلامة عبد الحميد بن باديس» للشيخ محمد حاج عيسى الجزائري.

العبادة وخلاصتها فإن العابد يُظهر ذله أمام عزِّ المعبود، وفقره أمام غناه، وعجزه أمام قدرته، وتمام تعظيمه له وخضوعه بين يديه، ويُعرب عن ذلك بلسانه بدعائه وندائه وطلبه منه حوائجه، فالدعاء هو المظهر الدال على ذلك كله، ولهذا كان مخ عبادته، وقد جاء التنبيه على هذا في السنة المطهرة، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. رواه أحمد والترمذي وأبو داود رضي الله عنه والنسائي وابن ماجه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء مُخ العبادة». رواه الترمذي رضي الله عنه.

فتطابق الأثر والنظر على أنَّ الدعاء عبادة، فمن دعا غير الله فقد عبده، وإذا كان هو لا يُسمَّى دعاءه لغير الله عبادة، فالحقيقة لا ترتفع بعد تسميته لها باسمها وتسميته لها بغير اسمها، والعبرة بتسمية الشرع التي عرفناها من الحديثين المتقدمين لا بتسميته..

تحذير وإرشاد

ما أكثر ما تسمع في دعاء الناس: (يا رب والشيخ) (يا رب وناس ربِّي).. وهذا من دعاء غير الله، فإياك أيها المسلم وإياك، وادع الله ربَّك وخالقك وحده وحده وأنف الشُّرك راغم.

انتهى كلامه ﷺ (١).

(١) «مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير» (ص ٢٩٩ - ٣٠٠)، باختصار، وهو من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية - الجزائر.

وقال العلامة مبارك المليي المالكي الجزائري^(١) رحمه الله تعالى -وهو من متأخري المالكية أيضًا- في كتابه «رسالة الشرك ومظاهره»: «دعاء غير الله وحكمه

دعاء غير الله شرك صريح وكفر قبيح، وله نوعان:

أحدهما: دعاء غير الله مع الله، كالذي يقول: (يا ربي وشيخي، يا ربي وجدي، يا الله وناسه، يا الله يا سيدي عبد القادر)، وسمعت كثيرًا يحكون أنهم كثيرًا ما يسمعون فلانًا يقول: يا ربي يا سيدي يوسف اغفر لي...

وإطلاق الشرك على هذا النوع واضح، لأن الداعي عطفَ غير الله على الله بالواو ثابتة أو محذوفة، وهي تقتضي مشاركة ما بعدها لما قبلها في الحكم، والحكم المشترك فيه هنا هو عبادة الدعاء.

النوع الثاني: دعاء غير الله من دون الله، كالذي يقول:.. (يا ديوان الصالحين)..

انتهى كلامه رحمته الله (٢).

(١) هو الشيخ مبارك بن محمد الإبراهيمي المليي، تلقى العلم منذ صغره على جلة من المشايخ، منهم الشيخ عبد الحميد بن باديس، ثم صار أحد أبرز أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة ١٩٣١، وكان له دور دعوي بارز في الصحافة، جاهد في سبيل الدعوة بالرغم من المضايقات التي تعرض لها أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر، له عدة مؤلفات، أشهرها «الشرك ومظاهره»، توفي رحمته الله في عام ١٩٤٥ ميلادية. مصدر الترجمة: مقدمة تحقيق كتاب «الشرك ومظاهره» للمترجم له، تحقيق: الشيخ أبي عبد الرحمن محمود الجزائري، الناشر: دار الراية- الرياض.

(٢) «رسالة الشرك ومظاهره» (ص ٢٨١ - ٢٨٢)، باختصار، تحقيق: الشيخ أبي عبد الرحمن محمود الجزائري، راجعه الشيخ بكر أبو زيد رحمته الله، الناشر: دار الراية- الرياض.

وقال أيضًا: «ولقد فشا في المسلمين دعاء غير الله على شدة إنكار كتابهم له (١) وتحذير نبيهم ﷺ منه، حتى صار الجهلة ومن قُرب منهم يُؤثرونه على دعاء الله وحده، والاستشهاد لذلك بالحكايات عنهم واستيعابها مُمِلٌ مُعْجِز» (٢).

وقال العلامة تقي الدين الهاللي المالكي (٣) رحمه الله - وهو من متأخري المالكية أيضًا - في كتابه «الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية»:

«فتبين لك أيها القارئ الموفق أن الاستغاثة دعاء، والدعاء مخ العبادة، ومن استغاث بغير الله فقد أشرك وعبدَ مع الله غيره، ومن زعم أنه هو أو غيره من المخلوقين قادرٌ أن يُغيث مَنْ استغاث به ويجيب المضطر ويكشف سوء ويجعل

(١) أي: القرآن العظيم.

(٢) «رسالة الشرك ومظاهره» (ص ٢٨٦).

(٣) هو العلامة المحدث واللغوي الشهير والشاعر الفحل والرحالة المغربي الشيخ السلفي الدكتور محمد تقي الدين الهاللي، درس على جملة من المشايخ، منهم الشيخ عبد الظاهر أبو السمح، والشيخ رشيد رضا بمصر، ثم مكث بها سنة يدعو إلى عقيدة السلف ويحارب الشرك والإلحاد، ثم سافر للهند فطلب الحديث على الشيخ المحدث عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري صاحب «تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي»، ودرس على غيره - أيضًا - في العراق، ثم تدرّج في سلسلة أعمال علمية ودعوية إلى أن عمل أستاذًا بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية إلى سنة ١٩٧٤م، ثم رجع إلى بلده المغرب ومكث يدعو فيها إلى التوحيد والسنة إلى أن توفاه الله يوم الإثنين ٢٥ شوال ١٤٠٧هـ، له ما يربو على عشرين مؤلفًا في العقيدة والفقه، منها «القاضي العدل في حكم البناء على القبور»، و«العلم المأثور والعلم المشهور واللواء المنشور في بدع القبور»، فرحمه الله رحمة واسعة.

الناس خلفاء في الأرض - فقد اتخذ مع الله إلهًا آخر بنصوص القرآن والسنة، انظر آيات النمل من قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ٥٩﴾ أَلَمْ يَخْلُقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ٦٠﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعَهُ إِلَهٌ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ٦١﴾ أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ٦٢﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعَهُ إِلَهٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٦٣﴾ أَلَمْ يُجِيبِ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفِ السُّوءَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ خُلَفَاءَ ٦٤﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعَهُ إِلَهٌ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ٦٥﴾ أَلَمْ يَهْدِكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ٦٦﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعَهُ إِلَهٌ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٧﴾ أَلَمْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْفُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ٦٨﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعَهُ إِلَهٌ قُلْ هَانُوا بِرُهْنِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٦٩﴾ من آية (٥٨ - ٦٤)، ذكر الله تعالى في هذه الآيات أمورًا خاصة به لا يقدر عليها غيره، منها إجابة المضطر وكشف السوء وتولية المناصب والهداية في ظلمات البر والبحر وإرسال الرياح فمن نسب شيئًا من هذه الأمور إلى مخلوق أنه هو الفاعل لها بغير طريق الأسباب فقد أشرك بالله وعبد معه غيره.

واعلم أنه يجب على كل مسلم أن يُوحِد الله في ربوبيته وفي عبادته وفي أسمائه وصفاته، فهذه أنواع التوحيد الثلاثة، مَنْ أخلَّ بها أو بشيء منها فهو كافر» (١).

وقال العلامة الشيخ المفسر محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي رحمته الله

-وهو من متأخري المالكية أيضًا- في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٧]: «وأعظم الكافرين

كفراً هو مَنْ يدعو مع الله إلهاً آخر لا برهان له به، ونفي الفلاح عنه يدل على هلاكه وأنه من أهل النار، وقد حذّر الله من دعاء إليه معه في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْ نَّذِيرٍ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥١]، وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً. انتهى.

وقال - أيضاً - ﷺ في تفسير الآية الثانية من سورة الحجرات:

«اعلم أن من الحقوق الخاصة بالله التي هي من خصائص ربوبيته؛ اتجاه عبده إليه إذا دهمته الكروب التي لا يقدر على كشفها إلا الله، فالتجاء المضطر الذي أحاطت به الكروب ودهمته الدواهي لا يجوز إلا لله وحده، لأنه من خصائص الربوبية، فصرف ذلك الحق لله وإخلاصه له هو عين طاعة الله ومرضاته وطاعة رسوله ﷺ ومرضاته، وهو عين التوقير والتعظيم للنبي ﷺ، لأن أعظم أنواع توقيره وتعظيمه هو اتباعه والاقتراء به في إخلاص التوحيد والعبادة له وحده ﷺ. وقد بين ﷺ في آيات كثيرة من كتابه أن اتجاه المضطر من عباده إليه وحده في أوقات الشدة والكر من خصائص ربوبيته تعالى». انتهى (١).

وأما كلام الشافعية في باب تحريم دعاء غير الله فقد قال ابن حجر الشافعي رحمه الله في «شرح الأربعين النووية» ما معناه: إن من دعا غير الله فهو كافر (٢).

(١) انظر تفسيره الموسوم: «أضواء البيان».

(٢) نقله الشوكاني عنه في «الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد» (ص ١٢١)، الناشر: دار ابن خزيمة - الرياض، ونقله الشيخ محمد بن عبد الوهاب عنه في كتابه «مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد» (ص ٣٠٥)، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

وقال الشيخ أحمد بن علي المقرئ المصري الشافعي (١) رحمه الله:

«وَشِرْكُ الْأُمَمِ كُلِّهِ نَوْعَانِ: شِرْكٌ فِي الْإِلَهِيَّةِ وَشِرْكٌ فِي الرَّبُوبِيَّةِ، فَالشِّرْكُ فِي الْإِلَهِيَّةِ وَالْعِبَادَةُ هُوَ الْغَالِبُ عَلَى أَهْلِ الْإِشْرَاقِ، وَهُوَ شِرْكُ عِبَادِ الْأَصْنَامِ وَعِبَادِ الْمَلَائِكَةِ وَعِبَادِ الْجِنِّ وَعِبَادِ الْمَشَائِخِ وَالصَّالِحِينَ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ، الَّذِينَ قَالُوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣]، وَيَشْفَعُوا لَنَا عِنْدَهُ، وَنِنَالُنَا بِسَبَبِ قُرْبِهِمْ مِنْ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ لَهُمْ قُرْبٌ وَكَرَامَةٌ، كَمَا هُوَ الْمَعْهُودُ فِي الدُّنْيَا مِنْ حَصُولِ الْكَرَامَةِ وَالزُّلْفَى لِمَنْ يَخْدُمُ أَعْوَانَ الْمَلِكِ وَأَقَارِبَهُ وَخَاصَّتَهُ.

وَالْكَتَبُ الْإِلَهِيَّةُ كُلُّهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا تَبْطُلُ هَذَا الْمَذْهَبُ وَتُرَدُّ وَتُقْبَحُ أَهْلُهُ، وَتَنْصُ عَلَى أَنَّهُمْ أَعْدَاءُ اللَّهِ تَعَالَى.

وَجَمِيعُ الرِّسَالِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، وَمَا أَهْلَكَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَهْلِكَ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بِسَبَبِ هَذَا الشِّرْكِ وَمِنْ أَجْلِهِ» (٢).

وأما كلام الحنابلة في باب تحريم دعاء غير الله فقد تقدم ذكر كلام شيخ الإسلام

ابن تيمية في حكاية إجماع العلماء على أن دعاء غير الله شرك أكبر، وهذا مزيد كلام له في هذا الباب:

(١) الشيخ أحمد بن علي المقرئ المصري، درس الحديث والفقه، وانكبَّ على تدوين التاريخ، لقبه الزُّركلي بمؤرخ الديار المصرية، له أكثر من مائتي مؤلف، عُرِضَ عليه قضاء دمشق فأبى، توفي سنة ٨٤٥هـ. انظر ترجمته في «إنباء الغمر»، و«البدر الطالع» للشوكاني، و«الضوء اللامع» للسخاوي، و«الأعلام» للزركلي (١/ ١٧٧)، و«معجم المؤلفين» (١/ ٢٠٤).

(٢) «تجريد التوحيد المفيد» (ص ٥٢-٥٣)، تحقيق: علي بن محمد العمران، الناشر: دار عالم الفوائد - مكة.

«فكل مَنْ غلا في حي أو رجل صالح، وجعل فيه نوعاً من الإلهية، مثل أن يقول: كل رزق لا يرزقنيه الشيخ فلان ما أريده، أو يقول إذا ذبح شاة: (باسم سيدي)، أو يعبد بالسجود له أو لغيره، أو يدعوه من دون الله تعالى، مثل أن يقول: (يا سيدي فلان، اغفر لي أو ارحمني أو انصرني أو ارزقني أو أغثني أو أجرنى، أو توكلتُ عليك، أو أنت حسبي، أو أنا في حَسْبِكَ)، أو نحو هذه الأقوال والأفعال التي هي من خصائص الربوبية التي لا تصلح إلا لله تعالى؛ فكل هذا شرك وضلال، يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قتل، فإن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد الله وحده لا شريك له، ولا نجعل مع الله إلهاً آخر». اهـ (١).

وقال أيضاً: «ومن قال: إن ميتاً من الموتى، نفيسة أو غيرها؛ تُجير الخائف، وتُخلص المحبوس، وهي باب الحوائج؛ فهو ضال مشرك، فإن الله سبحانه هو الذي يجير ولا يجار عليه، وباب الحوائج إلى الله هو دعاؤه بصدق وإخلاص، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]» (٢).

(١) «الرسالة السنية»، وتسمى أيضاً بـ«الوصية الكبرى»، وتقع كاملة في «مجموع الفتاوى»

(٣/٣٦٣-٤٣٠)، والمنقول من (ص ٣٩٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٧/٤٩٠).

وقال ابن القيم رحمه الله في «مدارج السالكين» في معرض كلام له عن أنواع

الشرك:

«ومن أنواعه؛ طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، فضلًا عما استغاث به وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده كما تقدم، فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سببًا لإذنه، وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، وهو بمنزلة من استعان في حاجة بما يمنع حصولها، وهذه حالة كل مشرك.

والميت محتاج إلى من يدعو له ويترحم عليه ويستغفر له، كما أوصانا النبي ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين أن نترحم عليهم، ونسأل لهم العافية والمغفرة، فعكس المشركون هذا، وزاروهم زيارة العبادة واستقضاء الحوائج والاستغاثة بهم، وجعلوا قبورهم أوثانًا تُعبد، وسَمُوا قصدها حَجًّا، واتخذوا عندها الوقفة وحلق الرأس، فجمعوا بين الشرك بالمعبود الحق وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبة أهله إلى التنقص للأموات، وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وأولياءه الموحدين له الذين لم يشركوا به شيئًا بدمهم وعيبيهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص، إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أمروهم به، وأنهم يوالونهم عليه، وهؤلاء هم أعداء الرسل والتوحيد في كل زمان ومكان، وما أكثر المُستجيبين لهم، والله خليفه^(١)

(١) أي: لله دُرُّ خليفه.

إبراهيم عليه السلام حيث يقول: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ رَبِّ إِنِّي هُنَّ أَصْلَانِ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴿[إبراهيم: ٣٥-٣٦].

وما نجا من شركٍ (١) هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيد الله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلى الله، واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده، فجرد حبه لله، وخوفه لله، ورجاءه لله، وذله لله، وتوكله على الله، واستعانت به بالله، والتجاء إلى الله، واستغاثته بالله، وأخلص قصده لله، متبعاً لأمره، متطلباً لمرضاته، إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل لله، فهو لله وبالله ومع الله (٢).

وله رحمه الله في باب التحذير من تعظيم أصحاب القبور كلام طويل في كتابه النفيس «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان»، ذكر فيه الجذور التاريخية لتعظيم أصحاب القبور والغلو فيهم، كما عرض لذكر المظاهر والعلاج، رحمه الله رحمة واسعة (٣).

وقال الإمام أبو الوفاء، علي بن عقيل الحنبلي رحمه الله (٤): «إن من يعظم القبور

(١) الشرك هو الفخ.

(٢) «مدارج السالكين»، (منزلة التوبة)، (ص ٦٠٥).

(٣) وكتابته عفا الله عنه بحث بعنوان: «تلاعب الشيطان بعقول القبوريين»، جمع فيها كلام ابن القيم في هذه المسألة من كتابه المذكور، ورتبه وفهرسه، وهو منشور على صفحته في شبكة المعلومات www.saaaid.net/kutob، نفع الله به.

(٤) هو الإمام العلامة البحر، شيخ الحنابلة، صاحب التصانيف، وُلد سنة ٤٣١ هـ، له كتاب «الفنون» في أربعمئة مجلد، اشتغل بعلم الكلام فوق في تأويل بعض الصفات، ثم أشهد على نفسه أنه تاب، ثم صنف في الرد على مؤولة الصفات، وله كلام في كتابه «الفنون» في ذم من خرج عن الشريعة من أهل الكلام والتصوف، نقله ابن تيمية في «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٦١-٦٨).

ويخاطب الموتى بقضاء الحوائج، ويقول: يا مولاي ويا سيدي عبد القادر: (افعل لي كذا)؛ هو كافر بهذه الأوضاع^(١)، ومن دعا ميتًا وطلب قضاء الحوائج فهو كافر^(٢).

وقال أيضًا: «لما صُعِبَت التكاليف على الجُهَّال والطَّغَام^(٣)؛ عَدَلُوا^(٤) عن أوضاع الشرع^(٥) إلى تعظيم أوضاع وضعوها، وضعوها لأنفسهم، فسُهِّلَت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، وهم عندي كفار بهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور وإكرامها بما نهى عنه الشرع من إيقاد النيران وتقبيلها وتخليقها، وخطاب الموتى بالحوائج، وكَتَبَ الرقاع فيها: (يا مولاي، افعل بي كذا وكذا)، وأخذ تُرَبَّتْها تبركًا، وإفاضة الطيب على القبور، وشد الرحال إليها، وإلقاء الخرق على الشجرة اقتداء بمن عبد اللات والعُزَّى^(٦)».

=

توفي رحمه الله سنة ٥١٣ هـ. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٩/٤٤٣).

(١) الأقرب أن مقصوده بقوله «الأوضاع» أي: الأفعال.

(٢) نقله عنه الشيخ محمد بن سلطان المعصومي الحنفي في كتابه «حكم الله الواحد الصمد» (ص ٤٤)، الناشر: دار العاصمة - الرياض.

(٣) الطغام هم أراذل الناس وأوغادهم. انظر «النهاية».

(٤) عَدَلُوا أي حادوا.

(٥) أوضاع الشرع أي تعاليمه التي شرعها الله تعالى للناس.

(٦) نقله عنه ابن القيم في كتابه «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» (ص ٣٥٢ - ٣٥٣).

ونقله أيضًا الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه «مفيد المستفيد في حكم تارك التوحيد»

(ص ٣٠١ - ٣٠٢)، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

وقال الشيخ عبد الله أبابطين^(١) رحمه الله: «ورأيت من جملة فتاوى للقاضي أبي يعلى^(٢) منها: أنه سُئل عمن يقول: (يا محمد، يا علي)، فقال: هذا لا يجوز لأنَّهما ميّتان»^(٣).

وبهذا انتهى النقل عن علماء المذاهب الأربعة.

ولغير واحد من العلماء المُحقِّقين ممن لا ينتسب إلى مذهب معين ولغير العلماء المنتسبين لأي من المذاهب الأربعة كلام واضح وصريح في تحريم دعاء غير الله، فقد قال الإمام محمد بن علي الشوكاني في كتابه «الدُّرُ النَّضِيدُ فِي إِخْلَاصِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ»:

«اعلم أن الرزية كل الرزية، والبلية كل البلية؛ أمرٌ غير ما ذكرنا - من التوسل المجرد والتشفع بمن له الشفاعة - وذلك ما صار يعتقده كثير من العوام وبعض الخواص في أهل القبور ومن المعروفين بالصلاح من الأحياء، من أنهم يقدرُون على ما لا يقدر عليه إلا الله جل جلاله، ويفعلون ما لا يفعله إلا الله ﷻ، حتى نطقت ألسنتهم بما انطوت عليه قلوبهم، فصاروا يدعونهم تارة مع الله، وتارة

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) هو شيخ الحنابلة، المفتي القاضي: محمد بن الحسين بن محمد البغدادي الحنبلي، ابن الفراء، كان عالم العراق في زمنه، له كتاب «إبطال التأويلات في أخبار الصفات» و«الرد على الجهمية» وغيرها. توفي رحمه الله سنة ٤٥٨ هـ رحمه الله رحمة واسعة. باختصار من «سير أعلام النبلاء» (١٨ / ٨٩)، وله ترجمة في «تاريخ الإسلام»، و«طبقات الحنابلة» لابنه محمد بن أبي يعلى الفراء.

(٣) «تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود بن جرجيس» (ص ١٤٧).

استقلالًا، ويصرخون بأسمائهم، ويعظمونهم تعظيم من يملك الضر والنفع، ويخضعون لهم خضوعًا زائدًا على خضوعهم عند وقوفهم بين يدي ربهم في الصلاة والدعاء، وهذا إذا لم يكن شرًا فلا ندري^(١) ما هو الشرك، وإذا لم يكن كفرًا فليس في الدنيا كفر». انتهى^(٢).

وأختم هذا الباب بكلام نفيس جامع لسماحة الإمام الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمته الله في هذه المسألة، قال:

لا ريب أن الدعاء من أهم أنواع العبادة وأجمعها، فوجب إخلاصه لله وحده كما قال ﷺ: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]، وقال ﷺ: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وهذا يعم جميع المخلوقات من الأنبياء وغيرهم، لأن «أحدًا» نكرة في سياق النهي، فتعم كل من سوى الله سبحانه، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦]، وهذا خطاب للنبي ﷺ، ومعلوم أن الله سبحانه قد عصمه من الشرك، وإنما المراد من ذلك تحذير غيره، ثم قال ﷺ: ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، فإن كان سيد ولد آدم ﷺ لو دعا غير الله يكون من الظالمين فكيف بغيره؟ والظلم إذا أُطلق يراد به الشرك الأكبر، كما قال الله سبحانه: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

فعلم بهذه الآيات وغيرها أن دعاء غير الله من الأموات والأشجار والأحجار

(١) في المطبوع: «تدري»، وأظنه تصحيفًا.

(٢) (ص ٢٢ - ٢٣)، تحقيق: محمد علي الحلبي، دار الفتح - الشارقة.

والأصنام وغيرها شرك بالله ﷻ ينافي العبادة التي خَلَقَ الله الثقلين من أجلها، وأرسل الرسل وأنزل الكتب لبيانها والدعوة إليها، وهذا هو معنى لا إله إلا الله، فإن معناها: لا معبود بحق إلا الله، فهي تنفي العبادة عن غير الله وتثبتها لله وحده، كما قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَتَى مَا يَتَعُونُ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، وهذا هو أصل الدين وأساس الملة ولا تصح العبادات إلا بعد صحة هذا الأصل كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

ودين الإسلام مبنيٌّ على أصليْن عظيمين أحدهما: أن لا يُعبدَ إلا الله وحده. والثاني أن لا يُعبدَ إلا بشريعة نبيه ورسوله محمد ﷺ، وهذا هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فمن دعا الأموات من الأنبياء وغيرهم أو دعا الأصنام أو الأشجار أو الأحجار أو غير ذلك من المخلوقات أو استغاث بهم أو تقرب إليهم بالذبائح و النذور أو صلى لهم أو سجد لهم؛ فقد اتخذهم أرباباً من دون الله وجعلهم أنداداً له سبحانه.

وهذا يناقض هذا الأصل وينافي معنى لا إله إلا الله، كما أن من ابتدع في الدين ما لم يأذن به الله لم يحقق معنى شهادة أن محمداً رسول الله، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وهذه الأعمال هي أعمال من مات على الشرك بالله ﷻ، وهكذا الأعمال المبتدعة التي لم يأذن بها الله فإنها تكون يوم القيامة هباءً منثوراً لكونها لم توافق شرعه المطهر، كما قال النبي ﷺ: «مَنْ

أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردُّ». متفق على صحته (١).

ثم قال رحمه الله: «وقد أمر الله ﷻ بدعائه سبحانه، ووعد من يدعوه بالاستجابة، وتوعد من استكبر عن ذلك بدخول جهنم، كما قال ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، أي صاغرين ذليلين، وقد دلت الآية الكريمة على أن الدعاء عبادة، وعلى أن من استكبر عنه فمأواه جهنم، فإذا كانت هذه حال من استكبر عن دعاء الله فكيف تكون حال من دعا غيره وأعرض عنه؟

وهو سبحانه القريب المجيب المالك لكل شيء والقادر على كل شيء، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلِعَالَمِهِمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقد أخبر الرسول في الحديث الصحيح أن الدعاء هو العبادة، وقال لابن عمه عبد الله بن عباس ؓ: «إِحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظَكَ، إِحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»، أخرجه الترمذي وغيره (٢).

وقال رحمه الله: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نَدَاً دَخَلَ النَّارَ» (٣).

وفي «الصَّحِيحِينَ» عن النبي ﷺ أنه سُئِلَ: أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ؟

(١) رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) عن عائشة ؓ.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه البخاري (٤٤٩٧) عن عبد الله بن مسعود ؓ.

قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نَدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» (١).

والندُّ هو النظير والمثيل.

فكل مَنْ دعا غير الله أو استغاث به أو نذر له أو ذبح له أو صرف له شيئاً من العبادة سوى ما تقدم فقد اتخذه ندّاً لله، سواء كان نبياً أو ولياً أو ملكاً أو جنياً أو صنماً أو غير ذلك من المخلوقات.

أما سؤال الحي الحاضر ما يقدر عليه والاستعانة به في الأمور الحسية التي يقدر عليها فليس ذلك من الشرك، بل ذلك من الأمور العادية الجائزة بين المسلمين، كما قال تعالى في قصة موسى: ﴿فَاسْتَعِذْهُ الْوَيْلُ لِمَنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥]، وكما قال تعالى في قصة موسى أيضاً: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١]، وكما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب وغيرها من الأمور التي تعرض للناس ويحتاجون فيها إلى أن يستعين بعضهم ببعض.

وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يبلغ الناس أنه لا يملك لأحد نفعاً أو ضرراً، فقال تعالى: في سورة الجن: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢٠-٢١]، وقال تعالى: في سورة الأعراف: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وهو ﷺ لا يدعو إلا ربه، ولا يستغيث إلا به، و كان في يوم بدر يستغيث بالله

(١) رواه البخاري (٤٧٦١) ومسلم (٨٦)، واللفظ له، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

ويستنصره على عدوه ويلج في ذلك ويقول: «يا رب أنجز لي ما وعدتني»، حتى قال الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه: «حسبك يا رسول الله، فإن الله مُنْجِز لك ما وعدك» ^(١)، وأنزل الله سبحانه في ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنِّي عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ [الأنفال: ٩-١٠]، فذكرهم سبحانه في هذه الآيات استغاثتهم به، وأخبر أنه استجاب لهم بإمدادهم بالملائكة، ثم بين سبحانه أن النصر ليس من الملائكة، وإنما أمدهم به للتبشير بالنصر والطمأنينة، وبين أن النصر من عنده فقال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنِّي عِنْدَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقال ﷺ في سورة آل عمران: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، فبين في هذه الآية أنه سبحانه هو الناصر لهم يوم بدر، فعلم بذلك أن ما أعطاهم من السلاح والقوة، وما أمدهم به من الملائكة؛ كل ذلك من أسباب النصر والتبشير والطمأنينة، وليس النصر منها، بل هو من عند الله وحده» ^(٢). انتهى كلام الشيخ ابن باز رحمته الله.

قال مُقَيَّدُه عفا الله عنه: فجزئ الله أهل العلم المخلصين لله خير الجزاء على تبينهم للناس أصل دينهم وهو توحيد العبادة، فإنهم كما قال الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم في مقدمة الكتاب الذي جمعه «الدرر السنية من الفتاوى النجدية»: «وقد صنَّف العلماء في كل عصر ومِصر في الأصول والفروع وغيرها مما لا يُحصى، حفظًا للدين والشريعة وأقوال أهل العلم، وليكون آخر الأمة كأولها في العلم

(١) انظر الحديث في «صحيح البخاري» (٢٩١٥) وصحيح مسلم (١٧٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) انظر «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (١٠٨/٢)، الناشر: دار القاسم - الرياض.

والعمل، والتزام أحكام الشريعة وإلزام الناس بها، لأن ضرورتهم إلى ذلك فوق كل ضرورة، ولولا ذلك لجرى على ديننا ما جرى على الأديان قبله، فإن كل عصر لا يخلو من قائل بلا علم، ومتكلم بغير إصابة ولا فهم^(١).

الوجه الخامس من وجوه بطلان دعاء غير الله أن عبادة غير الله انحراف عن الفطرة التي خلق الله الناس عليها وهي عبادة الله وحده، والدعاء نوع من أنواع العبادة، بل هو لبُّها وخالصُها وروحُها، فإن الله خلق الناس حنفاء كلهم، والحنيف هو المائل، أي المائل عن الشرك إلى التوحيد، ثم أتتهم شياطين الإنس والجن فاجتالتهم^(٢) عن التوحيد إلى الشرك، كما قال النبي ﷺ: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلِّ مَالٍ نَحَلْتُهُ^(٣) عَبْدًا حَلَالًا، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حَنَفَاءَ كُلِّهِمْ^(٤)، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا^(٥)».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه **قال**: قال النبي ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجِ^(٦) الْبَهِيمَةُ بِهَيْمَةِ جَمْعَاءَ^(٧)» هل

(١) «الدرر السنية» (١ / ٢١).

(٢) أي: حوَّلَتْهُمْ. انظر «القاموس المحيط».

(٣) أي: وهبته.

(٤) أي: على الحنيفية، وهي عبادة الله وحده.

(٥) رواه مسلم (٢٨٦٥) عن عياض المجاشعي رحمه الله.

(٦) تُنْتَجِ أي تلد.

(٧) جمعاء أي سليمة من العيوب، مجتمعة الأعضاء كاملتها، لا جَدَعَ فيها - أي: قطع - ولا كي.

تُحْسُون (١) فيها من جدعاء (٢)؟» ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] الآية (٣).

فسبّه رسول الله ﷺ المولود الذي يُولد على فطرة التوحيد ثم يحرفه أهله إلى الشرك بالبهيمة التي جدع أهلها أذنّها - أي قطعوها - بعد أن ولدت لا جدع فيها، وإذا كان اليهود والنصارى والمجوس يدعون غير الله، فالفطرة عكس ذلك، وهي دعاء الله وحده، وهو المطلوب.

ومما يدل على أن دعاء الله وحده هو مقتضى الفطرة؛ أن الداعين لغير الله ينسون من يدعونهم وقت الشدائد تمامًا، ويتجهون لدعاء الله وحده، فالفطرة تدعوهم لدعاء الله وحده اضطرارًا، فدل هذا على بطلان ضده وهو دعاء غير الله، قال تعالى عن المشركين الأولين: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ فَلَمَّا أَجْلَهُمْ إِذَا هُمْ يَدْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣].

وقال - أيضًا - سبحانه في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَتَدْعُونَنِي أَنْ أَتَكْفُرَ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتَكْفُرَ

(١) تُحْسُون، من الإحساس، أي: العلم بالشيء. قاله ابن حجر في شرح الحديث رقم (١٣٨٥).
(٢) الجدع هو القطع، يقال: عبدٌ مُجدعُ الأطراف، أي: مُقطَّع الأطراف، والمقصود أن البهيمة تكون سليمة حتى يُتعرض لها بقطع، والجدع أكثر ما يستعمل في الأنف. انظر «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير رحمته الله.

(٣) رواه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

السَّاعَةُ أَغْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٥١﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١].

ولما أقبل أبرهة على مكة وهرب أهلها منها خوفاً منه؛ قام عبد المطلب -جدُّ النبي ﷺ- ونفّر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة، فأخذ عبد المطلب بحلقة باب الكعبة وهو يقول:

يَا رَبِّ لَا أَرْجُو لَهُمْ سِوَاكَ يَا رَبِّ فَاَمْنَعُ مِنْهُمْ حِمَاكَ
إِنَّ عَدُوَّ الْبَيْتِ مَنْ عَادَاكَ اَمْنَعُهُمْ أَنْ يُخْرِبُوا قُرَاكَ (١)

﴿ تنبيه: ﴾

كان المشركون الأولون إذا أصابتهم شدة دعوا الله وحده، وإذا كانوا في رخاء دعوا غير الله، أما مشركو زماننا فإنهم أسوأ حالاً من المشركين الأولين، فإنهم يدعون غير الله في الرخاء والشدة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد ذكر الشيخ صديق حسن خان (٢) رحمه الله، وهو من علماء القرن الثالث

(١) قُرئ بالضم: جمع قرية، وهي البلد، وإن كانت بالكسر فالمقصود مكان الضيافة، لكون مكة تستضيف الناس من مشارق الأرض ومغاربها، والله أعلم.
والقصة رواها ابن جرير في «تفسير» في تفسير سورة الفيل، وكذا ابن إسحاق في «السيرة» بنحو لفظ هذه الأبيات.

(٢) هو الإمام العلامة المحقق محيي السنة وقامع البدعة: أبو الطيب، صديق بن حسن بن علي لطف الله القنوجي، نزيل بهوبال بالهند وأميرها، له مؤلفات كثيرة، منها «الدين الخالص»، توفي سنة ١٣٠٧، وكلامه في تقرير العلو مذكور في كتابه «قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر»

عشر، في كتابه «رحلة الصديق إلى البيت العتيق» قصة تتعلق بهذا الموضوع حصلت له لما ذهب للحج عن طريق البحر وفيها:

«ومن العجائب التي لا ينبغي إخفاؤها أن الملاحين إذا ترددوا في أمر المركب من جمود الريح، أو هبوبها مخالفة^(١)، أو شيئاً من الخوف على السفينة وأهلها، كانوا يهتفون باسم الشيخ عيدروس وغيره من المخلوقين مستغيثين ومستعينين به، ولم يكونوا يذكرون الله ﷻ أبداً، أو يدعونه بأسمائه الحسنی، وكنت إذا سمعتهم ينادون غير الله ويستعينون بالأولياء خفت على المركب خوفاً عظيماً من الهلاك، وقلت في نفسي: يا الله العجب، كيف يصل هذا المركب بأهله إلى ساحل السلامة، فإن مشركي العرب قد كانوا لا يذكرون آلهتهم الباطلة في مثل هذا المقام، بل يدعون الله تعالى وحده غير مشركين به، كما حكى عنهم سبحانه في محكم كتابه المبين، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وهؤلاء القوم الذين يسمون أنفسهم (المسلمين) يدعون غير الله ويهتفون بأسماء المخلوقين، ولقد صدق الله تعالى فيما قال ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]»^(٢).

الوجه السادس: ومن وجوه بطلان دعاء غير الله أن هذا الفعل هو فعلُ المشركين الذين بعث فيهم الرسول ﷺ سواء بسواء، فقد كان المشركون يدعون

(ص ٥٠ - ٥٣)، بتحقيق د. عاصم بن عبد الله القريوتي، الناشر: عالم الكتب - بيروت، وقد

اقتبست ترجمة الشيخ صديق منه.

(١) أي: مخالفة لاتجاه السفينة.

(٢) (ص ١٧١)، ط. ٣، سنة ١٤٠٤ هـ، الناشر: دار ابن القيم - الدمام.

الأنبياء ويدعون الملائكة ويدعون الصالحين وغيرهم، ويقولون: هؤلاء يقربونا ويشفعون لنا عند الله، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قُلْ أَتَدْعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿[يونس: ١٨].

وقال تعالى عنهم في سورة الزمر: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، فانظر كيف حكم عليهم بالشرك في الآية الأولى، وبالكفر في الآية الثانية؟

بل إن دعاء غير الله تعالى هو فعل جميع أصناف المشركين قاطبة في الماضي والحاضر، من لدن نوح إلى يومنا هذا، مروراً بقوم إبراهيم الذين كانوا يدعون الأصنام، والنصارى الذين يدعون عيسى وأمه، وكذلك البوذيون والهنداكة وغيرهم من الوثنيين.

وقد وقع في هذا اللون من الانحراف فئامٌ ممن يتسبون لدين الإسلام، وأشهرهم ثلاث طوائف:

الأولى الرافضة، الذين غلو في تعظيم علي بن أبي طالب (عليه السلام) وبعض آل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، حتى آل بهم الأمر إلى دعائهم وطلب الحاجات منهم، وهم الآن يحجون إلى قبر علي في كربلاء، ويسألونه الحاجات من رزق وولد كما يسألون الله تعالى، قَبَّحَهُمُ اللَّهُ.

والطائفة الثانية غلاة الصوفية، الذين غلوا في تعظيم من وصفوهم بالأولياء والأقطاب، ويدعونهم لكشف الكربات وإغاثة اللهفات.

والطائفة الثالثة القبورية، الذين يأتون إلى قبور بعض الصالحين، وربما إلى قبر النبي ﷺ، ويدعونهم كما يدعون الله، ويأتون أيضًا إلى بعض القبور المنسوبة لبعض آل بيت النبي ﷺ، وهذا شرك في العبادة، وخروج من دين الإسلام، عياذًا بالله.

أقول: والمعبودات التي تُعبد من دون الله ستُكذَّب عابديها يوم القيامة في زعمهم أنها تُقرَّبهم إلى الله، فأَيُّ خُذْلَانٍ بعد هذا الخُذْلَانِ، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۖ﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعِبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ **فَقَدْ كَذَّبَكُمْ بِمَا تَقُولُونَ** فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نُدْفِعْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿[الفرقان: ١٧-١٩]﴾، قال ابن كثير رحمته الله في تفسير هذه الآية: «﴿فَقَدْ كَذَّبَكُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾»، أي فقد كَذَّبكم الذين عبدتم من دون الله فيما زعمتم أنهم لكم أولياء وأنهم يُقرَّبونكم إلى الله زلفى... وقوله: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ أي لا يقدرُونَ على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم». اهـ.

الوجه السابع: أنَّ دعاء غير الله من الأنبياء والصالحين لو كان صوابًا لأمر به الله -تعالى- الله عن ذلك- وَلَفَعَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ وصحابته رضي الله عنهم - حاشاه وصحابته من ذلك، لأنهم أحرص الناس على الخير وأعلمهم بالحق، وقد رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأعدَّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وفيهم الخلفاء الأربعة، وفيهم أهل بيته، وفيهم المشهود لهم بالجنة، وفيهم الذين غفر الله لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر، ومع هذا فلم يحصل منهم بتاتًا أن يدعوهم وطلبوا الحاجات منه، بل لم يرد عن أحد

ممن جاء بعدهم من أهل القرون الثلاثة المفضلة أثر صحيح أو حسن يُثبت أنهم كانوا إذا كانت لهم حاجة قصدوا القبور.

قال ابن تيمية رحمه الله: «والمؤمن يرجو ربه ويخافه ويدعوه مخلصاً له الدين، وحق شيخه عليه أن يدعو له ويترحم عليه، فإن أعظم الخلق قدراً هو رسول الله ﷺ، وأصحابه أعلم الناس بأمره وقدره وأطوع الناس له، ولم يكن يأمر أحداً منهم عند الفزع والخوف أن يقول: يا سيدي يا رسول الله، ولم يكونوا يفعلون ذلك لا في حياته ولا بعد مماته، بل كان يأمرهم بذكر الله ودعائه والصلاة والسلام عليه ﷺ، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ٧٣ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَهُ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٣-١٧٤﴾» (١).

وقال أيضاً: «سؤال الميت والغائب - نبياً كان أو غيره - من المحرمات المنكرة باتفاق أئمة المسلمين، لم يأمر الله به ولا رسوله، ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، ولا استحسنته أحد من أئمة المسلمين، وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين المسلمين، فإن أحداً منهم ما كان يقول إذا نزلت به ترة^(٢)، أو عرضت له حاجة لميت: يا سيدي فلان أنا في حسبك، أو اقض حاجتي، كما يقول بعض هؤلاء المشركين لمن يدعونهم من الموتى والغائبين، ولا أحداً من الصحابة استغاث بالنبي ﷺ بعد موته، ولا بغيره من الأنبياء لا عند

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٨٧-٨٨).

(٢) ترة أي نقص.

قبورهم ولا إذا بعدوا عنها، وقد كانوا يقفون تلك المواقف العظام في مقابلة المشركين في القتال، ويشد البأس بهم ويظنون الظنون، ومع هذا لم يستغ أحد منهم بنبي ولا غيره من المخلوقين، بل ولا أقسموا بمخلوق على الله أصلاً، ولا كانوا يقصدون الدعاء عند قبور الأنبياء، ولا الصلاة عندها» (١).

وقال ابن القيم رحمه الله:

«فهذه سنة رسول الله ﷺ في أهل القبور بضعة وعشرين سنة حتى توفاه الله تعالى، وهذه سنة خلفائه الراشدين، وهذه طريقة جميع الصحابة والتابعين لهم بإحسان، هل يُمكن بشر على وجه الأرض أن يأتي عن أحد منهم بنقل صحيح أو حسن أو ضعيف أو منقطع أنهم كانوا إذا كان لهم حاجة قصدوا القبور فدعوا عندها وتمسحوا بها، فضلاً عن أن يصلوا عندها، أو يسألوا الله بأصحابها، أو يسألوهم حوائجهم؟

فليوقفونا على أثر واحد، أو حرف واحد في ذلك» (٢).

الوجه الثامن: أن الذي يتوجه إلى غير الله بالعبادة والدعاء قد ساوى هذا المعبود بالله ﷻ في الحب والتعظيم، وشبهه به، لكونه توجه له كما توجه لله، وهذه المساواة والتشبيه هي حقيقة الشرك ومعناه، وقلبه وقالبه، قال تعالى مبيناً حقيقة فعل الكفار: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، أي يجعلون له معادلاً ومساوياً، وقال تعالى عنهم وهم يذكرون حالهم في الدنيا وهم في النار: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ

(١) «الاستغاثة في الرد على البكري» (ص ٣٣١ - ٣٣٢).

(٢) «إغاثة اللهفان» (ص ٣٦٧ - ٣٦٨).

مُيِّنٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ تُسَوِّكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿[الشعراء: ٩٧-٩٨]، قال الشيخ عبد الرحمن بن سَعْدِي في تفسير هذه الآية: «في العبادة والمحبة والخوف والرجاء، وندعوكم كما ندعوه، فتبين لهم حينئذ ضلالهم، وأقروا بعدل الله في عقوبتهم، وأنها في محلها، وهم لم يُسَوُّوهم رب العالمين إلا في العبادة». انتهى^(١).

ومساواة الله بخلقه باطلة، لأن الله ليس له كفؤ ولا ند، ولا مثيل ولا نظير، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، وقال ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] أي أمثالاً ونظراء.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

«وأما الشرك فهو نوعان: أكبر وأصغر.

فالأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو أن يتخذ من دون الله ندًا يحبه كما يحب الله، وهو الشرك الذي يتضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين، ولهذا قالوا لآلهتهم في النار: ﴿تَأْتِيهِمْ إِنْ كُنَّا لِنَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٩٧﴾ إِذْ تُسَوِّكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿[الشعراء: ٩٧-٩٨]، مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء، وربهم ومليكه، وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق ولا تحيي ولا تميت، وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال أكثر مشركي العالم، بل كلهم يُحبون معبوداتهم ويعظمونها ويوالونها من دون الله، وكثير منهم -بل أكثرهم- يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله، ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله وحده، ويغضبون لمنتقص معبوديهم وآلهتهم من المشايخ أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحدهم رب العالمين،

(١) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان».

وإذا انتهكت حرمة من حرمت آلهتهم ومعبوداتهم غضبوا غضب الليث إذا حرد^(١)، وإذا انتهكت حرمت الله لم يغضبوا لها! بل إذا قام المنتهك لها بإطعامهم شيئاً رضوا عنه ولم تتنكر له قلوبهم، وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جهرة.

وترى أحدهم قد اتخذ ذكراً إلهه ومعبوده من دون الله على لسانه ديدناً له إن قام وإن قعد، وإن عثر وإن مرض، وإن استوحش، فذكر إلهه ومعبوده من دون الله هو الغالب على قلبه ولسانه، وهو لا يُنكر ذلك، ويزعم أنه باب حاجته إلى الله، وشفيعه عنده، ووسيلته إليه، وهكذا كان عبَاد الأصنام سواء.

وهذا القدر هو الذي قام بقلوبهم، وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم، فأولئك كانت آلهتهم من الحجر، وغيرهم اتخذوها من البشر، قال الله تعالى عن أسلاف هؤلاء المشركين: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٢٥].

ثم شهد عليهم بالكفر والكذب، وأخبر أنه لا يهديهم فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

فهذه حال من اتخذ من دون الله ولياً يزعم أنه يقربه إلى الله، وما أعزَّ^(٢) من يخلص من هذا، بل ما أعزَّ من لا يعادي من أنكره^(٣).

(١) حَرَدَ أَيُّ غَضِبَ. انظر «لسان العرب».

(٢) أَيُّ: مَا أَقْل.

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٥٩٤ - ٥٩٥).

وقال - أيضاً - ﷺ:

«فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية، فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع، والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده، فمن علّق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل ما لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فضلاً عن غيره، شبيهاً لمن له الأمر كله، فأزمت الأمور كلها بيديه، ومرجعها إليه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد، فمن أقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات.

ومن خصائص الإلهية؛ الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يُوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوبة والتوكل والاستعانة، وغاية الذل مع غاية الحب، كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرةً أن يكون له وحده، ويمتنع عقلاً وشرعاً وفطرةً أن يكون لغيره، فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل له ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، ولشدة قبحه وتضمُّنه غاية الظلم؛ أخبر - سبحانه - عباده أنه لا يغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة.

ومن خصائص الإلهية؛ العبودية التي قامت على ساقين لا قِوام لها بدونهما؛ غاية الحب مع غاية الذل، هذا تمام العبودية، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب

تفاوتهم في هذين الأصلين، فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغيره فقد شبهه به في خالص حقه، وهذا من المحال أن تجيء به شريعة من الشرائع، وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل، ولكن غيّرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم، وأفسدتها عليهم واجتالتهم عنها، ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من الله الحسن، فأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم، فزادوا بذلك نورًا على نور، ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

إذا عُرف هذا؛ فمن خصائص الإلهية السجود، فمن سجد لغيره فقد شبهه المخلوق به.

ومنها التوكل، فمن توكل على غيره فقد شبهه به.

ومنها التوبة، فمن تاب لغيره فقد شبهه به.

ومنها الحلف باسمه تعظيمًا وإجلالًا له، فمن حلف بغيره فقد شبهه به، هذا في جانب التشبيه^(١).

وقال الشيخ الشريف محمد بن ناصر الحازمي^(٢) رحمه الله:

«وقد علم كل عالم أن عبادة الكفار للأصنام لم يكن إلا بتعظيمها واعتقاد أنها تضر وتنفع، والاستغاثة بها عند الحاجة، والتقرب إليها في بعض الحالات بجزء من

(١) «الداء والدواء» لابن القيم، (ص ٢٠٨ - ٢١١).

(٢) انظر ترجمته في «عقود الدرر في تراجم علماء القرن الثالث عشر» (٢/ ٧٢٣)

للحسن بن أحمد عاكش الضمدي، تحقيق: د. إسماعيل بن محمد البشري، الناشر:

مكتبة جامعة - الشارقة.

أموالهم، وهذا كله قد وقع من المعتقدين في القبور، إنهم قد عظموها إلى حدٍّ لا يكونُ إلا لله ﷻ، بل ربما يترك العاصي منه فعل المعصية إذا كان في مشهدٍ مَنْ يعتقد أنه قريباً منه مخافة تعجيل العقوبة من ذلك الميت، وربما لا يتركها إذا كان في حرم الله تعالى، أو في مسجد من المساجد أو قريباً من ذلك»^(١).

وقال الشيخ عبد الله أبابطين رحمه الله:

«فَمَنْ سَوَّى بَيْنَ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ بِقَوْلِهِ: (يُطْلَبُ مِنَ الْمَيِّتِ مَا يُطْلَبُ مِنَ الْحَيِّ)؛ فقد سَوَّى بَيْنَ مَا فَرَّقَ اللَّهُ وَالنَّاسُ بَيْنَهُمَا، حَتَّى الْمَجَانِنُ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ، فلو قصد مجنونٌ بَيْتَ إِنْسَانٍ لِيُطْعِمَهُ فوجدَهُ مَيِّتًا وَأَهْلَهُ عِنْدَهُ، لعدَلَ إِلَى الطَّلَبِ مِنْ أَهْلِهِ الْأَحْيَاءِ الْحَاضِرِينَ عِنْدَهُ وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى الْمَيِّتِ»^(٢).

وقال أيضاً: «ويقال لهذا المُساوي بين الأحياء والأموات: من المعلوم أن أهل الدنيا يستقضون حوائجهم بعضهم من بعض؛ برهم وفاجرهم، مسلمهم وكافرهم، وقد استعار النبي ﷺ أذراعاً من صفوان بن أمية وهو مشرك، واستعان في بعض غزواته بأناس من المشركين، وما زال المسلمون يستقضون حوائجهم من المسلم والذمي والبر والفاجر، فيلزم المساوي بين الأحياء والأموات أن يساوي بين أموات المذكورين كما كانوا في الدنيا كذلك»^(٣).

(١) «إيقاظ الوسنان على بيان الخلل في صلح الإخوان» (ص ٣٧)، الناشر: دار الشريف-الرياض.

(٢) «تأسيس التقديس في كشف تلبس داود بن جرجيس» (ص ٨٢).

(٣) «تأسيس التقديس في كشف تلبس داود بن جرجيس» (ص ٨٨).

وقال أيضًا: «ويقال - أيضًا - لهذا المُساوي بين الحي والميت: لو أُعطي إنسان آخر مالا وقال: أودعه عند ثقة، فذهب به الوكيل وأودعه عند قبر رجل صالح كالشيخ عبد القادر وقال: هذا ودیعة عندك لفلان، واستحفظه إياه فضاع؛ لعدده الناس مجنونًا جنونًا لا يرفع التكليف، وألزموه بالضمان، ويلزم هذا الذي ساوى بين الحي والميت أن يقول: هو مُصيب فيما فعله ولا ضمان عليه، وربما أنه لا يلتزم هذا خوفًا من الفضيحة عند الناس، وحينئذ يقول له الوكيل في الإيداع: أنا ما فرطت على مذهبك في التسوية بين الحي والميت، لأنك تقول: ما جاز طلبه من الحي جاز طلبه من الميت، وأنا طلبت من الشيخ عبد القادر حفظ هذه الوديعة وهي حاجتي عنده، وأنت تُجوز طلب الحاجات من الأموات فكيف تُخطئني؟!» (١).

الوجه التاسع: أن الله ﷻ لا يقبل عملاً دخله الرياء، لأنه ﷻ غني عن أن يكون له شريك، فيكون الشرك في الدعاء مردود أيضًا، لأن بابهما واحد، وهو التقرب للمخلوقين، ففي «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: أَنَا أَعْنَى الشَّرْكَاءِ عَنِ الشَّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشَرَكُهُ» (٢).

وقد بيّن النبي ﷺ أن الرياء شرك أصغر، يحبط العمل الذي خالطه، فعَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشَّرْكَ الْأَصْغَرُ.

قَالُوا: وَمَا الشَّرْكَ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

(١) «تأسيس التقديس في كشف تلبیس داود بن جرجیس» (ص ٨٤ - ٨٥).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩)، وقال محققوه: إسناده حسن.

قَالَ: «الرِّبَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ ﷻ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً» (١).

فإذا كان الرباء شرًا يحبط العمل؛ فكيف بالدعاء الخالص لغير الله؟

لا شك أنه أشد خطرًا وضررًا.

وإذا كان المرائي يقال له يوم القيامة: (اطلب ثواب عملك ممن عملت لهم)، فالذي يدعو غير الله يقال له ذلك يوم القيامة، بل يتبرؤون منه.

نسأل الله العافية من الشرك، دقيقه وجليله.

الوجه العاشر: أن الله قد صرح في كتابه بأنه لا يستجيب الدعاء إلا الله وحده، فوجب الإيمان بذلك، وترك دعاء من لا يستجيب الدعاء، وإلا كان الراد لهذه الآيات كافرًا بها، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢١٠]، ﴿بَلْ إِلَٰهَهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠، ٤١]، وقال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كَنُطُفٍ كَفَيْتَهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغٍ عِندَهُ دَعْوَةَ الْحَقِّ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤].

فمن قال إن أهل القبور يُجيبون دعاء من دعاهم فهو على خطر عظيم، وهو الكفر بآيات الله، لأنه لم يصدق بخبر القرآن الناص على أنه لا يجيب الدعاء إلا الله وحده.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩)، وقال محققوه: إسناده حسن.

الوجه الحادي عشر: ومن أعظم وجوه بطلان دعاء المخلوقين تصريح الله سبحانه بأن دعاء غيره باطل، وفي هذا كفاية وشفاء لمن أراد الحق، وذلك في قوله تعالى في سورة الحج: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، وقوله تعالى في سورة لقمان: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠].

أما دعاء الله فقد وصفه الله بأنه حق كما في قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤].

الوجه الثاني عشر: أن الله قد حكم على من دعا غيره أنه لا أضل منه فقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

قال البيضاوي رحمه الله في تفسيره: «هذا إنكار أن يكون أحد أضل من المشركين، حيث تركوا عبادة السميع البصير المجيب القادر الخبير إلى عبادة من لا يستجيب لهم، فضلاً أن يعلم سرائرهم، ويراعي مصالحهم. ﴿وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ﴾: لأنهم إما جمادات، وإما عبادٌ مسخرون مشغولون بأحوالهم» (١).

الوجه الثالث عشر: أن ترك دعاء الله من أسباب غضب الله، هذا إذا كان الداعي لا يدعو غير الله إذا دعا، فكيف بمن يدعو غير الله إذا دعا؟

(١) «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، سورة الأحقاف: (٥)، باختصار وتصرف يسير.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ» ^(١).

الوجه الرابع عشر: أن الله توعد مَنْ دعا غيره بالنار، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قال النبي ﷺ كلمة وقلتُ أخرى، قال النبي ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مَنْ دُونَ اللَّهِ نَدًّا دَخَلَ النَّارَ»، وقلتُ أنا: مَنْ مَاتَ وَهُوَ لَا يَدْعُو اللَّهَ نَدًّا دَخَلَ الْجَنَّةَ» ^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَخْرُجُ عَنْقُ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَهَا عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ، وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ، يَقُولُ: إِنِّي وَكَلْتُ بِثَلَاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَبِالْمُصَوِّرِينَ» ^(٣).

قال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمته الله:

«لا نعلم نوعاً من أنواع الكفر والرّدّة ورد فيه من النصوص مثل ما ورد في دعاء غير الله، مِنْ النهي والتحذير عن فعله، وكُفّر فاعله، والوعيد عليه بالخلود في النار، وقد أفردت هذه المسألة بالتصنيف، وحكى الإجماع عليها غير واحد من أهل العلم، وذكروا أنها من ضروريات الإسلام» ^(٤).

قلت: ومما يُستأنس به في هذا الباب قول الشاعر:

لَا تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُحْجَبُ
اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَه وَبُنَيَّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

(١) رواه الترمذي (٣٣٧٣)، والطبراني في «الأوسط» (٢٤٥٢)، وصححه الألباني رحمته الله.

(٢) رواه البخاري (٤٤٩٧)، وأحمد (٣٧٤ / ١).

(٣) رواه الترمذي (٢٥٧٤)، وصححه الألباني رحمته الله.

(٤) «السيف المسلول على عابد الرسول» (ص ٢٤)، باختصار.

الوجه الخامس عشر: أن هؤلاء الذين يدعون الأنبياء والصالحين يقرون بأن الله تعالى وحده هو الرب الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء، وهذا يستلزم أن يوحدوه بالعبادة كما وحدوه بالربوبية، والدعاء من أعظم أنواع العبادة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، فكما أن الله لا شريك له في ربوبيته فكذلك لا شريك له في أحقيته وحده بالعبادة، لأن توحيد الربوبية يقتضي توحيد الألوهية ويدل عليه.

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله: «وكثيرًا ما يقرن تعالى توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية لأنه دال عليه، وقد أقر به - أيضًا - المشركون في العبادة» (١).

الوجه السادس عشر: أن دعاء غير الله محرمٌ بالنظر إلى ما أدى إليه، وهو اعتقاد الربوبية في أولئك المدعوين من دون الله استقلالًا أو مشاركةً مع الله، قال الشوكاني في كتابه «الدُّرُ النُّضِيدُ فِي إِخْلَاصِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ»:

«اعلم أن الرزية كل الرزية، والبليّة كل البليّة؛ ما صار يعتقده كثير من العوام وبعض الخواص في أهل القبور ومن المعروفين بالصلاح من الأحياء؛ من أنهم يقدرّون على ما لا يقدر عليه إلا الله جل جلاله، ويفعلون ما لا يفعله إلا الله ﷻ، حتى نطقت ألسنتهم بما انطوت عليه قلوبهم، فصاروا يدعونهم تارة مع الله، وتارة

(١) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، أول تفسير سورة الصفات.

استقلالاً، ويصرخون بأسمائهم، ويُعظمونهم تعظيم مَنْ يملك الضر والنفع، ويخضعون لهم خضوعاً زائداً على خضوعهم عند وقوفهم بين يدي ربهم في الصلاة والدعاء، وهذا إذا لم يكن شركاً فلا ندري^(١) ما هو الشرك، وإذا لم يكن كفرًا فليس في الدنيا كفرٌ. انتهى باختصار يسير.

وقال الشيخ أحمد بن يحيى النجمي رحمته الله:

«إن شرك مشركي هذه الأمة تجاوز الشفاعة والوساطة التي كان يعتقدونها مشركو العرب إلى الملك وتدبير الكون والإحياء والإماتة، فقد وُجد في هذه الأمة من يعتقد أن تدبير الكون بأسره يعود إلى أقطابٍ أربعة!

وقد بلغ من جهل الخرافيين من المسلمين بتوحيد الله أن مثل هذه النصوص من آيات التوحيد لم تصد الجاهلين به منهم عن دعوى قدرة الأنبياء والصالحين - حتى الميتين منهم - على كل شيء من التصرف في نفعهم وضرهم، مما يجعله الله من الكسب المقدور بمقتضى سننه في الأسباب، بل يعتقدون أن منهم من يتصرفون في الكون كله، كالذين يسمونهم بالأقطاب الأربعة، وإن من بعض كبار علماء الأزهر في هذا العصر مَنْ يكتب هذا في مجلة الأزهر الرسمية (نور الإسلام)، فيفتي بجواز دعاء غير الله من الموتى والاستغاثة بهم في كل ما يعجزون عنه من جلب نفع ودفع ضرر، وألّف بعضهم كتاباً في إثبات ذلك وكون الميتين من الصالحين ينفعون ويضرون بأنفسهم ويخرجون من قبورهم فيقضون حوائج من يدعونهم ويستغيثون بهم»^(٢).

(١) في المطبوع: «تدري»، وأظنه تصحيفاً.

(٢) «أوضح الإشارة في الرد على من أجاز الممنوع من الزيارة» (ص ٣٤٢ - ٣٤٥)، باختصار

وادعاء الربوبية للمعبودين قد وقع فيه بعض قدماء المشركين، كما قال قوم عاد لهود عليه السلام: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤]، أي أصابتك آلهتنا بسوء، فهم ينسبون التأثير الكوني وتدبير الأمور لتلك الآلهة، وفي زماننا هذا يظن بعض القبوريين أن القبر إذا كان في مدينة أو قرية فإنهم ببركتهم يُرزقون وينصرون ويندفع عنهم الأعداء والبلاء، وأن السيدة نفيسة خفيرة^(١) مصر والقاهرة، والدسوقي، والبدوي، وهكذا، والشيخ عبد القادر قطب بغداد وخفيرها، وفلان خفير الشام والحجاز، ووضعوا لكل بلد خُفراء^(٢).

وذكر زاهد الكوثري^(٣) أنَّ أرض الشام يحرسها من الآفات والبلايا أربعة من

=

وتصرف، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة.

(١) قال ابن منظور في «لسان العرب»: «خفير القوم: مُجبرهم الذي يكونون في ضمانه ما داموا في بلاده».

(٢) نقلًا من «حوار مع الصوفية» (ص ٥٦)، لأبي بكر العراقي كما في «دمعة على التوحيد» (ص ٧٨)، الناشر: المتدئ الإسلامي - لندن.

(٣) هو محمد زاهد بن الحسن الحلبي، المعروف بالكوثري، ولد سنة ١٢٩٦ هـ، قبوري جهمي مشهور، معروف بردوده على أئمة أهل السنة في باب الاعتقاد وربما سبهم، كابن خزيمة وسفيان الثوري والأوزاعي وابن بطة العُكبري وعثمان الدارمي وابن المديني والدارقطني وعبد الله ابن الإمام أحمد ونُعيم بن حمَّاد، وأما ابن تيمية وابن القيم فحدَّث - عن طعنه فيهم - ولا حرج، يصاحب ذلك سكوت أو تأييد لأئمة البدع والضلال، كالجهم بن صفوان وغيره.

كان ماتريدًا حنفياً متعصبًا، يدعو إلى الاستعانة بالموتى والتعلق بهم، ردَّ عليه علماء كُثر، وقد ألَّفَ رسالة علمية في بيان معتقده الباطل باسم: «زاهد الكوثري وآراؤه الاعتقادية، عرض ونقد» للأستاذ علي الفهيد، وللدكتور محمد الخميس كتاب بعنوان: «بيان مخالفة الكوثري لاعتقاد السلف»، وللشيخ محمد بن مانع رحمه الله تعليقات كثيرة على مقالات الكوثري، وقد

الأولياء الذين يتصرفون في قبورهم^(١)!

وهي عندهم وسائل دفاع جوي، فضريح (علي الروبي) بالفيوم بمصر أنقذ المدينة من الدمار خلال الحرب العالمية الثانية، ببركته التي حوّلت مسار القنابل إلى بحر يوسف^(٢)!

وعندما يستدعي الموقف الإمداد بـ(قوات خاصة) لمنازلة عدو شديد البأس يطلب القبوريون المدد من أصحاب الأضرحة أيضاً، فعندما أغار التتر على بلاد الشام كان القبوريون يخرجون يستغيثون بالموتى عند القبور، ولذا قال بعض شعراء القبورية:

يا خائفين من التتر لؤذوا بقبر أبي عمر
أو قال:

عُودوا بقبر أبي عمر ينجيكم من الضرر^(٣)

تابعه على ضلاله تلميذه عبد الفتاح أبو غدة، عافانا الله من التقليد الأعمى والتعصب المقيت. انظر للتوسع مقدمة كتاب «تعليقات العلامة محمد بن مانع على مقالات الكوثري وبعض كتبه» للشيخ الذّاب عن دين الله: سليمان بن صالح الخراشي حفظه الله. توفي الكوثري عام ١٣٧٥ هـ غير مأسوف عليه.

(١) انظر «جهود علماء الحنفية لإبطال عقائد القبورية» (ص ٤٦١).

(٢) «موالد مصر المحروسة» (ص ٥٣)، نقلاً من «دمعة على التوحيد» (ص ٧٩).

(٣) ذكره ابن تيمية في «الرد على البكري» (ص ٦٣١).

وذكر السيد رشيد رضا^(١) أنه انتشر بين أهل مراکش عند حلول النوائب بهم وتعدّي الأجانب عليهم؛ الاجتماع حول قبر الشيخ إدريس في فاس، طالبين أن يكشف ما نزل بهم من الشدة تاركين ما تقتضيه حال العصر من التربية والتعليم والإعداد العسكري للأعداء^(٢).

وترفع الخرافة إلى ذروتها حينما يعمد القبوريون إلى تعيين تخصصات للأضرحة، فطلب الشفاعة هو مطلب الجميع، غير أن بعض (الأولياء) مشتهر بتحقيق رغبات النساء، كالزواج للعوانس، والإنجاب للعاقات^(٣)، وآخر لشفاء أمراض الأطفال، وآخر لشفاء أمراض الروماتيزم^(٤)!

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن، رحمه الله تعالى:

«وأما بلاد مصر وصعيدها وفيومها وأعمالها فقد جمعت من الأمور الشركية والعبادات الوثنية والدعائى الفرعونية ما لا يتسع له كتاب ولا يدنو له خطاب، لا

(١) هو الشيخ محمد رشيد بن علي رضا القلموني، ولد سنة ١٢٨٢هـ، من العلماء بالحديث والأدب والتفسير والتاريخ، له جهود مشكورة في محاربة عبادة القبور والتعلق بالخرافة، وهو صاحب «مجلة المنار» المصرية، والتي أخذت على عاتقها محاربة البدع والخرافات التي أضرت بالمسلمين، وقد كان للسيد رشيد زلات لا يوافق عليها بسبب تأثره بالمدرسة العقلية، توفي سنة ١٣٥٤هـ، انظر ترجمته في كتاب «مشاهير علماء نجد وغيرهم» (ص ٤٨٦)، تأليف: عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، وكذا في كتاب «الأعلام» للزركلي.

(٢) قاله محمد أحمد درنيقة. انظر «دمعة على التوحيد» (ص ٨٠).

(٣) «الانحرافات العقديّة» (ص ٣٣٦).

(٤) من مقال: «أفيون الشعوب الإسلامية، النتائج والآثار»، خالد أبو الفتوح، انظر (ص ٨٢) من «دمعة على التوحيد».

سَيِّمًا عند مشهد أحمد البدوي وأمثاله من المُعتَقدين المعبودين، فقد جاوزوا بهم ما ادعته الجاهلية لآلهتهم، وجمهورهم يرى من تدبير الربوبية والتصريف في الكون بالمشيئة والقدرة العامة ما لم ينقل مثله عن أحد من الفراعنة والنماردة.

وبعضهم يقول يتصرف في الكون سبعة، وبعضهم يقول أربعة، وبعضهم يقول قُطْبٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، وكثيرًا منهم يَرَى الأمر شورى بين عدد ينتسبون إليه، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]»^(١).

ثم قال: «وفي حضرموت والشحر وعدن ويافع ما تستكُّ^(٢) عن ذكره المسامع، يقول قائلهم: شيء الله يا عيدروس، شيء الله يا مُحيي النفوس!»^(٣).

قلت: وفضلاً عن كون هذا الفعل يدل على جهل فاعله بحق الله تعالى بتفرد بعبادة الدعاء؛ فإنه يدل أيضاً على عدم يقين فاعله باختصاص الله تعالى بصفة «الشافى».

الوجه السابع عشر: ومن أعظم الأدلة على بطلان دعاء غير الله أن تلك المعبودات التي تُدعى من دون الله عاجزة من جهة العلم، وبيان ذلك أن الموتى لا يعلمون شيئاً من حاجات الناس ولا أحوالهم، وقد قرر الله ذلك في مواطن كثيرة من

(١) «الدرر السنية» (١/ ٣٨٣).

(٢) أي: تَصُمُّ وتضيق. انظر «لسان العرب».

(٣) «الدرر السنية» (١/ ٣٨٤).

القرآن كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

قال ابن القيم رحمه الله:

«العبد المخلوق لا يعلم مصلحتك حتى يُعرِّفه الله تعالى إياها، ولا يقدر على تحصيلها لك حتى يُقدِّره الله عليها، ولا يريد ذلك حتى يخلق الله فيه إرادة ومشية، فعاد الأمر كله لمن ابتداء منه، وهو الذي بيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، فتعلّق القلب بغيره رجاءً وخوفاً وتوكلًا وعبوديةً ضررٌ محض لا منفعة فيه، وما يحصل بذلك من المنفعة فهو وحده الذي قدّرها ويسرّها وأوصلها إليك» (١).

وقد أتى التصريح من النبي ﷺ أنه لا يعلم شيئاً مما سيحصل بعد مماته في حديث الحوض، فكيف بمن دونه ﷺ من الموتى، قال ﷺ: «إنكم محشورون إلى الله خفاة عراة، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ثم إن أول من يُكسى يوم القيامة إبراهيم، ثم يُجاء برجال فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب أصحابي! فيقال: لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]» (٢).

(١) «إغاثة اللهفان» (ص ٦٦ - ٦٧).

(٢) رواه البخاري (٣١٩٧)، ومسلم (٥٢٣٥)، وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الشيخ أحمد بن يحيى النجمي رحمته الله:

«ففي هذا الحديث أخبر النبي ﷺ أنه لا يعلم بعد موته شيئاً من أعمالهم ولا أحوالهم، بل قد كان في حياته شهيداً عليهم بأعمالهم الظاهرة، والتزامهم العلني بمتابعته أو عدمها، فلما توفاه الله كان هو وحده الرقيب عليهم والعليم بأحوالهم وأعمالهم.

وبالتأمل يظهر الفرق بين الكلمتين، أي: كلمة (الرَّقِيب) وكلمة (شهيد)، فالمعبر بها في حق النبي ﷺ كلمة (شهيد)، وهي مأخوذة من المشاهدة، وهي الرؤية البصرية، فقلوه: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾، أي: حال حياتي في حال مشاهدتي لهم، علمتُ من أحوالهم ما يجعلني أشهد عليهم بما رأيت وسمعت وعلمت من أحوالهم وسلوكهم، من إيمان ومتابعة، أو كفر ومناذرة.

أمّا بعد وفاتي فقد فات ذلك بغيابي عنهم، ولم يبق إلا علمك بهم ورقابتك عليهم ومشاهدتك لأحوالهم وضمايرهم ونياتهم، ذلك لأنك على كل شيء شهيد وبكل شيء محيط، فهم خلقٌ من خلقك، ينفذُ فيهم أمرُك، وتُحيطُ بهم قدرتك ورقابتك، وتُحصي أعمالهم بعلمك الذي لا يفوته شيءٌ، فكلمة (رقيب) تفيد السيطرة التامة والهيمنة الكاملة والعلم الشامل الذي يُحصي دقائق الأمور فضلاً عن جلائلها، وصغار الأعمال فضلاً عن كبارها»^(١).

(١) «أوضح الإشارة في الرد على من أجاز الممنوع من الزيارة» (ص ٣٦٠ - ٣٦١)، باختصار

فإذا كان هذا هو حال النبي ﷺ، لا يعلم من أحوال الناس شيئًا؛ فكيف بغيره من الأموات؟

أفيجوز أن يقال إنهم يعلمون أحوال الناس؟! حاشا وكلا.

ومما يدل أيضًا على أن الأصل في الأموات عدم السماع والإدراك لما يدور خارج الحياة البرزخية؛ قوله تعالى عن عزيز عليه السلام - وكان نبيًا من أنبياء بني إسرائيل - ﴿وَكَاذِبٌ مَّرَعَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

فهذا نبي كريم، لبث مائة عام ميتًا، فلم يَدْرِ بما يدور حوله البتة، ولا كم لبث في قبره، فكيف يصحُّ أن يقال إن الأموات يسمعون نداء من ناداهم؟

وقال الشيخ محمد سلطان المعصومي الحنفي^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «المشاهد المعصومية عند قبر خير البرية»: «ومن عرف ما وقع له ﷺ من أن جرو الكلب الميت

(١) هو أبو عبد الكريم، محمد سلطان بن محمد أوروبن بن ملا مير سيد المعصومي الخُجَنْدي، ثم المكي، من قرية خُجَنْدة في روسيا، كان سلفي العقيدة، ورحل رحلات طويلة في طلب العلم، حتى إنه أخذ عن مائة شيخ، ألَّف الكثير من الكتب والرسائل جاوزت التسعين كتابًا. انظر ترجمته لنفسه موسعة في كتابه «حكم الله الواحد الصمد في حكم الطالب من الميت الممدد»، وكذا في مقدمة كتابه «حبل الشرع المتين وعروة الدين المبين»، وهي مختصرة. له كتب في العقيدة والتوحيد كالكتابين المذكورين، وكذا كتاب «تميز المحظوظين عن المحرومين في تجريد الدين وتوحيد المرسلين»، توفي سنة ١٣٧٩ هـ، رحمه الله رحمة واسعة.

كان تحت سريره وهو لا يدري، فلما تأخر جبريل ﷺ وبين أن سبب تأخره أن تحت سريره كلب؛ علم بذلك فأخرجه (١)، وكذا واقعة خلع نعله في الصلاة (٢)، وكذا واقعة فقد عائشة في السفر عن هودجها (٣)، فهو ﷺ لم يعلم ما غاب عن بصره في حياته إلا إذا أعلمه الله تعالى بالوحي، فكيف يعلم ما غاب عنه بعد موته وهو في عالم البرزخ؟!

(١) روى مسلم (٢١٠٤) عن عائشة أنها قالت: «واعد رسول الله ﷺ جبريل ﷺ في ساعة يأتيه فيها، فجاءت تلك الساعة ولم يأت، وفي يده عصا فألقاها من يده، وقال: «ما يُخلف الله وعده ولا رسله»، ثم التفت فإذا جرو كلب تحت سريره، فقال: «يا عائشة، متى دخل هذا الكلب هاهنا؟». فقالت: والله ما دريت. فأمر به فأخرج، فجاء جبريل، فقال رسول الله ﷺ: «واعدني فجلست لك فلم تأت». فقال: منعني الكلب الذي كان في بيتك، إننا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة».

(٢) روى أبو داود في «سننه» (٦٥٠) عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ كان ذات يوم يصلي بأصحابه، فبينما هو في الصلاة إذ خلع نعاله، فخلع القوم نعالهم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال لصاحبه: «ما حملكم على إلقاء نعالكم؟». فقالوا: رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا! فقال رسول الله ﷺ: «إن جبريل ﷺ أتاني فأخبرني أن فيهما قدرًا» - أو قال: «أذى». والشاهد من الحديث: أن النبي ﷺ لم يعلم ما غاب عنه، وهو في هذا الحديث - القدر الذي كان في نعاله، حتى أخبره جبريل.

والحديث صححه الألباني، وكذا الشيخ مقبل الوادعي في «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» (٣١٣)، رَجَمَهُمَا اللهُ.

(٣) قصة الهودج رواها البخاري (٤٧٥٠) ومسلم (٢٧٧٠) عن عائشة رضي الله عنها، وهي باختصار أن عائشة رضي الله عنها خرجت مع النبي ﷺ في غزوة، فلما كانوا ببعض الطريق ذهبت تلتمس عقدًا لها، فلما رجعت فإذا هم قد رحلوا وتركوها، ظنًا منهم أنها كانت في هودجها، وكانت إذ ذات صغيرة ليست ذات لحم، فلم يشعروا أنها ليست فيه، لِحِفَّةَ وزنها، فلحقتهم مشيًا على أقدامها حتى أدركتهم في الظهيرة، والشاهد من القصة أن النبي ﷺ لو كان يعلم ما غاب عنه لعلم بأن زوجته وأقرب الناس له قد ذهب الجيش وتركها!

أما يعلم هؤلاء الغلاة أنه حينما ترد طائفة من أمته عن حوضه الكوثر وتطرّد فيقول ﷺ: «يا رب، إنّ هؤلاء من أمتي! فيقول الله تعالى: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك».

فقد صرح الله تعالى بأنه ﷺ لا يعلم ما يقع في عالم الدنيا.

فمن يزعم أنه ﷺ يعلم الغيب بعد موته، أو يُعين من استعان به، أو يغيث من استغاث به؛ فقد خالف الكتاب وسنة رسول الله ﷺ وإجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان ﷺ، فلا شك أن هذا وأمثاله صار محروماً من هداية الله وتوفيقه ورحمته وجنته، ولكن من كمال جهله ونهاية غُلوه لا يشعر بذلك، فقد أعماه التقليد، فلعنة الله على من أحدث هذه البدع الشريكات، والخرافات والضلالات، أعاذنا الله منها بفضلله ومنّه وإحسانه». انتهى باختصار.

وقال أيضًا: «فالميت أيًا كان قد انقطع عمله في هذه الحياة الدنيا، وهو لا يعلم ما يقع ويجري في الدنيا من الأعمال والأقوال ولو عند قبره، لأن روح الميت إمّا في عليين إن كان من السعداء، كالأنبياء والمؤمنين المفلحين، أو في سجين وأسفل السافلين إن كان من المشركين والكفرة والملحدين، وقد تحولوا عن هذه الدار الدنيا، ودخلوا في عالم البرزخ، وحال وحكم عالم البرزخ غير حال عالم الدنيا البتة.

ولو فرضنا أنه يعلم بالواقع، فإنه لا يقدر على الجواب والرد كما تفيده الآيات الصريحة، فتنبّه.

ولا شك أن الميت -أيًا كان- محتاج إلى رحمة الله تعالى، ودعاء الأحياء لهم ^(١) بالرحمة والمغفرة ينفعهم، وكذا صدقة الأحياء لهم، فالنتيجة من زيارة القبر

(١) هكذا بضمير الجمع، والصواب إفراده، فَلَعَلَّه سَبَقُ قَلَمٍ، وكذلك الضمير إن بعده.

حصول العبرة والاعتبار، وتذكر الموت والآخرة للزائر، وحصول ثواب الدعاء والصدقة للميت، وهذا سر الترغيب في زيارة القبور لا غير، فمن فعل غير ذلك أو اعتقد غير ما قلنا فقد خالف الله ورسوله، وعكس الأمر كما لا يخفى». انتهى كلامه بتصرف يسير.

وقال الشيخ حافظ الدين محمد بن محمد بن شهاب، المعروف بابن البزاز الكردي الحنفي (١) رَحِمَهُ اللهُ في «الفتاوى البزازية»: «مَنْ قَالَ إِنَّ أَرْوَاحَ الْمَشَايخ حَاضِرَةٌ تَعْلَمُ؛ يَكْفُرُ» (٢).

والحاصل أن من تتبع الكتاب والسنة فإنه سيجد من الأدلة ما لا يحصى على أن النبي ﷺ وغيره من الأموات لا يعلمون شيئاً من الغيب، بل إن كل ما أتى الله البشر من قُدرات وحواس تُعينهم على المعرفة والإدراك كالأذن والعين، فإنها تتلشى وتضمحل، ولا يبقى إلا عَجْبُ الذَّنْب -وهو الفقرة الأخيرة في ظهر الإنسان-، فهل يقال بعد هذا إن الأموات يعلمون أحوال الأحياء؟ الجواب لا قطعاً، ومَنْ قال خلاف هذا فقد قال على الله بغير علم.

الوجه الثامن عشر: ومن أدلة بطلان دعاء غير الله أن تلك المعبودات التي تُدعى من دون الله عاجزة من جهة القدرة، فإن المعبودات التي تعبد من دون الله ليست قادرة

(١) حافظ الدين محمد بن محمد الكردي، الحنفي، المشهور بابن البزازي، له كتاب مشهور في الفتاوى، يسمى «الفتاوى البزازية»، وله كتاب في أبي حنيفة، انظر «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» (٧/ ٣١٤)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) انظر «البحر الرائق»، (٥/ ١٤٣)، و«مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر» (٢٠/ ٥٠٥).

على نفع عابديها، لأن تلك المعبودات إن كانت من الأحياء فإنها لا تقدر إلا على فعل ما كان في طاقة البشر، وهذا يتحصل بدون دعاء، وإن كانت من الأموات فإنها لا تقدر على شيء البتة، قال تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، فإذا كان هذا حال النبي ﷺ، فمن دونه لا يملك شيئًا من النفع والضرر من باب أولى.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ كَالَّذِي أُسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ [الأنعام: ٧١].

وقال تعالى: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [الحج: ١٢-١٣].
أي: يدعو من دون الله ما يضره إن ترك عبادته، وما لا ينفعه إن عبده (١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿أَمَرُ لَهُمْ إِلَهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣].

قال الشنقيطي رحمه الله: «والمعنى: ألهم آلهة تجعلهم في منعة وعز حتى لا ينالهم عذابنا؟

(١) انظر للفائدة ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة.

ثم بَيَّنَّ أن آلهتهم التي يزعمون لا تستطيع نفع أنفسها، فكيف تنفع غيرها بقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٤٣].

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣]، أي يُجارون، أي ليس لتلك الآلهة مُجِيرٌ يُجيرهم منا، لأن الله يُجير ولا يُجار عليه، كما صرَّح بذلك في سورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] في قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَدْعُوهُ مَلَائِكَةٌ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨]. انتهى كلامه باختصار.

وقال تعالى: ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ قَدْ دَعَوْتُمُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٥]، أي اجتمعوا أنتم ومن تدعونهم من دون الله على إيقاع السوء بي من غير إمهال ولا إنظار، فإنكم لن تستطيعوا شيئاً، لأن ذلك ليس بأيديكم، بل بيد الله وحده لا شريك له، القادر على كل شيء.

فتأمل ما في الآية الأخيرة من التحدي لمن تعلق بغير الله.

وقال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ [غافر: ٢٠]: «والأوثان والآلهة التي يعبدونها هؤلاء المشركون بالله من قومك من دونه لا يقضون بشيء، لأنها لا تعلم شيئاً، ولا تقدر على شيء،

يقول جل ثناؤه لهم: فاعبدوا الذي يقدر على كل شيء، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فيجزى مُحسنكم بالإحسان، والمسيء بالإساءة، لا ما لا يقدر على شيء، ولا يعلم شيئاً»^(١).

وقال الشيخ عبد الله أبابطين رحمته الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ١٣﴾ **إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ١٤** [فاطر: ١٣-١٤]: «والذم إنما توجه إلى مَنْ دعا من هذه صفته، سواء كان بشراً أو ملكاً أو صنماً، وهو من لا ينفع من دعاه، ولا يضر من لم يدعه»^(٢).

وقال البيضاوي^(٣) الشافعي رحمته الله في تفسير قوله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣]: «أي لا تنفعني شفاعتهم، وَلَا يُنْقِذُونِ» بالنصر والمظاهرة، ﴿إِنِّي إِذَا لَفَى ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ٢٤]، فإن إيثار ما لا ينفع ولا يدفع ضرراً بوجه ما على الخالق المقتدر على النفع والضرر وإشراكه به - ضلال بين لا يخفى على عاقل». انتهى.

وقال ابن القيم رحمته الله في معناها: «إنَّ العابد يريد من معبوده أن ينفعه وقت حاجته إليه، وإنما إذا أرادني الرحمن الذي فطرني بضرٍّ لم يكن لهذه الآلهة من القدرة ما ينقذوني بها من ذلك الضر، ولا من الجاه والمكانة عنده ما يشفع لي إليه لأتخلص

(١) «تفسير ابن جرير»، سورة غافر: (٢٠).

(٢) «تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود بن جرجيس» (ص ٨٦).

(٣) تقدمت ترجمته.

من ذلك الضر، فبأي وجه يستحق العبادة؟ وإني إذا لفي ضلال مبين إن عبدت من دون الله مما هذا شأنه» (١).

ومن الأدلة أيضاً على عجز المخلوقين؛ أن الصحابة رضوان الله عليهم -الذين هم أفضل الناس بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام- ما استطاعوا أن يدفعوا عن أنفسهم الضر، فقد عذبوا أيما عذاب قبل الهجرة النبوية وبعدها، وأصابتهم جراحات كثيرة في الغزوات وغيرها، بل قد قُتِل كثيرٌ منهم في الغزوات، وما استطاعوا أن يدفعوا عن أنفسهم الضر.

وكذلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم الضر، فكم من نبي قد قُتِل؟

وكذلك نبينا محمد ﷺ الذي هو أفضل من الجميع؛ لم يستطع أن يدفع عن نفسه الضر، ففي غزوة أحد جرح وجهه ﷺ، وكُسِرَت رِباعيته (٢)، فكانت فاطمة تغسل الدمّ وعليّ يسكب عليها، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة حصير فأحرقتها، ثم ألصقتها بالجرح فاستمسك الدم (٣).

وعن أنس رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ كُسِرَت رِباعيته يوم أحد، وشجّ في رأسه، فجعل يسليّ الدم عنه ويقول: «كيف يُفلح قوم شجّوا نبيهم وكسروا رِباعيته وهو

(١) «الصواعق المرسلّة»، الفصل العشرون، ص (٤٩٧)، الناشر: دار العاصمة - الرياض.

(٢) الرِباعية هي السنّ بين الثنية والناّب، وهي أربعة أسنان، ثنتان في الفكّ الأعلى، وثنان في الفكّ الأسفل. انظر «المعجم الوسيط».

(٣) انظر ما رواه البخاري (٤٠٧٥) ومسلم (١٧٩٠) عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

يدعوهم إلى الله؟»، فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] ^(١).

بل إنه في تلك الغزوة جُحِشت رُكبته ﷺ، أي تقشّر جلدها، وجُرِحَت شَفَتُهُ السُّفْلَى من باطنها، وكُسِرَت البَيضة -أي خوذة الرأس- على رأسه، وَوَهِيَ مَنْكِبُهُ من ضربة ابن قَمِيئة ^(٢).

فإذا حصل هذا البلاء للنبي ﷺ ولم يستطع دفعه وهو حي، فمن باب أولى أنه لا يستطيع دفع الضر عن غيره وهو في قبره، وكذلك الأمر بالنسبة لسائر الأموات ممن ليسوا بأنبياء، فهم من باب أولى لا يقدرّون على شيء.

بل إن هناك ما هو أعظم من ذلك، وهو أن النبي ﷺ سُحِر، سَحَرَهُ لبيد بن الأعصم، حتى إنه كان يُخَيَّلُ إليه أنه يفعل الشيء وهو لم يفعله ^(٣)، ولم يستطع دفع البلاء عن نفسه.

وقد وردت أخبار كثيرة في رَبط النبي ﷺ الحجر على بطنه من الجوع، فهل يصح بعد هذا أن تُطلب الحاجات منه أو ممن هو دونه بعد الموت؟

بل أعظم من ذلك بكثير، أن النبي ﷺ أكل من الشاة المسمومة فكانت سبب وفاته، فأَي ضرر دفع عن نفسه قبل أن يأكل، وأي ضرر دفع عن نفسه بعد أن أكل؟!

(١) رواه مسلم (١٧٩١).

(٢) انظر للفائدة ما جمعه ابن حجر من الروايات في هذا الباب في «الفتح» (٤٢٣/٧)، كتاب (المغازي)، باب قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

(٣) انظر تفصيل ذلك في «صحيح البخاري» (٣٢٦٨)، ومسلم (٢١٨٩)، وابن ماجه (٣٥٤٥)، و«مسند أحمد» (٥٧/٦).

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه «أنَّ يهودية من أهل خير سَمَّتْ شاة مصلية^(١) ثم أهدتها لرسول الله ﷺ، فأخذ رسول الله ﷺ الذراع فأكل منها، وأكل رهطٌ من أصحابه معه، ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «ارفعوا أيديكم»، وأرسل رسول الله ﷺ إلى اليهودية فدعاها فقال لها: «أسممتِ هذه الشاة؟».

قالت اليهودية: مَنْ أخبرك؟

قال: «أخبرتني هذه في يدي»، للذراع.

قالت: نعم.

قال: «فما أردتِ إلى ذلك؟».

قالت: قلت إن كان نبياً فلن يضره، وإن لم يكن استرحنا منه.

فعفا عنها رسول الله ﷺ ولم يُعاقبها، وتوفي بعض أصحابه الذين أكلوا من الشاة^(٢).

قلت: وكل هؤلاء -الصحابة ونبينا محمد ﷺ وسائر الأنبياء- هم أفضل الخلق وأقربهم إلى الله تعالى، وهم أفضل قطعاً ممن يلجأ إليهم بعض الناس من

(١) مصلية أي مشوية.

(٢) رواه أبو داود (٤٥٠٩)، وصححه الألباني، ورواه أحمد (٣٠٥/١) عن ابن عباس رضي الله عنه، وصححه محققو «المسند»، وأصل القصة في البخاري (٥٧٧٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي هذا الحديث دليل على أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، إذ لو كان يعلم الغيب لما أكل من الشاة وفيها سم، فليت غلاة الصوفية يعقلون أنه لا يعلم الغيب إلا الله!

أصحاب القبور ويدعونهم ويطلبون منهم كشف الضر وجلب النفع، كالحسين والبدوي وابن العربي والتيجاني وغيرهم، ومع هذا فلم يملكوا أن يدفعوا عن أنفسهم الضر أو يجلبوا النفع، فتبين من هذا أن دعاء من هو دونهم من المقبورين وغيرهم باطل، وليس في الدنيا أحد يستحق أن يتوجه إليه الناس بالدعاء إلا الله وحده، وصدق الله ﷻ القائل: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

وقد بيّن لنا النبي ﷺ هذه الحقيقة - حقيقة فقر المخلوقين - بيانًا عمليًا ليزيل من قلوب الناس عقيدة التعلق بالمخلوقات ويُخلصوا التعلق بالله ﷻ، فقد قام ﷺ على جبل الصفا حين أنزل الله عليه ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] فقال: «يا معشر قريش - أو كلمة نحوها -، اشترُوا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئًا.

يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا.

يا صفية عمة رسول الله ﷺ، لا أغني عنك من الله شيئًا.

ويا فاطمة بنت محمد، سلّيني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئًا» (١).

فإذا كان سيد المرسلين لا يغني شيئًا عن سيدة نساء العالمين، والتي هي أقرب الخلق إليه، فكيف بمن هو أبعد منها؟ بل كيف يظن ذلك بمن هو دون النبي ﷺ في المنزلة؟!

(١) رواه البخاري (٤٤٩٣)، ومسلم (٢٠٦) عن أبي هريرة ؓ.

ولمّا حضرت عمّه أبا طالب الوفاة؛ جاء إليه النبي ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل فقال ﷺ لعمّه: «يا عم: قل لا إله إلا الله، كلمة أحاجّ لك بها عند الله»، فقالا له: أترغبُ عن مِلَّةِ عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ فأعادا، فكان آخر ما قال: هو على مِلَّةِ عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله (١).

ففي هذين الحديثين رد قوي على من يعتقد أن النبي ﷺ يقدر على شيء من المنافع الأخروية، حيث إن النبي ﷺ -وهو أفضل الخلق على الإطلاق وأعظمهم عند الله منزلة وأقربهم إليه وسيلة- لم يقدر على نفع أقرب الناس إليه من قرابة وعشيرة، فكيف يُظن ذلك بمن هو دون النبي ﷺ كالصالحين ونحوهم؟

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله: «من براهين التوحيد معرفة أوصاف المخلوقين ومن عبّد مع الله، فإنّ جميع ما يُعبد من مَلَكٍ وبشرٍ، ومن شجر وحجر وغيرها، كلهم فقراء إلى الله، عاجزون، ليس بيدهم من النفع مثقال ذرة، ولا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون، ولا يملكون ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، والله تعالى هو الخالق لكل مخلوق، وهو الرازق لكل مرزوق، المدبر للأمر كلها، الضار النافع، المعطي المانع، الذي بيده ملكوت كل شيء، وإليه يرجع كل شيء، وله يَقْصِد وَيَصْمَد (٢) ويخضع كل شيء، فأَيُّ برهان أعظم من هذا البرهان الذي أعاده الله وأبداه في مواضع كثيرة من كتابه وعلى لسان رسوله؟

(١) رواه البخاري (٤٤٩٤)، ومسلم (٢٤) عن المسيب بن حزن رحمه الله.

(٢) أي: يلجأ.

فهو دليل عقلي فطري كما أنه دليل سمعي نقلي على وجوب توحيد الله وأنه الحق، وعلى بطلان الشرك.

وإذا كان أشرفُ الخلق على الإطلاق لا يملك نفع أقرب الخلق إليه وأمسهم به رحماً فكيف بغيره؟

فتباً لمن أشرك بالله وسأوى به أحداً من المخلوقين، لقد سلب عقله بعدما سلب دينه» (١).

ومما يُستدل به أيضاً في هذا المقام -مقام إثبات عجز المخلوقين - قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

قال ابن جرير رحمه الله: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومك الذين يعبدون من دون الله من خَلَقِه: ادعوا أيها القوم الذين زعمتم أنهم أرباب وآلهة من دونه عند ضر ينزل بكم، فانظروا هل يقدرُونَ على دفع ذلك عنكم، أو تحويله عنكم إلى غيركم، فتدعوهم آلهة؟ فإنهم لا يقدرُونَ على ذلك، ولا يملكونه، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم». انتهى.

(١) «القول السديد في مقاصد التوحيد»، باب قول الله تعالى: ﴿يَسْتَرْكِبُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

«يقول تعالى: قل للمشركين بالله الذين اتخذوا من دونه أنداداً يعبدونهم كما يعبدون الله، ويدعونهم كما يدعونهم، مُلْزَمًا لَهُمْ بِتَصْحِيحِ مَا زَعَمُوهُ وَاعْتَقَدُوهُ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ: ادعوا الذين زعمتم آلهة من دون الله، فانظروا هل ينفعونكم أو يدفعون عنكم الضر، فإنهم لا يملكون كشف الضر عنكم من مرض أو فقر أو شدة ونحو ذلك، فلا يدفعونه بالكلية، ولا يملكون - أيضاً - تحويله من شخص إلى آخر، ومن شدة إلى ما دونها، فإذا كانوا بهذه الصفة فلا شيء تدعونهم من دون الله؟ فإنهم لا كمال لهم، ولا فعال نافعة، فاتخاذهم نقص في الدين والعقل، وسفَه في الرأي.

ومن العجب أن السّفه عند الاعتقاد والممارسة وتلقّيه عن الآباء الضالين بالقبول يراه صاحبه هو الرأي السديد والعقل المفيد، ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد الكامل المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة هو السّفه والأمر المُتَعَجّب منه، كما قال المشركون ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]»^(١).

وقال الشوكاني رحمه الله في «فتح القدير»:

«﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ﴾ [الإسراء:٥٦]، أي لا يستطيعون ذلك، والمعبود الحق هو الذي يقدر على كشف الضر، وعلى تحويله من حال إلى حال، ومن مكان إلى مكان، فوجب القطع بأن هذه التي تزعمونها آلهة ليست بآلهة، ثم إنه سبحانه أكد عدم اقتدارهم ببيان غاية افتقارهم إلى الله في جلب المنافع ودفع المضار فقال:

(١) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان».

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] (١).

وقد أوضح الله لنا أتم إيضاح، وبين أحسن بيان هذه الحقيقة - أي حقيقة عجز المخلوقين - في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِنَّ مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴿[سبأ: ٢٢-٢٣]، فكل ما يُعبد من دون الله لا يستقل بملك شيء، ولا يُشاركه فيه، ولا يُعين الله في تدبير شيء من شئون الكون، ولا يشفع لأحد يوم القيامة إلا بإذن الله، ومن كانت هذه حاله فإن دعاءه وطلب الحاجات منه من أسفه السفه وأبطل الباطل.

ومن الأدلة القوية أيضًا في هذا الباب قوله تعالى في مطلع سورة الفرقان ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

قال الشنقيطي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

«ذَكَرَ ﷺ في هذه الآية الكريمة أن الآلهة التي يعبدها المشركون من دونه متصفة بستة أشياء، كل واحد منها برهان قاطع أن عبادتها مع الله لا وجه لها بحال، بل هي ظلم مُتَنَاهٍ وجهلٌ عظيم، وشركٌ يُخَلَّدُ به صاحبه في نار جهنم... والأمر الستة التي هي من صفات المعبودات من دون الله:

الأول منها أنها لا تخلق شيئًا، أي لا تقدر على خلق شيء.

والثاني منها أنها مخلوقة كلها، أي خلقها خالق كل شيء.

(١) وانظر ما قاله الشنقيطي رحمه الله في «أضواء البيان» في تفسير هذه الآية.

والثالث أنها لا تملك لأنفسها ضرراً ولا نفعاً.

الرابع والخامس والسادس أنها لا تملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً، أي: بعثاً بعد الموت.

وهذه الأمور الستة المذكورة في هذه الآية الكريمة جاءت مبيّنة في مواضع أخر من كتاب الله تعالى^(١).

ثم ساق آيات كثيرة فيها ذكر صفات المخلوقين وبيان عجزهم، ومن ثمّ تقرير بطلان عبادتهم مع الله.

وقال ابن القيم رحمه الله:

«المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل، بل الله وحده هو الذي يملك له ذلك كله، قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وقال تعالى عن صاحب يس: ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدِنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنْهُمْ شَيْئاً وَلَا يَقْدِرُونَ﴾ [يس: ٢٣]، وقال: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا

(١) «أضواء البيان»، تفسير سورة الفرقان: (٣)، باختصار.

إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنِّي تُوفِّكُونَ ﴿فاطر: ٣﴾، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنَّا أَمْسَكْ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢٠-٢١] (١)، فجمع سبحانه بين النصر والرزق، فإن العبد مضطر إلى مَنْ يدفع عنه عدوه وينصره، ويجلب له منفعه ويرزقه، فلا بد له من ناصر ورازق، والله وحده هو الذي ينصر ويرزق، فهو الرزاق ذو القوة المتين، ومن كمال فطنة العبد ومعرفته أن يعلم أنه إذا مسه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره، وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه.

وقد قال تعالى عن السحرة: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فهو - سبحانه - وحده الذي يكفي عبده وينصره ويرزقه ويكلّؤه (٢) «(٣).

ومن طريف ما يُمثَّل به في باب عجز المخلوقين ما ذكره الشيخ عبد الرحمن بن

قاسم رحمته الله حيث قال:

«لو أن ملكًا أتاه مظلوم فسأله وسأل عبده أيضًا - المملوك له العاجز - ليردَّ له مظلمته، هل يُجوزُه العقل؟

(١) ومن الجدير الاستشهاد به في هذا السياق قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَهُمْ سَمِعُوا مَا

أَسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

(٢) أي: يحفظه.

(٣) «إغاثة اللهفان» (ص ٥١ - ٥٢)، باختصار.

أو لو أن غنيًّا كريمًا يُنفق من أصناف المال، وله مملوك لا يقدر على شيء، فبجاء محتاج فطلب المملوك العاجز وترك الغني، هل يجوز العقل؟

وهل يرضى أحد أن يساوي مملوكه معه في حقه؟

أو لو أن ملكًا قاهرًا له عبيد لا يقدر على شيء، ثم يلوذ أحد العبيد بعبد مثله عاجز، ويدع الملك القادر، هل يجوز العقل؟

ولو أن شخصًا مرَّ على مقبرة ومعه دابة فوقعت في حفرة، فنادى أهل القبور: يا فلان، يا فلان، أعينوني على دابتي، وعنده رجل حي قوي تركه ولم يدعه، هل يجوز العقل؟ ونحو ذلك من الأمثلة المعروفة في حق العاجز المملوك مع القادر، بل كل عاقل يضحك منه ويُقبحه ويوبخه، وإذا كان هذا يُستقبح من مخلوق يترك مخلوقًا أقدر، فكيف بمن ترك الحي القيوم القادر الذي بيده ملكوت كل شيء، ودعا في كشف الكربات وإغاثة اللهفات مَنْ لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا؟^(١).

وقال - أيضًا - ﷺ مناصحًا أحد من قرروا دعاء غير الله:

«فإن قلت: هذا إذا دعا الله أجاب دعاءه أعظم مما يجيب إذا دعوته أنا؛ فهذا إن كان حيًّا حاضرًا وسألته أن يدعو الله لك، وأما الميت - نبيًّا كان أو غيره - فسفه وتيه أن تدعوهم وقد ذهبت حواسهم وخرجوا من الدنيا، وارتفعت أرواحهم إلى الجنان، أو ما شاء الله، وفارقت أبدانهم، وتدع الحي القيوم»^(٢).

(١) «السيف المسلول على عابد الرسول» (ص ٦٧ - ٦٨)، بتصرف يسير.

(٢) «السيف المسلول على عابد الرسول» (ص ٣١ - ٣٢).

وقال الشيخ عبد الله أبابطين رحمته الله:

«ومن العجيب أنه لو جاء إنسان إلى ميت على وجه الأرض شهيدًا أو غيره يطلب منه أن يدعو له فضلًا أن يطلب منه أن ينصره على عدوه أو يكسوه لقال الناس: هذا مجنون، فإذا صار رميمًا في بطن الأرض زَيْنَ لهم الشيطان ودُعاة الضلال من الإنس الاستغاثة به وطلب الحاجات منه.

والعامي السليم الفطرة يعلم بطلان هذا بفطرته، كما حُكي لنا أن رجلًا من أهل مكة يُنسب إلى علم قال لرجل عامي من أهل نجد: أنتم ما للأولياء عندكم قَدْر، والله يقول في الشهداء إنهم ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

قال له العامي: هل قال يَرْزُقُونَ -يعني بفتح الياء- أو قال: يُرْزَقُونَ -يعني بالضم-؟ فإن كان يعني بالفتح فأنا أطلب منهم، فإن كان يعني بالضم فأنا أطلب من الذي يَرْزُقهم.

فقال المكي: حجاجكم كثيرة، وسكت»^(١).

الوجه التاسع عشر: ومن أدلة بطلان دعاء غير الله أن تلك المعبودات التي تدعى من دون الله عاجزة من جهة المُلْك، وبيان ذلك أن المعبودات التي تُعبد من دون الله لا تستقل بملك شيء ولو كان حقيراً، فكيف يصح طلب الأشياء منها؟ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، والقطمير: هو الغشاء الرقيق الذي يحيط بنواة التمر، أما الله تعالى فيملك الكون ملكاً مطلقاً، كما

(١) «تأسيس التقديس في كشف تلبس داود بن جرجيس» (ص ١١٨-١١٩).

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٩]، وقال تعالى: ﴿تَبَرُّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

ومن الأدلة على نفي الملك عما سوى الله قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَقْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، أي لا يملك أحد مع الله شيئاً استقلالاً ولا مشاركة، بل كل شيء لله تعالى، أما المخلوقون فملكهم قاصر ومؤقت ومحدود، أي محدود على ما تملكوه فقط من بيت ودابة ونحوه، ومؤقت لكون ما يملكه الإنسان ينتقل بعد وفاته للورثة، ثم لا ينسب له شيء بعد ذلك البتة، كما أنه مُلْكٌ قاصر لأنه لا يجوز له أن يتصرف فيه إلا بحدود ما ورد في الشرع، فلو أراد الإنسان أن يحرق بيته مثلاً لكان هذا حراماً عليه، ولو أراد أن يضرب عبده بدون سبب لكان هذا حراماً عليه، أما الله فيتصرف في ملكه كما يشاء، ولا يكون هذا نقصاً في حقه، من إحداث زلازل وفيضانات، وإغناء فقير وإفقار غني، ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وكل هذا للحكمة يعلمها الله ﷻ، والله الحكمة البالغة.

فالله له الأولي والآخرة، وله ميراث السماوات والأرض، ﷻ.

الوجه العشرون: ومن أعظم الأدلة على بطلان دعاء غير الله أن تلك المعبودات التي تدعى من دون الله عاجزة من جهة الخلق؛ فإن الله تعالى خالق كل شيء، وهو الذي أوجد خلقه وأبرزهم من العدم إلى الوجود، أما المعبودات التي تعبد من دون الله فلا تستطيع أن تخلق شيئاً ولو حقيراً، فدعاؤهم والتعلق بهم باطل إذن، لأن المخلوق محتاج إلى خالقه، ومن كان محتاجاً فلا يستحق أن يُعبد، بل عليه هو أن يعبد الله ويسأله حاجته على الدوام، قال تعالى في بيان بطلان عبادة من ليس بخالق

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ رَحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوبُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿[النحل: ١٧-٢١]﴾.

وضرب الله تعالى مثلاً في آخر سورة الحج فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿[الحج: ٧٣]﴾.

وقد احتج إلياس عليه السلام على قومه بهذا الدليل العقلي - أي دليل عدم القدرة على الخلق - على بطلان دعاء غير الله، قال تعالى عنه ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ (١٢٥) اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿[الصافات: ١٢٥-١٢٦]﴾، و«بعل» هو اسم صنم كانوا يعبدونه (١).

وهذا الدليل ظاهر بحمد الله.

الوجه الحادي والعشرون: ومن أعظم الأدلة على بطلان دعاء غير الله أن تلك المعبودات التي تدعى من دون الله عاجزة من جهة التدبير، فإن جميع ما يعبد من دون الله لا يدبر شيئاً في السماوات أو الأرض، بل المدبر والمؤثر هو الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ (الروم: ٤)، وقد نفى الله عن نبيه ﷺ

(١) وانظر ما قاله الشنقيطي رحمه الله في «أضواء البيان» في تفسير سورة يونس في تفسير الآيات من قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنْ تَوَكُّنَ﴾ (يونس: ٣٤).
وانظر كذلك ما قاله في تفسير قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ خَلْقٌ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الرعد: ١٦).

أن يكون له من تدبير الأمر شيء، فقال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فكيف بمن دون النبي ﷺ؟!

وقد ثبت في سبب نزول قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] أَنَّ النبي ﷺ قَنَتَ عَلَى بَعْضِ الْأَحْيَاءِ مِنَ الْعَرَبِ وَدَعَا عَلَيْهِم بِاللْعَنَةِ، فَأَرْشَدَهُ اللَّهُ إِلَى أَنْ الْأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَقَدْ يَسْتَجِيبُ اللَّهُ دَعَاءَهُ فَيُلْعَنُهُمْ، وَقَدْ يَتُوبُ عَلَيْهِمْ، ففِي «صحيح البخاري» عن سالم عن أبيه «أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الآخرة من الفجر يقول: «اللهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً»، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَاتَّهَمُ ظَالِمُونَ﴾^(١).

وفي رواية لأحمد «أنه كان يلعن الحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، فتاب الله عليهم كلهم»^(٢).

ولفظ ابن جرير: «وهدهم الله للإسلام»^(٣).

قال ابن كثير: «اعترض بجملة دلت على أن الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، أي بل الأمر كله إلي». انتهى.

ثم قال الله بعدها ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٠٩]، قال ابن

كثير **رحمته الله:**

(١) رواه البخاري (٤٥٥٩)، باختصار.

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في «زوائد على مسند أبيه» (٩٣/٢)، وصححه محققو «المسند».

تنبيه: في هذا دليل على أن النبي ﷺ لم يكن يعلم الغيب، إذ لو كان يعلم الغيب لما دعا عليهم أصلاً.

(٣) «جامع البيان في تأويل القرآن»، تفسير سورة آل عمران: (١٢٨)، و«المعجم الأوسط» (٣/١٠١).

«أي: الجميع ملك له، وأهلها عبيد بين يديه: ﴿يَعْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، أي: هو المُتصرف فلا مُعَقَّب لحكمه، ولا يُسأل عمَّا يفعل وهم يسألون». انتهى.

وقال الشيخ صنع الله بن صنع الله الحنفي في ردّه على مَن يدّعون أن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد مماتهم، ويُستغاث بهم في الشدائد والبلّيات، وبهم تُكشف المهمات، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات، قال **رحمته الله**:

«**فأما قولهم:** (إنّ للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد مماتهم) فيرده تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٠]، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧]، ونحوه من الآيات الدالات على أنه المنفرد بالخلق والتدبير والتصرف والتقدير، ولا شيء لغيره في شيء بوجه من الوجوه، فالكل تحت ملكه وقهره تصرفًا وملكًا وإحياء وإماتة وخلقًا.

وقد تمدح الربُّ بانفراده بملكه في آيات كثيرة من كتابه، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

وأما قول من قال بأنّ للأولياء التصرف بعد الممات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة، قال جل ذكره: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]، وقال في الحديث: «إذا مات ابنُ آدم انقطع عمله إلا من ثلاث...» الحديث.

وجميع ذلك وما هو نحوه دال على انقطاع الحس والحركة من الميت، وأن

أرواحهم ممسكة، وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان، فدل على أنه ليس للميت تصرف في ذاته فضلاً عن غيره بحركة، فإذا عجز عن حركة نفسه فكيف يتصرف في غيره؟ فإنه - سبحانه - يُخبر أن الأرواح عنده، وهؤلاء الملحدون يقولون إن الأرواح مطلقة متصرفة! ﴿قُلْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات من الكرامات فهو من أعظم المغالطة، لأن الكرامات شيء من الله تعالى يكرم به أوليائه وأهل طاعته، لا قصد لهم فيه ولا تحدي ولا قدرة ولا علم، كما في قصة مريم ابنة عمران وأسيد بن حُضير وأبي مسلم الخولاني.

وأما قولهم (فيستغاث بهم في الشدائد)؛ فهذا أقبح مما قبله وأبدع، لمصادرة قوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٦٣]، فإنه جل ذكره قرّر أنه الكاشف للضر لا غيره، وأنه المنفرد بإجابة المضطر، وأنه المستغاث به لذلك كله، وأنه القادر على دفع الضر، القادر على إيصال الخير، فهو المتفرد بذلك، فإذا تعين هو جل ذكره خرج غيره من ملك ونبي وولي.

والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية في قتال أو إدراك عدو أو سبع ونحوه، كقولهم: يا آل زيد، يا للمسلمين، بحسب الأفعال الظاهرة بالفعل.

وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير، أو في الأمور المعنوية من الشدائد كالمرض وخوف الغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه؛ فمن خصائص الله لا يطلب فيها غيره.

وأما كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب والصوفية الجاهل وينادونهم ويستنجدون بهم فهذا من المنكرات، فمن اعتقد أن لغير الله من نبي أو ولي أو روح أو غير ذلك في كشف كربة أو قضاء حاجة تأثيرًا؛ فقد وقع في وادي جهل خطر، فهو على شفا جرف من السعير.

وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات؛ فحاشا لله أن تكون أولياء الله تعالى بهذه المثابة، فهذا ظنُّ أهل الأوثان كما أخبر الرحمن: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، ﴿إِنِّي أَخَذْتُ مِنَ دُونِهِ عَاهِدًا إِنَّ يَرْضَى الرَّحْمَنُ بِصُرِّي﴾ [يس: ٢٣]، فَإِنَّ ذِكْرَ مَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ النفع ولا دفع الضر من نبي أو ولي وغيره على وجه الإمداد منهم؛ شرك مع الله تعالى، إذ لا قادر على الدفع غيره، ولا خير إلا خيره» (١). انتهى.

الوجه الثاني والعشرون: ومن وجوه بطلان دعاء المخلوقين أنها عاجزة من جهة الرزق، وقد أنكر الله تعالى في كتابه على من عبد من لا يرزقه، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣] (٢)، كما صرح الله تعالى في كتابه بأن جميع النعم والأرزاق منه وحده لا شريك له، وهو المتفرد بإنعامها على عباده، فلا يصح إذن أن تطلب من غيره، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، وقال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فالله سبحانه هو

(١) «سيف الله على من كذب على أولياء الله»، باختصار وتصرف يسير.

(٢) وانظر ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير هذه الآية في كتابه «أضواء البيان».

الرازق وهو المعطي حقيقة، وهو الذي ساق الأرزاق إلى مَنْ شاء ومنعها عمن شاء، فالواجب طلبها منه وحده وعدم طلبها من غيره، ولهذا قال: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرحمن: ٢٩].

ومما يُستدل به على فقر المخلوقين أن النبي ﷺ لم يغنِ أحداً ممن جاءه يطلبه مع شديد حاجتهم، وهو النبي المؤيد من ربه، الشفيق على أُمته، فطلب الأشياء ممن هم دون النبي ﷺ في المنزلة باطل من باب أولى.

فقد أتاه بعض الصحابة في غزوة تبوك ليحملهم، فلم يجد ما يحملهم عليه من الدواب، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع ألا يجدوا ما ينفقون من مالٍ لشراء دابة تحملهم للغزو، قال تعالى في حقهم: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢] (١).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ في رهط من الأشعرين نستحملُهُ (٢)، فقال: «والله لا أحملُكم، وما عندي ما أحملكم عليه». قال: فلبثنا ما شاء الله، ثم أتى بابل، فأمر لنا بثلاث ذودٍ غرَّ الذرئ (٣)، فلما انطلقنا قلنا -أو قال

(١) انظر «تفسير ابن جرير» لسورة التوبة، الآية (٩٢).

(٢) أي: نطلب منه أن يوفر لنا ما يحملنا من الإبل ويحمل أثقالنا. «شرح النووي على صحيح مسلم».

(٣) الذود هي الإبل، والغرة هي البياض. والذرئ: جمع ذروة، وهي أعلى الشيء. فقلوه: «ثلاث ذودٍ غرَّ الذرئ»، أي: «ثلاثة إبل بيض الأسنمة، فإن ذروة البعير سنامه». انظر شرح الحديث =

بعضنا لبعض - : لا يُبارك الله لنا، أتينا رسول الله ﷺ نستحمّله فحلف أن لا يحملنا ثم حملنا فأثّره فأخبروه فقال: «ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم» (١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعَبَّدُوا مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، فنكّر الرزق أولاً، ثم عرّفه ثانياً، فدلّت الأولى على نفي أن يكون شيء من تلك المعبودات يملك شيئاً من الرزق ولو حقيراً، لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم، وعرف الرزق في الثانية، أي ابتغوا عند الله الرزق كله، فالله هو الرازق وحده دون ما سواه.

قال ابن القيم رحمه الله:

«المخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول، بل إنما يقصد انتفاعه بك، والرب تعالى إنما يريد نفعك لا انتفاعه بك، وذلك منفعة محضة لك خالصة من المضرة، بخلاف إرادة المخلوق نفعك؛ فإنه قد تكون فيه مضرة عليك ولو بتحمّل منته.

فتدبر هذا، فإن ملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق أو تعامله دون الله، أو تطلب منه نفعاً أو دفعاً أو تُعلّق قلبك به، فإنه إنما يريد انتفاعه بك لا محض نفعك، وهذا حال الخلق كلهم بعضهم مع بعض، وهو حال الولد مع والده، والزوج مع زوجته، والمملوك مع سيده، والشريك مع شريكه، فالسعيد من عاملهم الله تعالى لا لهم، وأحسن إليهم الله، وخاف الله فيهم ولم يخفهم مع الله، ورجا الله بالإحسان

=

في «شرح النووي على صحيح مسلم».

(١) رواه مسلم (٤٢٦٣) وابن ماجه (٢١٠٧) والنسائي (٣٧٨٩).

إليهم ولم يَرْجُهم مع الله، وأحبهم لحبِّ الله ولم يُحبهم مع الله، كما قال أولياء الله: ﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩] (١).

فإذا تقرر لدينا فقر المخلوقين، فكيف يصح أن تطلب منهم الحاجات، ويُترك دعاء الغني الذي بيده ملكوت الأرض والسموات؟

وقد وصف الله نفسه بأنه الغني الرزاق الوهاب المنعم الباسط الجواد المحسن الكريم المعطي النافع المُقَيِّت (٢) الصَّمَد (٣) المَنَّان المرجو المرغوب القادر المدبر القيوم -أي الذي يقوم به أمر السماوات والأرض- فَمَنْ توجه لمخلوق مثله -لم يتصف بواحدة من هذه الصفات وطلب منه حاجاته وترك مَنْ له الأسماء الحسنَى والصفَات العُلَى؛ فهذا قد باع نفسه وعَبَدَ هَوَاهُ.



(١) «إغاثة اللهفان» (ص ٦٦).

(٢) أي: الذي يعطي الناس أقواتهم، أي أرزاقهم. وقيل معناها الحفيظ. وقيل غيرها.
انظر ما رواه ابن جرير الطبري في تفسير هذه الصفة عند الكلام على قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقَيِّتًا﴾ [النساء: ٨٥].

(٣) أي: الذي تلجأ إليه الخلائق في حاجاتها.
انظر ما رواه ابن جرير الطبري في تفسير قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.

خلاصة

وبناء على ما تقدم من وجوه عجز المخلوقين الخمسة، العجز في العلم والقدرة والتدبير والخلق والملك والرزق، فإن تَوَجُّه الداعي لغير الله مُستلزم لسوء الظن بالله العظيم، قال ابن القيم رحمه الله:

الشرك مبني على سوء الظن بالله، ولهذا قال إبراهيم -إمام الحنفاء- عليه السلام لخصمائه من المشركين: ﴿أَيْفَكَاةَ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ ^(٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الصفات: ٨٦-٨٧]، وإن كان المعنى: (ما ظنكم به أن يعاملكم ويجازيكم به وقد عبدتم معه غيره وجعلتم له ندًّا؟)، فأنت تجد تحت هذا التهديد: (ما ظننتم برَّبكم من السوء حتى عبدتم معه غيره؟).

فإن المشرك إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه من وزيرٍ أو ظهيرٍ أو عونٍ، وهذا أعظم التنقيص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته وكل ما سواه فقير إليه بذاته.

وإما أن يظن أنه سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشريك.

وإما أن يظن بأنه لا يعلم حتى يُعَلِّمَهُ الواسطة.

أو لا يرحم حتى تجعله الواسطة يرحم.

أو لا يكفي وحده ^(١).

(١) أي: لا يكفي عبده وحده.

أو لا يفعل ما يريد بالعبد حتى يشفع عنده الواسطة كما يشفع المخلوق عند المخلوق، فيحتاج أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع وانتفاعه به وتكثُّره به من القلة وتعزُّزه به من الذلة.

أو لا يُجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن ترفع تلك الحاجات إليه، كما هو حال ملوك الدنيا، وهذا أصل شرك الخلق.

أو يظن أنه لا يسمع دعاءهم لبُعده عنهم حتى ترفع الوسائط إليه ذلك^(١).

أو يظن أن للمخلوق عليه حقاً، فهو يُقسم عليه بحق ذلك المخلوق عليه، ويتوسل إليه بذلك المخلوق كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعزُّ عليهم ولا يمكنهم مخالفته.

وكل هذا تنقُص للربوبية وهضم لحقها، ولو لم يكن فيه إلا نقص محبة الله تعالى وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه من قلب المشرك بسبب قسمة ذلك بينه سبحانه وبين من أشرك به، فينقُص ويضعُف أو يضمحل ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء بسبب صرف أكثره أو بعضه إلى من عبده من دونه؛ [لكفى في شناعته]^(٢).

فالشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه، والتنقص لازم له ضرورةً، شاء المشرك أم أبى، ولهذا اقتضى حمده سبحانه وكمال ربوبيته ألا يغفره، وأن يخلد صاحبه في

(١) أي: ترفع الدعاء إلى الله.

(٢) ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة الفقي (ص ٦٢).

العذاب الأليم، ويجعله أشقى البرية، فلا تجد مشركًا قط إلا وهو متنقص لله سبحانه وإن زعم أنه يُعظمه بذلك^(١). انتهى كلامه ﷺ.

الوجه الثالث والعشرون: ومن وجوه بطلان دعاء غير الله أن تلك المعبودات التي تعبد من دون الله أو مع الله لا تدوم لعبديها، بل ستفنى وتندثر في الأرض، وهذا من وجوه عجزها، فدل هذا على بطلان عبادتها، إذ لو كانت عبادتها حقًا لدامت! فأين قبور الصالحين التي كانت تعبد في الجاهلية؟ وأين الأشجار والأحجار التي كان الناس يسألونها البركة قبل قرن واحد من الزمان؟ هي إمّا زالت وإمّا ستزول كما زال غيرها بأمر الله الكوني القدري، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

وقد أشار إبراهيم عليه السلام إلى هذا الدليل العقلي في معرض دعوته لقومه عباد الكواكب ليبين لهم أن عبادة غير الله باطلة، قال تعالى عنه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۝ فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۝ فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ يَتَقَوْمَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝﴾ [الأنعام: ٧٦-٧٩].

ففي هذه الآيات نبّه إبراهيم عليه السلام قومه إلى فناء معبوداتهم التي يعبدونها من دون الله وعدم ديمومتها ليبرهن لهم بذلك على بطلان عبادتها.

(١) «إغاثة اللهفان» (ص ١٠٣ - ١٠٤)، باختصار يسير.

أما الله تعالى فإنه حي قيوم، دائم باق، لا يزول ولا يفنى، كما قال تعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، فهو المستحق وحده للدعاء والعبادة دون ما سواه.

الوجه الرابع والعشرون: ومن وجوه بطلان دعاء الموتى أن الكتاب والسنة ينصان على أن الميت ليس له اتصال بالدنيا البتة، بل هو غافل عنها، سواء كانت روحه في عليين أو كانت في سجين، فكيف يقدر من كانت هذه حاله أن يجيب الطلبات ويقضي الحاجات؟! قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

وبناء على هذا فالداعي للميت - في الحقيقة - لا يدعو أحداً، وإنما يكلم نفسه! إذ إن حياة المؤمن في قبره لا تقتضي ما تقتضيه الحياة الدنيوية من إدراك بالحواس الخمسة، بل هو في حياة برزخية غيبية ليست من جنس حياة الإنسان في الدنيا، وهو بكل حال غافل عما يدور في الدنيا كما دلت عليه الآية الكريمة.

الوجه الخامس والعشرون: أن مقتضى فعل الذين يدعون غير الله من الموتى أو الجمادات أنهم يعتقدون أن الموتى في مرتبة أعلى من مرتبة الأحياء، لكونهم - في الغالب - لم يدعونهم إذ كانوا أحياء، فلمّا ماتوا شرعوا في دعائهم، وهذا مخالف لما دل عليه الشرع والعقل والفطرة السليمة من أن الأحياء في مرتبة أعلى من مرتبة الأموات، قال تعالى في سورة فاطر: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ۖ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۚ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۚ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢]، فواجباً من أحياء يستغيثون بأموات!

الوجه السادس والعشرون: ومن أدلة بطلان دعاء غير الله؛ أن الذين يُعبدون من دون الله سيخذلون من كانوا يعبدونهم يوم القيامة ويتبرءون منهم، سواء الراضون منهم بعبادتهم أم غير الراضين، فهذا عيسى عليه السلام سيتبرأ من النصارى الذين كانوا يعبدونه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ...﴾ إلى قوله ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عَبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

بل جميع المعبودات التي تعبد من دون الله ستتبرأ من عابديها ويلعنونهم ويكونون عليهم ضداً، أي خصماء وأعداء، بخلاف ما كانوا يرجون منهم ويؤملون، قال تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢] (١).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

قال ابن كثير رحمته الله في تفسير الآية: «أي سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم». اهـ.

وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

(١) وانظر ما قاله الشنقيطي رحمته الله في تفسير الآية الكريمة.

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تفسير الآية: «أي يتبرأ كُلُّ من العابدين والمعبودين من الآخر، وإذا حُشِرَ الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين، فكيف تتعلقون بِمَنْ يُعَلِّمُ أَنَّهُ سَيَتَبَرَأُ مِنْ عَابِدِيهِ وَيَلْعَنُهُمْ، وَأَنْ مَأْوَى الْجَمِيعِ -العبادين والمعبودين- النار، وليس أحد ينصُرهم من عذاب الله، ولا يدفع عنهم عقابه». اهـ.

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تفسير هذه الآية: «وحيثئذ يتمنى التابعون أَنْ يُرَدُّوا إِلَى الدُّنْيَا فَيَتَبَرَّءُوا مِنْ مَتَّبِعِيهِمْ، بِأَنْ يَتْرَكُوا الشَّرْكَ بِاللَّهِ وَيَقْبَلُوا عَلَى إِخْلَاصِ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَهِيَاهُ، فَاتِ الْأَمْرِ، وَلَيْسَ الْوَقْتُ وَقْتُ إِمْهَالٍ وَإِنْظَارٍ، وَمَعَ هَذَا فَهَمُ كَذِبُهُ، فَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نَهَوْا عَنْهُ، وَإِنَّمَا هُوَ قَوْلٌ يَقُولُونَهُ وَأَمَانِيَّ يَتَمَنُونَهَا حَقًّا وَغِيظًا عَلَى الْمَتَّبِعِينَ لِمَا تَبَرَّءُوا مِنْهُمْ، وَالذَّنْبُ ذَنْبُهُمْ، فَرَأَسُ الْمَتَّبِعِينَ عَلَى الشَّرِّ إِبْلِيسُ، وَمَعَ هَذَا يَقُولُ لِأَتْبَاعِهِ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْ مَوَّأَ أَنْفُسِكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. اهـ.

ففي حين أن حجة غالب الذين يدعون أصحاب القبور أو غيرها أنها تقربهم وتشفع لهم عند الله؛ فالحق أن تلك المعبودات لن تقربهم وتشفع لهم عند الله يوم القيامة، بل ستتبرأ منهم، ويكون تقربهم لها وبالأعلى عليهم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾

[الروم: ١٢-١٣]، قال ابن كثير رحمه الله: «أي ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، وكفروا بهم، وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم».

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ (٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِّنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَئِيدًا﴾ [الفرقان: ١٧ - ١٩].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ [الفرقان: ١٩]، أي فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله فيما زعمتم أنهم لكم أولياء وأنهم يُقربونكم إلى الله زلفى... وقوله ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ أي لا يقدرُونَ على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم». اهد باختصار.

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

«ذكر عليه السلام في هذه الآية الكريمة أنه يحشر الكفار يوم القيامة وما كانوا يعبدون من دونه، أي يجمعهم جميعًا فيقول للمعبودين: أنتم أضللتم عبادي هؤلاء، فزيّتهم لهم أن يعبدوكم من دوني، أم هم ضلوا السبيل؟

أي كفروا وأشركوا بعبادتهم إياكم من دوني من تلقاء أنفسهم من غير أن تأمروهم بذلك ولا أن تُزيّنوه لهم.

وأن المعبودين يقولون: سبحانك، أي تنزيهاً لك عن الشركاء وكل ما لا يليق بجلالك وعظمتك: ﴿مَا كَانَ يَدْعُو لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان: ١٨]، أي ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك، لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا، ونحن بُرَاء منهم ومن عبادتهم.

ثم قال: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ﴾، أي طال عليهم العمر: ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾، أي نسوا ما أنزلته عليهم على السنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك.

﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾، قال ابن عباس: أي هلكى.

وقال الحسن البصري ومالك عن الزهري: أي لا خير فيهم». انتهى كلامه رحمته الله (١).

وقال تعالى في تبرؤ المعبودات من عابديها يوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ٢٦ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَأْنَا إِلَيْكَ مَا كُنَّا إِبْرَاءِيَّاعِينَ بَدُونَ﴾ [القصص: ٦٢-٦٣].

قال ابن كثير رحمته الله في تفسير هذه الآية:

«يقول تعالى مخبراً عما يُوبَّخ به الكفار المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، يعني أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد، هل ينصرونكم أو ينتصرون؟

(١) وانظر ما قاله رحمته الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْغُرَّةَ إِذْ هُمْ قَائِلُونَ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ قُلْ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٨٦].

وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يعني الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣]، فشهدوا عليهم أنهم أغووههم فاتبعوهم ثم تبرءوا من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۖ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢]، اهـ باختصار.

وقال ابن القيم رحمه الله:

«اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يُوجب له الضرر من جهته هو ولا بد، عكس ما أمّله منه، فلا بد أن يُخذل من الجهة التي قدّر أن يُنصر منها، ويُذم من حيث قدّر أن يُحمد، وهذا أيضًا كما أنه ثابت بالقرآن والسنة فهو معلوم بالاستقراء والتجارب، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۖ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس: ٧٤-٧٥]، أي يَغضبون لهم ويُحاربون كما يغضب الجند^(١) ويحارب عن أصحابه^(٢)، وهم لا يستطيعون نصرهم، بل هم كل^(٣) عليهم، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَتَابَعًا﴾

(١) الجند أي العسكر. جمع أجناد. انظر «لسان العرب».

(٢) أي في الدنيا كانوا يُدافعون عن آلهم، ويغضبون لها، سواء كانت أصنامًا أو قبورًا أو غيرها.

(٣) الكل هو من كان عبًا على غيره. والمعنى أنهم في الآخرة سيكونون نقمة عليهم وبلاء، إذ لم ينصروهم كما كانوا يظنون ويحسبون. انظر معنى (الكل) في «المعجم الوسيط».

[هود: ١٠١]، أي: غير تخسير، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، فإن المشرك يرجو بشركه النصر تارة، والحمد والثناء تارة، فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه، ويحصل له الخذلان والدم، فصلاح القلب وسعادته وفلاحه في عبادة الله سبحانه والاستعانة به، وهلاكه وشقاؤه وضرره العاجل والآجل في عبادة المخلوق والاستعانة به»^(١).

قلت: وصدق الله القائل ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

الوجه السابع والعشرون: ومن أدلة بطلان دعاء غير الله ما قصه الله علينا في القرآن من اعتراف الكفار وهم في النار بأن دعاءهم لغير الله ليس بشيء، قال تعالى: عَنْهُمْ ﴿أَيُّنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ^(٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ تَكُنْ تَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧].

الوجه الثامن والعشرون: أنه دعاء أصحاب القبور يلزم منه مضاهاتهم^(٢) بالله ﷻ في صفة السمع والعلم، وذلك أن الموتى يجتمع لدعائهم جماعات كثيرة، يدعون بلغات مختلفة، ويطلبون أغراضاً متعددة، من أماكن متفرقة ومتباعدة، وفي أزمان شتى، ولولا أن الداعين لهم يعتقدون فيهم أنهم يسمعون القريب والبعيد، وأنهم يعلمون حاجات جميع الناس لما دعوهم أصلاً، وفي هذا تشبيه لهم بالله ﷻ في

(١) «إغاثة اللهفان» (ص ٦٣ - ٦٤)، باختصار يسير.

(٢) المضاهاة هي المشابهة. انظر «المعجم الوسيط».

صفة السمع والعلم، وهذا كفر، قال نُعَيْمُ بن حَمَّاد الخزاعي^(١) -شيخ البخاري-
 ﷺ: «مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ أَنْكَرَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَيْسَ مَا
 وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولُهُ تَشْبِيهًا»^(٢).

وذكر اللالكائي عن عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: «قال إسحاق بن
 راهويه^(٣):

مَنْ وَصَفَ اللَّهَ فَشَبَّهَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ فَهُوَ كَافِرٌ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ،
 لِأَنَّهُ وَصَفَ لَصِفَاتِهِ، إِنَّمَا هُوَ اسْتِسْلَامٌ لِأَمْرِ اللَّهِ وَلِمَا سَنَّ الرَّسُولُ ﷺ»^(٤).

والواجب إفراد الله تعالى بكمال صفات السمع والعلم، لأن الله ليس كمثله
 شيء كما أخبر في كتابه.

الوجه التاسع والعشرون: أن المخلوقات لا تستوي مع بعضها البعض، فكيف
 يصح مساواتها بخالقها وهو الله ﷻ، فيُطلب منها كما يُطلب من الله، ويُلجأ لها كما
 يُلجأ إلى الله؟!

(١) هو الإمام العلامة الحافظ الفَرَضِي صاحب التصانيف، حَدَّثَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
 الْمُبَارَكِ، وَرَوَى عَنْهُ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ: الْبَخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَه، قَالَ الذَّهَبِيُّ:
 «كَانَ مِنْ كِبَارِ أَوْعِيَةِ الْعِلْمِ». انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٠/٥٩٥) و«تذكرة
 الحفاظ» (٦/٢).

(٢) رواه الذهبي في «العلو» رقم (٤٦٤)، وخرجه في «سير أعلام النبلاء» (١٠/٦١٠) من طريق
 آخر، وذكره في كتاب «العرش» (ص ٩٣-٩٤) وصححه.

(٣) هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي، أبو محمد بن راهويه المروزي: ثقة، حافظ،
 مجتهد، مات سنة ٣٨. انظر ترجمته في «السير» (١١/٣٥٨).

(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» رقم (٩٣٧).

وقد ضرب الله هذا البرهان العقلي في سورة النحل فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِمَّا رَزَقْنَاكَ فَهُوَ يَفْنَىٰ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِيَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٥-٧٦].

ففي هاتين الآيتين ضرب الله مثليْن، المثل الأول: مثل العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، والسيد الحر الغني الذي ينفق ماله سرًّا وجهرًا، هل يستوون؟ الجواب لا قطعًا، مع أن كليهما عبدٌ لله سبحانه.

والمثال الثاني رجل أبكم لا يسمع ولا ينطق، ولا يقدر على شيء، أي ليس عنده مال قليل ولا كثير، بل هو كَلٌّ على مولاه، أي عاجز عن خدمة نفسه لدرجة أن مولاه هو الذي يخدمه، هل يستوي هذا ومن هو سليم الحواس يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، فأقواله عادلة وتصرفاته مستقيمة؟ الجواب لا قطعًا.

فإذا كانت المخلوقات لا تستوي مع بعضها البعض، فكيف يصح تسويتها مع خالقها جل وعز، بأن يُطلب منها كما يطلب من الله، ويُلجأ لها كما يلجأ إلى الله، كما لو أن صفاتها متطابقة مع صفات الله، وقدرتها كقدرة الله؟ تعالى الله عن ذلك علوًا عظيمًا.

وقال بعض المفسرين إنَّ المثل الثاني هو مثل الله ومثل ما يُعبد من دونه، فمثل الله المعبودات التي تُعبد من دونه -من الأصنام والموتى- بالعبد الأبكم الذي لا يقدر على شيء، وضرب مَثَلًا لنفسه بالسيد الذي يأمر بالعدل وهو على صراط

مستقيم، وكلا القولين صحيح ويدل على المقصود، وهو بيان الفرق بين الله وبين خلقه، وإظهار عدم استحقاق المخلوق -أيًا كان- لأي لون من ألوان العبادة.

ولما فرغ الله من ذكر المثليين قال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [هود: ١٢٣]، ففي هذا توبيخ للمشركين لما عبدوا المخلوق الناقص العلم بحاجات الناس، وتركوا عالم غيب السماوات والأرض.

فالحاصل هو الاستدلال بعدم تساوي الأحياء مع بعضهم البعض على عدم تساويهم مع الله في مسألة اللجوء والتعلق، وكذا الاستدلال بعدم تساوي الأحياء مع الأموات على عدم تساويهم مع الله في مسألة اللجوء والتعلق، فعلى هذا فإن طلب الحاجات من الموتى من أبطل الباطل وأسفه السّفه.

الوجه الثلاثون: أن دعاء غير الله يستلزم صرف عبادات أخرى يتضمنها الدعاء لغير الله، كعبادة الخوف والرغبة والرغبة والخشوع والخضوع، وهذه عبادات قد أمر الله العبد بإخلاصها له تعالى، وصرفها لغير الله شرك، قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَ آرَعَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَالِلَّهِ رَبِّكَ فَارْعَبْ﴾ [الشرح: ٨].

كذلك فإن الدعاء يتضمن الخوف من الله والرجاء لما عند الله، وهي عبادات أيضًا قد أمر الله بها وأثنى على أهلها، كما في قوله تعالى: ﴿وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

فكون هذه الأعمال متلازمة ومصاحبة للدعاء يدل على وجوب صرفه نفسه لله تعالى، وبطلان صرفه لغيره.

الوجه الحادي والثلاثون: ومن أدلة بطلان دعاء المخلوقين أن الأنبياء ومن تبعهم على الحق من الصالحين ^(١) لا يرضون بأن يصرف لهم الناس شيئًا من العبادات، لا في حياتهم ولا بعد مماتهم، لا دعاء ولا استغاثة ولا ذبحًا ولا نذرًا ولا سجودًا ولا غير ذلك، ومن أمثلة ذلك أنه لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي ﷺ فقال: «ما هذا يا معاذ؟».

فقال: أتيت الشام، فوجدتهم يسجدون لأساقفتهم ^(٢) وبطارقتهم ^(٣)، فوددتُ في نفسي أن نفعل ذلك بك.

فقال رسول الله ﷺ: «فلا تفعلوا، فإني لو كنتُ أمرًا أحدًا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» ^(٤).

وقد تكرر هذا الفعل عدّة مرات أمام النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ ينكره في كل مرة أشد الإنكار ^(٥).

(١) الصّالح هو القائم بما أمره الله به، المنتهي عما نهاه الله عنه.

(٢) الأساقفة: جمع أسقف - بضم الهمزة -، وهو رئيس النصارى في الدّين. انظر «لسان العرب».

(٣) بطارقة: جمع بطريق، بكسر الباء، ويقال: بطريق، وهو لقب يُطلق على المقدمين عند النصارى. انظر «لسان العرب» و«المعجم الوسيط».

(٤) رواه ابن ماجه عن عبد الله بن أبي أوفى ؓ (١٨٥٣)، والحاكم (١٧٢/٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٠٨/٥)، وقال الألباني: «حسن صحيح»، وانظر «الصحيحة» (١٢٠٣).

(٥) انظر ما رواه الدارمي عن قيس بن سعد، وعن ابن بريدة، عن أبيه ؓ في كتاب (الصلاة)، باب (النهي أن يسجد لأحد). وكذا ما رواه الترمذي (١١٥٩) وغيره عن أبي هريرة ؓ، وحسنه الألباني كما في «الإرواء» (٥٤/٧).

ومن إنكار الأنبياء على من عبدهم ما قصه الله عن عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ وَقَدْ عَلِمْتُهُ نَعَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

وهذا علي عليه السلام لما أتى بالزنادقة -الذين غلوا في حبه وتعظيمه حتى عبدوه- أمر بتحريقهم بالنار (١).

قال ابن تيمية رحمه الله معلقًا على فعل علي عليه السلام بالزنادقة الذين عبدوه وعلى بعض الأحاديث الواردة في إنكار النبي صلى الله عليه وآله وسلم على بعض من غلا فيه:

«فهذا شأن أنبياء الله وأوليائه، وإنما يُقر على الغلو فيه وتعظيمه بغير حق من يريد علوًا في الأرض وفسادًا كفرعون ونحوه، ومشائخ (٢) الضلالة الذين غرضهم العلو في الأرض والفساد والفتنة بالأنبياء والصالحين واتخاذهم أربابًا والإشراك بهم» (٣).

وروى البيهقي في «دلائل النبوة» عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظي حين اجتمع عنده النصارى والأخبار فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإسلام:

(١) انظر «فتح الباري» شرح حديث (٦٩٢٢).

والأثر رواه ابن عساکر في «تاريخ دمشق»، الناشر: دار الفكر - بيروت (٤٢/ ٤٧٥ - ٤٧٦) في ترجمة علي بن أبي طالب عليه السلام، والأصبهاني في «طبقات المحدثين بأصبهان» (٢/ ٣٤٢ - ٣٤٣)، الناشر: مؤسسة الرسالة، وانظر ما قاله السمعاني في كتاب «الأنساب» (٥/ ٣٩٦)، الناشر: دار الكتب العلمية (في النسبة إلى النصيري).

(٢) لعل الصواب: مشايخ، جمع شيخ. انظر «لسان العرب»، مادة (شيخ).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٨١).



أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟

فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الربيس: (وذلك تريد يا محمد وإليه تدعو)، أو كما قال.

فقال رسول الله: «معاذ الله أن أعبد غير الله، أو آمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني

ولا أمرني»، فأنزل الله ﷻ في ذلك من قولهما ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرْكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠] (١).

بل إن عبادة المخلوقين فيها استخفاف بهم، لأنهم أنزلوهم في غير منزلتهم، أرايت رجلاً قال لصاحبه: أنت ملك!

حتمًا سيشعر ذلك الصاحب أنه يسخر منه ويُقَلِّل من شأنه، فكذلك الذي يعبد الصالحين، فإنه في الحقيقة يتنقصهم ويحتقرهم، وإنما يُوقرهم الذي يقتدي بهم في فعل الخير ويدعو لهم، لا الذي يدعوهم ويُنزِلهم منزلة الرب، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

(١) (٥/ ٣٨٤)، وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسير الآية الكريمة.

الوجه الثاني والثلاثون: أن الرسول ﷺ كان ينهى الناس عن مجرد المبالغة في مدحه وتعظيمه، فكيف بمن أشركه أو أشرك غيره مع الله في الدعاء؟!

فعن ابن عباس ؓ أنه سمع عمر ؓ يقول على المنبر: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «**لا تُطروني** كما أطرت النصارى ابنَ مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبدُ الله ورسوله» (١).

بل إنَّ النبي ﷺ كان ينهى عما هو أقل من ذلك مما فيه نوع غلو فيه، فإنه لما صلى جالسًا صلى خلفه الصحابة قيامًا، فنهاهم عن ذلك، وقال: «إن كدتم آنفًا لتفعلون فعلَ فارس والروم، يقومون على ملوكهم وهم قُعود، فلا تفعلوا» (٢).

ففي هذا الحديث نرى أمر النبي ﷺ للمأمومين بالجلوس إذا جلس الإمام، مع أنَّ في هذا إخلالًا بالركن، ولكن لأجل المشابهة لما يفعله الكفار لكبرائهم في تعظيمهم لهم نهى عن ذلك، فكيف بمن توجَّه لميت بالعبادة نفسها؟! (٣).

وقال أنس ؓ: «لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، قال: وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك» (٤).

فإذا كان النبي ﷺ ينهى عن الوقوف له تعظيمًا له، فكيف لو رأى من يدعو كما يدعو ربَّ العالمين؟

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥).

(٢) رواه مسلم (٩٢٨).

(٣) انظر (٢/ ٧٤) من «الدرر السنية».

(٤) رواه الترمذي (٢٧٥٤)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله.

وعن عبد الله بن الشَّخِير رضي الله عنه قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيِّدنا.

فقال: «السَّيِّدُ الله ﷻ».

قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طَولاً^(١).

فقال: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يَسْتَجْرِيَنَّكم الشَّيْطَانُ»^(٢).

ففي هذه الأحاديث وغيرها نرى حماية النَّبي ﷺ لِحِمَى التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ لَطَرَقِ الشَّرِكِ بَأَن نَهَى صحابته عن مدحهم إياه بما فيه من الخصال التي هي حق في شخصه ﷺ، فهو سيد ولد آدم، وخير الناس وأفضلهم، ولكن لما كان ذلك المدح قد يُفْضِي إلى الغلو فيه ﷺ نهاهم عن ذلك، وعَدَّ هذا من استجراء الشَّيْطَانِ لابن آدم.

والشاهد أنَّه لما كانت المبالغة في مدح النَّبي ﷺ مخالفة شرعية؛ فمن باب أولى دعاؤه أو دعاء غيره، لأنَّ دعاء المخلوق أعظم غلوًّا من الإفراط في مدحه، بل هو أعظم مظاهر الغلو.

الوجه الثالث والثلاثون: ومن أدلة بطلان دعاء المخلوقين أنَّ أولئك المدعوين من الأنبياء والصالحين والملائكة هم أنفسهم عبيد لله يتقربون إلى الله بالأعمال الصالحة، ومن كان عبداً فإنه لا يستحق أن يُعبد أو يتقرب الناس إليه، قال تعالى:

(١) أي: أعظمنا عطاءً وغلوًّا على الأعداء. انظر شرح الحديث في «عون المعبود».

(٢) رواه أبو داود (٤٨٠٦)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٠٧٦)، وأحمد (٢٤/٤ - ٢٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١١)، وصححه الألباني.

﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْيِيلًا﴾ ٥٦ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿[الإسراء: ٥٦-٥٧]، أي تلك المعبودات التي تدعونها من دون الله من الملائكة والمسيح ونحوهم؛ هم أنفسهم يرغبون إلى الله في طلب ما يقربهم إلى ربهم، ويتقربون إليه بالعمل الصالح ويتنافسون ليعلموا أيهم أقرب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ كما يرجوها غيرهم، ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ كما يخافه غيرهم، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾، فهو إذاً حقيق بأن يحذره العباد من الملائكة والأنبياء وغيرهم (١).

وقد كان النبي ﷺ يؤكد دائماً على هذه العقيدة - عقيدة أنه عبد الله - حتى لا تقع أمته في عبادته، فقد كان يستفتح خطبه بقوله: «وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله».

وقد وصفه الله بأنه عبدٌ لله في غير ما آية من كتاب الله، كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وقوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، وقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ [الحج: ١٩]، ومن المعلوم أن العبد لا يُعبد، كما أن الرسول لا يُكذَّب، فإذا كان النبي ﷺ كذلك؛ فمن باب أولى لا يُعبد من هو دون الرسول ﷺ، كالأولياء والصالحين من المقبورين وغيرهم، والله أعلم.

(١) انظر تفسير الآية في «زبدة التفسير من كلام العلي القدير»، بتصرف يسير.

الوجه الرابع والثلاثون: أن أولئك المدعويين من الأنبياء والصالحين هم أنفسهم محتاجون للأحياء، بدعائهم والاستغفار لهم، لأن الميت قد انقطع عمله، كما قال ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(١).

فهذا محمدٌ ﷺ -أفضل البشر وأقربهم عند الله منزلة- طلب منا أن نصلي عليه، حياً وميتاً، والصلاة عليه هي الدعاء له بالرحمة، قال ﷺ: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلُّوا عليّ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلُّوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة»^(٢).

وكذلك علّمنا النبي ﷺ بأن ندعو له ولكل عبد صالح في السماء والأرض، كما في دعاء التشهد في التحيات: «السّلام عليك أيّها النبي ورحمة الله وبركاته، السّلام علينا وعلى عباد الله الصالحين...» الحديث.

ثم قوله في التشهد الأخير: «اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد...»، الحديث.

ومن ذلك أيضاً أن النبي ﷺ علّم أمته أن يدعوا للميت بالرحمة والمغفرة في عموم الأحوال، وفي صلاة الجنازة، وبعد الدفن خصوصاً، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى على جنازة يقول: «اللهم اغفر لحينا وميتنا، وشاهدنا وغائبنا،

(١) رواه مسلم (١٦٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٣٨٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وصغيرنا وكبيرنا، وذكّرنا وأنثنا، اللهم من أحبيته منّا فأحيه على الإسلام، ومن توفيته منّا فتوفّه على الإيمان، اللهم لا تحرمنّا أجره، ولا تُضلنا بعده» (١).

وعن عثمان رضي الله عنه: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم، وسلّوا له التّثبيت، فإنه الآن يُسأل» (٢).

فإذا تقرر أن الميت بحاجة الحيّ فلا يصح إذا أن يُطلب من الموتى شيئاً من المصالح الدينية أو الدنيوية.

الوجه الخامس والثلاثون: ومن وجوه بطلان دعاء الموتى أن النبي ﷺ مدح من لم يسأله شيئاً من الأمور الدنيوية، وفَضّله على من سأل، بل ذمّ كثيراً ممن سأل السؤل الجائز مما يقدر عليه، وعلمهم ترك سؤال الناس ليربيهم على تمام التعلق بالله وحده، فماذا يقال لمن توجه للنبي ﷺ أو لغيره بطلب الحاجات التي لا يقدر عليها إلا ربّ العالمين؟

فقد أخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده، فقال: «ما يكون عندي من خير فلن أدّخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر» (٣).

(١) رواه أبو داود (٣٢٠١) وابن ماجه (١٤٩٨)، وصححه الألباني. ورواه أحمد (٣٦٨/٢)، والترمذي (١٠٢٤) بدون زيادة: «اللهم لا تحرمنّا أجره...»، الحديث.

(٢) رواه أبو داود (٣٢٢١) عن عثمان رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمته الله.

(٣) رواه البخاري (١٤٦٩) ومسلم (١٠٥٣).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِاللَّهِ، فَيُوشِكُ اللَّهُ لَهُ بِرِزْقٍ عاجِلٍ أَوْ آجِلٍ»^(١).

وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: «أَلَا تَبَايَعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟» وكنا حديثَ عهد ببيعة.

فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله.

ثم قال: «أَلَا تَبَايَعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟».

فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله.

ثم قال: «أَلَا تَبَايَعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟».

قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟

قال: «عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَتَطِيعُوا، -وَأَسْرَ كَلِمَةِ خَفِيَّةٍ-، وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا».

فلقد رأيت بعض أولئك الثَّغْرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاولُهُ إِيَّاهُ»^(٢).

ولما سقط خطام ناقة أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ أناخ ناقته وأخذه، فقالوا له: أفلا أمرتنا أنْ نَناولَكَ؟

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٦)، وأبو داود (١٤٥٢)، وصححه الألباني رحمته الله.

(٢) رواه مسلم (١٠٤٣).

فقال: «إِنْ حَبَّيْ (١) رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَرَنِي أَنْ لَا أَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا» (٢).

الوجه السادس والثلاثون: ومن الأدلة على بطلان دعاء غير الله أن العبد كلما كان أكثر توحيداً وذلاً لله وافتقاراً إليه كان أعز له وأعظم لقدره، **قال ابن تيمية رحمه الله تعالى:** «العبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له؛ كان أقرب إليه وأعز له وأعظم لقدره، فأعظم الخلق أعظمهم عبودية لله، وأما المخلوق فكما قيل: «احتج إلى مَنْ شئت تكن أسيره، واستغنِ عَمَّنْ شئت تكن نظيره، وأحسن إلى مَنْ شئت تكن أميره».

فأعظم ما يكون العبد قدراً وحرمة عند الخلق إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم كنت أعظم ما يكون عندهم، ومتى احتجت إليهم -ولو في شربة ماء- نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم، وهذا من حكمة الله ورحمته ليكون الدين كله لله، ولا يُشرك به» (٣).

وقال أيضاً: «وكل مَنْ علَّق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه؛ خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميراً لهم مدبراً لهم متصرفاً بهم، فالعاقِل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر، فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له؛ يبقى قلبه أسيراً لها، تتحكَّم فيه وتتصرف بما تريد، وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها، وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها، لا

(١) الحَبُّ - بكسر الحاء - هو المحبوب. انظر «النهاية».

(٢) رواه أحمد (١/ ١١)، وقال محققو «المسند»: «حسن لغيره».

(٣) «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٩).

سَيِّمًا إِذَا دَرَّتْ بِفَقْرِهِ إِلَيْهَا وَعِشْقِهِ لَهَا، وَأَنَّهُ لَا يَتَعَاضُّ عَنْهَا بِغَيْرِهَا، فَإِنَّمَا حِينَئِذٍ تَحْكُمُ فِيهِ بِحُكْمِ السَّيِّدِ الْقَاهِرِ الظَّالِمِ فِي عَبْدِهِ الْمَقْهُورِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الْخَلَاصَ مِنْهُ، بَلْ أَعْظَمُ، فَإِنَّ أَسْرَ الْقَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ أَسْرِ الْبَدَنِ، وَاسْتِعْبَادُ الْقَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ اسْتِعْبَادِ الْبَدَنِ، فَإِنْ مِنْ اسْتُعْبَدَ بَدَنُهُ وَاسْتُرُقَ لَا يَبَالِي إِذَا كَانَ قَلْبُهُ مُسْتَرِيحًا مِنْ ذَلِكَ مُطْمَئِنًّا، بَلْ يُمْكِنُهُ الْإِحْتِيَالُ فِي الْخَلَاصِ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْقَلْبُ -الَّذِي هُوَ الْمَلِكُ- رَقِيقًا مُسْتَعْبَدًا مُتَمِيمًا لِعَبَادَةِ اللَّهِ فَهَذَا هُوَ الذِّلُّ وَالْأَسْرُ الْمَحْضُ، وَالْعِبُودِيَّةُ لِمَا اسْتَعْبَدَ الْقَلْبُ» (١).

وقال -أيضاً- رحمه الله: «وَلَنْ يَسْتَغْنِيَ الْقَلْبُ عَنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ اللَّهُ هُوَ مَوْلَاهُ الَّذِي لَا يَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، وَلَا يَسْتَعِينُ إِلَّا بِهِ، وَلَا يَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ، وَلَا يَفْرَحُ إِلَّا بِمَا يَحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَلَا يَكْرَهُ إِلَّا مَا يَبْغِضُهُ الرَّبُّ وَيَكْرَهُهُ، وَلَا يُوَالِي إِلَّا مَنْ وَالَاهُ اللَّهُ، وَلَا يَعَادِي إِلَّا مَنْ عَادَاهُ اللَّهُ، وَلَا يَحِبُّ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا يَبْغِضُ شَيْئًا إِلَّا اللَّهَ، وَلَا يُعْطِي إِلَّا اللَّهَ، وَلَا يَمْنَعُ إِلَّا اللَّهَ، فَكُلَّمَا قَوِيَ إِخْلَاصُ دِينِهِ اللَّهُ كُمُلَتْ عِبُودِيَّتُهُ وَاسْتَغْنَاؤُهُ عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَبِكَمَالِ عِبُودِيَّتِهِ اللَّهُ يُبْرِئُهُ مِنَ الْكِبَرِ وَالشَّرْكِ» (٢).

ومما تقدم يتبين أن عبادة غير الله لا يجني منها فاعلها إلا الذل في الدنيا والآخرة، أما مَنْ أخلص العبادة لله تعالى فإنه عزيز، وذلك لأن الله تعالى شرع دين الإسلام، ليخلص الناس من عبادة البشر إلى عبادة رب البشر، ومن الرق لمخلوقين إلى الرق للخالق، وهذه قمة العزة، فمن دعا غير الله فقد تذلل له ولم يعز، ثم هلك في الآخرة بعدما يتبرأ منه مَنْ كان يعبده، وأما من عبد الله فقد عز نفسه عن الناس في

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٨٥ - ١٨٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٩٨).

الدنيا، ونجا في الآخرة مع الناجين، ففي أفراد الله بجميع أنواع العبادة تحصل العزة في الدارين، وصدق الله إذ يقول: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] (١).

وفائدة أخرى تحصل من إخلاص العبادة، وهي الكفاية، أي كفاية الله له، وذلك أن العبد إذا أخلص العبادة لله كفاه الله ووقاه الشرور والآفات، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عِبَادَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، فكلما زادت العبودية زادت الكفاية والوقاية، أما الذي يُنزل حاجته بمخلوق مثله فإنه لا يزال محتاجًا فقيرًا معذبًا لا يحصل له مطلوبه، وقد كانت العرب إذا نزلوا واديًا أو مكانًا موحشًا استعاذوا بعظيم ذلك الوادي من الجن من أن تصيبهم الشرور، فلما رأت الجن ذلك زادوهم خوفًا ورعبًا كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، وهذا من براهين التوحيد ليكون الدين كله لله، ولا يُشرك معه أحد.

الوجه السابع والثلاثون: ومن أدلة بطلان دعاء غير الله اعتزال الأنبياء لمن وقعوا في دعاء غير الله ولو كان الفاعل لذلك أقرب قريب للدلالة على بطلان هذا الفعل ونكارتة، فهذا إبراهيم قال لقومه: ﴿وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨]، ففي هذا تنبيه إلى أنه بادأهم بذكر اعتزالهم أولًا، ثم عطف عليه باعتزال معبوداتهم.

قال عماد الدين بن كثير رحمه الله في معنى قوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِّي فَلْيَرْغَبْ عَنِّي إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]:

(١) وانظر ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية الكريمة في كتابه «أضواء البيان».

«يقول ﷺ رداً على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله، المخالف لملة إبراهيم الخليل، إمام الحنفاء، فإنه جرّد توحيد ربه ﷻ، فلم يدع معه غيره، ولا أشرك به طرفة عين، وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك قومه، حتى تبرأ من أبيه، فقال: ﴿يَقَوْمِ إِنِّي بَرِئٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٦٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٥) شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢]، ولهذا وأمثاله قال تعالى ﴿وَمَنْ يَرْغُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة: ١٣٠]: عن طريقته ومنهجه، فيخالفها ويرغب عنها، ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، أي ظلم نفسه بسفاهه وسوء تدبيره، بتركه الحق إلى الضلال، حيث خالف طريق من اصطفاه في الدنيا للهداية والرشاد، من حادثة سنّه إلى أن اتّخذ الله خليلاً، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء، فمن ترك طريقه هذا ومسلكه ومِلّته، واتبع طريقة الضلالة والغي فأَيُّ سَفِهٍ أعظم من هذا؟ أم أي ظلم أكبر من هذا؟ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. انتهى (١).

وقد قرن الله بين اعتزال المشركين ومعبوداتهم في موضع آخر من القرآن في سورة الكهف فقال عن أصحاب الكهف ﴿وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْدَأْنَا إِلَى

(١) «تفسير القرآن العظيم»، سورة البقرة آية: (١٣٠).

الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَاقًا ﴿١٦﴾ [الكهف: ١٦]، وهذا هو حقيقة التوحيد وعلامة الإيمان الصادق.

وهذا النبي محمد ﷺ لما فتح مكة حطَّم جميع الأصنام التي كانت تُعبد وتُدعى من دون الله، من التي كانت في جوف الكعبة والمحيط بها وغيرها، وتبعه على هذا أئمة الهدى.

الوجه الثامن والثلاثون: أَنَّ مِنْ حَقِّ الْمُنْعِمِ شُكْرَهُ عَلَى نِعَمِهِ، وشكر الله لا يكون إلا بعبادته عبادة خالصة، ليس له فيها شريك، كما في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» ^(١)، فمن عبد غير الله فقد شكر غير الله، وجحد نعمة الله عليه.

وقد ضرب نبيُّ الله يحيى بن زكريا عليه السلام مثلاً للمشرك الذي يصرف العبادة إلى غير الله بالعبد الذي يعمل ويؤدي الغلة إلى غير سيده، فعن الحارث الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ ذكر عن يحيى بن زكريا أنه مثَّل مَنْ عَبدَ غيرَ اللَّهِ بمِثَالٍ فَقَالَ: «إِنَّ مِثْلَ ذَلِكَ كَمِثْلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بَوَرِقٍ» ^(٢) أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدي غَلَّتَهُ إِلَى غير سيده، فَأَيُّكُمْ يَسُرُّهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟ وَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَاعْبُدُوهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» ^(٣).

(١) رواه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

(٢) الورق هي الفضة.

(٣) رواه أحمد وغيره، وقال الشيخ ابن باز رحمته الله في إجابة شفهية: «حديث جيد، رجاله ثقات»، وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني كما في «صحيح الترمذي» (٢٨٦٣).

الوجه التاسع والثلاثون: ومما يدل على بطلان دعاء غير الله وأن فعله كفر؛ أنه لما جحدت بعض أحياء العرب فريضة الزكاة بعد وفاة النبي ﷺ قاتلهم أبو بكر رضي الله عنه قتال ردة، فكيف لو رأى من يقول بجواز صرف لبّ العبادة وخالصها - وهو الدعاء - لغير الله؟

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما تُوفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر رضي الله عنه (١)، وكفر من كفر من العرب، فقال عمر: فكيف تُقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا «لا إله إلا الله»، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله»؟

فقال: والله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها.

قال عمر رضي الله عنه: فوالله ما هو إلا أن شرح الله صدر أبي بكر رضي الله عنه، فعرفت أنه الحق» (٢).

ولهذا قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

«إذا كان منع الزكاة من منع حق «لا إله إلا الله»؛ فكيف بعبادة القبور، والذبح للجن، ودعاء الأولياء وغيرهم مما هو دين المشركين؟!» (٣).

(١) أي: وكان خليفة على المسلمين.

(٢) «صحيح البخاري»، (١٣٩٩، ١٤٠٠).

(٣) انظر «الدرر السنية» (٢/ ٤٧).

الوجه الأربعون: أنَّ دعاء الميت والتوجه إليه أشد من مجرد اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، وقد ثبت - بل استفاض - عن النبي ﷺ أنه لعن الذين يتخذون قبور الأنبياء مساجد، أي يُصَلُّون عندها ويدعون الله تعالى، فإذا كان من اتخاذها مسجدًا يُصَلِّي فيه لله تعالى **ويدعوه فيها ملعونًا**؛ فالذي يقصدها، ليدعو غير الله فيها ويتضرع فيها **لغير الله** ويخضع ويخشع فيها **لغير الله** أحقُّ باللعنة، وهذا من دلائل بطلان دعاء غير الله (١).

الوجه الحادي والأربعون: أنه لا يستقيم أن يكون للعبد أكثر من سيد يملكه، لأن أوامر ونواهي السادة ستختلف عليه، فمن باب أولى ألا يستقيم أن يكون له أكثر من إله يعبد، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩]، أي هل يستوي العبد الذي له سيد واحد بالعبد الذي له أكثر من سيد؟ فكذلك لا يستوي المشرك الذي اتخذ مع الله آلهة أخرى والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا إلهًا واحدًا وهو الله تعالى، فأين هذا من هذا؟

ولما كان هذا المثل ظاهرًا بيِّنًا جليًّا قال بعده: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي الحمد لله على إقامة الحجة على كل من أشرك، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥]، أي بسبب عدم العلم وقعوا في الشرك (٢).

(١) نقلًا من «الرد على الإخنائي» لابن تيمية رحمه الله (ص ٤٦٦)، بتصرف يسير.

(٢) بتصرف من «تفسير ابن كثير» لسورة الزمر الآية: (٢٩).

الوجه الثاني والأربعون: أن الإنسان لا يرضى على نفسه أن يشاركه أحد من عبده فيما يملكه، فكيف يرضى على الله أن يشاركه أحد من عبده فيما يستحقه من خالص حقه، وهو عبادته وحده لا شريك له؟ قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِ رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعَمَلِهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: ٧١]، وقال تعالى: ﴿هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [الروم: ٢٨].

قال ابن القيم رحمه الله:

«فَمِنْ أَقْبَحِ الظُّلْمِ أَنْ يُعْطِيَ الْعَبْدَ حَقَّ الرَّبِّ لغيره، أو يُشْرِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِيهِ، وَلَا سِيَّماً إِذَا كَانَ الَّذِي جَعَلَ شَرِيكَهُ فِي حَقِّهِ هُوَ عَبْدُهُ وَمَمْلُوكُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]، أي إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكه في رزقه، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفرد به، وهو الإلهية التي لا تنبغي لغيري، ولا تصلح لسواي؟

فَمَنْ زَعَمَ ذَلِكَ فَمَا قَدَّرَنِي حَقَّ قَدْرِي، وَلَا عَظَّمَنِي حَقَّ تَعْظِيمِي، وَلَا أَفْرَدَنِي بِمَا أَنَا مُنْفَرِدٌ بِهِ وَحْدِي دُونَ خَلْقِي.

فَمَا قَدَّرَ اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ مِّنْ عَبْدٍ مَّعَهُ غَيْرُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ

مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ [الحج: ٧٣-٧٤] (١).

ثم قال:

«فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله، وأنه لا يغفر بغير التوبة منه، وأنه يوجب الخلود في العذاب، وأنه ليس بتحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه، بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده عبادة إله غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله، وكيف يُظن بالمنفرد بالربوبية والإلهية والعظمة والجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك، أو يرضى به، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً» (٢).

الوجه الثالث والأربعون: أن القلوب لا تصلح إلا بإفراد الله بجميع العبادات، لا سيما الدعاء، وإذا تعلق بغير الله وأحبه فوق الحد الشرعي ضرره ذلك، قال ابن رجب الحنبلي رحمته الله في «جامع العلوم والحكم» (٣):

«لا صلاح للقلوب حتى تستقر فيها معرفة الله وعظمته ومحبته وخشيته ومهابته ورجاؤه والتوكل عليه، وتمتلاً من ذلك، وهذا هو حقيقة التوحيد، وهو معنى

(١) «الداء والدواء» (ص ٢١٢ - ٢١٣)، بتصرف يسير، وانظر ما قاله الشنقيطي رحمته الله في «أضواء البيان» في تفسير الآية المتقدمة.

(٢) «الداء والدواء» (ص ٢١٧ - ٢١٩)، وبنحوه قال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمته الله في «السيف المسلول على عابد الرسول» (ص ٣٣ - ٣٤).

(٣) شرح الحديث السادس.

قول: (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، فلا صلاح للقلوب حتى يكون إلهها الذي تأله وتعرفه وتحبه وتخشاه هو الله وحده لا شريك له، ولو كان في السماوات والأرض إله يؤله سوى الله لفسدت بذلك السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فعلم بذلك أنه لا صلاح للعالم العلوي والسفلي معاً حتى تكون حركات أهلها كلها لله، وحركات الجسد تابعة لحركات القلب وإرادته، فإن كانت حركته وإرادته لله وحده؛ فقد صلح وصلحت حركات الجسد كلها، وإن كانت حركة القلب وإرادته لغير الله تعالى؛ فسد وفسدت حركات الجسد بحسب فساد حركة القلب.

وقال ابن القيم رحمه الله: «تعلق العبد بما سوى الله تعالى مضرّة عليه إذا أخذ منه فوق القدر الزائد على حاجته، غير مستعين به على طاعة الله، فإذا نال من الطعام والشراب والنكاح واللباس فوق حاجته ضرّه ذلك، ولو أحب ما سوى الله ما أحب فلا بد أن يسلبه ويفارقه، فإن أحبه لغير الله فلا بد أن تضربه محبته ويُعَذَّب بمحبوبه، إما في الدنيا وإما في الآخرة، والغالب أنه يعذب به في الدارين، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ٢٤ يَوْمَ يُخْمَلُ عَلَيْهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتُكُورٌ بِهَا جَبَاهُهمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]» (١).

(١) «إغاثة اللهفان» (ص ٥٤).

الوجه الرابع والأربعون: ومن وجوه بطلان دعاء المخلوقين هو أن فاعلي ذلك ليسوا واثقين ولا مطمئنين لما يفعلونه ولا ثابتين عليه، فتراهم يتنقلون بين معبوداتهم، فتارة يدعون ميتًا، وتارة يدعون ميتًا آخر، وآخرون يدعون غير الله في الرخاء وإذا أتت الشدة أخلصوا الدعاء لله وحده ونسوا ساداتهم ومن كانوا يعبدونهم، كحال المشركين الأولين الذين قال الله فيهم: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

ومع شعور هؤلاء بهذه المخادعة النفسية إلا أنهم ماضون في دعاء غير الله، بسبب التقليد وشدة الحاجة وضعف التعلق بالله العظيم، ثم إن المضطر إذا كان ضعيف الإيمان أو عديمه؛ فإنه لا يفكر إلا في قضاء حاجته بأي وسيلة، شرعية كانت أو شرعية!

وهذا التنقل بين المعبودات والاضطراب بينها من براهين بطلان عبادتها، بينما الذي يفرد الله بالعبادة والدعاء دائما لا يقع في شيء من ذلك، بل هو مطمئن لما يفعل، إن أجاب الله دعاءه فالحمد لله أن حصل له ما أراده، وإن لم يحصل عوضه الله في الآخرة، أو دفع عنه من السوء في الدنيا، كما قال النبي ﷺ: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إمّا أن تُعجل له دعوته، وإمّا أن يدخرها له في الآخرة، وإمّا أن يصرف عنه من السوء مثلها».

قالوا: إذا نُكِّثِر. **قال:** «اللهُ أَكْثَرُ»^(١).

فالحمد لله على نعمة الهداية إلى التوحيد.

(١) رواه أحمد (١٨/٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٠)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال محققو «المسند»: «إسناده جيد».

قال الشيخ محمد الأمين المختار الشنقيطي رحمته الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا﴾ [الإسراء: ٦٧] الآيات:

«بَيَّنَّ ﷺ في هذه الآيات الكريمة أن الكفار إذا مسهم الضر في البحر، أي اشتدت عليهم الرياح فغَشِيَتْهم أمواج البحر كأنها الجبال، وظنوا أنهم لا خلاص لهم من ذلك؛ ضَلَّ عنهم؛ أي: غاب عن أذهانهم وخواطِرهم في ذلك الوقت كل ما كانوا يعبدون من دون الله ﷻ، فلا يدعون في ذلك الوقت إلا الله ﷻ وحده، لعِلْمهم أنه لا يُنقذ من ذلك الكرب وغيره من الكروب إلا هو وحده ﷻ، فأخلصوا العبادة والدعاء له وحده في ذلك الحين الذي أحاط بهم فيه هَوول البحر، فإذا نَجَّاهم الله وفرَّج عنهم ووصلوا إلى البر رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

وهذا المعنى المذكور في هذه الآية الكريمة أوضحه الله ﷻ في آيات كثيرة...

ثم إنَّ الله ﷻ بيَّن في هذا الموضع الذي نحن بصددِه سخافة عقول الكفار وأنهم إذا وصلوا إلى البر ونجَّوا من هَوول البحر رجعوا إلى كفرهم آمنين عذاب الله مع أنه قادر على إهلاكهم بعد وصولهم إلى البر بأن يخسف بهم جانب البر الذي يلي البحر فتبتلعهم الأرض أو يُرسل عليهم حجارة من السماء فتهلكهم، أو يُعيدهم مرة أخرى في البحر فتغرقهم أمواجه المتلاطمة، كما قال هنا منكراً عليهم أمنهم وكفرهم بعد وصول البر ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبُ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الإسراء: ٦٨]، وهو المطر أو الرياح اللذين فيهما الحجارة، ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٩]، أي بسبب كفركم». انتهى.

الوجه الخامس والأربعون: أن محبة العابد لمعبوده الذي يعبد من دون الله ليست إلا محبة مؤقتة، سرعان ما تنقطع إذا انتقل إلى معبودات أخرى، أو تعرضت تلك الآلهة إلى الفناء والاندثار، أما العابد لله وحده فيحب الله دائماً، بل إن محبته وتعلقه بالله تقوى عند الكروب وبعدها، وهذا من براهين التوحيد، لتكون العبادة خالصة لله دوماً.

الوجه السادس والأربعون: أن الأمور العظيمة كإنزال الغيث وكشف العذاب لا تحصل إلا بدعاء الله وحده، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: ٤٠، ٤١]، أما دعاء غير الله من أصحاب القبور وغيرهم فإنه لا تحصل به إلا الأمور الحقيرة التي تقوم بها الجن والشياطين، التي تستمع لدعاء ذلك الداعي عند القبر فتجيبه وتخطبه لتغويه، ليظن ذلك الداعي أن صاحب القبر نفسه هو الذي أجاب دعاءه، أو أنه توسط له عند الله ليجيب دعاءه.

بل ربما خرق الله العادات بسبب دعاء قام به مضطر لله وحده، كما حصل لذكريا عليه السلام لما دعا الله أن يرزقه الولد، وكان زكريا كبيراً وامرأته عاقراً لا تلد، فاستجاب الله دعاءه.

وروى البيهقي في «دلائل النبوة»^(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه جهَّز جيشاً، واستعمل عليه العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه، فلما كانوا يبعض

(١) باب (قدوم ضمام بن ثعلبة) (٥٢/٦).

الطريق أصابهم حرٌّ شديد، فجَهِدُوا وَجَهِدَتْ دوابهم، فدعا الله بالسُّقيا، فثارت سحابة وسُقُوا حتى امتلأت الغُدُر^(١) والشَّعاب، فلما أتوا عدوهم -وقد جاوزوا خليجًا في البحر إلى جزيرة- وقف على الخليج وقال: (يا عليُّ، يا عظيم، يا حليم، يا كريم)، ثم قال: (أجيزوا باسم الله)، قال أنس: فأجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا، فأصبنا العدو غيلة^(٢)، فقتلنا وأسرنا وسببنا، ثم أتينا الخليج فقال مثل مقالته، فأجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا».

فالحاصل أن من البراهين الدالة على استحقاق الله وحده للدعاء كون الأمور العظيمة والخوارق والكرامات لا تحصل إلا بدعاء الله وحده لا شريك له.

الوجه السابع والأربعون: أن الذين يدعون أصحاب القبور إنما يُستجاب لهم في النادر، والغالب تخلف الإجابة، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الذي أجاب دعاءهم هو الله وحده، وإنما استجاب لهم نادرًا مكرًا بهم، واستدراجًا لهم، ليتmadوا في الضلال جزاء لهم على إعراضهم عن دعائه أول مرة، والله خير الماكرين، قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٧٨٢] وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿[الأعراف: ١٨٢-١٨٣].

وأما الموحدون الذين يدعون الله وحده فإنه يستجاب للواحد بعد الواحد، ولا تكاد تسقط دعوة واحد منهم إلا لمانع، وهذا من براهين التوحيد أيضًا، لتكون عبادة الدعاء خالصة لله.

(١) الغُدُر: جمع غدِير.

(٢) أي: خفية. انظر «النهاية».

الوجه الثامن والأربعون: ومن أدلة بطلان دعاء غير الله؛ إنكار واستغراب بعض الكفار لما يفعله عبّاد القبور عندها من دعائها والتقرب لها، قال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله:

«وقد كان كثير من اليهود والنصارى يعيرون على من يدّعي الإسلام ما يفعل عند تلك المشاهد، ويقولون: إن كان نبيكم أمركم بهذا فليس بنبي، وإن كان نهاكم عنه فقد عصيتموه، والعامة والخاصة - بل اليهود والنصارى والمشركون - يعلمون أن محمدًا ﷺ إنما بُعث بالأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وتكفيره (١)» (٢).

وقال الكاتب الأمريكي «لوثر روب ستودارد» وهو من المؤرخين المستشرقين الذين وصفوا انتشار قصد القبور والسفر إليها في القرن الثامن عشر الميلادي في العالم الإسلامي، قال وهو يصف العالم الإسلامي من الناحية السياسية والاجتماعية:

«وأما الدين فقد غَشِيَتْه غاشية سوداء، فألبست الوجدانية التي علّمها صاحب الرسالة سِجْفًا (٣) من الخرافات وقشور الصوفية، وخَلَّت المساجد من أرباب الصلوات، وكَثُر عدد الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين، يخرجون من مكان إلى مكان، يحملون في أعناقهم التماثيل والتعاويذ والسبحات، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات، ويُرَغَّبونهم في الحج إلى قبور الأولياء، ويُزَيَّنون للناس التماس

(١) أي: تكفير العابد لما سوى الله.

(٢) «السيف المسلول على عابد الرسول» (ص ١١).

(٣) سِجْفًا أي سترًا وغاشية. انظر «المعجم الوسيط».

الشفاعة من دفناء القبور، وغابت عن الناس فضائل القرآن، فصار يُشرب الخمر والأفيون في كل مكان، وانتشرت الرذائل، وهُتكت سِتر الحرمات على غير خشية ولا استحياء، وعلى الجملة فقد بُدِّل المسلمون غير المسلمين، وهبطوا مهبطاً بعيد القرار، فلو عاد صاحب الرسالة إلى الأرض في ذلك العصر ورأى ما كان يدهي الإسلام؛ لغضب وأطلق اللعنة على من استحَقها من المسلمين، كما يلعن المرتدون وعبد الأوثان»^(١).

وقال الشيخ عبد الله أبابطين رَحِمَهُ اللهُ: «فقد سمعنا من غير واحد من اليهود أنهم يعيرون على المسلمين ما يُفعل عند هذه المشاهد»^(٢)، يقولون: إن كان نبيكم أمركم بهذا فليس بنبي، وإن كان نهاكم عنه فقد عصيتموه.

فيا سبحان الله، ما أعجب هذا!

اليهود ينكرون هذه الأمور الشريكية ويقولون: (لا يأتي بها نبي)، وكثير من علماء هذا الزمان يُجَوِّزون ذلك، ويوردون الشبه الباطلة عليه، وينكرون على من أنكره». اهـ^(٣).

الوجه التاسع والأربعون: ومن وجوه بطلان دعاء غير الله ما خلفه تعظيم القبور والأضرحة من أثر سَيِّ على الأمة الإسلامية في أمور مهمة تتعلق بعمارة الأرض، والتي

(١) «حاضر العالم الإسلامي» (١/ ٢٥٩ - ٢٦٠)، باختصار يسير.

(٢) أي: ما يُفعل عندها من ألوان التوجه لغير الله، من الخضوع لها، ودعائها، والنذر لها، وتقبيل أركانها.

(٣) «الانتصار لحزب الله الموحدين، والرد على المجادل عن المشركين» (ص ٤٠)، الناشر: دار

أمر الله بها في قوله: ﴿هُوَ أَنشَأَ كَرَمَ مِنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَ كَرَمَ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشَوْا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وبيان هذا الوجه أن رغبة الناس في تعلم العلوم الطبية قد قلّت في بعض المجتمعات التي ينتشر فيها التعلق بغير الله، لأنهم صاروا يرون الطب الحقيقي هو الاستشفاء على يد الموتى بالتقرب لهم بما هو من خصائص الله تعالى، بدعائهم والذبح لهم والنذر ونحو ذلك، وفي هذا يقول الباحث علي الزهراني حفظه الله:

«وهكذا انصرف الناس إلى خدمة الأموات بإعمار أضرحتهم وبناء القباب عليها، وصرفوا جهودهم وأموالهم، وكان ذلك على حساب الاهتمام بخدمة الأحياء بالتربية والتعليم، وتوفير وسائل العيش الكريم لهم، وتقوية الأمة التي كان أعداؤها في الخارج يترصدون بها الدوائر»^(١).

بل قد هيأ هذا الانحراف العقدي الخطير الناس في القرن الهجري الماضي لهيمنة الغزو العسكري الصليبي، لأن أهل البلد اعتمدوا على الموتى لحفظ بلادهم، فوكلهم الله إليهم، ومن ذلك -مثلاً- أن الإنجليز لما أدركوا دور الفكر الصوفي القبوري في تخدير مشاعر الناس، وصرف الأنظار عن مزاحمتهم أو حتى الإنكار عليهم باسم التوكل والإيمان بالقدر والزهد وترك مباهاج الحياة والانصراف عن الدنيا؛ اجتهدوا في دعم الفكر القبوري ليطرحوا المسلمين أرضاً، ويستبشروا بموقف خنوعي خضوعي للمحتل الأجنبي بخلفيات قدرية اتكالية استسلامية، ولهذا حرصت سلطات الاحتلال في مصر وغيرها على إطلاق يد الطرق الصوفية في

(١) «الانحرافات العقدية» (ص ٣٠٩-٣١٠) باختصار.

ممارسة أنشطتها، وقد ساعد على ذلك سيطرة سلطات الاحتلال على وزارة الداخلية، مما مكنها بالتالي من السيطرة على تلك الطرق ومعرفة تحركاتها وأساليبها وتوجيهها إلى الوجهة التي تضمن للمحتل خدمات أكثر، فما كان من سلطات الاحتلال إلا أن احتضنت الطرق الصوفية في البلاد التي بسطت سلطانها عليها^(١)، فسُهلّت السيطرة عليها.

ومن أمثلة ذلك أيضاً عند الفرنسيين ما ذكره مصطفى كامل بطل الوطنية المصرية في كتابه «المسألة الشرقية»، فقد ذكر قصة غريبة، قال:

«ومن الأمور المشهورة عن احتلال فرنسا للقيروان في تونس: أن رجلاً فرنسيّاً دخل في الإسلام وسَمَّى نفسه سيد أحمد الهادي، واجتهد في تحصيل الشريعة حتى وصل إلى درجة عالية، وعُيِّن إماماً لمسجد كبير في القيروان، فلما اقترب الجنود الفرنسيّون من المدينة استعد أهلها للدفاع عنها، وجاءوا يسألونه أن يستشير لهم ضريح شيخ في المسجد يعتقدون فيه، فدخل (سيد أحمد) الضريح، ثم خرج مُهَوَّلاً بما سينالهم من المصائب، وقال لهم: إن الشيخ ينصحكم بالتسليم، لأن وقوع البلاد صار محتتماً، فاتبع القوم البسطاء قوله، ولم يدافعوا عن مدينة القيروان أقل دفاع، بل دخلها الفرنسيّون آمنين في ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٨١ م»^(٢).

(١) من مقال: «سيف السياسة بين نصره الحق ومظاهرة الباطل»، لعبد العزيز مصطفى، نقلاً من كتاب «دمعة على التوحيد» (ص ٢٠٥).

(٢) «التصوف بين الحق والخلق»، محمد فخر شقفة، (ص ٢١١)، نقلاً من مقال: «أفيون الشعوب الإسلامية، النتائج والآثار» كما في (ص ٧٧ - ٧٨) من «دمعة على التوحيد»، وقد تقدم ذكر هذه القصة وما بعدها، وإنما أعدتها لمناسبتها في هذا الملحق.

وقال الشيخ عبد العزيز بن فيصل الراجحي حفظه الله:

وقد سعى النَّصارى الصَّلبيون في القرن الماضي في نشر هذه الخرافات، وصرَفوا الناس عن دينهم إلى الوثنية، وعما يجب عليهم تجاه أولئك المستعمرين، بتزيين ما يفعلونه عند القبور.

حتى إنَّ بعض الجزائريين أخبرني أن الفرنسيين لما استولوا على الجزائر كانوا يعمدون إلى بعض المشاهد والأضرحة التي يُنسب أصحابها إلى الصلاح، فيجمعون الناس لها ثم يوجهون المدفع إليها، مُظهرين لهم أنهم يريدون إصابته وتدميره، وقد ملؤه بارودًا دون ذخيرة -مكرًا-، ثم يطلقون عليه، فيدوي صوت المدفع، حتى يخال الحاضرون أنه قد أصابه، ثم ينظرون فإذا هو باق مكانه، فيزيد تعلقهم به واعتقادهم فيه!

وذكر الشيخ أحمد بن حسن الباقوري المصري الأزهري (ت ١٤٠٥هـ) في فتوى له في النَّهي عن زخرفة القبور وبناء القباب والمساجد عليها أنَّ أحد كبار الشرقيين حَدَّثه عن بعض أساليب الاستعمار في آسيا، فكان مما ذكره له أن المستعمرين كانوا يضطرون إلى تحويل القوافل الآتية من الهند إلى بغداد عبر تلك المنطقة الواسعة إلى اتجاه جديد لهم فيه حاجة وغاية، فكانوا يسعون جاهدين في صرف القوافل عن اتجاهها الأول إلى الاتجاه الجديد، فلا يستطيعون ذلك، حتى اهتدوا إلى حيلة جعلت تلك القوافل تُغيَّر اتجاهها إلى وجهتهم المرادة، فأقاموا عدة أضرحة وقباب على مسافات متقاربة في ذلك الطريق المراد سلوكه، ثم أشاعوا الشائعات أن في تلك الأضرحة أولياء صالحين، وأنه قد شوهد من كراماتهم كذا

وكذا، فانتشرت الإشاعات في الآفاق، وزادت الأخبار في كلِّ مصرٍ وعراقٍ، فصارت تلك الطرق عامرة مأهولة!

وقد ذكر هذه القصة الشيخ الألباني رحمته الله، وعزاها إلى الباقرِيِّ كما في «تحذير الساجد» (ص ١٤٨ - ١٤٩) (١).

وقد قام أولئك الدَّراوِش بردَّ الجميل لأولئك المحتلين الغزاة، فكانوا يُضفون الشرعية على وجودهم، لِيُسَوِّغُوا للناس بقاءهم، ووصل الأمر إلى أن بعض مشايخ الصوفية في مصر قاموا بجمع توقيعات أثناء ثورة ١٩١٩م تُطالب ببقاء الإنجليز في مصر! وكان من هؤلاء شيخ الطريقة (السمانية): محمد إبراهيم الجمل (٢).

فالحاصل أن تعظيم القبور والأضرحة قد كان سبباً رئيساً لتسلط الأعداء على المسلمين، وتعطيل عمارة الأرض بالإسلام بما يزيد عن قرن، والله المستعان.

الوجه الخمسون: أن عمدة مَنْ يَدْعُونَ غير الله إمَّا شُبُهَات حديثية، كأحاديث ضعيفة أو موضوعة مكذوبة، أو شُبُهَات عقلية، أو تجارب وضعيّة، أو قصص أو حكايات أو منامات، وهذه كلها لا يُعتمد عليها لا في فروع الدين ولا في أصوله، **قال ابن تيمية رحمته الله:**

(١) انتهى من «مجانبة أهل الثبور، المصلين في المشاهد وعند القبور» (ص ٣٣٧ - ٣٣٩)، وقد

تقدم ذكر هذه القصة وما بعدها، وإنما أعدتها لمناسبتها في هذا الملحق.

(٢) انتهى من مقال: «سيف السياسة بين نصره الحق ومظاهرة الباطل»، لعبد العزيز مصطفى، نقلًا

من «دمعة على التوحيد» (ص ٢٠٤ - ٢٠٥).

«وَأَمَّا أَوْلَئِكَ الضُّلَالُ، أَشْبَاهُ الْمُشْرِكِينَ النَّصَارَى، فَعُمِدَتِهِمْ إِمَّا أَحَادِيثُ ضَعِيفَةٌ أَوْ مَوْضُوعَةٌ، أَوْ مَنَقُولَاتٌ عَمَّنْ لَا يُحْتَجُّ بِقَوْلِهِ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ كَذِبًا عَلَيْهِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ غَلَطًا مِنْهُ، إِذْ هِيَ نَقْلٌ غَيْرُ مُصَدَّقٍ عَنْ قَائِلٍ غَيْرِ مُعَصُومٍ، وَإِنْ اعْتَصَمُوا بِشَيْءٍ مِمَّا ثَبَتَ عَنِ الرَّسُولِ حَرَّفُوا الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَتَمَسَّكُوا بِمُتَشَابِهِهِ، وَتَرَكُوا مُحْكَمَهُ، كَمَا يَفْعَلُ النَّصَارَى» (١).

قال مُقَيَّدُهُ عفا الله عنه: ومن الأحاديث المكذوبة على النبي ﷺ؛ حديث: «إِذَا تَحَيَّرْتُمْ فِي الْأُمُورِ فَاسْتَعِينُوا بِأَهْلِ الْقُبُورِ»، وقد أورده ابنُ كمال الباشا في كتابه «الأربعين»، الحديث الثالث.

ويروى بلفظ: «إِذَا أُعِيَتْكُمْ الْأُمُورُ فَعَلَيْكُمْ بِأَهْلِ الْقُبُورِ».

ويروى - أيضًا - بلفظ: «فَاسْتَعِينُوا بِأَهْلِ الْقُبُورِ».

قال ابنُ تيمية كما في «التوسل والوسيلة» (٢): «هَذَا الْحَدِيثُ كَذِبٌ مُفْتَرٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِإِجْمَاعِ الْعَارِفِينَ بِحَدِيثِهِ، لَمْ يَرَوْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِذَلِكَ، وَلَا يَوْجَدُ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ الْمَعْتَمَدَةِ». اهـ.

قلت: وكذا حديث: «لَوْ أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ ظَنَّهُ بِحَجَرٍ لَنَفَعَهُ اللَّهُ بِهِ»، فإنه باطل لا أصل له، وقد حكم بوضعه ابن تيمية كما في «مجموع الفتاوى» (٣)، وقال في موطن آخر: والحديث الذي يرويه بعض الكذابين: «لَوْ أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ ظَنَّهُ بِحَجَرٍ لَنَفَعَهُ اللَّهُ بِهِ» كَذِبٌ مُفْتَرٍ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَإِنَّمَا هَذَا مِنْ قَوْلِ عِبَادِ الْأَصْنَامِ الَّذِينَ يُحْسِنُونَ

(١) «الاستغاثة في الرد على البكري» (٢ / ٥٨٧).

(٢) (ص ٢٩٧).

(٣) (٢٤ / ٣٣٥).

ظَنَّهُمْ بِالْحِجَارَةِ وَقَالَ تَعَالَى لَهُمْ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقال الخليل: ﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُوا مَا لَا يَنْفَعُكُمْ وَلَا يَضُرُّكُمْ وَلَا يُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]، وقال تعالى عن عباد العجل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨]، وذكر تعالى عن الخليل أنه قال لقومه: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]...

فهؤلاء المشركون كانوا قد أحسنوا ظَنَّهُم بالحجارة فكان عاقبتهم أنهم في النار خالدون، وإنما يُحسِن العبد ظَنَّهُ بربه... وفي «صحيح مسلم» عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحَسِّنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ» (١). انتهى كلامه (٢).

وقال ابن القيم رحمه الله في معرض ذكره لأسباب الافتتان بالقبور: «ومنها (٣) أحاديث مكذوبة مُختلفة، وضعها أشباه عُبَّاد الأصنام من المُقَابِرِيَّةِ (٤) على رسول الله ﷺ، تُناقض دينه وما جاء به، كحديث: «إِذَا أُعِيتِكُمُ الْأُمُورُ فَعَلَيْكُمْ بِأَصْحَابِ الْقُبُورِ»، وحديث: «لَوْ أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ ظَنَّهُ بِحَجَرٍ نَفَعَهُ»، وأمثال هذه الأحاديث التي هي مناقضة لدين الإسلام، وضعها المشركون، وراجت على أشباههم من الجهال الضلال، والله بعث رسوله بقتل مَنْ حَسَّنَ ظَنَّهُ بِالْأَحْجَارِ، وَجَنَّبَ أُمَّتَهُ الْفِتْنَةَ بِالْقُبُورِ بِكُلِّ طَرِيقٍ» (٥).

(١) رواه مسلم (٢٨٧٧).

(٢) «جامع المسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية»، المجموعة الخامسة، (ص ١٠٤ - ١٠٦)، باختصار، تحقيق: محمد عزيز شمس، الناشر: دار عالم الفوائد - مكة.

(٣) أي: من أسباب الفتنة بالقبور.

(٤) أي: عُبَّاد القبور.

(٥) «إغاثة اللهفان» (٣٨٧ - ٣٨٨).

وقال أيضًا في معرض ذكره لجملته من الأحاديث الموضوعية:

وحديث: «لو أحسن أحدكم ظنَّه بحجر لنفعه»، وهو من وضع المشركين، عبَّاد الأوثان^(١).

وقال ابنُ حجر العسقلاني: «لا أصل له»^(٢).

وقال الشيخ الألباني: «موضوع»^(٣).

وأورده الشيخ مرعي الكرمي في كتابه «الفوائد الموضوعية في الأحاديث الموضوعية»^(٤)، والفُتْنِي في كتابه «تذكرة الموضوعات»^(٥)، وكذا الأزهري في كتابه «تحذير المسلمين من الأحاديث الموضوعية على سيد المرسلين»^(٦)، وكذا السَّخَاوِي كما في «المقاصد الحسنة»^(٧)، والمُلا علي القاري في «موضوعاته»^(٨)، و«كشف الغطا»^(٩) للعجلوني.

(١) «نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول» (ص ١٣٢).

(٢) ذكره المُلا علي القاري في «الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعية»، وهو المعروف بـ«الموضوعات الكبرى» برقم (٣٧٦)، تحقيق: محمد بن لطفي الصباغ، الناشر: المكتب الإسلامي.

(٣) «السلسلة الضعيفة» (٤٥٠).

(٤) رقم (١٨٨)، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، الناشر: دار الكتب العلمية.

(٥) (ص ٢٨)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - لبنان.

(٦) (ص ١٢٨)، تحقيق: محيي الدين مستو، الناشر: دار ابن كثير - دمشق.

(٧) رقم (٨٨٣)، تحقيق: محمد عثمان الخشت، الناشر: دار الكتاب العربي - لبنان.

(٨) رقم (٣٧٦).

(٩) رقم (٢٠٨٧)، تحقيق: أحمد القلاش، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.

فالحاصل أن هذا الحديث لم يرد في أيّ من كتب الحديث المعتبرة، بل ليس له إسناد أصلاً، وإنما يتوارد على ألسنة المعتقدين في أهل القبور جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، وإنما هو حديث موضوع مكذوب على النبي ﷺ.

ثم إنه وما جاء في معناه من الأحاديث يُخالف أصل الدين، فإنه من المعلوم من الدين بالضرورة أن أصل الدين عبادة الله وحده ونبذ عبادة ما سواه.

وللعلم فإنّه يُروى غير ما ذكرنا من الأحاديث المكذوبة في باب التأله لغير الله، وليس المقام مقام استقصائها، فالواجب الحذر على كل حال، فكل ما خالف أصلاً من أصول الدين فهو مكذوب على النبي ﷺ، فإن دين الله ليس به تناقض.

الوجه الحادي والخمسون والأخير: ومن وجوه بطلان دعاء غير الله أن فاعل ذلك قد حرم نفسه من فرح الله بإقباله إليه، وانطراحه بين يديه، بدعائه مباشرة، واستعاض عن هذا بالانطراح بين يدي مخلوق مثله، ليس له من الأمر شيء، ولا يُقربه من ربه شيء، ومن المعلوم أن الله أشد فرحاً من عبده بإقباله إليه ولو بلغت ذنوب عبده عنان السماء، قال الله ﷻ في الحديث القدسي الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: «يقول الله ﷻ: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليّ بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»^(١).



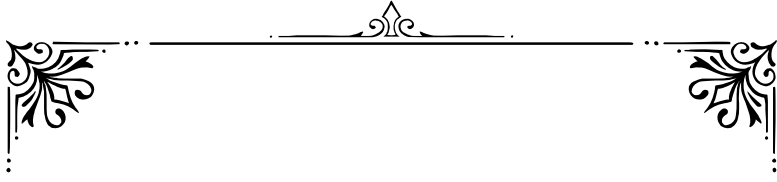
(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).



خاتمة الملحق

وبناء على ما تقدم من الأدلة النقلية والعقلية تبين لنا أن دعاء غير الله باطل،
وشركٌ أكبرُ مُخرجٌ من مِلَّةِ الإسلام، يَستوي فاعله مع اليهود والنصارى وعُباد
الأصنام ولو صَلَّى وصام وزعم أنَّه مُسلم.





خاتمة الكتاب

تَمَّ الكتاب بحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات، نفع الله به كاتبه وقارؤه
وناشره، وصلى الله على نبيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً،،

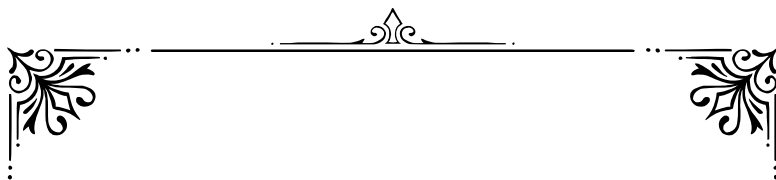
وكتبه

ماجد بن سليمان الرسي

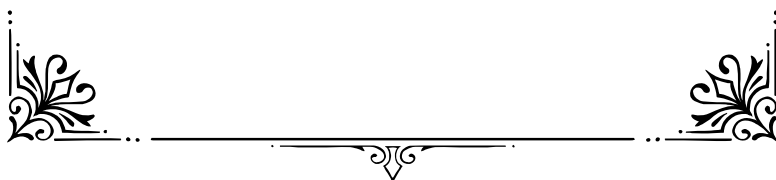
صبح الإثنين

١٦ جمادى الأولى لعام ١٤٣٥ هجري





ثبت مراجع الكتاب



ثَبَّتْ لَهُمُ الْمَرَاجِعُ مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ فِي هَوَاشِ الْكِتَابِ

❧ عقيدة - كتب العقيدة المُسندة

❧ الشريعة، محمد بن الحسين الآجري، تحقيق: الوليد بن سيف النصر، توزيع: المكتبة المكية - مكة.

❧ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، هبة الله اللالكائي، تحقيق: د. أحمد الغامدي، ط دار طيبة - الرياض.

❧ كتاب السنة، عمرو بن أبي عاصم، تحقيق: محمد بن ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت.

❧ كتاب الاعتقاد، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: أحمد أبي العينين، ط دار الفضيلة - الرياض.

❧ العلو، شمس الدين الذهبي، تحقيق: أشرف عبد المقصود، ط مكتبة أضواء السلف - الرياض.

❧ كتب في العقيدة - عام

❧ شرح العقيدة الواسطية، محمد بن صالح بن عثيمين، ط دار ابن الجوزي - الدمام.

❧ تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبد الله بن

محمد بن عبد الوهاب، تحقيق: أسامة بن عطايا العتيبي، ط دار الصميعي - الرياض.

✽ القول المفيد على كتاب التوحيد، محمد بن صالح بن عثيمين، ط. دار ابن الجوزي - الدمام.

✽ مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع: عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد، ط. دار القاسم - الرياض.

✽ اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ابن تيمية، تحقيق: د. ناصر بن عبد الكريم العقل، ط. ٥، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض.

✽ الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن، ابن تيمية، تحقيق: د. عبد الرحمن بن عبد الكريم اليحيى، الناشر: دار الفضيلة - الرياض.

✽ النبوات، ابن تيمية، تحقيق: د. عبد العزيز الطويان، دار أضواء السلف - الرياض.

✽ بيان تليس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، ابن تيمية، تصحيح وتكميل وتعليق: محمد بن عبد الرحمن القاسم، دار القاسم - الرياض.

✽ المنتقى من منهاج الاعتدال، شمس الدين الذهبي، انتقاء: محب الدين الخطيب، ط. المكتبة السلفية - مصر.

✽ الرد على الإخنائي، ابن تيمية، تحقيق: أحمد بن مونس العنزي، دار الخراز - جدة.

✽ الاستغاثة في الرد على البكري، ابن تيمية، تحقيق: عبد الله السهلي، ط. ١،

ط. مدار الوطن - الرياض.

✽ تلخيص كتاب الاستغاثة لابن تيمية، ابن كثير، تحقيق: محمد بن علي

عجال، ط. ١، مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة.

✽ الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ، ابن تيمية، تحقيق: محمد الحلواني

ومحمد شودري، ط. رمادى - الدمام.

✽ قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، ابن تيمية، تحقيق: د. ربيع بن هادي

المدخلي، الناشر: مكتبة لينة - مصر.

✽ التوسل، أنواعه وأحكامه، محمد ناصر الدين الألباني، ط. ٥، الناشر:

المكتب الإسلامي - بيروت.

✽ التوصل إلى حقيقة التوسل المشروع والممنوع، محمد نسيب الرفاعي، ط.

المكتبة المكية - مكة.

✽ فصل المقال وإرشاد الضال في توسل الجهال، أبو بكر بن محمد عارف

خوقير، ط. دار المسلم - الرياض.

✽ توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم

الموسومة بـ (الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية)، أحمد بن

إبراهيم بن عيسى، ط. المكتب الإسلامي - بيروت.

✽ إغاثة اللفهان في مصايد الشيطان، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عزيز

شمس، الناشر: دار عالم الفوائد - مكة.

✽ مدارج السالكين، ابن القيم، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر الجليل، ط. دار طيبة - الرياض.

✽ الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ط. دار القاسم - الرياض.

✽ مسائل الجاهلية، تحقيق وشرح: يوسف بن محمد السعيد، ط. دار المؤيد - الرياض.

✽ حقوق النبي ﷺ على أمته، د. محمد بن خليفة التميمي، ط. أضواء السلف - الرياض.

✽ آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي.

✽ كتب في التبرك الشرعي والبدعي

✽ التبرك المشروع والتبرك الممنوع، علي بن نفيع العلياني، ط. مدار الوطن - الرياض.

✽ التبرك، أنواعه وأحكامه، د. ناصر بن عبد الرحمن الجديع، ط. مكتبة الرشد - الرياض.

📌 كتب في الزيارة الشرعية والبدعية

✽ أوضح الإشارة في الرد على من أجاز الممنوع من الزيارة، أحمد بن يحيى النجمي، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية- المدينة.

✽ تنبيه زائر المدينة على الممنوع والمشروع في الزيارة، صالح بن غانم السدلان، ط. دار بلنسية- الرياض.

✽ زيارة القبور عند المسلمين، سالم بن قطوان العبدان، ط. دار غراس- الكويت.

✽ شفاء الصدور في زيارة المشاهد والقبور، مرعي الحنبلي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز- مكة.

📌 كتب في رد الشبهات

✽ تأييد الملك المنان في نقض ضلالات دحلان، محمد بن ناصر الشثري، ط. دار الحبيب- الرياض.

✽ الصواعق المرسلة الشهابية على الشبهة الداحضة الشامية، سليمان بن سحمان، تحقيق: عبد السلام بن برجس، ط. دار العاصمة- الرياض.

✽ تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود بن جرجيس، عبد الله أبابطين، تحقيق: عبد السلام بن برجس، ط. مؤسسة الرسالة- بيروت.

✽ شفاء الصدور في الرد على الجواب المشكور، محمد بن إبراهيم آل الشيخ، عناية: عبد السلام بن برجس، ط. مدار الوطن- الرياض.

🔸 كتب في حكم اتخاذ القبور مساجد

✽ تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد، محمد بن ناصر الدين الألباني، ط ٤، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت.

✽ شرح الصدور في تحريم رفع القبور، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: وتخريج: محمد صبحي حسن حلاق، ط. ١، الناشر: دار الهجرة - اليمن.

✽ النبذة الشريفة النفيسة في الرد على القبوريين، الشيخ حمد بن ناصر آل معمر، تحقيق: عبد السلام بن برجس، ط. دار العاصمة - الرياض.

✽ جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية، د. شمس الدين الأفغاني، ط. دار الصمعي - الرياض.

✽ مجانية أهل الثبور المصلين في المشاهد وعند القبور، عبد العزيز بن فيصل الراجحي، مكتبة الرشد - الرياض.

✽ الآيات البينات في عدم سماع الأموات عند الحنفية السادات لنعمان بن محمد الألوسي، تحقيق: محمد بن ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي - بيروت.

🔸 كتب في ذم الغلو بالصالحين

✽ السيف المسلول على عابد الرسول، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم.

✽ هذه مفاهيمنا، صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

✽ قطر الولي على حديث الولي، أحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: السيد يوسف أحمد، الناشر: دار الكتب العلمية.

✽ سيف الله على من كذب على أولياء الله، صنع الله بن صنع الله الحلبي الحنفي، تحقيق: علي رضا بن عبد الله بن علي رضا، الناشر: مدار الوطن - الرياض.

✽ الأجوبة الجليلة على الأسئلة الكويتية، حمود بن عبد الله التويجري، ط. مكتبة المعارف - الرياض.

✽ دمة على التوحيد، (مجموعة بحوث علمية في مظاهر الغلو بالقبور في العالم الإسلامي)، ط. المنتدى الإسلامي - لندن.

✽ أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية، د. ناصر بن عبد الله القفاري، ط. مدار الوطن - الرياض.

✽ معجم اصطلاحات الصوفية، عبد الرزاق الكاشاني، تحقيق وتعليق: د. عبد العال شاهين، الناشر: دار المنار - القاهرة.

✽ كتب الحديث وما يلحق بها

✽ فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: جماعة من المحققين، ط. دار الغرباء الأثرية - المدينة.

✽ سنن النسائي الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض.

✽ صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: الشيخ شعيب الأرناؤوط، ط. مؤسسة الرسالة- بيروت.

✽ صحيح ابن خزيمة، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، ط. المكتب الإسلامي- بيروت.

✽ سنن الدارمي، عثمان بن سعيد الدارمي، تحقيق: د. مصطفى بن ديب البغا، الناشر: دار القلم- دمشق.

✽ المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: أيمن صالح شعبان والسيد أحمد إسماعيل، الناشر: دار الحديث- القاهرة.

✽ المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم، أبي نُعَيْم، أحمد بن عبد الله الأصبهاني، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي، ط. الأولى، دار الكتب العلمية- بيروت.

✽ السنن الكبرى، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد بن عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية- بيروت.

✽ شرح السنة، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط، ط. المكتب الإسلامي- بيروت.

✽ عجلة الراغب المتمني في تخريج عمل اليوم والليلة لابن السني، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، ط. دار ابن حزم- بيروت.

✽ الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، عبد الله بن أبي شيبة، تحقيق: محمد

عبد السلام شاهين، الناشر: مكتبة دار الباز، مكة.

✽ المصنف، عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، ط.
المكتب الإسلامي - بيروت.

✽ مسند أبي عوانة، أبو عوانة، يعقوب بن إسحاق الإسفراييني، تحقيق: أيمن
عارف الدمشقي، ط. دار المعرفة - بيروت.

✽ مسند أبي داود الطيالسي، أبو داود الطيالسي، تحقيق: د. محمد بن
عبد المحسن التركي، ط. دار هجر - مصر.

✽ الأحاديث المختارة، الضياء المقدسي، تحقيق: د. عبد الملك بن دهيش،
طبع دار خضر - بيروت.

✽ الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: سمير بن أمين
الزهيري، ط. مكتبة المعارف - الرياض.

✽ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، تحقيق: عمر بن غرامة العمري، ط. دار
الفكر - بيروت.

✽ شعب الإيمان، أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول،
ط. ١، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

✽ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نُعَيْم الأصفهاني، تحقيق: مصطفى
عبد القادر عطا، ط. دار الكتب العلمية - بيروت.

✽ فضل الصلاة على النبي ﷺ، إسماعيل بن إسحاق القاضي، تحقيق: الشيخ

محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت.

✽ دلائل النبوة، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: د. عبد المعطي أمين قلعجي، ط. دار الكتب العلمية - بيروت.

✽ الزهد، أحمد بن حنبل، تحقيق: يحيى بن محمد الأزهرى، ط. ٢، الناشر: دار ابن رجب - مصر.

✽ الزهد، هناد بن السري، تحقيق: عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي، ط. دار الخلفاء للكتاب الإسلامي - الكويت.

✽ كتاب العظمة، أبو الشيخ، عبد الله بن محمد الأصبهاني، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

✽ جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله النمري، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، ط. دار ابن الجوزي - الدمام.

✽ المدخل إلى السنن الكبرى، الحافظ البيهقي، تحقيق: د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، ط. دار أضواء السلف - الرياض.

✽ الدرة الثمينة في أخبار المدينة، ابن النجار، محمد بن محمود البغدادي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، سنة ١٤٢٤، ط. مكتبة دار الزمان - المدينة.

✽ كتب الأحاديث الضعيفة

✽ كتاب الموضوعات من الأحاديث المرفوعات، ابن الجوزي، تحقيق: د. نور الدين بن شكري، ط. دار أضواء السلف - الرياض.

✽ العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، ابن الجَوْزِي، عناية: خليل الميس، دار الكتب العلمية - بيروت.

✽ المسند الضعيف، محمد بن عمرو العقيلي، تحقيق: كامل عويضة، ط. مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة.

✽ المقاصد الحسنة في ما اشتهر على الألسنة، محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق: محمد عثمان الخشت، ط. دار الكتاب العربي - بيروت.

✽ اللآلئ المصنوعة من الأحاديث الموضوعة، جلال الدين السيوطي، تخريج: صلاح محمد محمد عويضة، ط. دار الكتب العلمية - بيروت.

✽ التحديث بما قيل: لا يصح فيه حديث، د. بكر بن عبد الله أبو زيد، ط. دار الهجرة - الثقبه.

✽ نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول، ابن القيم، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، ط. دار العاصمة - الرياض.

📖 كتب السيرة

✽ سيرة ابن إسحاق، المسماة بـ (كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي)، تحقيق: محمد حميد الله.

✽ الطبقات الكبرى، محمد بن سعد الزهري، تحقيق: رياض عبد الله عبد الهادي، ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت.

✽ الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض بن موسى اليحصبي،



تحقيق: محمد العلاوي، ط. دار ابن رجب - مصر.

✽ وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، علي بن عبد الله السمهودي، ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت.

✽ كتب الاعتصام بالسنة والحذر من البدعة

✽ الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع، جلال الدين السيوطي، تحقيق: مشهور حسن سلمان، ط ٢، الناشر: دار ابن القيم - الدمام.

✽ البدع والنهي عنها، ابن وضاح القرطبي، تحقيق: عمرو عبد المنعم سليم، ط. مكتبة ابن تيمية - القاهرة.

✽ كتاب الحوادث والبدع، أبو بكر الطرطوشي، تحقيق: علي بن حسن الحلبي، ط. دار ابن الجوزي - الدمام.

✽ الباعث على إنكار البدع والحوادث، أبو شامة المقدسي، تحقيق: بشير عيون، ط. دار المؤيد - الرياض.

✽ كتب الفقه

✽ المغني، ابن قدامة المقدسي، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط. دار هجر - مصر.

✽ زاد المعاد، ابن القيم، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط وشعيب الأرناؤوط، ط. مؤسسة الرسالة - بيروت.

✽ الجنائز، محمد بن ناصر الدين الألباني، ط. مكتبة المعارف، طبعة سنة ١٤١٢هـ.

📖 كتب الإيمانيات

✽ الداء والدواء، ابن القيم، تحقيق: علي بن حسن بن عبد الحميد، ط. ٩، الناشر: دار ابن الجوزي - الدمام.

✽ مدارج السالكين، ابن القيم، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر الجليل، ط. دار طيبة - الرياض.

✽ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والريادة، ابن القيم، تحقيق: علي بن حسن، ط. دار ابن عفان - الخبر.

✽ كتاب الدعاء، عبد الله الخضير، الناشر: مدار الوطن - الرياض.

📖 كتب التاريخ والتراجم

✽ تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، تحقيق: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت.

✽ البداية والنهاية، عماد الدين ابن كثير، ط. دار ابن كثير - دمشق.

✽ سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط. مؤسسة الرسالة - بيروت.

✽ تاريخ الإسلام، شمس الدين الذهبي، تحقيق: بشار عواد معروف، الناشر:

دار الغرب الإسلامي - بيروت.

📖 كتب الرجال

✽ العلل ومعرفة الرجال، أحمد بن حنبل، دار الخاني، تحقيق: وصي الله بن

محمد عباس، دار القبس - الرياض.

✽ المغني في الضعفاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق: حازم القاضي، ط. دار

الكتب العلمية - بيروت.

✽ كتاب المجروحين من المحدثين، ابن حبان البستي، تحقيق: حمدي بن

عبد المجيد السلفي، ط. دار الصميعي - الرياض.

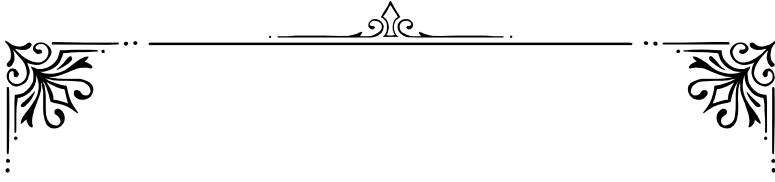
✽ الكامل، ابن عدي، عبد الله بن أحمد الجرجاني، تحقيق: محمد أنس

مصطفى الخن، ط. الرسالة العالمية - بيروت.

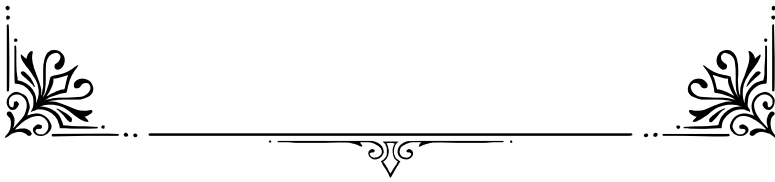
✽ موسوعة أقوال أبي الحسن الدارقطني، إعداد جماعة من المحققين، ط.

عالم الكتب - بيروت.





فهرست مواضيع الكتاب



فهرست مواضيع الكتاب

٣	مقدمة.....
٨	التوحيد، تعريفه وبيان أنواعه.....
٨	تعريف التوحيد:.....
٨	أقسام التوحيد:.....
١٠	النوع الأول من أنواع التوحيد: توحيد الربوبية.....
١٠	تعريف توحيد الربوبية.....
١١	فصل في بيان ما يُناقض توحيد الربوبية.....
١١	فصل.....
١٢	فصل.....
١٣	النوع الثاني من أنواع التوحيد: توحيد الألوهية (أو توحيد العبادة).....
١٣	تعريفه.....
١٣	أدلة وجوبه.....
١٦	توحيد العبادة هو دعوة جميع الأنبياء.....
١٦	أهمية توحيد العبادة.....
٢١	لطيفة.....
٢٢	فصل في بيان ما يناقض توحيد الألوهية (العبادة).....



- فصل في ذكر البراهين الشرعية والعقلية على بطلان الشرك في عبادة الله ٢٢
- وأما البراهين العقلية على بطلان الشرك فكثيرة، منها: ٢٣
- فصل ٢٤
- فصل ٢٥
- فصل ٢٨
- فصل ٣١
- بيان أن القرآن كله دعوة إلى التوحيد ٣٤
- النوع الثالث من أنواع التوحيد توحيد الأسماء والصفات ٣٦
- تقسيم آخر للتوحيد ٣٦
- العبادة، تعريفها وشروط قبولها ٤٠**
- عبادة الله ﷻ هي الغاية من خلق الجن والإنس ٤٠
- تعريف العبادة ٤٠
- ركنا العبادة ٤١
- تحقيق العبادة ٤٢
- شروط قبول العبادة ٤٣
- تفصيل في الشرط الثاني من شروط العبادة ٤٤
- نوعا العبادة ٤٦
- مقدمة في بيان حقوق الصالحين، وبيان ما يضادها ٤٨**
- فصل ٥٠
- طاعة النبي ﷺ وأحوال الناس فيها ٥١
- الصلاح والفسق أمران نسيان ٥٢

٥٣	حقوق الصالحين.....
٥٣	تعريف الولي والولاية.....
٥٦	لوازم الولاية.....
٥٦	لوازم الولاية أمران:.....
٥٦	تفاوت أولياء الله في الولاية.....
٥٨	أفضل الأولياء.....
٥٩	أولى الناس بوصف الولاية.....
٥٩	الأولياء ليس لهم ميزة.....
٦٠	الأولياء ليسوا بمعصومين.....
٦١	الولاية والصّلاح أمر قلبي غيبي لا يعلمه إلا الله.....
٦٢	مفاهيم خاطئة عن الولاية.....
٦٤	حقيقة معاداة أولياء الله.....
٦٥	ذكر طرف من قصص الخُرَافة والخُرَافيين في مسألة الكرامة والولاية.....
٦٦	تعريف الكرامة.....
٦٦	الإيمان بالكرامات من عقيدة المسلمين.....
٦٧	الكرامات ليست دليلاً على كمال الولاية لله وإنما تحصل بحسب الحاجة.....
٦٨	كرامات الأولياء تُعتبر من جملة آيات الأنبياء.....
٦٨	كرامات الأولياء لا يُقصد بها التحدي، بخلاف آيات الأنبياء.....
٦٨	الكرامات قد تكون للابتلاء.....
٦٩	حصول الكرامة لأحد لا يُسوّغ الغلو فيه.....
٧٠	الناس في الكرامات ثلاثة أصناف.....

- ٧١ الفرق بين الكرامات الإلهية والأحوال الشيطانية
- وجوب الحذر من الأحوال الشيطانية، وبيان أن الكرامات لا تكون بالحيل
- ٧٤ الطبيعية ولا في أماكن البدع
- ٧٥ كيف يُميز المسلم بين الخوارق الشيطانية والكرامات الرحمانية؟
- ٧٦ كرامات الصحابة وأهل القرون الثلاثة أكثر ممن بعدهم، لصالحهم
- ٨٠ مجاوزة الحد الشرعي في تعظيم الصالحين (الغلو فيهم)
- ٨٠ مقدمة
- ٨٦ فصل في النهي عن الغلو
- ٩١ أحوال الناس في تعظيم الصالحين
- ٩١ تحذير النبي ﷺ أمته من الغلو
- ٩٨ فصل في اتباع الصحابة لنبيهم في اجتناب الغلو في الأنبياء والصالحين
- ١٠٤ فصل في بيان مظاهر الغلو في الأنبياء والصالحين
- ١١١ فصل في بيان معنى كلمة «مسجد»
- ١١١ معنى جملة: اتخاذ القبور مساجد
- ١١٢ أحوال الذين يتخذون القبور مساجد مع القبور
- ١١٢ الذين يتخذون القبور مساجد لهم حالتان:
- ١١٢ فصل في بيان علة النهي عن الصلاة عند القبور
- ١١٨ فصل في بيان أدلة النهي عن اتخاذ القبور مساجد
- ١٣٩ خلاصة
- ١٤٠ فصل في ذكر أقوال بعض أئمة الإسلام في حكم الصلاة عند القبور

صور اتخاذ القبور مساجد، وبيان تحريم ذلك أيًا كان مكان القبر من المصلي

١٤٢

١٤٣ تنبيه:

١٤٣ تنبيه آخر:

١٤٤ فصلٌ في بيان حكم الصلاة عند القبور من جهة صحتها أو بطلانها

١٤٦ استثناء

١٤٧ شبهة والجواب عنها

١٤٩ شبهة أخرى

١٥١ فائدة

المظهر الثاني: بناء المساجد على القبور ١٥٣

١٥٥ فصل في بيان أدلة النهي عن بناء المساجد على القبور

فصل في بيان أن بناء المساجد على القبور محرمٌ في المذاهب الأربعة، بل قد أجمع

١٥٩ العلماء على تحريمه

١٦٠ مذهب الأحناف

١٦٠ مذهب المالكية

١٦١ مذهب الشافعية

١٦٢ مذهب الحنابلة

١٦٩ شبهاتٌ والجواب عنها

١٧٢ وخلاصة القول في جواب هذه الشبهة ثلاثة أمور:

١٧٣ والجواب على هذا من وجهين:

١٨١ واجبُ المسلمين تجاه المساجد المبنية على القبور



خلاصة في بيان المفاسد المترتبة على اتخاذ القبور مساجد وبناء المساجد عليها

١٨٢

المظهر الثالث: بناء الغرف والقبب ونحوها على القبور ١٨٤

١٨٧ مقدمة

١٨٩ أدلة النهي عن البناء على القبور

خاتمة للمظاهر الثلاثة المتقدم ذكرها ١٩٥

المظهر الرابع: رفع تراب القبر ١٩٧

١٩٩ مقدمة

١٩٩ أدلة النهي عن رفع تراب القبور

٢٠٢ فإن قيل: فما هو المشروع إذن في قبر الميت من الداخل؟

ظهر الخامس: اتخاذ السرج على القبور ٢٠٣

٢٠٥ مقدمة

٢٠٦ فصل في ذكر أقوال بعض أئمة الإسلام في اتخاذ السرج على القبور

٢٠٦ فائدة:

٢٠٧ تنبيه

فإن قيل: ما حكم الإنارة بالسراج ونحوه في حالة الدفن بالليل لرؤية الطريق

ومكان الدفن ونحو ذلك؟ ٢٠٧

المظهر السادس: مظاهر متنوعة من مظاهر تعظيم القبور ٢٠٨

٢١١ مقدمة

المظهر السابع: دفن خواص الناس في قبور خاصة وليس في مقابر المسلمين ٢١٥

المظهر الثامن: دعاء أصحاب القبور ٢١٩

تأصيلاتٌ علميَّةٌ تتعلق بعبادة الدعاء	٢٢١
مكانةُ الدُّعاء بين سائر العبادات	٢٢١
فصلٌ في الأمر بدعاء الله وحده والنهي عن دعاء غيره	٢٢٤
فصلٌ في بيان بعض أنواع الدعاء (الاستغاثة، الاستعاذة، الاستعانة)	٢٢٩
١- الاستغاثة، تعريفها، وبيان نَوْعَيْهَا الشرعي والشركي	٢٣٠
٢- الاستعاذة، تعريفها، وبيان نوعيها الشرعي والشركي	٢٣٣
٣- الاستعانة، تعريفها، وبيان نوعيها الشرعي والشركي	٢٣٥
وكذلك الاستعانة، وهي نوعان:	٢٣٥
فصلٌ في بيان أدلة بطلان دعاء غير الله	٢٣٧
المظهر التاسع: طلب الدعاء من صالحي الموتى	٢٣٩
شبهاتٌ والجوابُ عليها	٢٤٦
والجواب عن هذا الإشكال من سبعة وجوه:	٢٥٣
وهذه الشبهة مردودة من اثنتي عشرة وجهًا:	٢٦٩
خلاصة في مسألة اتصال الروح بالجسد	٢٨٣
تنبيه:	٢٨٩
تنبيه	٣٠٢
تنبيه آخر	٣٠٢
فائدة في مراحل الرُّوح	٣٠٤
إنه من المتقرر شرعًا وعقلًا أن روح الإنسان تمر بخمسة مراحل	٣٠٤
المظهر العاشر: التوسل بالموتى من الأنبياء والصالحين	٣٠٥
مقدمة تأصيليَّة لفهم التوسل الشرعي	٣٠٧



فائدة:	٣٠٩
أنواع التوسل الشرعي	٣١٠
والتوسل الشرعي يكون بثلاثة أمور	٣١٠
بيان التوسل البدعي وأدلة بطلانه	٣١٩
تنبيه	٣٢٦
كلامٌ جامعٌ في معنى الوسيلة وأنواع التوسل	٣٢٧
شبهاتٌ والجوابُ عليها	٣٣١
تنبيه	٣٣٣
خلاصة في الأحاديث الواردة في فضل التوسل بجاه المخلوقين من الأنبياء والصالحين	٣٨٩
المظهر الحادي عشر: دعاء الله عند قبور الصالحين	٣٩٣
تمهيد	٣٩٥
فصلٌ في بيان أن تحرّي إجابة دعاء الله عند القبور باطلٌ	٣٩٨
وتحرّي إجابة الدعاء عند القبور باطلٌ من خمسة وجوه:	٣٩٨
ذكر قول الإمام مالك وغيره من العلماء في مسألة تحري الدعاء عند القبور	٤٠٥
خلاصة	٤٠٧
فصل في بيان الأسباب الشرعية لإجابة الدعاء	٤٠٩
وأسباب إجابة الدعاء ستة أنواع:	٤٠٩
النوع الأول: سبب متعلق بذات الداعي	٤٠٩
النوع الثاني: أسباب تتعلق بعبادة قام بها الداعي، وعددها تسعة	٤١١
فائدة:	٤١٢

النوع الثالث: أسباب متعلقة بحال الداعي، وعددها خمسة.....	٤١٥
تنبيه.....	٤١٧
تنبيه آخر.....	٤١٨
النوع الرابع: أسباب متعلقة بزمن الدعاء، وعددها خمسة.....	٤١٨
وقد جاء في تعيين تلك الساعة حديثان:.....	٤١٩
النوع الخامس: أسباب زمانية مكانية، وهما اثنتان.....	٤٢٣
النوع السادس: أسباب متعلقة بآداب الدعاء، ورؤوسها أربعة عشرة.....	٤٢٣
فائدة في أسباب إجابة الدعاء من كلام ابن القيم رحمه الله	٤٣٨
شبهات والجواب عنها.....	٤٤١
خاتمة الفصل وخلاصته.....	٤٤٩

المظهر الثاني عشر: السفر إلى القبور.....٤٥٠

أدلة النهي عن السفر إلى القبور.....	٤٥٣
تنبيهات مهمة.....	٤٦١
خلاصة في مسألة زيارة المسجد النبوي.....	٤٦٣
فصل في بيان ما آل إليه السفر إلى القبر عند من أجازوا ذلك.....	٤٦٦
فصل في بيان بعض شبه القائلين بجواز السفر لزيارة القبور والرد عليها.....	٤٦٨
خلاصة.....	٤٩٧
تنبيه:.....	٤٩٨

المظهر الثالث عشر: اتخاذ القبور أعيادًا.....٤٩٩

توضيح معني (اتخاذ القبور أعيادًا) وحكمه.....	٥٠١
أدلة النهي عن كثرة معاودة القبور.....	٥٠٢



- ٥١٣ شبهات والجواب عليها
- ٥٢١ خلاصة
- ٥٢٣ المظهر الرابع عشر: العكوف عند القبور
- ٥٢٩ المظهر الخامس عشر: الذبح لأصحاب القبور
- ٥٣١ الذبح عبادة
- ٥٣٤ الذبح عبادة وقربة، لا يجوز صرفه لغير الله ﷻ
- ٥٣٥ أدلة تحريم الذبح لغير الله
- ٥٤١ فصل
- ٥٤٣ مظاهر معاصرة للذبح لغير الله
- ٥٤٥ فصل في بيان أنواع الذبح
- ٥٤٨ استطراد
- ٥٥١ المظهر السادس عشر: الطواف حول القبور
- ٥٥٥ المظهر السابع عشر: الحلف بالصالحين
- ٥٥٧ مقدمة في أدلة تحريم الحلف بغير الله
- ٥٦٢ فصل في بيان إجماع العلماء على تحريم الحلف بغير الله
- ٥٦٤ ذكر أنموذج من نماذج الحلف بأصحاب القبور
- ٥٦٥ شبهة والجواب عليها
- ٥٦٧ فائدة
- ٥٦٩ المظهر الثامن عشر: النذر لأصحاب القبور
- ٥٧١ تأصيل: النذر عبادة، وصرفه لغير الله شرك
- ٥٧٢ أقسام النذر

النذر لغير الله من المسائل التي أجمع علماء المسلمين على تحريمها	٥٧٤
كلام الأحناف	٥٧٤
كلام المالكية	٥٧٥
كلام الشافعية	٥٧٧
كلام الحنابلة	٥٧٨
المظهر التاسع عشر: اتخاذ الله واسطة بين المخلوق والمخلوق	٥٨١
المظهر العشرون: خوف السر من أصحاب القبور	٥٨٥
المظهر الحادي والعشرين: تصوير الصالحين على هيئة تماثيل	٥٨٩
المظهر الثاني والعشرين: التبرك بقبور الصالحين	٥٩٩
مقدمة تأصيلية	٦٠١
فصل في بيان أقسام التبرك المشروع والتبرك الممنوع	٦٠٣
ثلاث تنبيهات تتعلق بمسألة التبرك بآثار النبي ﷺ	٦٠٩
التنبيه الأول:	٦٠٩
التنبيه الثاني:	٦١١
التنبيه الثالث:	٦١٢
فوائد تتعلق بالتبرك الممنوع بالذوات	٦١٤
وفي هذا الحديث من الفوائد؛ التغليظ على مَنْ طلب البركة من الجمادات ..	
.....	٦١٥
ذكر شيء من مظاهر التبرك الممنوع	٦٢٠
فصل في بيان أدلة النهي عن التبرك بالقبور بالتمسح بها وتقبيلها	٦٢٣
الأدلة على تحريم التبرك بالجمادات كالقبور وغيرها كثيرة، منها ما يلي:	٦٢٣



- فصلٌ في ذكر كلام علماء المذاهب في ذم التمسح بالقبور ٦٢٧
- قول الحنفية ٦٢٧
- قول المالكية ٦٢٧
- قول الشافعية ٦٢٨
- قول الحنابلة ٦٢٩
- تنبيهات في مسألة التبرك بالجمادات ٦٣٣
- التنبيه الأول في حكم التبرك بالجمادات ٦٣٣
- التنبيه الثاني في حكم التمسح بالكعبة ٦٣٣
- شبهات والجواب عليها ٦٤٠
- تنبيه ٦٤٨
- خلاصة القول في مسألة التبرك ٦٥٦
- خلاصة القول في مسألة التبرك ثلاثة أمور: ٦٥٦
- المظهر الثالث والعشرين: تعظيم الأماكن التي مرَّ بها الأنبياء ٦٥٧**
- أدلة النهي عن تعظيم الأماكن التي مرَّ بها الأنبياء أو صَلَّوْا عندها ٦٦٠
- ففي هذين الأثرين عن عمر يتبين لنا أربعة أمور: ٦٦٤
- تقريرات لبعض أهل العلم في باب تحريم تعظيم الأماكن التي مرَّ بها الأنبياء ٦٦٨
- تنبيهان ٦٧١
- تنبيه يتعلق بزيارة مساجد معينة في المدينة النبوية غير المسجد النبوي ومسجد قباء ٦٧١
- تنبيه يتعلق بتعظيم غار حراء الذي كان يتعبد فيه النبي ﷺ قبل بعثته ٦٧٢
- ضوابط وكلمات جامعة في باب تعظيم بعض الأماكن ٦٧٨

٦٨٠	شبهاتٌ والجوابُ عليها
٦٨٨	خلاصة
٦٩١	المظهر الرابع والعشرين: دعوى الربوبية في الصالحين
٧٠٣	المظهر الخامس والعشرون: ادعاء علم الغيب، من الكهان وغلاة الصوفية
٧٠٦	تمهيد: اختصاص الله بعلم الغيب
٧٠٨	الغيب قسمان:
٧١٠	الحكمة من إطلاع الله نبيه ﷺ على بعض المغيّبات
٧١١	مِمَّنْ يَدَّعي علم الغيب الكُهَّان والعَرَّافون
٧١٣	مصادر الكهان في ادعاء علم الغيب
٧١٧	أدلة اتصال الكهان بالشياطين والجن
٧٢٣	ادِّعاء غُلاة المتصوفة لعلم الغيب
٧٢٥	ممن يَدَّعي علم الغيب المُنْجَمون
٧٣٣	بابٌ في النهي عن إتيان الكهنة والعَرَّافين والمنجمين
٧٣٥	التفصيل في حكم سؤال الكاهن
٧٣٥	استثناء - حكم اختبار الكاهن من قِبَل ولي الأمر أو نائبه
٧٣٧	حكم الإخبار عن بعض الأمور المستقبلية بطريق الحساب
٧٣٩	تكذيب الكهنة والعَرَّافين بالدليل العقلي
٧٤٧	مما يلتحق بالكهانة؛ الطُّرُق وقراءة الفنجان والعيافة والطَّيرة
٧٥٠	قراءة الفنجان
٧٥١	العيافة والطَّيرة
٧٥٩	فصل



- ٧٦٠ تنبيه إلى الفرق بين التطير والتفاؤل
- ٧٦٢ فائدة تتعلق بموضوع التطير ذكرها ابن القيم رحمه الله
- ٧٦٤ فصل
- ٧٦٤ فائدة أخرى
- ٧٦٧ أمثلة من الواقع على نسبة علم الغيب لغير الله
- ٧٦٨ والملاحظ على هذه الأبيات من القصيدة أمور:
- ٧٧٠ خلاصة البحث
- ٧٧٣ **ذكر أحاديث ضعيفة تفيد اتصال الموتى بعلم الأحياء**
- ٧٧٥ قاعدة:
- ٧٧٧ عشرة أحاديث ضعيفة في تقرير عرض الأعمال على الموتى
- ٧٧٧ وقد وردت أحاديث في اطلاع الموتى على سعي الأحياء، فمن ذلك:
- ٧٧٧ الحديث الأول
- ٧٧٨ الحديث الثاني
- ٧٧٨ الحديث الثالث
- ٧٧٩ الحديث الرابع
- ٧٨٠ الحديث الخامس
- ٧٨٢ الحديث السادس
- ٧٨٧ الحديث السابع
- ٧٨٧ فالجواب عن هذا الحديث من ثلاثة وجوه:
- ٧٨٨ الأثر الثامن
- ٧٨٩ الحديث العاشر

الأثر الحادي عشر	٧٩٢
فصلٌ في بيان أحاديث تفيد شعور الموتى بمن حولهم من الأحياء وسماعهم لهم	
وبيان حال تلك الأحاديث	٧٩٣
الحديث الأول	٧٩٣
الحديث الثاني	٧٩٨
الحديث الثالث	٧٩٩
الأثر الرابع	٨٠٢
الأثر الخامس	٨٠٣
الحديث السادس	٨٠٣
الحديث السابع	٨٠٤
والجواب من ثلاثة وجوه:	٨٠٤
فالجواب:	٨١١
الحديث الثامن	٨١٢
الأثر التاسع	٨١٣
الحديث العاشر	٨١٦
الحديث الحادي عشر	٨١٧
الحديث الثاني عشر	٨١٨
الحديث الثالث عشر	٨١٩
الحديث الرابع عشر	٨٢١
الحديث الخامس عشر	٨٢١
الحديث السادس عشر	٨٢٢



- الحديث السابع عشر ٨٢٥
- الحديث الثامن عشر ٨٢٦
- الحديث التاسع عشر ٨٢٧
- الأثر العشرون ٨٢٨
- الحديث الحادي والعشرون ٨٢٩
- ذكر حديث ضعيف في التقاء أرواح الموتى بعضها ببعض واستخبارها عن أرواح
الأحياء ٨٣٠
- تنبيه على حديثين موضوعين يُقرران الغلو بالنبي ﷺ ٨٣٣**
- شبهة ٨٣٧
- الكلام على ما يسمى بالأبدال والنقباء والأوتاد والنجباء والأقطاب ٨٤١**
- الأبدال ٨٤٣
- النقباء ٨٤٧
- النجباء ٨٤٨
- الأوتاد ٨٤٩
- الأقطاب ٨٥٠
- كلام جامع لابن تيمية رحمته الله في الأبدال والنجباء والنقباء والأوتاد والأقطاب ٨٥٢
- قال ابن تيمية رحمته الله: ٨٥٢
- توضيح مصطلح «المُحدَث» ٨٥٣
- قال ابن تيمية رحمته الله: ٨٥٤
- المراحل التي مر بها الفكر القبوري ٨٥٩**
- المرحلة الأولى - نشأة الناس على التوحيد ثم طرأ فيهم الشرك ٨٦١

- المرحلة الثانية - انتشار الشرك في الأرض بعد نشوئه ٨٦٣
- المرحلة الثالثة - انحسار الفكر القبوري ببعثة النبي محمد ﷺ ٨٦٣
- المرحلة الرابعة - ظهور الحركات الباطنية ٨٦٤
- ثم قال إخوان الصِّفا: ٨٦٧
- فصل ٨٦٧
- وقال الباحث سالم بن قطوان العبدان: ٨٦٩
- ثم تابعت قائلة عن أوائل الأضرحة ذات القباب: ٨٧٣
- ثم تابع خالد محمد حامد قائلاً: ٨٧٣
- ثم قال الباحث المذكور: ٨٧٤
- المرحلة الخامسة، ظهور أضرحة الرؤيا ٨٧٦
- قال الباحث خالد محمد حامد: ٨٧٦
- خرافة تحديد قبر (الولي) ٨٧٨
- المرحلة السادسة - ظهور القبور المكذوبة ٨٨٠
- المرحلة السابعة - مرحلة نسج كرامات مكذوبة حول القبور المعظمة ٨٨١
- المرحلة الثامنة والأخيرة - اختلاق شخصيات مكذوبة ثم إنشاء أضرحة على قبورهم ٨٨٤
- قال مُقَيِّدُهُ عفا الله عنه: ٨٨٤
- وصف مختصر لواقع الفكر القبوري في الأمة الإسلامية ٨٨٥
- عوامل بقاء الفكر القبوري ٨٩٣
- أثر تعظيم القبور والأضرحة على الأمة من الناحية الدنيوية ٩٢١
- التحذير من الوقوع في الشبهات ٩٢٥



- ٩٢٩ تعريف الشبهة
- ٩٣٠ كيف تنشأ الشبهات؟
- ٩٣١ لكل شبهة جواب
- ٩٣٢ الشبهات تتجدد ولا حد لها
- ٩٣٣ استبانة طريق المجرمين والمبتدعين وكشف شبههم من أعظم ما جاء به شرعنا الحنيف
- ٩٣٤ عند ظهور الشبهات تتجلى حكمة الابتلاء للمؤمنين، ويظهر الدين
- ٩٣٥ أقسام من يروج الشبهات
- ٩٣٨ أخطر الشبه هي الشبه المتعلقة بالاعتقاد
- ٩٣٩ وجوب الحذر من الشبهات وعدم الاستشراف لها
- ٩٤٠ واجب ولادة الأمر من العلماء والأمراء تجاه من يروجون الشبهات
- ٩٤٣ علاج الشبه يكون بالرجوع إلى العلماء الربانيين، المتبعين للكتاب والسنة وفق فهم السلف الصالح
- ٩٤٥ أهل الباطل يخلطون شبههم بشيء من الحق ليروج بين الناس
- ٩٤٧ الذب عن الدين والرد على شبه أهل الباطل من أفضل أنواع الجهاد في سبيل الله
- ٩٤٨ عناية العلماء في القديم والحديث برد شبه أهل الباطل
- ٩٤٩ ثبت يتضمن أهم الكتب التي تُعنى بالرد على الشبهات المتعلقة بتوحيد العبادة

٩٥٥ مظاهر إهانة القبور

- ٩٥٧ ومظاهر إهانة القبور أربعة:

ما يُشرع للموتى من حقوق على إخوانهم الأحياء ٩٦١

بيان ما يُشرع للموتى من حقوق على إخوانهم الأحياء ٩٦٣

فصلٌ في بيان زيارة القبور الشرعية والبدعية ٩٦٧

شرع النبي ﷺ لأئمة زيارة القبور لقصد العبرة والاتعاظ وتذكر الموت، ومما

يُشرع أيضًا السلام على الموتى والدعاء لهم عند دخول المقبرة، فعن أبي هريرة

رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «زُورُوا القبورَ، فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الموتَ». ٩٦٧

فائدة في أنواع زيارة القبور ٩٧٢

ملحق تابع للمظهر الثامن (٥٠ دليلًا على بطلان دعاء غير الله) ٩٧٣

فصل ٩٨١

كلام الحنفية ٩٨٢

تحذير وإرشاد ٩٨٧

تنبيه: ١٠٠٥

خلاصة ١٠٥٦

خاتمة الملحق ١١٠٢

خاتمة الكتاب ١١٠٣

خاتمة الكتاب ١١٠٣

ثبت مراجع الكتاب ١١٠٥

ثَبَّتْ لأهم المراجع مما لم يُذكر في هوامش الكتاب ١١٠٧

عقيدة - كتب العقيدة المُسندة ١١٠٧

كتب في العقيدة - عام ١١٠٧

كتب في التبرك الشرعي والبدعي ١١١٠



- ١١١١ كتب في الزيارة الشرعية والبدعية
- ١١١١ كتب في ردّ الشبهات
- ١١١٢ كتب في حكم اتخاذ القبور مساجد
- ١١١٢ كتب في ذم الغلو بالصالحين
- ١١١٣ كتب الحديث وما يُلحق بها
- ١١١٦ كتب الأحاديث الضعيفة
- ١١١٧ كتب السيرة
- ١١١٨ كتب الاعتصام بالسنة والحذر من البدعة
- ١١١٨ كتب الفقه
- ١١١٩ كتب الإيمانيات
- ١١١٩ كتب التاريخ والتراجم
- ١١٢٠ كتب الرجال

١١٢١ فهرست مواضيع الكتاب

١١٢٣ فهرست مواضيع الكتاب

